واسيني

أسرار البيت الأندلسي

رواية

دار الآداب

أسْرارُ البيتِ الأندلُسي

واسيني الأعرج

أسْرارُ البيتِ الأندلُسي

رواية

دار الآداب - بيروت

أسْرارُ البيتِ الأندلُسي

واسيني الأعرج/روائيّ جزائريّ
الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2019
ISBN 978-9953-89-648-9

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or trasmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

إن البيوت الخالية تموت يتيمة

غليليو الروخو (سيدي أحمد بن خليل)

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شانُ

أبو البقاء الرندي

نشرت هذه الرواية في سنة 2010 بالجزائر وبيروت والأردن والسودان، ودمشق، تحت عنوان: البيت الأندلسيّ. وحصلت على رواية السنة وقتها، وتمَّ تكريم الكاتب بجائزة شخصيَّة السنة في الجزائر، كما وصلت إلى القائمة الطويلة في جائزة البوكر العربيَّة. تُرجمت الى لغات كثيرة منها الدانماركيَّة، الفرنسيَّة، الكرديَّة وغيرها. تصدر اليوم في دار الآداب بعنوانها الأصلي: أسرار البيت الأندلسي.

استخبار ماسيكا

أنا ماسيكا. وإذا شئتم: سيكا بنت *السبنيوليَّة*، كما سمَّاني أصدقائي في المدرسة. لا لأنَّ أمِّي إسبانيَّة، فهي مثلي، نبتة هذه الأرض البحريَّة، ولكن لأنَّ أصولنا موريسكيَّة مثل الآلاف من سكَّان الجزائر. لم أقِم أبدًا في *البيت الأندلسي* ولو يومًا واحدًا، ولست وريثة شرعيَّة، ولا غير شرعيَّة لممتلكاته. ربَّما كان إحساس أمِّي الخفيّ، وجاذبيَّة أصولها البعيدة، هو الذي قادني نحو هذا البيت، ثمَّ نحو هذا الرجل الطيِّب، عمِّي مراد باسطا. أو ربَّما... لأنِّي كنت فقط الأقدر على قراءة الرموز الخفيَّة التي كانت تتذابح في عينيه، وفهمته أكثر ممَّا يفهمه أيُّ شخص آخر، بما في ذلك أعزّ أحفاده.

القصَّة معقَّدة جدًّا، ولكنِّي سأحاول أن أفكِّكها لتصبح مستساغة ومقبولة.

كلُّ شيء بدأ من تلك اللَّحظة الغامضة التي خرجت فيها من الصفّ الطَّلابيّ، ورجعت ركضًا صوبه، بعد أن كان عمِّي مراد باسطا (كنت أناديه عمِّي، وعندما كبرت قليلًا، قال لي ناديني باسمي أحلى) قد شرح لنا قصَّة

البيت الأندلسي[1]، وأظهر لنا المخطوطة ذات الرائحة الغريبة التي ظلَّت عالقة بأنفي، لأنِّي شممت فيها أيضًا رائحة أمِّي. ولا أدري ما هي القوَّة الخارقة التي دفعت بي يوم الحريق المهول الذي أكل البيت الأندلسيّ، إلى القفز من على ظهر الحائط الخلفيّ للحديقة، والانزلاق من النافذة من الكوَّة الصغيرة، لأجد نفسي في عمق دار الخدم التي سكنها دائمًا عمِّي مراد باسطا، وسحب المخطوطة من مكانها الذي كنت أعرفه جيِّدًا، بعد أن اشتعلت النار في ألبستي الخفيفة. أعتقد أنِّي كنت الوحيدة بعد مراد باسطا وربَّما حفيده سليم، من كانت تعرف مكان المخطوطة السرِّيّ. هو الذي نبَّهني إلى مكانها، وهو لا يدري أنَّه سيأتي يوم وأضطرّ فيه لإنقاذها من نهاية مفجعة. وكأنَّ الحرائق لا تجلب إلَّا الحرائق، فقد أنقذتها هذه المرة أيضًا من يديه اليائستين المرتجفتين، فأحرقت أصابعي معها، عندما أشعلها بنفسه في لحظة غياب كلِّيّ. لم أشعر بالألم إلَّا عندما مزَّق قميصه من على ظهره ولفَّ به أصابعي التي انتفخت فجأة. واضطررت للتغيُّب عن المدرسة مدَّة تجاوزت الأسبوعين. لا أدري يومها ماذا حصل لي عندما وضعت يدي على كتفيه، لكنَّني رأيت في عينيه غزالًا مذبوحًا وذئبًا يستيقظ بعد طول غفوة حينما صرخ صرخة مؤذية ما تزال إلى اليوم في رأسي. من تلك اللَّحظة، شعرت بأنَّ مصيري أصبح ملازمًا لمصيره. كنت صغيرة ولم أكن أعرف الأقدار التي كانت تنتظرني. حتى عندما كبرت، ولا أعرف كيف غادرت طفولتي بسرعة، لم أرَ حياتي خارج وجوده. وكان

(1) صدرت هذه الرِّواية أول مرة في 2010، في منشورات الجمل ـ بيروت، بعنوان: البيت الأندلسي، وفازت بجائزة أحسن رواية عربيَّة في التقويم الإعلاميّ العربيّ، لسنة 2010. ووصلت إلى القائمة الطويلة في جائزة البوكر. ثمَّ صدرت لاحقًا بالعنوان نفسه في أماكن عربيَّة متعدِّدة، ومنها الجزائر، والأردن في سلسلة الأسرة، ثمَّ في السودان، وفي بلدان غربية أخرى، قبل أن تصدر بلغات عالميَّة كثيرة، منها الدانماركيَّة، والكرديَّة، ثمَّ باللُّغة الفرنسيَّة في دار أكت سود Actes Sud العريقة.

الناس، عندما يروننا نمشي على حافَّة البحر، ليس بعيدًا عن خليج الغرباء، ويتغامزون فيما بينهم، كنت أشعر بسعادة غريبة لأن يُربط مصيري بحياة هذا الرجل الطيِّب، وكان هو يجد لذةً كبيرة في السُّخرية: شايفة يا سيكا؟ يظنُّوننا عشيقين هائمين على حافَّة البحر، ويتساءلون في أعماقهم كيف استطاع شيخ يائس أن يقتنص أجمل امرأة في المدينة؟ يلتفت نحوهم، كأنَّه يريد أن يغيظهم مثل طفل عنيد، ثمَّ يربت على كتفي وهو يردِّد: حمقى! لو فقط يدرون، ولكنَّهم لا يدرون طبعًا... من كان سيسبقني إلى حبيبتي ماسيكا. لو فقط يعود العمر نصف قرن إلى الوراء؟ أضغط على كفِّه الناعمة، أشعر بامتلاء داخليّ غريب. على الرَّغم من سنّه، لم أشعر أبدًا بأبوّة نحوه تمنعني من الحلم والتَّحليق عاليًا. كان دائمًا قريبًا من القلب، إن لم يكن في عمقه، مثل أيَّة قطعة حيَّة في جسدي. أقول حيَّة، لأنَّنا في زماننا هذا نحمل الكثير من القطع الجسديَّة الميِّتة التي لا نستعملها أبدًا، ونُدفن بها ونحن لم نجرِّب حتى صلاحيَّتها. أقف عند هذا الحدّ، لكيلا أضيف حماقة أخرى إلى سجلّ حياتي المثقل أصلًا.

نمشي قليلًا، ثمَّ نجلس على الحافَّة المقابلة للضفاف الأخرى التي لا نراها، ولكنَّنا نتخيَّلها. يصمت طويلًا قبل أن يترك نفسه تتوغَّل عميقًا في البحر. أسأله:

ـ هل أنت مرتاح؟

لا يجيب. فأدرك بحواسّي المهيَّأة لسماعه، أنَّه يسمعني جيِّدًا وممتلئًا بما في قلبه. أفتح المسجِّل الرَّقميّ وأترك صوته يختلط بصوت البحر، وحكايته بتمزُّق الأمواج الممتلئة بالمبهم والأسئلة المعلَّقة. يستمرّ ساعات طويلة وهو يسترجع خمسة قرون أَفَلت مثل النجمة المحروقة، وكأنَّ أمكنتها وناسها وأوجاعها يركضون أمامه في مشهد تراجيديّ جميل ومنهك للحواس. وعندما ننتهي يذكِّرني بوصيَّته:

ـ ماسيكا. سيكا أخفّ وأحلى وأكثر طفولة.

ـ ناديني مثلما تشتهي.

ـ سيكا... أريد أن أُدفن هنا، في مقبرة ميرامار، التي دشَّنتها حنَّة سلطانة، ثمَّ جدِّي الأوَّل غاليليو الروخو، قبل أن يملأها الذين جاؤوا من بعده. أحبّ هذا المكان، ليس لأنَّ به كلّ الناس الذين أحببتهم، ولكن لأنَّها المقبرة الوحيدة في الدُّنيا التي انمحت فيها كلَّ الأديان. استقبلت المسيحيّ، واليهوديّ، والمسلم، والبوذيّ، وحتى الملحد. هُدم جزؤها الشمالي بيد فاعل، ولكنَّها ما تزال تقاوم الأحقاد وجنون البشر الذين ينامون على يقينٍ وحدهم يصنعونه ويموتون فيه. يفصِّلون داخل الدِّين الواحد، أديانًا على مقاسهم.

لم يتكلَّم يومًا عن منفاه القاسي الذي عاشه ويعيشه وسط ناس لا يشبهونه دائمًا، لكنَّه لم يكن في حاجة إلى ذلك، عيناه كافيتان لفضح نداءات القلب. يبدو أنَّ قسوة المنفى وامتلاءه وأشواقه الدائمة تجاه الناس، علَّمته أن ينسى كلَّ شيء ولا يُبقي في المشهد الجنائزيّ إلَّا الإنسان الذي عرفه وأحبّه.

ـ إلى اليوم، لا أعرف إذا كان جدِّي مسيحيًا أو مسلمًا، ولم أسأل أحدًا لأتأكَّد من ذلك؟ أو إذا كانت سلطانة يهوديَّة أم مسلمة، أم لا هذه ولا تلك؟ وإذا كانت مارينا وسيلينا تدينان بدين معيَّن غير محبَّة الناس؟ أُدْفَنُ هنا، ولا يهمّ بقرب من سأكون. أريد عندما أرفع رأسي أوَّل مرَّة، عندما أستيقظ من غفوة الموت الأولى، ودوخة القبر القاسية التي بها رائحة تشبه رائحة الحمَّامات التركيَّة، والأماكن الرطبة والمغلقة، أريد أن لا أسمع شيئًا سوى صوت تمزُّق الموج، أن لا أرى عندما أفتح عينيَّ، سوى الزرقة المتهادية وخطّ الأفق الأبيض الذي يقود نحو طريق لا أعرف

اتِّجاهه. لن ألتفت نحو الجبل ولا الأدغال، لكي لا أستعيد مرَّة أخرى عصر القَتَلة القدامى والجدد والقادمين، الذين أتوا من لحمي ودمي والذين امتهنوا تربتي. عديني يا سيكا، لم يعد شخص أصدِّقه غيرك...

ـ وعد يا عمِّي مراد باسطا. أمامك سنوات طويلة جدًّا.

ـ شكرًا على محبَّتك، لكنْ عمر نوح انتهى.

يمسِّد على شعري بنعومةٍ خوف خدشي، ثمَّ يلتفت ثانية صوب البحر، ويمدّ نظره بعيدًا باتِّجاه السفن التي تميل نحو الجهة اليسرى لتختفي وراء الميناء القديم، سالكة في مسارها خطّ الأفق الأبيض الذي ظلَّ مفتونًا به.

عندما مات حبيبي باسطا، كان يحلو لي أن أقول له ذلك، فقط لأدفعه إلى أن يحكي قصص نسائه، لكنَّه ظلَّ مغلقًا في هذا الموضوع ولم يحدِّثني ولا في يوم من الأيَّام عمَّن عرفهنَّ في شبابه. حدَّثني عن امرأة إسبانيَّة تعرَّف عليها على الحدود الإسبانيَّة ـ الفرنسيَّة، عندما انضمَّ إلى الفيلق الدوليّ المناصر للجمهوريِّين، ولكنَّه سرعان ما ترك القصَّة مبتورة، ولم يعد لها أبدًا. ترك لي أثقالًا داخليَّة عليَّ تسييرها، لم أدرك مسؤوليَّتها إلَّا عندما افتقدته. بحثت أوَّلًا عمَّن يدفنه معي من أهله، وتنفيذ وصيَّته، فلم أجد أحدًا. سليم كان بعيدًا، في مونتريال التي هاجر نحوها نهائيًّا ولم تعد مجرَّد احتمال. فاضطررت إلى تأخير دفنه يومين، وكتابة وصيّة كاذبة دفنتها بين أوراقه التي تركها وراءه، وجئت بمحامي العائلة وموثِّق، وفتحت أمامهم حقيبته، إذ أقنعتهم أنَّه ترك وصيَّة يحدِّد فيها مكان دفنه، وأسماء ورثائه. طبعًا، لم نجد إلَّا وثيقة كُتبت فيها شهادته باسمه كما أوصلها لي العديد من المرَّات ولم أجرؤ أن أطلب منه أن يكتبها هو بنفسه حتى لا أبدو وكأنِّي أستعجل موته. أكَّدت في الوصيَّة على رغبته في أن يُدفن في مقبرة ميرامار مع أجداده. ثمَّ ساعدني عامل البلدية سامي، الذي حلَّ محلَّ

الطيِّب الهامل، فسهَّل عليَّ المشقَّة. كان يعرفه جيِّدًا واستقبله العديد من المرَّات، آخرها عندما تمَّ الفصل في قضية البيت الأندلسيّ. قدَّمت له إفادة المحامي والموثِّق والوصيَّة. تأمَّلها طويلًا. تعمَّقها وكأنَّه كان يريد أن يفكّ رموزها المزيَّفة. خفت في أعماقي أن يدمِّر كلّ مخطّطي. ثمَّ التفت نحوي:

ـ خطّ عمِّي مراد باسطا تغيَّر كثيرًا مع الزمن، أصبح أرقّ وأنعم كأنَّه خطُّ امرأة. أنتِ متأكِّدة من أنَّه كان يريد أن يدفن في مقبرة ميرامار؟

قلت بلا تردُّد متجاوزة الإخفاق الذي انتابني والبرودة التي كادت أن تفقدني صوابي:

ـ نعم. أتحمَّل ذلك أمام اللَّـه، وأستطيع أن أقسم على المصحف الكريم.

قال وهو يحاول أن يعيد لي توازني:

ـ أبدًا. صدَّقتك. ولا يوجد ما يجعلني أشكِّك في كلامك. كنت فقط أريد أن أعرف إذا كنتِ متأكِّدة. لأنِّي أعرف أنَّه كان يحبُّك ويثق فيك.

ـ نعم. وكلامه مسجَّل عندي في جهاز التسجيل.

ردَّدت مرَّة أخرى.

لم يسألني بعدها، قال سنتدبَّر الأمر. صادق على كلّ الأوراق، وساعدني على استخراج شهادة الوفاة، ونقلناه في سيَّارة البلديَّة إلى مقبرة ميرامار بعد يومين. لم يكن الحاضرون كثرًا. كنت أنا في لباسي الزهريّ الذي كان يحبُّه كلَّما نزلنا إلى البحر، ومعي بعض الأصدقاء والطلبة، في قسم الترجمة حيث كنت أعمل، وبعض أطفال الحيّ. ولحق بنا سليم وزوجته سارة قادميْن من مطار هواري بومدين. وقفا طويلًا. ثمَّ وضعا باقة ورد كبيرة كتبا عليها اسميهما، ولا أدري إذا كان ذلك ضروريًّا في وضع مثل هذا. ربما تكون مونتريال قد غيَّرت فيهما الشيء الكثير.

رأيت سليم وهو يغمض عينيه بحثًا عن درء دمعة قلقة فرضت نفسها عليه، ثمَّ احتضن كفّ سارة. ملأ رئتيه برائحة البحر. تمتم ملتفتًا نحوي، وربَّما نحو الفراغ:

ـ الآن تمزَّق آخر ما كان يربطني بهذا البحر وهذا التراب.

كانت الكلمة قاسية. لم أعلِّق على ما قاله، لأنِّي لم أكن معه في الفكرة، حتى في كلّ ما فعله. كان عمِّي مراد باسطا حزينًا على خروجه. ولكنَّها في النهاية خيارات فرديَّة أمام تراجيديا الحياة. أكَّد لي سليم أنَّه سيعود في اليوم نفسه، من طريق باريس، فهو يدير قسم المخطوطات، في متحف مونتريال الكبير، ولديه مسؤوليَّات شاقَّة، ولا يستطيع أن يغيب طويلًا عن عمله. أفهم جيِّدًا خيبات سليم ووقعها عليه. فقد أصيب بصدمة كادت تودي بحياته، أقعدته الفراش قرابة السنة، عندما لم يعثر على المخطوطة الأصليَّة التي قضى العمر يقنع جدَّه بضرورة وضعها في المتحف للحفاظ عليها من التلف، فهي وثيقة نادرة عن هجرة الموريسكيِّين، وبداية حياتهم في الجزائر، قبل خمسة قرون. كان يتفقَّدها من حين لآخر، فقط ليشمّ رائحتها كما كان يقول لجدِّه. كلَّما سأله عنها، التفت سليم نحوي وكأنَّه يستنجد بي، ضاحكًا: لماسيكا يعود كلّ شيء، حتى الحقّ في المخطوطة. هي التي أنقذتها مرَّتين من حريقين محقَّقين وهلاك أكيد. معك حقّ يردّ مراد باسطا، واضعًا يده على وجهه مثل طفل صغير وخجول. لكنَّ سليم كان يعيش تراجيديا لم يكن قادرًا على تحمُّلها وحده. أخبرني بضياع المخطوطة، وأوصاني بالحفاظ على السرّ. حتى عندما طلب منِّي مراد باسطا أن آخذه إلى المتحف، قبل وفاته بأيَّام قليلة، فقط ليلمس المخطوطة ويشمّ رائحتها للمرَّة الأخيرة، قبل أن يغمض عينيه ويدخل في رائحة الأبديَّة التي كان قد بدأ يشمّها، ذكَّرته مثل طبيبة صارمة، أنَّه كان متعبًا، ويحتاج إلى راحة كبيرة تسمح

له بالاطّلاع وتفحُّص المخطوطة والبقاء جالسًا على كرسيّ مدَّة طويلة. ثمَّ إنَّ أمر الحصول عليها معقَّد إداريًّا حتى لمالكها، وهذا في صالح حماية المخطوطة. الإذن وحده يحتاج إلى توقيعات كثيرة قبل الوصول إليها. فتح عينيه كطفل كان يبحث فقط عن مسوَّغ صغير للاقتناع:

ـ معك حقّ يا ماسيكا. طمأنتني عليها. أترك الأمر بين يديكِ.

وعدته أنَّنا بعد أسبوع سنحاول أن نزور المكتبة الوطنيَّة ونخرج المخطوطة من مرقدها الدائم للاطِّلاع عليها. أكَّدت له أنَّ المخطوطة في مكانها المناسب، بعد أن رُمِّمت من كلّ الحروق التي لحقت بها، والثقوب التي محت بعض أوراقها، تمامًا كما كانت عندما كُتبت منذ زمن بعيد، ومثلما رآها في آخر مرَّة، واطمأنَّ عليها. كان سعيدًا أنَّها أصبحت أنيقة وأوراقها صافية على الرَّغم من بعض الحروق التي بقيت في بعض جوانبها. لقد رُمّمت في إيطاليا، طريقتهم هي الأحسن حتى الآن، كما قالت لي صديقتي نوريّة مسؤولة المخطوطات. فهي عيني وقلبي في المكتبة الوطنيَّة. لكن الذي أذهله وآلمه أنَّها فقدت بعض رائحتها، وحلَّت محلَّها رائحة المحلولات الكيماويَّة الحافظة التي تشبه محوِّل المخابر، أو تلك الرَّائحة التي تواجهنا أوَّل ما ندخل إلى صيدلية. ومع ذلك، كان سعيدًا أنَّها محفوظة، ولا يراها الزوّار إلَّا من خلال الزجاج السَّميك تحت إضاءة خفيفة مسلَّطة على المخطوطات لكي لا تتأثَّر. وسعد جدًّا عندما قالت له نوريّة إنَّ نسخة منها قد أرسلت إلى مكتبة الإسكندرية بناء على طلبها، وقد صُوِّرت على ورق حريريّ شبيه بالورق الأصليّ. عندما أخرجتها نوريّة من مرقدها كالعروس النائمة، فعلت ذلك بلطف كبير:

ـ المخطوطات يا عمِّي مراد مثل النساء، هشَّات جدًّا، ويحتجن إلى اللَّمسة الحنونة. العنف يدمِّر من يقف أمامهن. المخطوطة هكذا، علينا أن لا نضغط عليها كثيرًا وإلَّا آذيناها وآلمناها. الفضل في هذا

كلِّه، يعود لسليم. على الرَّغم من أنَّه يشتغل في قسم المحفوظات في المتحف الوطنيّ، إلَّا أنَّه هو من أسَّس هذا الجناح في المكتبة الوطنيَّة، ورعاه بعناية. ذهب حتى المناطق الصحراويَّة وأتى بمخطوطات عتيقة تابعها من أدرار، بسكرة، التاسيلي، وحتى تومبوكتو، واشترى نسخًا مصوَّرة من مخطوطات نادرة من إسبانيا، ووضعها تحت تصرُّف الموثِّقين والمحقِّقين. وجاءنا من قسنطينة، من عائلة الفقون، بأجمل المخطوطات الأندلسيَّة التي لا يمكن تصوُّر قيمتها، من بينها مخطوطة قديمة لألف ليلة وليلة. ودعَّمنا بآلات نادرة للحفظ والمتابعة والتَّصوير، وظلَّ يركض وراء وزارة الثقافة، حتى أنجز هذا القسم المستقل، مستغلًّا الوسائل الحديثة المتوافرة في المكتبة الوطنيَّة.

قبل أن يخبرني عن السرقة، فوجئت أنَّ المخطوطة التي أنقذتها من الحرق مرَّتين، لم تكن موجودة لا في المكتبة الوطنيَّة ولا في أيِّ مكان آخر. وجدت علامة عنها وعرفت تاريخ إدخالها، ثمَّ ذهبت إلى قسم المخطوطات، وبحثت عبثًا عن نوريَّة. سألت عن المدير، فرفض أن يستقبلني. قال عندما رآني لأحد زعرانه الذي كان قد عوَّض مؤقتًا نوريَّة:

ـ واش راها تدير هنا هذه القحبة، ما نزيدش نشوف ربّها، وإلَّا نطيرك؟

عادته. جلد أملس كالأفعى وداخل أسود كالرَّماد المحروق. لا يكفّ عن الكلام الذي ملَّ منه حتى أصحابه من المعتوهين: نمت معها، فتَّشت جسدها قطعة قطعة، رقصت لي وغطَّتني بشعرها فقط لتحتفظ بي، نامت في حِجري وبكت من اللَّذة والفقدان، تضايقني بتلفوناتها التي لا تتوقَّف من كلّ مكان **Elle me harcèle**، وتطاردني في كلّ العواصم، حتى عندما أزور باريس، تسبقني إلى النزل الذي أقيم فيه، ترتِّب كلَّ شيء للقائي في خلوتنا، ولكنِّي مللت من هذه المطاردة. كلَّما تخلَّيت عنها، وجدتها في طريقي مرَّة أخرى.

ـ ما نحبش نزيد نشوفها تدور هنا.

سمعته يقولها، ولكنْ لم تكن لديه الجرأة الكافية لمواجهتي، لأنِّي كنت بكلّ بساطة سأصفعه بلا أدنى تردُّد. توغَّلت في المكتبة وتكلَّمت مع الموظَّف الذي كان يؤنِّبه، بشكل يسمعني فيه هو أيضًا:

ـ قل للأمبراطور ديالك، النهار اللّي تولي المكتبة ملك باباه، ستتوقَّف هذه القحبة التي أحبَّته يومًا عن طريق الصدفة، عن المجيء، وليحرقها إذا شاء. سأتركها له ولعشيرته. حتى ذلك الوقت، فأنا في مكتبة وطنيَّة، وسأدخلها في الوقت الذي أشاء، وإذا ما حبّش، يضرب رأسه مع حيط، أو يستدعي شرطته التي تحرسه.

لم تكن له الجرأة طبعًا على اعتراضي، لكنَّه أغلق في وجهي باب الإعارة وتفقُّد المخطوطات. لم ينس لي أبدًا موقفي منه لأوَّل مرَّة عندما زار مراد باسطا في بيته الجديد، وطلب منه شخصيًّا أن يضع مخطوطته في المكتبة الوطنيَّة، كعلامة حيَّة عن الفترة الموريسكيَّة والتركيَّة، إذ كانت الوثيقة الوحيدة التي تنقصهم من الوثائق التاريخيَّة. فوقفت في حلقه متجاوزة حتى خجل سليم، وقصَّتي الخاصَّة معه:

«ـ لا يا بابا مراد. لا تفعل. لا أحد يضمن سلامة مخطوطتك التي هي ملكك الخاصّ وملك عائلتك. أنت أمام سلالة تبيع وتشتري في كلّ شيء، حتى في عرضها، فما بالك بمخطوطة تجلب لها مالًا كثيرًا؟»

كان يظنّ أنَّ ضعفي نحوه سيكبِّلني، ولكنِّي أجهضت الصفقة خوفًا على حياة مراد باسطا. عندما طُرد من المكتبة الوطنيَّة كأيِّ كلب من كلاب الحراسة التي تُستعمل وعندما ينتهي دورها ترمى في الخلاء، عاد إلى كلامه في السهرات الضيِّقة ليعيش ما تبقَّى من عمره به.

كان سليم من جهته يقوم بتحرّيّاته. عندما سألته عن المخطوطة المسروقة، قال: أنا في مسلك جيِّد، وسأعرف من كان من وراء الصفقة. ترجَّاني مرَّة أخرى أن لا أخبر جدَّه. ولكنْ كلّ الطرقات كانت تؤدِّي إلى حلقات غير موصلة ومسالك مغلوطة. أصيب بعدها بأزمة قلبيَّة كادت تودي به، وعندما خرج من المستشفى، قال لسارة التي كانت تعيش معه:

ـ معك حقّ. لا أريد أن أموت بسكتة قلبيَّة في هذا العمر.

وذات صباح، بعد أن رتَّب وضعيَّة جدَّه الحياتيَّة، الذي لم يقف في طريقه، خرج منكسرًا نحو مونتريال للمرَّة الثانية والنهائيَّة. كانت كافية ابنة أخت سارة تقوم بكلّ مهام البيت، وكنت أقوم بالباقي، فقد كان مراد باسطا شيئًا آخر، غير والدي. أعمق.

جعلت فجأة من قضية ضياع المخطوطة هدفي الأساسيّ.

عندما التحقت بوزارة الخارجيَّة، في قسم الترجمة الفوريَّة، زاد انشغالي بالمخطوطة أكثر. في كلّ زيارة، أستغل الأيَّام المعطاة لي بعد عملي، فأبحث عن كلّ ما يمكن أن يدلّني عليها. لم أتعب في أيّ يوم من الأيَّام، ولم أيأس أبدًا. أعتقد أنَّه من تلك اللَّحظة تولَّدت لديَّ فكرة جمع وحماية أحزان مراد باسطا من التلف.

الصدفة أو حاسة شمّ غريبة؟ لا أدري بالضَّبط؟ هي التي دفعت بي إلى أماكن محدَّدة من دون غيرها، وقادتني حتى المخطوطة الضائعة.

لقد تعمَّق انشغالي أكثر وأعمق.

عندما ذهبت إلى إسبانيا، بحثت في وثائق الإسكوريال ومكتبة طوليدو القديمة عمَّا ذكره غاليليو عن حياته وعن تهجير الموريسكيِّين والمارانيِّين، وحاولت أن أرمِّم الحكايات وأقوِّم المزالق التي لم تكن كثيرة. حتى حروب البشرات وسقوط الأمير الأمويّ الدون فردناندو

دي كردوبا فالور (محمد بن أميَّة صاحب الأندلس وغرناطة) فيها كانت حقيقيَّة ولم تكن مجرَّد نزوة من نزوات غاليليو. الشيء الوحيد الذي لم يذكره هو أنَّ قتل الدون فرناندو، تمَّ بتحالف بين الأتراك والمدجَّنين من الموريسكيِّين لتوقيف حرب لم يكن لها أيّ معنى سوى مزيد من الموت، وعندما تنغلق عليه السبل سيفعل ما فعله محمد الصغير، وأجداده من بني الأحمر. التخلِّي. الحادثة الثانية لتي رواها لي عن محاكم التفتيش المقدَّس عن نابليون، وجدتها حرفيَّة، وكانت صحيحة. ممَّا أكَّد لي أنَّ غاليليو لم يكن رجلًا متوهِّمًا.

لم تكن وظيفتي، ولكنَّها كانت حاسّتي السادسة التي وجدت نفسي متورِّطة فيها من أخمص القدم حتى شعرة الرأس. تأكَّد لي من بحثي، بما لا يدع مجالًا للشكّ، أنَّ غاليليو أو سيدي أحمد بن خليل، التقى حقيقة بالرجل الأحمر، سرفانتس، وأنَّ ما دار بينهما كان حقيقة تفاداها الكثير من المؤرِّخين، بل وصلت إلى حقيقة غريبة لم أقرأها من قبل عند كبار المتخصِّصين في العصر الذهبيّ الإسبانيّ. فالرجل الذي تخبَّأ وراءه سرفانتس في روايته العظيمة دون كيشوت، كان هو غاليليو، إذ إنَّ الشبه في الأسماء كان غريبًا ومتداخلًا. يذكر سرفانتس في مقدِّمة دون كيشوت دي لا مانشا، في العديد من المواقع في الكتاب، أنَّ الذي روى له هذه القصص هو *سيد حامت بن أنجلي* Cid Hamet Benengeli. خوفًا من محاكم التفتيش لم يتحمَّل سرفانتس وحده وزر رواية تسخر من كلّ شيء. الاسم العربيّ الحقيقيّ لغاليليو هو تقريبًا نفسه مع بعض التَّحوير الراجع أصلًا إلى النطق الإسبانيّ: *سيد أحمد بن خليل*؟ الجيم الإسبانيَّة تنطق حرف خاء. لا أدري إذا كان اكتشافي مهمًّا بالنِّسبة للذين بحثوا طويلًا عن سرّ القناع الذي يتخفَّى وراءه سرفانتس، ولكنِّي متعلِّقة به، وقد أسعدت هذه الصدفة كثيرًا مراد باسطا. قال، وهو لا يخفي

سعادته، هذه من أسرار الكتاب ورموزه الخفيَّة التي لم يقلها، ولم يصرِّح بها المخطوط ومؤلِّف سرفانتس. ليس غاليليو هو فقط الموريسكي الذي أنقذه من موت محقَّق، في وقت باعه فيه مفوّض محاكم التفتيش المقدَّس *خوان بلانكو دي پاث*، ولكنَّه أيضًا جزؤه الخفيّ في الكتابة وقناعه المنقذ من محاكم الموت. كنت سعيدة أنّي أضفت حقيقة أخرى لرجل، كان يمكن أن يكون جدِّي، أو ربَّما كان. هذا الشعور الأخير ينتابني من حين لآخر. الغريب أنِّي وجدت كلّ ما حكاه سرفانتس وثيق الصلَّة بغاليليو. أعدت قراءة دون كيشوت الكثير من المرَّات، وفي أكثر من أربع لغات: الإسبانيَّة، الفرنسيَّة، الإنجليزيَّة والألمانيَّة، وشممت الرائحة نفسها. أدركت لماذا كانت لالة مارينا مولعة بهذا الكتاب، وطلبتْ أن يؤتاها مباشرة بالنصّ عندما صدر، حتى غيَّبها في البحر الأعمى، أو ساقها نحو مقبرة خليج الغرباء!

الأيَّام التي قضيتها في بيت سرفانتس، في الكالا دي هناريس[1]، مدينة سيسرون[2] الطاغية، الذي احتلّ وهران، ونشر في أحيائها الصغيرة الرُّعب والموت قبل أن يستولي عليها نهائيًّا. كلُّ شيء مرتبط بالصدفة المنظَّمة. استغربت أنِّي وجدت في الكالا دي هناريس، في بقايا الحيّ اليهوديّ القديم، رجلًا مسنًّا تكوَّنت بيني وبينه صداقة جميلة، حكا لي قصّة البحّار المغربيّ المرتد باستفاضة غريبة، فيها الكثير من حياة غاليليو؛ وكان كلَّما ذكره، قال: الروخو. أذهلني كلامه حتى إنِّي لم أصدِّق ما كنت أسمعه. تساءلت هل هي مجرَّد صدفة أم قوَّة جاذبية غامضة يصعب لجمها عندما تتوافر عناصر تلاقيها الأكيد؟ كيف وصلت قصَّة غاليليو إلى هذا الرجل تحديدًا؟ أدهشني عندما قال:

---

(1) El Calà de Hanares.

(2) Ciseron.

ـ كان الموريسكي بحّارًا طيِّبًا. شارك في حروب كثيرة قبل أن يتخلَّى عن الديانة المسيحيَّة ويسلم عندما دخل إلى الجزائر. كان متزوِّجًا من يهوديَّة تركت كلّ شيء وراءها وتبعته لتعيش معه قسوة المنفى في وهران، حتى قتلها أحد القراصنة لأنَّه كان يريد أن يستولي على دارها التي بناها في المرسى الكبير بوهران. كانت الدار تحفة، أتمنَّى زيارتها في يوم من الأيَّام. هذا الرجل هو الذي أنقذ سرفانتس من موت مؤكَّد. ويبدو أنَّه استدعي إلى الجزائر العاصمة ليشتغل مترجمًا عند آغا الجزائر، حسن فينيزيانو، وهناك التقى بالصدفة بسرفانتس الذي كان رهينة.

باستثناء بعض الارتباكات التاريخيَّة التي يمكن تصويبها بسهولة، كان كلامه صحيحًا ومقبولًا. الموريسكي هو غاليليو، والبيت طبعًا لم يكن في المرسى الكبير، ولكن في الجزائر العاصمة. ولالة سلطانة ماتت بمرض الطاعون الذي اجتاح المدينة في تلك السنة وأباد جزءًا كبيرًا من السكّان، كما تقول الوثيقة التي دوَّنها هو بنفسه. انزلاقات أكَّدت لي حقيقة الأمر أكثر ممَّا أثارت شكوكي.

كنت سعيدة وأنا أشعر أنَّ وقتي في الكالا دي هناريس لم يكن ضائعًا. فمنحت لنفسي حقّ شرب بيرة ناعمة في بار الكلب الأخضر[1]، وعلى مدار شهر كامل في بيت سرفانتس المجاور لبيته الحقيقي، أخرجت من الرجل ما لم أستطع الحصول عليه على مدار سنوات من الركض والبحث.

لم أضف الكثير وأنا أدوِّن بوفاء كلّ ما قاله مراد باسطا، إلَّا بعض التدقيقات فيما يتعلَّق بمعاني لغة *الخيميادو* التي كثيرًا ما هرَّبت له معانيها. كان الرجل الشّيخ في الكالا دي هناريس هو من نبَّهني إليها وإلى وجود المخطوطة بباريس، عندما قال لي:

---

(1) El pero Verde.

ـ قضيت عمرًا أبحث عن كلّ ما له صلة بسرفانتس، وهذه المخطوطة لم أعرفها، بل لم أسمع بها أبدًا. لكن قال لي زميل، وهو من أوصل لي الكثير من الأخبار عنها، إنَّها موجودة في المكتبة الوطنيَّة بباريس. أنا بصدد التحقُّق من ذلك، وقد أسافر إلى باريس للغرض نفسه.

سعدت لأنَّه وضعني بالضبط في الخطّ الذي كنت أشتهي أن أسلكه. عندما سافرت إلى باريس مستغلَّة عملي في الخارجيَّة، كانت وجهتي بالضبط قسم المخطوطات. لم أكن في حاجة إلى تحايل كثير لأحصل عليها. هل هي الصدفة أم الأقدار المحسوبة؟ لا أدري. فقد صادفت عرض ما سمِّي بـ: *جهنم المخطوطات*[1]، وعرفت أنَّ المخطوطة كانت من ضمن المعروضات، وأنَّه من الصَّعب الحصول عليها قبل مدَّة معيَّنة. لكنِّي رأيتها وسجَّلتها من الميكروفيلم المتوافر. سألت يومها منظِّمة التظاهرة: ما علاقة المخطوطة ب*جهنم المخطوطات*؟ لم يكن كتابًا جنسيًّا ممنوعًا أو عاريًا ولا حتى سياسيًّا، ونسيت أنَّ المخطوطة كانت مسروقة. أكَّدت لي أنَّ جهنم التي كان يصفها رجل يدعى غاليليو، هي رعب محاكم التفتيش المقدَّس، واضطراره أحيانًا للكتابة بالخيميادو هربًا من اكتشافه، كلُّها عناصر حيَّة دفعتنا بلا تردُّد إلى ضمِّ المخطوطة إلى قائمة المعروضات. اقتربت من أوراقها حتى بدا كأنِّي سألتهمها، وشممتها طويلًا علَّني أجد الرَّائحة التي التصقت بقلب مراد باسطا، لكنِّي لم أجد إلَّا ما وجده وهو في المكتبة الوطنيَّة، قبل سنوات طويلة: رائحة الصمغ والكحول الذي محا أي أثر سابق لها.

لقد قضيت أكثر من عشر سنوات أرتِّب هذه التنقُّلات المختلفة التي جعلت من فكرة الوصول إلى شيء مقارب للحقيقة صعبًا، حتى ظنَّني البعض

(1) L’enfer des manuscrits.

محقِّقة مدنيَّة في قضية غامضة. آخر مرَّة دخلت فيها إلى قسم المخطوطات في المكتبة الوطنيَّة بالجزائر، وكان مديرها السَّابق قد أودع السجن، بسبب بعض الصفقات الغامضة، كنت متأكِّدة من أنَّ شيئًا ما من المخطوطة موجود ولم يُسرق ولم يحوَّل إلى باريس، ولو حتى رائحتها، ولكنِّي وجدت، كما هي العادة، رقمها: أ 55587/ ل ولكنَّه ظلَّ خاليًا. لم يكن يحتوي على أيّ شيء. عندما سألت عنها الموظَّف الجديد الذي حلَّ محل نوريّة:

ـ هل اشتريتم على الأقلّ نسخة عنها من المكتبة الوطنيَّة في باريس؟ فهي متاحة وموجودة في ميكروفيلم، ويمكنكم الحصول عليها بسهولة؟

أجاب ببلادة:

ـ لماذا نشتريها وهي موجودة في الترميم. أُرسلت إلى إيطاليا منذ أيَّام فقط.

ـ يا ابن آدم؟ تخاف ممَّن؟ السماء صافية، والدُّنيا هانية. المخطوطة سُرقت منذ عهد نوح؟ ومديرك العظيم سُجِن، ولن يخيفك بعد اليوم.

ـ سُجِن؟

ـ يا اللَّـه حبيبي خلّيك نايم... تصبح على خير.

ـ تصبحين على خير؟؟؟ ولكن في عزّ النهار؟؟؟...

أدركت يومها أنَّ للبلادة جناحين، وأنَّ كلّ من استولى على منصب، ملأه بالأغبياء لكي تسهل عليه الهيمنة والسيطرة والنهب. كلّ شيء كان منظَّمًا ومرتَّبًا سلفًا. لم أشمَّ إلَّا رائحة الضباع التي كان مراد باسطا يكرهها كلّ الكره.

يبدو لي أنَّني تورَّطت في البيت الأندلسي، وأصبحت أعرفه أكثر حتى من الذين سكنوه وأقاموا فيه، أو الذين توالوا عليه على مدار أكثر من

أربعة قرون. ليس المطلوب منّي أن أكون وفيَّة للتاريخ، لست مؤرِّخة ولن أكونها، ولكن لقصَّة الدار وحكاياتها. وأكثر من ذلك كلّه، أن أكون في صلب حلم مراد باسطا. قضيت وقتًا كبيرًا ألملم هذه التفاصيل الضائعة بالتسجيل المباشر معه، والكتابة والتدوين، وحتى البحث، وها أنا ذي اليوم، أخرجها إلى الوجود كما اشتهاها قبل أن يغمض عينيه على حافَّة خليج الغرباء.

نسيت أن أقول إنَّ ترتيب بعض الوثائق كان مرهقًا ومتعبًا. فاجتهدت قدر ما استطعت. هناك فجوات كان عليَّ ملؤها وإدخالها بين حكيه فقط للحفاظ عليها من التلف. لم ترو لالة مارينا قصَّتها كما اشتهيت، ولكنِّي سمعت أنينها الخفيّ القادم من عمق البحر، أو من تمزُّقات موجة تقطَّعت كلِّيًا عند قدميَّ. ابنتها سيلينا التي روتها قبل أن يقهرها القتلة وريَّاس البحر. ثمَّ سادت بعد لالة سيلينا فترة فراغ مريع وغموض غريب أحاط بالبيت الأندلسيّ، قبل أن يستعيده حسن خزناجي الذي كان صديقًا حميمًا لغاليليو واشتغلا معًا على ظهر سفن الكروغلّي. هو من أرجع سيلينا إلى البيت بعدما اغتصب قتلة دالي مامي أمَّها، لتعيش مع ابنته لالة خداوج العمياء حتى وفاتها. لا أعرف اسم الذي دوَّن بقية الحكاية، ولكنَّني على يقين أنَّه من الدم نفسه، لأنَّه في كلّ مرَّة يردِّد جملته الثابتة: كما قالت لي أمِّي عن جدَّتي سيلينا. هذه الوثيقة الأخيرة لم تكن موجودة في الأصل الأوَّل التي أنقذته من الحرق، ولا أدري كيف وصلت إلى المكتبة الوطنيَّة في فرنسا، ومن العارف الدقيق الذي أضافها إلى بقية المخطوطة؟ كلّ شيء يتوقَّف عند حدود ما روته لالة سيلينا. عندما قرأت الكلّ مجتمعًا، شعرت بأنِّي أغلقت الدورة التي كانت مبتورة. كنت سعيدة ليس فقط باكتشافاتي، ولكن بسلطاني الخفيّ مع مراد باسطا. أتذكَّر جيِّدًا أنِّي يوم قبضت على يده ومنعته من الحرق، لم يقاوم، ولكنِّي لم أمنعه من صرخته التي سمعها البحر والأموات، ولم يسمعها الوفد الرسميّ الحاضر لتهديم

الجزء الأهمّ من البيت. لم يكن في لحظة غضب، لكنَّه كان يموت يأسًا. قلت له:

ـ يا عمِّي مراد، نغضب من الناس وليس من المخطوطات والكتب؟ أنت علَّمتني هذا الكلام، فهل تخالفه هكذا بسهولة؟

التفت نحوي كذئب جائع، ثمَّ أحنى رأسه، وانكسر بعينيه اللَّتين كانت النار تشتعل فيهما. حاولت أن أتأكَّد من الكثير من الإشارات التي عاشها البيت الأندلسيّ، وسعدت أنَّها لم تكن مجرَّد ابتداع يبحث عن تاريخ مزيَّف لتعيد تركيبه وتصنيعه.

كان مراد باسطا، مثل الجرَّاح، دقيقًا في كلّ شيء. فقد حكى لي، على حافَّة البحر عن كلّ التفاصيل وهو ينشئ قصَّته التي دوَّنتها حرفًا حرفًا. كانت شهيَّته مثل الموج الذي يقابله، تنغلق وتنفتح بحسب الظلام والنور اللذين يتقاتلان في أعماقه. فجأة، عندما يختلط كلامه بهسهسة المد والجزر، ينسى نفسه ويصبح رقيقًا كنسمة مدَّة طويلة يتحوَّل فيها كلامه إلى كمشة نور يصعب القبض عليها. هو من نصحني، بعد ذلك بزمن، بالذهاب إلى أرشيف غريب، هو وثائق تصليح الطرقات والموانئ. ضحكت منه كثيرًا قبل أن يضحك منِّي الأصدقاء عندما عرفوا ما كنت أنوي فعله. ماذا يمكن أن يوجد في أرشيف الطرقات والموانئ غير الزفت والإسمنت المسلَّح، وعرق العمَّال المساكين الذين ماتوا في صمت وهم يشيِّدون هذه المنجزات الضخمة التي غيَّرت وجه المدينة في نهايات القرن التاسع عشر؟ الرابط الوحيد هو أنَّ موقع البيت الأندلسيّ كان في صلب الطريق الجديد الذي كان المهندسون الفرنسيُّون ينوون فتحه، ولولا إعجاب نابليون الثالث بالبيت، لهُدم نهائيًّا، إذ كان قد حُوِّل إلى دار بلديّة. وجدتُ محاضر الجلسات التي لم تفتح منذ قرابة القرن. وجدت أيضًا أنَّ المهندس

السيِّد أوجين أورميير[1] وصديقه المقاول دوسومبر[2]، الذي اشتغل معه بشكل دائم، هما من قاما بإنقاذ البيت وتحريف الطريق الجديد باتِّجاه آخر، وهيأه من جديد لاستقبال نابليون الثالث وزوجته بياتريس، ليصبح إقامته في الجزائر، وأعادا ترميم بعض جوانبه المتهالكة، وأدخلا عليه تحسينات هندسيَّة كثيرة. وعندما يئس أوجين أورميير من الجزائر بسبب الحرب، استعان بصديقه مرَّة أخرى، وبنى فيلا الجزائر[3] في فرنسا، قبل أن يلحقها الموت هي أيضًا، بعد وفاته. إذ لم يفهم الورثاء القيمة الرَّمزيَّة التي تتخبَّأ وراءها، وكيف أنَّ الرجل أحبَّ أرضًا من خلال حبِّه لهندستها، ودروبها وقصبتها، وتخطيطها المنفلت من أيّ منطق مسبق.

هذا هو الكتاب بلحمه ودمه وأنينه، لم أضف إليه شيئًا من عندي سوى ما رواه مراد باسطا أو ما أومأ به. لم أتدخَّل إلَّا بما يساعد على استقامته. الكتب لا تقول الحقيقة المطلقة، فهي ليست أكثر من حقيقة نسبيَّة لشخص يفترضها كذلك. هذا الكتاب هو حقيقة غاليليو ومأساته، وحقيقة مراد باسطا وخيباته، وحقيقتي أيضًا وخوفي أنا التي تبدو غير معنيَّة بما يدور حولها، وحقيقة من سيقرأه وأسئلته. بعد أن ظلَّ مخزونًا ومهرَّبًا ومسروقًا، ومبعثرًا أيضًا، أضعه اليوم بين أيدي عشَّاق الأبجدية الحيَّة المليئة بأنين الذين مضوا. هم وحدهم يعرفون كشف الآثار الخفيَّة العالقة بكلّ كلمة وبكلّ لحظة خوف وسعادة هاربة.

لقد بذلت جهدًا جنونيًّا لكي تستقيم الحقيقة الضائعة. قمت بهذا الجهد لا لأكون كاتبة، فأنا لست معنيَّة بذلك أبدًا. ولكنْ لأكون وفيَّة للرجل الذي اشتهى يومًا أن يكون عمره أقلّ من خمسين سنة ليلمسني

(1) Eugène Ormières.

(2) Desombres.

(3) Villa Algerienne.

فقط كما يشتهي؛ وأوصاني أن أسكنه على حافَّة البحر، لأنَّه كان يرى في موجه وملحه استمرارًا لحياة مضت لا يمكننا أن تنطفئ بسهولة.

مرارة صغيرة بقيت عالقة في حلقي. نفَّذت كلّ ما طلبه منِّي مراد باسطا، بما في ذلك الحفر في الحديقة أو في ما تبقَّى منها، قبل بناء برج الأندلس الذي أكل كلّ المساحة. كنت أقف الساعات الطويلة وأنا أرقب الحفَّارة العملاقة وهي توغل أسنان آلتها في جسد التربة، لكنْ عبثًا. في البداية، اشتكاني مدير المشروع لمسؤوليه، لكنَّهم عندما عرفوا حقيقتي، أهملوني. بعضهم تواطأ معي، بالخصوص صاحب الحفَّارة العملاقة. أقسم أنَّه لو صادف أيَّة ورقة مهمَّة سيعلمني بوجودها. فكَّرت أيضًا في أن أحفر قبر غاليليو الذي ما يزال يواجه البحر ويحلم بعودة مستحيلة، ولكنِّي خفت من العواقب الدينيَّة والأمنيَّة. في لحظة من اللَّحظات، افترضت مثلما افترض مراد باسطا أن تكون لالة مارينا ربَّما قد خبَّأت فيه الأوراق التي كتبتها عن والدها ومحيطها، ووصفتْ كلّ المرارات التي عاشتها مع الناس ومع الفقدان والمرض. فقد استبعدنا أن تكون قد أخذتها معها إذا افترضنا أنَّها عادت إلى شبه جزيرة أيبيريا. الكثير من الشهادات المتوارثة تقول إنَّهم رأوها تنزل من المقصورة نحو مقبرة خليج الغرباء، مجلَّلة بالبياض، حاملة أوراقًا كثيرة تحت ذراعها. بقيتْ طويلًا عند قبر والدها. عندما انسحبت، لم تكن تحمل شيئًا، وهذا ما قوَّى فرضية دفنها داخل قبر غاليليو. هذا هو عجزي الأكبر الذي لم أستطع حياله فعل الشيء الكثير. فكرة فتح قبر غاليليو الروخو، أو سيدي أحمد بن خليل، مهمَّة جدًّا لترميم تاريخ ظلّ جزؤه المهمّ غريبًا ومبتورًا، لكنَّ ذلك يحتاج إلى زمن آخر، وإلى جرأة أكبر، وربَّما... إلى امرأة أخرى غيري.

ماسيكا

توشية مراد باسطا

من أين أبدأ هذا الجرح يا سيكا؟

أمن الدار، أم من سقم أصبح يشبهها في كل شيء؟

هذه الدار، *الخربة الرومانيَّة*، *البيت الأندلسي*، *كازا أندلوسيا*، *دار لالَّة سلطانة بلاثيوس*، *دار المحروسة*، *دار لالة نفيسة*، *دار زرياب*، *إقامة الأمبراطور*، *ملهى الضفاف الجميلة*... كلُّها أسماء صاحبت البيت الأندلسيّ عبر حقب مختلفة وكثيرة، الاسم الوحيد الذي شذَّ عن القاعدة هو النعت الذي أطلقه ظلمًا، على البيت، سكَّان الحيّ الذي كنت أعيش فيه: Le Cercle des hyennes، *حلقة الضباع*، الذين عندما ضاق الحال بهم، وأعمت الأحقاد أبصارهم، تمنُّوا أن يُنسَف البيت نهائيًّا، لأنَّه أصبح مسكنًا للجان والعفاريت، ومصدرًا للضرر والخطيئة. حتى إنَّ بعضهم كان يسمِّيه الدار المسكونة، ولهذا فقد برَّر كلّ تحوُّلاتها انطلاقًا من هذا الوضع الغريب!

أذكِّر بهذا، وأنا لم أعد مهتمًّا كثيرًا بالأسماء، ولا حتى بالبيت. فهو يشبهني في كلّ شيء، في عزِّه وأَلَقه، وعنفوانه، وفي هشاشته، وتآكله

وخرابه أيضًا، وحتى في احتراقه وموته العنيف. بدأ خربة معلَّقة في الفراغ، ثمَّ تألَّق ليصبح نجمة، وانتهى إلى رماد وغبار كنسته رياح خليج الغرباء، ليصعد مكانه برج سمَّاه القائمون على الإنجاز برج *الأندلس* تيمُّنًا بالماضي، وربَّما تلفيقًا لجرحي. في الاجتماع الفصل، في القاعة البيضويَّة، بالبلديَّة، بشَّروني بأنَّهم غيَّروا اسم البرج، من البرج الأعظم، إلى برج الأندلس، حفاظًا على عطر المكان الذي نبت فيه البرج.

أكثر من أربعة قرون مرَّت على هذا البيت، وكأنَّها لم تكن!

أكثر من ثمانين سنة مرَّت عليَّ وكأنَّها لفحة ريح ساخنة، وكأنَّ الزمن اختُصر في حجرة مُزِّقت طويلًا قبل أن تحترق وتتحوَّل إلى رماد. ليست السنوات العابرة شيئًا مهمًّا في أعمار الحجارة والبشر، ولكنَّها كافية للشهادة على زمن كان فينا ولم نكن فيه إلَّا قليلًا.

تدفعينني للحديث كمن يدفع سيَّارة معطَّلة، تتمايل، تهدهد، ولكنَّها عندما ينطلق محرِّكها، تندلع كالقذيفة، بحيث لا قوَّة في الدُّنيا توقفها عن جنونها.

هذا هو أنا بالضبط. بدأت ولا أدري كيف سأوقف هذا الهدير!

وأنا أشارف على مهاوي الرحيل الأخير، وأرفع يدي للتلويحة المليئة بالشجن صوب بحر، لا شيء من التفاصيل الحيَّة قد مات وكأنَّ الدُّنيا تبدأ الآن. ماء وملح وسرّ دفين. هو، هو لم يتغيَّر فيه شيء يُذكر. عندما يسكننا شعاع الشباب، وتبهرنا الحياة بكلّ جنونها، نظنّ أنَّ كلّ شيء ملء قبضات أيدينا، نبعثره كما نبعثر زرعًا في حقول مفتوحة على الخير والشمس. وعندما يداهمنا العمر بقسوة، نجد في الكفّ المفتوحة حفنة من الهواء الساخن، وبقايا خطوط جلديَّة، ترسم تفاصيل حياة اندثرت بسرعة وكأنَّنا لم نعشها أبدًا، أو حاذيناها

فقط، وحنين أشياء مبهمة لا نعرف أسرارها، نكتفي بحبِّها ونمضي، ونحن لا ندري لماذا؟ هذا عندما يبقى في المخ شيء ما، ولا يُمس بالخرف المبكِّر، ولا يدخله مرض العصر حيث تنسى الذاكرة وظائفها، وتتخلَّى عن سلطانها لخوف يشبه البياض نحسُّه ولا نفسِّره. قد نتذكَّر أبعد نقطة في حياتنا، وننسى ما حدث لنا قبل ثوان معدودات. الذاكرة مثل النجوم، حينما ينفد ألقها وصبرها، تتعب ثمَّ تموت، ثمَّ تتبعثر هاربة في السماء في شكل رماد مضيء. يتخلَّى العقل عن آخر حقوقه طواعية، ويدخل في مدارات شبيهة بالنهايات القاسية. لنقل إنَّ هذا لم يحصل حتى الآن، وما يزال في العمر متَّسع، كما كان يقول جدِّي الأندلسي التائه غاليليو الروخو: *العمر يعذِّبنا عندما نتذكَّره، وتخدعنا الحواس كلّها عندما نطلبها. لننسها قليلًا ريثما يهزُّنا ملاك الخوف، ولتأت الأشياء وفق إرادتها وفي وقتها. نحن لا نصنع الحياة التي نشتهي فقط، الحياة أيضًا تصنعنا مثلما تريد، وتدسّ في أجسادنا ما تشتهيه من جنونها وقنابلها الموقوتة.*

لقد أصبحت الوجوه التي أراها اليوم هم أبطالي اليوميِّين. لم أعد قادرًا على تحمُّل رائحة الضباع التي عمَّت كلَّ شيء، حتى أنوفنا وأجسادنا. لقد تحمَّلتها على مدار أكثر من نصف قرن، ثمَّ قلت في لحظة غفوة باسطا. عدت من حرب الجمهوريِّين في إسبانيا أجرُّ ورائي اسمًا جديدًا: باسطا. كانت مانويلا الدَّافئة وراء هذه التَّسمية قبل أن تصمت نهائيًّا وتتحوَّل في أعماقي إلى جرح آخر يضاف إلى ذاكرتي المنهكة. عندما سألت أهل مدينتنا المحروسة، من جيراني وأصدقائي، هل يحسُّون بما كنت أحسُّ به؟ هل تشمُّون ما أشمّ؟ رائحة الضباع التي كانت تشعرني بالرَّغبة في التقيؤ. الرائحة نفسها التي كنت أشمُّها، قبل زمن بعيد في الغابات عندما كنت أذهب مع والدي لصيد الأرانب البرِّيَّة

بكلابنا، في غابات جبل الملك كوكو. أحنوا رؤوسهم جميعًا وانسحبوا من المكان. ثمَّ قلت: ربَّما كان صوتي خافتًا ولم يسمعني أحد. عاودت السُّؤال على أكثر الناس قربًا منِّي، وبصوت مرتفع: هل تشمُّون رائحة الضباع؟ من أين يأتي ذلك كلّه؟ قال لي من كان يقف بالقرب منِّي، بعد أن صَمَت طويلًا وكأنَّه كان يقاوم سؤالي بالصبر، وكان أجرأهم: أنت تؤذي نفسك بحواسك. منذ زمن بعيد لم نعد نشمُّ شيئًا يا صديقي. *ربَّما كانت الرَّائحة في أنفك فقط، فلا تستنشق شيئًا إلَّا تلك الرَّائحة السرِّيَّة التي تتخفَّى فينا؟ الدُّنيا في الخارج تسير بشكل طبيعيّ ولا شبهة تشغل الرعيَّة الطيِّعة والطيِّبة. الناس الحيط الحيط، حشيشة طالبة معيشة، فلا تحمِّلهم أكثر ممَّا يستطيعون وتجعلهم يشمُّون ما لا يريدون؟*

عرفت يومها أنَّ الرجل كان على حقّ. على حقّ مائة بالمائة. وأنِّي كنت الوغد الأوحد، بعيدًا عن سداد الرأي. فالرَّائحة كالهمِّ، إذا عمَّت، خفَّت، بعدها يألفها الناس، ثمَّ سرعان ما تتلاشى نهائيًّا.

هذا الجرح عميق، وأخاف أنِّي إذا نزلت نحوه، أن لا أستطيع الصعود ثانية! ثمَّ من قال إنِّي أريد الصعود ثانية بعد انكسار الرُّوح وضمور الجسد؟

أحتاج اليوم وأنا أملأ الفجوات البيضاء التي بدأ يأكلها نداء القلب، والرجع البعيد، وداء الخرف، إلى أن أدوِّن شهوتي المتَّقدة، وأكتبها قبل فوات الأوان، تمامًا مثلما فعل أجدادي الأوائل. لقد فعل ذلك جدِّي الأول غاليليو الروخو، تبعته ابنته مارينا التي أحسَّت بألمه المبطَّن أكثر من غيرها، قبل أن تسحب أوراقها معها وتنطفئ في خليج الغرباء، تبعتهما سيلينا التي عاشت خراب التبدُّد والخوف.. ثمَّ تتالى أفراد السلالة من المجهولين والمعلومين، ممَّن لم تأكلهم حروب السفن، وطمع القراصنة، وعزلة البحار ونيران البنادق والحروب المتتالية. كانت الصدفة الغريبة

حاضرة دائمًا، وينتخب القدر دومًا شخصًا ما في الدائرة، يحمِّله ثقل الإرث الخفيّ، حتى يحفظ اللّاحق نداء السابق. ربَّما كنت آخر من عرف العلامة وحفظ السرّ، بعد أن اندثر الجميع.

حافظت عل نزف جدِّي الروخو ونداءاته التي أكلتها البحار، وسكنتنا: *حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدمًا فيه أو عبيدًا.* ظنّي أنَّ هناك دائمًا شخصًا ما، يرقب السرّ من بعيد أو من قريب، وقدرًا مفتوح العينين، لا يتدخَّل إلَّا في اللَّحظات الأكثر حدَّة وحساسيَّة. لقد سُرِق البيت أحيانًا، ونُهبت حوائجه الثمينة، وفي أحيان أخرى قُتل أهله ولم ينفذ منهم، ربَّما، إلَّا صبيّ صغير، أهمله القَتَلة، لأنَّ موته لم يكن يهمُّهم كثيرًا، أو صبيَّة تخبَّأت بين أغصان شجرة عالية، أو سيِّدة اغتُصبت حتى لم يبق في حياتها إلَّا نزع قليل، هرَّبها شخص ما، ربَّما كان من القَتَلة أنفسهم، ظلَّت تحفظ الوصيَّة الخرافيَّة: *إنَّ البيوت الخالية تموت يتيمة.*

اندثر اليوم كلُّ شيء أو يكاد، وحلَّ المحو المبكر على ذاكرتنا وحاضرنا، واستقرَّ الخوف فينا بدل الحبّ، والقتل بدل السماحة، الغفلة بدل النباهة، الطغيان بدل الرُّشد، القشرة بدل اللُّبّ، والدِّين بدل العقل. أفهم الآن لماذا انسحب الذين كنت أحبّهم بسرعة نحو الموت، أو تخلُّوا عن هذه الأرض، ورفضوا أن يلتفتوا وراءهم، باتِّجاه الغبار أو قسوة المنافي. أدرك أيضًا لماذا انسحبت الشمس مبكرًا من على الرَّبوة المطلَّة على خليج الغرباء، وهي آخر ما تبقَّى من أمكنة حيَّة في المدينة. الأشياء عندما يدخلها مرض اليأس تفقد طعمها، وتخون بسرعة ذويها حتى ولو كانت تفَّاحة. لا أعتقد أنَّ الشيطان هو من خان الأمانة في دهاليز الجنَّة المكتظَّة بالمسنِّين، وليس هو من عمَّق سحر غواية التفاحة في عينيْ حوَّاء الهشَّة والمرتبكة، وشلَّ عقل آدم! في

عمق التفاحة شيء من بذور الغواية والخيانة نفسها. حوّاء لم تكن امرأة فقط، كانت التفّاحة أيضًا، وآدم لم يكن حَمَلًا ضائعًا في الجنَّة، ولكنَّه كان شيطانًا صغيرًا هو أيضًا.

ليس مهمًّا. قد يبدو الآن كلّ شيء هادئًا وضبابيًّا، مكسوًّا بالبياض الذي يعمّ من حين لآخر الذاكرة فيزيغ نحو مدافن لا نريدها في الأصل. عرفت الآن لماذا كان جدِّي غاليليو الروخو، الموريسكي الضائع، يلحّ على البقاء حتى ولو في هيئة خادم، ملتصقًا بحجارة البيت الذي بناه بأنامله مثل الذي يعزف نوبة أندلسيَّة على تلوينات طبوعيَّة مختلفة: رمل المايه، زيدان، سيكا، جاهاركا، موّال، مزموم، عرق، غريب. البيوت في هذه البلاد، كانت تُعزف ولم تكن تُبنى. ومن هنا هشاشتها. عندما تفرغ، تجتاحها الضباع بفكاكها الحادَّة والصلبة، قبل أن تتعفَّن من الداخل والخارج، وتموت كما يموت البشر.

ليس سوادًا ولا بياضًا معتِّمًا، وليس ضبابًا ما يرتسم في الأفق القريب. لا. وليس قيامة تنتظر الذين لم يكونوا يعرفون أنَّهم هلكوا الزرع والضرع، وأحرقوا النبتة في تربتها، وجفَّفوا الوليد في الأرحام. ليس ماريحا[1] تكنس كلّ شيء في طريقها وتنظِّف الحارات المعتَّمة من الأوراق الميِّتة. ليس شيئًا محدَّدًا، ولكنَّه مجرَّد أنين يصعب كتمه، كان يجب أن يخرج نحو الشمس حتى ولو كانت حارقة، عاريًا وخجولًا، ولا يهمّ بعد ذلك إذا لم يجد اليد الطيِّبة التي تسكنه وتضمِّد حروقه.

لم يبق في العمر الشيء الكثير، ربَّما رمشة عين... خفقة قلب... همسة... لمسة... ثوان... دقائق... ساعات... أيَّام... شهور... وسيكون الطلب كبيرًا وربَّما مستحيلًا، إذا قلت سنوات! الأعمار بيد

(1) العاصفة العنيفة جدًّا.

اللّـه. نعم. ولكنَّها في كلّ الأحوال في قبضة الزمن الذي يتساوى فيه وأمامه كل شيء.

هل حان وقت الرحيل؟ أفضِّل أن أحتفظ بالجواب إلى أن يحضر هو بنفسه.

بقي لي شيء واحد وعظيم، حقِّي في الاستقامة والكتابة مثلما فعل السَّابقون والرَّاحلون في وقت مبكر، وقبل زمانهم. الذين كانوا، كلَّما أظلمت الدُّنيا في عيونهم، يعودون نحو أقلامهم ومِدادهم وحبرهم الوفيّ، ويغرقون في النور الخفيّ، حتى النهاية. سأحكي وأدوِّن مثلهم مشاهدي قبل أن تجتاحني تلك الضبابة الثقيلة التي تركن في زاوية تختارها في مجرى الدم، وتضغط على الصدر بقوَّة يضيق معها التنفُّس، ويتصبَّب العرق الأخير من الجسد المنهك. ضبابة يسمِّيها العارفون الصادقون: الموت، وأسمِّيها أنا رحلة المنتهى. الرحلة الوحيدة التي نؤجِّلها دائمًا وبلا كلل. كلَّما رأيناها تمرّ بالقرب منَّا، تمنَّيناها أن تعبر، وتنسانا، وأن لا تدخلنا في عداد الرَّاحلين معها. وكلَّما أصبحت بعيدة عنَّا، انتابتنا سعادة غامرة وأنَّنا مازلنا باقين ها هنا، نرفض بكلِّ قوَّة أن نرتِّب حقائبنا، ونبحث عن كلّ الأسباب التي تجعلنا في منأى عن السفرة. نبحث، نفلِّي بيأس، في الأشياء المخبَّأة عن تفاصيلنا الصَّغيرة التي وضعناها في مكانٍ ما ثمَّ نسيناها نهائيًّا، مثل الذكريات التي تأسرنا ونخاف من هزَّاتها العنيفة، لأنَّ أجسادنا وهنت ولم تعد قادرة على التحمُّل. وعندما يحدث أن نشاء استعادتها، نجدها قد انسحبت من أمكنتها الحيَّة وغادرت باتِّجاه مكانٍ مجهول فينا واستقرَّت فيه، بعد أن اندفنت في ركام الأسرار الخفيَّة التي لا نريدها أن تظهر أبدًا، ولا أن يلمسها الذين يأتون بعدنا. وكأنَّ الذين يأتون بعدنا لا همَّ لهم ولا أسرار تشغلهم إلَّا العبث بجنوننا وهزائمنا، وأحيانًا حتى بأقدارنا المسطَّرة سلفًا!

فقدت كلّ شيء، ولم يبق لي إلَّا الكلام والأحرف الهاربة من سلطان التدوين، ونعمة سيكا، صوتي الأعمق والخفيّ، الذي يملأ القلب كلَّما أظلمت الدُّنيا معلنة عن عواصفها الدَّفينة.

سأتسلَّح باليقين الهشّ، وأتشبَّث ببقايا العمر، وأقول بيتنا الهارب، البيت الأندلسيّ.

مراد باسطا

الفصل الأول

نوبة[1] خليج الغرباء

(1) النوبة مقام موسيقيّ أندلسيّ معروف. هناك العديد من النوبات التي جاء بها الأندلسيُّون من مسلمين (الموريسكيُّون) ويهود (مارانيِّين)، بعد عمليَّات التَّهجير القسريّ من بقايا الأندلس، في القرنين 16 و17 نحو العدوة الأخرى. الكثير من هذه النوبات موجود اليوم بالجزائر والمغرب وتونس، متوارث عن طريق السماع، بعد ضياع الكثير منها.

-1-

لم يكن الأذان في ذلك الفجر الهادئ والبارد، بصوته الدَّافئ، هو الذي أخرجني من فراشي، ولا لفحات برد الشتاء القاسية، المتسرِّبة من فجوات مرتفعات جبال الشريعة التي نراها من الأعالي، ولكن الحركة الغريبة التي سمعتها تأتي من باب الحديقة. خرجت بسرعة إلى الباحة الصغيرة. رأيت بالكاد أربعة ظلال تتحلَّل في الظلمة، منزلقة باتِّجاه المنحدر الذي يقود إلى الطريق العام رقم 7 وواجهة البحر. خُيِّل لي في لحظة من اللَّحظات أنَّني عرفت أحدها من قامته ومشيته التي كان بها نوع من العرج، لكنَّني سرعان ما أبعدت الفكرة عن دماغي. تعلَّمت الحذر منذ زمن بعيد. تبعت الظلال محافظًا على بعض المسافة بيني وبينها، حتى نهاية المنحدر، قبل أن تبتلعها الظلمة الشتويَّة نهائيًّا وأسمع هدير سيَّارة اختلط بسرعة مع موج البحر الذي أصبح قوِّيًا. ومع ذلك، فقد لاحظت أنَّهم كانوا يمشون بوتيرة لا تشبه وتيرة السارقين. لم يلتفتوا وراءهم أبدًا. انتابتني حيرة، ولكنِّي لم أنوِ فيهم أيّ شرّ.

لفحات البرد القارس الآتية من الجهة الغربية، من خليج الغرباء، أيقظتني نهائيًّا من غفوتي الفجريَّة الأخيرة التي أقضيها عادة في الفراش أتمتَّع بتأمُّل السقف الأبيض والفراغ.

أذان الفجر يحرِّك فيَّ أشياء غريبة. يأتي من عمق سحيق، يذكِّر بأيَّام مضت تاركة آثارها على وجوه الناس وأشواقهم الدَّفينة. في صوته حنين غريب، كلَّما سمعته شعرت بدخوله في الأعماق أحيانًا كالدِّفء اللَّذيذ، وفي أحيان أخرى كالشعاع الحارق، حنين مفعم بالغياب وبالخوف من المبهم. الدُّروب كلُّها خالية. عندما وصلت الدوَّار انعطفت يمينًا ثمَّ سرت محاذيًا لحائط الحديقة التي لم يبق منها إلَّا اسمها، بعد أن اقتُطعت منها أجزاء كبيرة بُنيت عليها مخازن و بيوت عديدة في العشرين سنة الأخيرة.

قبل عشرين سنة فقط، كانت الحديقة تمتدّ حتى نهاية الدرب. عندما رفعت رأسي بالصدفة أو بالعادة، واجهني عمود النور الذي يخترق الطريق بشكل غريب. رأيت وجوه المرشّحين للمجلس الوطنيّ الشعبيّ قد حالت قليلًا على الحيطان المتآكلة ولم تمحها سنوات الخوف التي مضت. بعضها يتشبَّث بالحيطان كالعقارب، وبعضها الآخر ملتصق في شكل قصاصات صغيرة، بأعمدة النور التي لفَّ حولها بشكل لولبيّ وثعبانيّ. رأيت وجه موح الكارتيل، أو الحاج كما يسمِّيه الأقرباء، وقد محا المصوِّر عن ملامحه علامات الجدري، الذي انقلب من مدافع عن الحلّ الإسلاميّ وحرِّيَّة التجارة، إلى مقيم في ميناء العاصمة، ينتظر وصول دفعات الحديد المدوَّر والإسمنت التركيّ، والرُّخام الإسبانيّ، ليهيمن بعدها على السوق الوطنيَّة، بعد أن تعاقد مع كبريات الشركات الصينيَّة والإسبانيَّة واليابانيَّة، المستثمرة في الطرق السيَّارة والمباني الاجتماعيَّة. كان يريد أن يخدم شعبه، ولكنَّه اكتشف فجأة أنَّه لم يكن في مسلكه الصحيح، وأنَّ الشعب لم يكن شعبه. دخل الانتخابات كممِّثل للجزائر الوسطى التي لم يعرفها في حياته. تكفَّل

أصدقاؤه بالدعاية الكاملة له. اشترى يومها سيَّارة ليموزين سوداء. قال الهمَّة تنزع الغمَّة، وتجعل الدوني وليّ نعمة، ونزل بها إلى الأحياء الشعبيَّة. على الرَّغم من نصائح بعض الأقرباء بالأخطار المحدقة به، ركب رأسه وترأَّس إحدى حملاته في الأحياء الشعبيَّة التي هيَّأها له الإسلاميُّون. كانت لحيته هي جوازه أمام المنتخِبين بعد أن كرَّر على مسامعهم:

«ـ أنا هنا من أجلكم، لا ينقصني شيء، فقد رزقني اللَّـه كلَّ خير».

يؤكِّد لأصدقائه الأوفياء:

«ـ هذا الشعب يمشي بوسيلتين الغمز واللَّمز. الغبرة والعين الحمراء. الغمز واللَّمز، عليهم أن يعرفوا بأنَّنا قادرون على كلّ شيء ولا نحتاج لأيّ واحد منهم، هم من يحتاجنا لتوصيل قضاياه. الغبرة موجودة، والعين الحمراء تجعل المعوَّج مستقيمًا».

انعطفت عند الدوَّار، ثمَّ عدت على أعقابي. كان السواد قد ابتلع كلّ شيء، بما في ذلك خليج الغرباء الذي يبدو واضحًا مع الفجر عندما تبدأ أولى انعكاسات الشمس تظلِّل السماء بلون نحاسيّ حادّ.

أشياء كثيرة تستيقظ فيَّ فجأة.

عندما هممت بفتح الباب يومها، لاحظت لأوَّل مرَّة، منذ زمن بعيد، الكتابة التي حالت اليوم، ولكنَّها ما تزال تحافظ على وضوحها: **البيت الأندلسيّ، دار سلطانة بالاثيوس ألونصو**. كُتبت بالعربيَّة، ولم تبق من خطوطها العبريَّة إلَّا بعض الحروف التي كانت تقاوم فعل الأيدي البشريَّة التي حاولت مسح الرخامة، ولكنَّها لم تفلح كلِّيًا.

فتحت صندوق الرَّسائل الأصفر الملتصق بالمدخل. حزنت أنَّ البغل القبرصيّ غيَّره. كان هناك صندوق صغير مزيَّن بمنحوتات ورديَّة،

هو جزء من ديكور المدخل، قديم جدًّا. أخرجت ما بداخله. رسالة واحدة. عرفتها من غلافها أنَّها من البلديَّة. تأمَّلتها قليلًا. ثمَّ فتحتها. لم أقرأ إلَّا تاريخ الاستدعاء المكتوب بحروف نافرة وثقيلة. لم يمرّ شهر على الرِّسالة الأولى التي وصلتني. ربَّما حشموا على عرضهم هذه المرَّة. عندما أخبرت سليم، قال لي وقتها: حاول أن ترى صديقي كريمو، فهو طيِّب جدًّا وشاطر في كلّ شيء.

ما كدت أدخل المفتاح القديم في عين الباب بصعوبة كبيرة، حتى سمعت فجأة صوت سارة يأتي من عمق حديقة البيت:

ـ عمِّي مراد باسطا، عذرًا على إزعاجك. سمعت صوتًا غريبًا، ثمَّ حركة تشبه حركة الحيوانات عندما تفاجئها كلاب الصيَّادين، فتذهب في كلّ الاتِّجاهات. قلت الأكيد أنَّ هناك شيئًا ما. الأرجل الراكضة كانت كثيرة؟

ـ أنا أيضًا سمعت الحركة نفسها. أربعة شباب. نزلت وراءهم، ولكنَّهم كانوا مجرَّد ظلال هاربة. ربَّما كانوا يريدون قطف الياسمين فقط من الحديقة! وعندما رأوني، هربوا.

قالت سارة ضاحكة:

ـ من يدري؟ أو ربَّما كان حديث الناس صحيحًا. قد تكون الدار مسكونة بجنّيٍّ يهوديّ جاي من بلاد اسبنيول كما يقولون؟

ـ هل صادفته يومًا؟

أشرقت ابتسامتها مع أوّل أشعَّة الفجر، التي كانت تحاول أن تخرج من رؤوس جبل الملك كوكو الحادَّة والرصاصيَّة.

ـ كلّ مساء يا عمِّي مراد أراه. ولكنَّه جنِّيٌّ ولد البلاد.

فهمت قصدها بسرعة. ما تزال إلى اليوم ابتسامتها عالقة بذهني، ولم تشخ أبدًا على الرَّغم من الزمن الذي مرّ عليها، وكأنَّ ذلك يحدث الآَن أمامي. قلت لها وأنا أحاول أن أدخل في لعبتها الشيِّقة نفسها:

ـ اللَّـه يعينك على جِنّك يا لالة سارة. الحِيَل أصبحت اليوم مكشوفة. كلَّما سمعت حكاية الجِنّيّ اسبنيولي، أدركت أنَّ العمليَّة جزء من سلسلة محاولات لتهجير الناس من هذا البيت. يدبِّرون كلّ المبرِّرات للاستيلاء على البيت والأرض. صنعة قديمة.

ـ البيت جميل يا عمِّي مراد، وكلّ عين تتمحن به عندما تراه. يجيك اليوم سليم؟

ـ المفروض. هكذا قال لي. سليم منظَّم، ولكنَّه أحيانًا هواوي. يغيِّر رأيه في كلّ لحظة بحسب مزاج مديره في المتحف الوطنيّ.

ـ سليم لطيف وحنون. والمرأة يا عمِّي مراد لا تطلب أكثر من ذلك.

ثمَّ تنهَّدت وأغمضت عينيها. شعرت لحظتها أنَّها أصبحت في قارّة أخرى. لم أفاجأ من كلامها. أعرف تقاربهما منذ اللَّحظة الأولى التي التقيا فيها، وأعرف أكثر من مجرَّد خزرتها وحركة عينيها، وحتى من الطريقة التي ترمي بها شعرها إلى الوراء عندما يسبقها وهي تفتح قلبها لسليم تحت الكرم العملاق، في الجهة الخلفيَّة من الحديقة. كلَّما حزنت، قرأ ذلك في عينيها الواسعتين اللتين يزيدهما الكحل اتِّساعًا. درستْ مع سليم الحقوق، هي توقَّفت عند الليسانس، وهو واصل حتى تخصَّص في حقوق التأليف والحقوق المجاورة، قبل أن ينتقل لتحضير دبلوم في علم المكتبات في إسبانيا، وينتهي به المطاف إلى المتحف الوطنيّ. الصدفة هي التي لاقتهما في هذا البيت. أتذكَّر كيف التقيا لأوَّل مرَّة. سبحان اللَّـه وكأنَّ هناك نظامًّا يصنع المساحات الخفيَّة التي تلتقي فيها القلوب. رآها من وراء الشِباك، كان

يشرب قهوة في الحديقة الصَّغيرة معي. شمَّ رائحتها قبل أن يرى وجهها. قام من مكانه. كانت تودِّع زوجها موح الكارتيل، وهي تلملم شعرها وتقبضه بالمسّاكة لكي لا تبعثره الرياح الغربية مثل الغجريَّة. لا أدري ما هي القرابة ولا ما هو الشبه بينها وبين حنّة سلطانة، ولكنِّي كنت دائمًا أشعر أنَّ بينهما شيئًا غريبًا، وتتشابهان إلى أقصى حدّ من الجنون.

صرختْ بأعلى صوتها عندما رأت سليم لأوَّل مرَّة:

ـ Ce n'est pas possible، سليم؟ مش ممكن عمري؟

ـ سارة! مارة! فارة! مهبولة وسحّارة... سارة... مارة... فارة....

وبدأ سليم يرقص رقصة شبيهة بالرَّقص الإفريقيّ، ويقهقه بأعلى صوته.

ـ سارة! مارة! فارة! مهبولة وسحَّارة... سارة... مارة... فارة....

ـ يا سليم، ما نسيت شيئًا، حتى الهبال تتذكَّره؟

ـ ماذا نتذكَّر إذا نسينا الهبال؟

ثمَّ ضحكا طويلًا. من يومها، كلّ ما زارني سليم في البيت، التقيا قليلًا تحت الكرمة العملاقة نفسها، عندما يكون زوجها، البغل القبرصيّ، غائبًا. شربا قهوة. ثمَّ انسحبا كلّ واحد في اتِّجاه. أعتقد أنَّها كانت تحبُّه.

وكلَّما غاب زوجها، انزلق سليم عندها لمساعدتها، ولاكتشاف خبايا البيت عبر المعبر السرِّيّ. سليم ارتبط بالبيت بشكل غريب. الوحيد من الأحفاد الذي ورث هذا الحسّ، وكأنَّ الزمن هذه المرَّة توقَّف عنده. أرشدته إلى ضرورة استعمال الممرّ السرِّيّ المؤدِّي إلى الجهة الأخرى الذي لم يكن أحد غيري يملك مفاتيحه، بدل المرور من طريق باب الحديقة المكشوف. الباب السرِّيّ مريح وغير لافت للنَّظر. مثل النفق السرِّيّ، يربط بين دار

الخدم والبيت الأندلسيّ. من جهة البيت، يعطي الانطباع كأنَّه مجرَّد حائط، يرتكن فيه صندوق متآكل، يشبه الصناديق الدمشقيَّة القديمة. كنت أظنُّه لأحد أجدادي، ولكنِّي أدركت فيما بعد أنَّ السيِّد جونار اشتراه عندما حوَّل البيت بعد ترميمه، إلى دار للموسيقى الأندلسيَّة: ***دار زرياب***. فقد أُلصقت بكتلته قطع من الحجارة المنحوتة، عندما يغلق الباب لا يبدو المكان إلَّا كزاوية مهملة لا تؤدي إلى شيء. القليل من العابرين على هذا البيت انتبهوا لهذه الزاوية! ويبدو أنَّ الممرّ بُني بشكل دفاعيّ ليحرِّر الشخص نهائيًّا من ضيق المكان عند الضرورة القصوى، ويسمح له بالخروج إمَّا إلى دار الخدم، أو من الجهة الأخرى المؤدِّية نحو المنحدر البحريّ، بحيث يستطيع الهارب أن يذوب بسهولة مع المارَّة أو مع الأشجار المحاذية. علينا أن نفترض غابة من الصنوبر والزيتون البرِّيّ، وحقول اللَّوز والبرتقال، التي كانت تحيط بالبيت، ممَّا كان يوفِّر فرصة الهرب السهل. رُدِمت الكثير من المرَّات عندما استقرَّت الأمور. المرمِّمون المتتالون حذفوا الكثير ولم يحافظوا إلَّا على هذا الممرّ. لم يغلقوه، لأنَّه كان يسهِّل مهمَّة الخدم للوصول إلى صلب الحديقة ودار الطعام حيث يسهر الزوار والضيوف.

أجبت سارة يومها وهي تسألني عن سليم، وكنت صادقًا:

ـ لا أعتقد يا ابنتي أنِّي رأيت حفيدًا يشبهه. يبدو أنَّ الطبيعة لا تجود دائمًا بأبناء ينشغلون بما نحسّه تجاه هذا المحيط. هو الوحيد الذي حمل على ظهره قصّة هذا البيت ونفَّذ وصيَّة جدِّه: **حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدمًا فيه أو عبيدًا**. أشعر كأنَّ هناك شبهًا كبيرًا بينه وبين جدّه الأوَّل: غاليليو الروخو. يمرّ زمن أحيانًا لا نجد من يحمل على ظهره شأن تدوين ما حدث في هذا البيت إمَّا خوفًا، أو أنَّ الوثائق اندثرت! ولكن في كلّ لحظة ميِّتة، يأتي مجنون يضع ذاكرة المكان في كفِّه، ثمَّ يوقدها كقنديل زيتيّ. تصوَّري يا

سارة، إلى اليوم ما زلت أشمَّ روائح كلّ من عبروا من هنا، منذ أكثر من أربعة قرون. أشمّ عطر النساء، وأحدِّد حتى الاختلافات الموجودة عندما يسيل على بشرة الأجساد النديَّة: هذا عطر الياسمين الأشبيلي، هذا من رحيق مسك اللَّيل، هذه استحمت بقشور اللَّيمون والبرتقال، وتلك وضعت في نحرها وبين نهديها عطر الغواية الذي لا أحد يعرف تركيبته وكلّهنّ ينسحبن نحوه. أحسّ الوجوه وعلامات حيرتها. أسمع الصرخات القادمة من بعيد وأحدِّد مصادرها وأسباب نزفها. لا شيء يمرّ بالصدفة في هذا البيت. لقد سجنني. وأعتقد أنَّ كلّ الذين أحبُّوه، سُجنوا فيه، لا استطاعوا أن يدوموا فيه، ولا تمكَّنوا من تركه، حتى ماتوا فيه أو على حوافّه.

ـ من عينيك، يا عمِّي مراد يُقرأ كلّ شيء، حتى أسرارك التي تحملها في قلبك. أعرف جيِّدًا أنَّ ظنَّك لن يخيب في سليم. ربِّي يحفظه لك.

ـ ويحفظك أنت أيضًا لنا. غيرك كان يمنعنا حتى من الدُّخول إلى الحديقة. أنتِ أيضًا سندنا في هذا البيت. فيك شيء من روح حنّة سلطانة.

ـ من هي حنّة سلطانة؟

ـ حنّة هي الجدّة في لغتنا. سيِّدة هذا البيت الأولى قبل خمسة قرون.

ـ ياه.. يا عمِّي مراد. تتحدَّث عنها بحماس وكأنَّك عرفتها حقيقة.

ـ أكثر من ذلك، ربما كانت تشبهك حتى في الغمَّازتين اللتين ترتسمان على خدَّيك كلَّما ضحكتِ، وسماحة وجهها، وشعرها الأحمر الطبيعيّ!

ارتبكت قليلًا واحمرَّ وجهها.

ـ راك تشوف يا عمِّي مراد. كلّ واحد وسويرته[1]. لو كان الزمنْ زمنْ، ما كنت مع هذا البغل القبرصيّ كما تسمِّيه. ولكن...

(1) وتعني الحظ. أصل الكلمة إسبانيّ Suerte.

صمتت قليلًا، ثمَّ واصلت:

ـ كلُّ شيء تهرَّس يا عمِّي مراد، وكأنَّه جرَّة رُمي بها من الأعالي. أتحمَّل هذا البغل القبرصيَّ لأضع عائلتي خارج الحاجة. الأب أعمى، الأمّ مصابة بكلّ أمراض الدُّنيا، ضغط الدم، السكَّري، القلب، والآن الفشل الكلويّ. هل هناك حظّ أكثر من هذا؟ فوق هذا كلّه، ثلاثة أخوة فالسو[1]. الأوَّل يقضي بقيَّة حياته في السجن لأنَّه ضُبط يهرِّب الكيف والحشيش. باعه أصحابه بالرَّخيص. الثاني لا نعرف له مكانًا، خرج وضاع في المدينة. كان لا يرى أمِّي إلَّا مرَّة واحدة في الشهر، في المكان الذي يحدِّده هو. تقول إنَّ لحيته طويلة وأصبح مخيفًا، ولا يسأل إلَّا عنِّي، إذا توقَّفت عن العمل أم مازلت في كفري؟ يشترط عودته إلى البيت بتوقُّفي عن العمل، قبل أن يوجد مقتولًا على حافَّة البحر. دفنَّاه ليلًا لكي لا يسألنا أحد عنه. أمِّي هي التي شاءت ذلك. قالت هذا ابني وأعرف جيِّدًا لماذا أدفنه ليلًا. الأصغر هجَّ إلى إسبانيا في فلوكا، ولا أحد يعرف أخباره. وأنا أبيع شبابي لهذا البغل القبرصيَّ. لم نتزوَّج بعد، في كلِّ مرَّة يقول لي قريبًا، ولكن يبدو أنَّ الأمر ما يزال طويلًا. أموره خطيرة وكثيرة. أتمنَّى أن أستطيع أن أرجعه إلى طريق أقلّ جنونًا وجشعًا. دينه المال. مشى مع الإسلاميِّين فترة، أوصلوه حتى البرلمان، ثمَّ تركهم عندما دارت الدوائر عليهم. كانوا يريدونه لماله ولسطوته. أحرقوا سيَّارة اللِّيموزين التي كانت حصانه في حملته الانتخابيَّة على عكس الآخرين الذين لعبوا لعبة الفقر، ولكنَّه استطاع أن ينفذ بجلده من كلّ العيون. علاقاته مع النافذين في السُّلطة، كلّ يوم كانت تتَّسع أكثر، حتى أصبح، مع فتح السوق، هو المستورد الأوَّل للحديد والإسمنت.

(1) أصل الكلمة إسبانيّ وتعني: الشيء الغلط.

ـ زمانهم يا ابنتي. لهم قدرة غريبة على التحوُّل ممَّا يمنحهم حياة أطول.

رأيتها عندما صعدت، وعندما دخلت إلى غرفتها. أحسست بنقرات حذائها الناعم. تحسَّستها وهي تستلقي بجانبه. كان البغل القبرصيُّ قد بدأ يتمطَّط في فراشه، كمن يريد أن يعطي لجسمه طولًا أكثر من طوله الحقيقيّ. تخيَّلته وهو يسألها آمرًا.

ـ من ساعة ما سكنَّا في هذا البيت وأنت مذعورة؟ قلت لك لا يوجد أيّ شيء. يبدو أنَّك لا تثقين في سطوتي وقوَّتي. ما تعرفيش واش نكون؟ من يجرؤ على فتح فمه أمام موح الكارتيل... موح الكارتيل؟

ـ عمِّي مراد أيضًا سمع الصوت نفسه، ويؤكِّد أنَّه رأى أربعة أشباح؟

ـ مراد باسطا؟ مسكين! اللَّـه يعينه. مصاب بداء الخرف، أو هو في طريقه إلى ذلك! لا يرى في هذا البيت إلَّا أشباح الماضي التي ستقتله يومًا. كَبُر. اللَّـه غالب. إذا استمرَّ على هذه الحركة سينتهي به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقليَّة. يتهاوى كلّ يوم قليلًا.

ـ عقله أصفى من شابّ يحسب روحه!

هكذا تخيَّلتها تردّ عليه بحدَّة.

كان كلّ شيء فيها لذيذًا: نظراتها، ملامحها، وجهها، تفاصيل جسدها، نهداها السخيّان، استقامة جسدها وامتلاؤه الجميل، أصابعها الطويلة، عيناها النيليَّتان السوداوان، شفتاها الممتلئتان بقوَّة. تعرف جيِّدًا كيف تجعل البغل القبرصيَّ ينصاع لها بقوَّة وجبروت جسدها. تعرف وظيفتها جيِّدًا. في يوم قالتها بصوت عال لسليم وهي تبكي في الحديقة. كانت كوَّة الغرفة المطلَّة على الحديقة الخلفيَّة، نصف مفتوحة، سمعت كلّ المحاورة التي قرَّبتها من قلبي أكثر. أحسست بصدقها العميق والحادّ:

ـ من أكون في اعتقادك؟ لست أكثر من قحبته التي كلَّما احتاجها، وجدها بجانبه، وعليها أن تمارس ليس فقط دور العشيقة الولهانة، ولكن أيضًا دور القحبة العارفة لشؤون الجسد والأوضاع التي يشتهي ممارستها.

ـ يا عمري! أنا لم أقل هذا أبدًا، ولا يمكنني حتى أن أفكِّر فيه.

مضى على ذلك الزمن وقت كبير، ولم تعد إلَّا أصواته ونداءاته تملأ المكان.

حيرتي في ذلك الفجر لم تكن أقلّ من حيرة سارة. عندما دخلت إلى البيت، وجدت فراشي مبعثرًا، الوسائد مفتوحة، وكلّ كتبي القديمة في الأرض. لم أفهم كيف حدث ذلك في ظرف دقائق معدودات؟ يبحثون عن ماذا؟ المرَّة الثالثة. الأولى قال لي سليم إنَّها مجرَّد محاولة سرقة. في المرَّة الثانية لم يكن المبرِّر كافيًا، لأنَّهم لم يأخذوا لا أوراقي النقديَّة، ولا أيّ شيء آخر. ولكنَّنا تفطَّنّا نحن الاثنين، في الوقت نفسه للمخطوطة. كان مخبأها في المكان الفاصل بين البيت وداري. لن يجده الجنِّيُّ الأزرق.

قلت لسليم الذي ظلَّ غاضبًا منِّي:

ـ لا. سبب السرقة. غير وارد.

ـ يا جدِّي.. ألم أقل لك إنَّ مكان هذه المخطوطة الثمينة هي المتحف أو المكتبة الوطنيَّة؟ ستسقط يومًا بين أيدي سماسرة لن يتوانوا عن بيعها أو حتى عن حرقها، إذا كان ذلك سيفيدهم في شيء.

لم أكن في حاجة إلى تفكير عميق. لكنَّ صمتي شغله.

ـ هل اقتنعت يا جدِّي أخيرًا؟ المتحف في مصلحة المخطوطة.

ـ هل تدري ماذا تقول؟

ـ طبعًا!

ـ أنت تطلب منّي أن أرمي بنفسي من أعلى بناية في المدينة. نيَّتك طيِّبة ولكنَّهم قَتَلة. ستظلّ المخطوطة في مكانها السرِّيّ الذي لا أحد غيري وغيرك يعرفه. يوم أموت، أمنحك حقّ وضعها في المتحف. تظنّ أنَّها في مأمن هناك؟ عندما تعرف أنَّ مسؤولًا كبيرًا أهدى أجمل اللَّوحات الفنِّيَّة لدولاكروا وغوغان لمسؤول فرنسيّ أثناء زيارته لبلادنا؟ أنت تعرف هذا جيِّدًا، وربَّما أحسن منِّي. ماذا لو زارنا مسؤول إسبانيّ أو تركيّ، ستُهدى له حتمًا هذه الورقات التي ربَّما لا معنى لها إلَّا عندي. صحيح أنَّ المتحف صيانة، لكنْ في حالة واحدة، عندما يكون بالمتحف من يعرف حقّ الوثيقة التي بين يديه. كلّ شيء أصبح يُباع ويُشترى يا ابني في هذه الأرض، ونحتاج إلى زمن آخر لتغيير هذا الألم النازف.

صمت سليم يومها، وغرس عينيه الخجولتين في الأرض. عادته عندما لا يجد إجابة.

ثمَّ خرج نحو عمله، ولم يقل أيَّة كلمة.

البرد ما يزال قارسًا وجافًّا.

عندما اخترقت أشعة الشمس الشتوية ستائر الصباح الأولى، كنت قد جلست وراء مكتبي. سأتذكَّر ذلك اليوم طويلًا حتى عندما يُطوى ما تبقَّى من الحياة، لأنَّها كانت المرَّة الأولى والوحيدة التي لمست فيها المخطوطة بشكل غريب، يكاد يكون إحساس الذي سيترك الدُّنيا وراءه بعد مدَّة قصيرة. كنت خائفًا عليها، وأنَّ سارقًا أو جحيمًا ما كان يتهدَّدها. لمستها بحذر خوفًا من سقوطها وتبعثرها كجناحيْ فراشة. المرَّة الوحيدة التي انزلقتْ فيها من يدي ولم تمسس الأرض، شعرت كأنَّ شيئًا سقط على رأسي فضغطه حتى كسره. كلَّما فلَّيتها في أوقات العزلة، وجدت فيها شيئًا يشبهني، أو أشبهه. كتاب تحرَّك بين أيد يمكن عدُّها على رؤوس الأصابع حتى وصل إليَّ مليئًا بالغموض والخوف، وأحيانًا بالدمّ والرَّماد. هُرِّب كثيرًا خوفًا من ضياعه، وخُبِّئ آلاف المرَّات من القَتَلة والسارقين، وربَّما الصدفة الطيِّبة هي التي جاءت به نحوي. كأنَّ يدًا خفيَّة ما ليست ككلّ الأيادي،

كانت دائمًا حاضرة لحمايته ولتوصيله إلى برّ الأمان. كنت متأكّدًا من أنَّه لم يكن كتابًا عاديًّا، ولا مخطوطة دينيَّة تتداولها الأيدي ثمَّ تنساها. ما كان بها من معلومات وأسرار، لا شيء يضاهيه. ربَّما لأنَّه يهمّني بشكل خاصّ.

حين وضعتها بين يديَّ، في ذلك اليوم الممطر، بدت رائحة الزمن الذي فيها، قريبة منِّي، بل فيَّ. حين فتحتها، لم أعد قادرًا على السيطرة على أحرفها ونداءاتها الداخليَّة وخوفها. رأيت وجوهًا مرَّ عليها اليوم أكثر من أربعة قرون، حيَّة ومليئة بالحيرة والأسئلة الخفيَّة. قرأت في عينيها ذعرًا لم أعهده في بشر أعيش معهم كلّ يوم. اندفعت الأزمنة المتعاقبة التي كانت فيها بقوَّة لم أكن قادرًا على تحمُّلها. لأوراق المخطوطة رائحة خاصَّة جدًّا، لها مفعول غريب على كلّ حواسي الباطنيَّة. كنت مندهشًا أمام اليد التي كانت تلوي نهايات الحروف المغربيَّة، في الأخير، مثل الذي يسبك ذهبًا ويعطيه الشكل الذي يريد. كلّ حرف كان محمَّلًا بالأصوات والأنداء والنداءات والحنين. كان عليَّ أن ألمس ذلك كلَّه قبل أن أغلقه من جديد للمرَّة الأخيرة. ربَّما...

الغريب أنِّي في اللَّحظة التي فتحت المخطوطة، أثارني الخبر الذي أذيع في التلفزيون في النشرة الصباحيَّة، كأنَّ يدًا قويَّة سحبتني باتِّجاهه. لم تكن قناة الجزيرة، وهي تعلن الخبر، تريد أن تركِّز عليه طويلًا. مراسلها الرئيسيّ طُرد قبل مدَّة، الصحفي الذي تمَّ الاتِّصال به، لم يورد شيئًا سوى ما قالته صحيفة **الشاهد اليوميَّة** التي تخصَّصت في كلّ ما له صلة بالفضائح.
كان الخبر باردًا ومرًّا هذه المرَّة:

إسماعيل ماجد السامرائي.. وُجد مقتولًا، في غرفته، في نزله الكائن بشارع الحرِّيَّة. لا يمكن ذكر اسم النزل حفاظًا على التحقيق. المقتول من جنسية عراقيَّة، جاء إلى الجزائر بعد حرب الخليج الأولى، وكان يشتغل في مكان حسَّاس، ويعيش لاجئًا سياسيًّا.

الراديو الذي لا يتوقَّف أبدًا، أكَّد الخبر نفسه. أنا لا أحبّ التلفزيون كثيرًا، أشعر أنَّه مضيعة للوقت أو كذبة جميلة، تجعل من الوهم حقيقة لثوان أو لدقائق، أو لساعات، أو لعمر. ربَّما لست مقياسًا لهذا العالم المتحوِّل، لكنَّ الراديو أفضل.

ضحكت في أعماقي، لأنَّ كلّ من يعرف شارع الحرِّيَّة، يدرك جيِّدًا أنَّه لا يوجد إلَّا نزل واحد في الشارع، وهو نزل السلام Hotel de la paix. ثمَّ لماذا يتحدَّثون عن المكان الحسَّاس ولا يسمُّونه؟ بينما الجميع يعرف الحقيقة السرِّيَّة، بما في ذلك الوكالة الدوليَّة للطاقة؟ يخافون ممَّن؟ الكلّ يعلم أنَّ الدكتور إسماعيل ماجد السامرائي كان يشتغل في المفاعل النوويّ العراقيّ قبل أن يتحوَّل إلى البرنامج النوويّ السلميّ لعين وسارة؟ أم لهم شكوك في أنَّ البرنامج غير سلميّ؟ وأنَّ قتله يثير الكثير من الشبهات، أولاها الموساد، أو حتى الذين أخذوا مقابلًا لذلك، تصفية جسديَّة؟ شعرت أنَّ في الخبر حلقة مفقودة لم أكن قادرًا على فهمها، ولا أفهم العلاقة الرابطة بينه وبين ما قرأته في جريدة **الشاهد اليوميَّة**، عن شاب جزائريّ، ألقت عليه السلطات المحلِّيَّة القبض في المطار وهو يستعدّ للسَّفر إلى تونس للقاء صديقته الرُّومانيَّة. قيل إنَّ الأمن كان يريد حمايته من اختطاف مؤكَّد لاستغلال عقله الخارق. هل البلاد التي لا تتوقَّف خطاباتها الثوريَّة وأناشيدها اليوميَّة واستعداداتها العسكريَّة، حتى بعد مرور قرابة النصف قرن عن نهاية الحرب، مُختَرَقَة إلى هذه الحدِّ؟

وضعت الخبر الذي سمعته في قاعة الانتظار، في مخِّي المكوَّن من أكثر من عشرات الآلاف من قاعات الانتظار، بعضها أفتحه يوميًّا، وبعضها بالمناسبات، والبعض الآخر، سنوات عديدة تمرّ من دون أن ألتفت نحوه، حتى تأتي اللَّحظة التي لا تقبل أيَّ انتظار، فينتفض بعنف. وهناك قاعات انتظار فُتحت مرَّة واحدة، رأيت أثاثها الأوّليّ، شممت عطرها، ثمَّ نسيتها نهائيًّا،

وقد أذهب بها نحو القبر، مغلقة إلى الأبد، حياتي الخاصَّة. نسائي. قضية معقَّدة، تمنَّيت أن أجد الشجاعة الكافية لقولها لماسيكا، ولكنِّي لم أفلح.

واصلت تقليب أوراق المخطوطة، ثمَّ أغمضت عينيَّ قليلًا، بحيث لا أترك إلَّا انفتاحًا صغيرًا يتسرَّب منه نور الصباح. كانت الحياة قد بدأت تدبّ في كلّ شيء ميِّت في الحديقة وساحة البيت. المطر العاصف خفَّ، وأصبح ناعمًا يندِّي كلّ النباتات. شجرة اللَّيمون التي تمايلت كثيرًا حتى كاد جذعها أن ينكسر، سرعان ما تداخلت مع الأشجار المحيطة بها، قبل أن تستقيم وتميل من جديد من الجهة الأخرى. كلُّها ملقَّحة من الشجرة الأولى التي جاء بها جدِّي غاليليو، وحنّة سلطانة من أرضهم الأولى. أقدم أشجار الحديقة التينة، التي لم تعد اليوم تنجب شيئًا واضحًا، بدأت تتعرَّى في الكثير من أجزائها، ولم يبق فيها إلَّا النسغ القليل من الحياة، بعد أن قتلتها الأدخنة والمياه الملوَّثة. أصبحت الكثير من الأشجار عمياء كما يقول كبار المدينة.

رميت بصري بعيدًا. لم يستطع الحائط العالي أن يغطِّي على امتداد الحديقة الكبيرة التي عاصرتها قبل أن يأكلها الباتون المسلَّح والأحجار الثقيلة، وحقول الكرمة التي كانت تسرح على مدّ البصر. حتى النافورة التي صدئت حنفياتها، وأصبحت كالجثَّة الرُّخاميَّة الميِّتة، وسط حديقة البيت، بدت لي فجأة في أيَّام عزّها الأولى، بمائها الصافي العذب وهو يرتفع عاليًا في شكل رذاذ ناعم، مختلطًا بهمهمات الناس الذين كانوا يجلسون حولها، يتبادلون نشوة الموسيقى التي كانت ترميهم بعيدًا نحو زمن لم يعد موجودًا، وينقرون كؤوسهم في شنشنات لا يتوقَّف رنينها مختلطة مع رنين الخلاخيل والمياه، التي لا تقاوم رعشة الموسيقى.

في لحظة اللَّحظات، والأمطار تكسِّر ملامح الأشياء من وراء الزجاج، بدا لي أنِّي سمعت صوت حنّة سلطانة بلاثيوس نقيًّا ودافئًا، وهي تدوزن

بحنجرتها وأناملها الناعمة، العود كما تعوَّدتْ أن تفعل كلَّما كانت السهرة جميلة وبها من تحبّ. ثمَّ ترفع الريشة التي في يدها عاليًا، فتتجاوب معها بقية أفراد الفرقة النسائيَّة: جهاركا[1]، لاكاسا دي أندلسيا[2] التي أسَّستها، وهي تئنّ على زمن مضى وانقضى:

يا من لي بقلبٍ

أشتكي منه بالضنى...

وقلبي... أشكو منه بالخفقان...

متأكِّد من أنَّ الأصوات لا تموت. شيء منها يبقى عالقًا في الأشجار والأحجار، والهواء. كلَّما انتابني صوت على حين غفلة، سمعت حنين حنّة سلطانة الجميل الذي لم يكن يضاهيه أيّ صوت آخر. كانت في لباسها الأندلسيّ الفضفاض المصنوع من الحرير والساتان الهنديّ والصينيّ، المطرَّز بالياقوت واللؤلؤ وأحجار البندقيَّة الجميلة، كانت كأنَّها جسد معشَّق بكلّ الألوان. يصعد ماء النافورة عاليًا. تخترقه الأضواء الناريَّة والهادئة، الأحمر والبرتقالي، الأصفر، الجوريّ، وخليط من الأزرق الضبابيّ والأخضر، النازلة من أعالي الأسقف، تنعكس على الماء وكأنَّ كلّ الأجسام ترقص، الوجوه والزنود العارية التي تتحرَّك في شكل موحَّد صعودًا ونزولًا في عزف لا يتوقَّف أبدًا على العيدان، تحت همهمة الناس الذين يتغامزون على الراقصة، وعلى عطرها الشهيّ الذي يوقظ النفوس والحواس الميِّتة، الراقصة التي لا تتوانى، وهي تعرف انكسارهم وذبولهم، أن ترشّهم بماء الياسمين الذي كان جدِّي غاليليو الروخو يصنعه بيديه. كان يقطف الياسمين والورود

---

(1) مقام من مقامات الموسيقى الأندلسيَّة، تؤدَّى فيه الأنغام الرَّقيقة والحادَّة. أكثر ارتباطًا بكلّ ما له علاقة بالحنين.

(2) أصل الكلمة إسبانيّ، وتعني البيت الأندلسيّ.

الناعمة والنوَّار والنباتات الخاصَّة، من حديقته، ثمَّ يضعها في إناء واسع بعد أن يغسلها، ويخلط معها مجموعة من السَّوائل لم يعرف أحد تركيبتها غيره. ثمَّ يغلي الكلّ في إناء قديم بأنبوب ملتوٍ مثل الآلات النَّفخيَّة النحاسيَّة، ينتهي بشكل يشبه القمع، تنزل منه قطرات محمَّلة بعطر رائق هو عطر الياسمين. يغلق عليه في إناء آخر لأيَّام، ثمَّ يخلط السَّائل في محلول زيتيّ مخفَّف بمختلف العطور، ويضع بعدها الكلّ في قناني مختلفة. كانت هوايته في أوقات فراغه، عندما يعود من سوق الذهب أو من رحلة بحريَّة. كانت حنّة سلطانة تهدي بعضها لصديقاتها من فرقتها ولزوّارها الخواصّ من وجهاء المدينة وعشَّاق الموسيقى. كان يسمِّيها عطور سلطانة. عندما قيل له لماذا لا تضعها في سوق الجمعة. قال: سوق الجمعة للعصافير وللأشياء الميِّتة. عطر سلطانة هو عطر سلطانة، لا يُباع ولا يُشترى. يُهدى من القلب وإلى القلب فقط. والدي كان هو الوحيد الذي اختار صنعة العطور هذه، وبنى مصنعًا صغيرًا سمَّاه: *عطور لالة سلطانة*. استمرَّ طويلًا في المدينة العربيَّة قبل أن تهدمه الآلات الضخمة في الفترة الاستعماريَّة، عندما أُدخل جزء من الحيّ القديم في المدينة الأوروبيَّة الجديدة.

كلّ شيء تغيَّر فجأة أمام نظري. تسرَّبت إلى أنفي روائح عطر الياسمين الأندلسي، الذي كانت تتنفَّسه النساء، لأنَّه يوقظ فيهن شهوة التعطُّر بماء الورد والاستحمام بماء قشور الرمان والبرتقال واللَّيمون الذي يقال عنه منذ زمن بعيد، إنَّه يوقظ الحواس الميِّتة، ويحافظ على صلابة الجسد ويمنع الارتخاء الجلديّ من التكوُّن. يتسرَّب شيئًا فشيئًا، قبل أن يعمّ كلّ الغرف التي يتكوَّن منها البيت الأندلسيّ: الصالة الكبرى بكلّ ملحقاتها، التي كانت تنفتح على الحديقة قبل أن يغطِّيها حائط سميك، دار الضيوف المكوَّنة من صالة واسعة، وأربعة بيوت صغيرة مجهَّزة بكلّ المنتفعات الصحِّيَّة. المطبخ الواسع الذي يفتح على الحديقة بمخادعه

المتعدِّدة التي كثيرًا ما كانت تخصَّص لخاصَّة الضيوف، الحمَّامات التي تحتوي على مغاطس رومانيَّة جيء بها من تيبازة إلى هذا المكان في القرن التاسع عشر عندما تمَّ تحويل الدار إلى إقامة لنابليون الثالث. بيت الرَّاحة الملازم للمطبخ، الذي كان يرتاح فيه الطبَّاخون، والمنظّفون، وعمَّال الحديقة. ثمَّ دار الخدم، وهي المكان الذي كان ينام فيه الساهر على تسيير الدار وكبير الخدم. استقرَّت فيها عائلتي نهائيًّا بعد أن انفصلت عن بقية البيت، وأُغلق الممرّ السرِّيّ الذي كان يشكِّل نفقًا تحتيًّا تمرّ عبره الأطباق، والأفرشة، ومنه تؤخذ الأشياء غير الصالحة، ويتمّ تخليص البيت من كلّ أثقاله بشكل سرِّيّ. أصبحت الوحيد الذي ما يزال يملك سرّ العبور. لدار الخدم باب أو معبر بوجهين. الوجه المتوغِّل في البيت، ولا يبدو منه أنَّه باب. فهو جزء من الحائط، حتى أنَّه بُني بشكل يُشعرك أنَّه عبارة عن حجارة وليس بابًا، مغطًّى بصندوق دمشقيّ قديم. من الجهة الخلفيَّة، جهتي، لولا عين المفتاح القديم، لا يشعرك بأنَّه باب. وزجاج الغرف المطلَّة على الحديقة وعلى ساحة الدار، ثمَّ غرف الدور الأوَّل التي تحتوي على دار الرقاد، ودار العرسان، ودار العويتقات، ودار الأولاد، وصالة الراحة التي كثيرًا ما كانت تتحوَّل إلى مكان للسهرات التي تستمرّ حتى الفجر.

في هذا البيت روائح كثيرة، بعضها تداخل مع الرَّوائح الجديدة حتى مات فيها، وبعضها ما يزال يقاوم. كلَّما شممتها، شعرت بنفسي في زمن غير هذا الزمن. الرَّوائح أيضًا لها ذاكرة، وفي ذاكراتها أنسجة قادرة على الاستمرار طويلًا. العارفون قادرون على تفكيكها ووضعها في تواريخها المناسبة.

«أستغرب أحيانًا كيف أزكم الزمن أنوفنا، ولا ننتبه لكلّ هذه التفاصيل!»

عندما رفعت رأسي قليلًا صوب الأعالي، رأيت أنَّ الضوء ما يزال مشتعلًا في غرفة سارة. لم أستطع أن أكتم أنفاسي: بغل قبرصيّ، أو ربَّما

ضبع، ينهش غزالة. لابدَّ أن يكون شيء ما، غامض إلى أقصى الحدود، قد قادها نحو هذا المكان! جاذبية مبهرة، لا تقاوم. سلطانة بلاثيوس، كانت في جمالها بلا شكّ، وفي زهوها واستقامة جسدها، ورشاقتها. لكنَّ جسد حنّة سلطانة ظلّ سرّها العظيم الذي لا يعرفه إلَّا الرجل الذي أحبَّته وغامرت من أجله وهجرت عائلتها. كانت مستعدَّة للموت والسَّفر في بحر لم تكن تعرف عنه الشيء الكثير. لولا أخوها الدون فريديريكو دي طوليدو، لأكلتها القفار، وخلاء المدن البعيدة.

أعدت تسخين كأس الياسمين بعد أن بردت، وشربتها. تلذَّذت بطعمها طويلًا كما كان يفعل جدِّي غاليليو الروخو، سيدي أحمد بن خليل، عندما يستعدّ للعمل والكتابة. شعرت بالسَّائل ينزل في أمعائي، في خيط شبه مستقيم، دافئًا، ناعمًا، يعطيني وضوحًا في الرؤية. كانوا يشربونه لتزداد شهوتهم للحياة، مع قطعة صغيرة من عود النوَّار، كانت توضع تحت اللِّسان، تحرقه قليلًا ولكنَّها تعطِّره بقوَّة. طاقته كبيرة، ويخلِّف رائحة طيِّبة في الفم.

فتحت قفل المخطوطة الجلديّ بهدوء كمن يخاف من اندثار شيء ثمين. ليس كالمرَّات الماضية. تسرَّبت رائحة قديمة تشبه رائحة المصاحف العتيقة. الصفحات الأولى كتبت بالخيميادو[1]. حاولت في ذلك الزمن الذي أصبح اليوم بعيدًا، أن أفلّيها كلمة كلمة، ولكنْ عبثًا، على الرَّغم من معرفتي للغة الإسبانيَّة، وحتى القشتاليَّة التي كان أجدادي يتكلَّمونها، كنت أقرأ الحروف بدون أن أتوصَّل إلى فهم معيَّن للجملة. كانت مجرَّد رسومات والتواءات بالحرف العربيّ. قضيت سنوات أنتظر من يفكّ لي أسرارها الغامضة، حتى عاد سليم من إسبانيا بعدما انتهى من تكوينه المكتبيّ، فسهَّل عليَّ كشف الطلاسم المعقَّدة. استطاع أن يتعرَّف

(1) هي لغة الموريسكيِّين الأندلسيِّين السرِّيَّة التي كتبوا بها نصوصها وتاريخهم وحتى النصّ القرآني الكريم.

على اللُّغة السرِّيَّة للموريسكيِّين التي كانت تحمي جنونهم وحماقاتهم وأشواقهم ودينهم. وفسَّرها لي حرفًا حرفًا، كلمةً كلمةً، جملةً جملةً، فقرةً فقرةً، وصفحةً صفحةً.

الزمن قاس. أوراق المخطوطة بدأت تذبل في بعض مواقعها بعد أن علتها الصفرة ودودة الورق التي خرّمتها في بعض جوانبها التي اشتهى سليم ترميمها في المتحف. هناك بعض الجمل التي انمحت نهائيًّا، ولكنِّي فكَّكتها مع سليم. يمكن معرفتها بجهد قليل. لكن إذا استمرَّت المخطوطة على حالها ستتحوَّل إلى طلسم عام، هذا ما كان يُقلق سليم:

«ـ يا جدِّي. المخطوطة مثل الكائنات تعيش بالاهتمام، وتموت بالإهمال. يجب أن ندخل الكتاب للترميمات في المتحف الوطني، قسم المخطوطات، أو في المكتبة الوطنيَّة. لدينا أقسام مجهَّزة لهذا الغرض ستنتفع منها المخطوطة.

ولكنِّي لم أقبل أبدًا أن توضع المخطوطة في متحف.

ـ لا مكان لها إلَّا هذا البيت الذي وُلدتْ فيه. يوم يُعاد الاعتبار لهذا البيت، سأضعها تحت تصرُّف كلّ من يشتهي لمسها وقراءتها».

ومع ذلك، ظلَّ سليم هو أقرب أحفادي، وأكثرهم حساسيَّة. الوحيد الذي كان يملك فضول كشف النِّقاب عن سيرة العائلة في هذا البيت. كان منشغلًا بالحفاظ على هذا المكان، حتى ولو حُوِّل إلى معهد للموسيقى، أو متحف صغير تُعرض فيه بعض الآثار والمقتنيات الموريسكيَّة والتركيَّة مثلًا، أو أن يُعاد إلى وظيفته كدار للموسيقى، تسمية ***زرياب*** التي جاء بها جونار كانت جميلة. لقد درس سليم علم المكتبات، وحضَّر دكتوراه في كيفيَّة البحث وحفظ الوثائق. اختار دراسة أربع مخطوطات موريسكيَّة قديمة: الأولى، نسخة نادرة من **ألف ليلة وليلة**، هرَّبها الشَّيخ ابن الفقّون

مع مخطوطات أخرى، من بلنسيا إلى قسنطينة. قام سليم بجمع فصولها، والتَّعليق عليها. الثانية، **القرآن الموريسكي**، وجده عند العائلة نفسها، كُتِبَ بالخيميادو، أمضى زمنًا طويلًا يحاول فكّ رموزه. أقام في إسبانيا مدَّة أربع سنوات، في مِنحة تكوينيَّة، وتعلَّم تفكيك أسرار تلك اللُّغة الهاربة. لا أدري كيف ذهب نحو الإسبانيَّة في وقت مبكّر، وكأنَّ صوتًا عميقًا كان يناديه من الأقاصي. سليم، في حركته ودأبه، يشبه المحقِّق الغارق في قضية نادرة، لا يستسلم فيها أبدًا حتى للّحظات الأكثر صعوبة. مخطوطة ثالثة شغلته في بحثه، هي **نفح الطيب** للمقرّي، كاملة وغير منقوصة، تختلف في الكثير من جوانبها عن النسخة المعروفة بين الناس، بها تفصيلات سقطت من الطبعة الأولى. ومخطوطة جدِّه النادرة التي أقامت الدُّنيا ولم تقعدها: **أوراق غاليليو، سيدي أحمد بن خليل**، التي حكى فيها عن أيَّام الخروج الأكبر.

لا أحد ممَّن عرفتهم كتب عن أحداث القرن العشرين التي مرَّت بالبيت. شعرت كأنَّه جاء دوري في تجميع أشلاء أخبار هذه الحجارة المرصوصة التي مسَّتها أياد كثيرة وحوَّلت جزءًا كبيرًا منها. معنيّ إلى أقصى حدّ بما تبقَّى، وما أعرفه وأحفظه. لم يفت الأوان بعد لقول ما لم أقله من قبل. ولن يبدو على المخطوطة أيّ انكسار. أعرف جيِّدًا قراءة الخط المغربيّ والكتابة به أيضًا. به كانت تتمّ كلّ التدوينات الرسميَّة والقضائيَّة حتى في الفترة الاستعماريَّة. قرن بكامله لم يتمّ تدوينه، وعليَّ أن أفعل ذلك بنفسي قبل فوات الأوان موصلًا علاقتي بجدِّي الأوَّل الذي أشعر بجاذبيَّة غريبة نحوه.

كانت ملامسي متعبة، مرتجفة، تنزلق على المخطوطة كعازف يبحث عن نوتته الموسيقيَّة الضائعة على بيانو قديم. كنت أعوم فوق ماء كان خليطًا من السَّوائل والأملاح والرياح. تناهى إلى أنفي الحادّ عطر الحبر الذي جفّ، ولم تجف رائحته البنفسجيَّة. أصبح فجأة كلّ شيء على مرمى بصر،

قريبًا من نداءاتي وأناملي. رأيت جدِّي الروخو، سيدي أحمد بن خليل، وهو يرسم أولى حروفه على ورق مهرَّب من السفن الإسبانيَّة، ويرصف الكلمات حرفًا حرفًا، وأنينًا أنينًا، ورعشةً رعشةً. كانت جُمَله تتنفَّس بصعوبة بين يديه وبين شقوق القلم، متحسِّسة أصوات الخارج وهدير البحر والسُّفن الغامضة وسرّ العيون المشبوهة.

رتَّبت النظّارة من جديد لكي لا يفلت منِّي أيّ إحساس، وأيّ حرف، واستنفرت حاسَّة الشم مثل حيوان برّيّ . بدأت في تهوية الأوراق التي كانت ملتصقة بعضها ببعض. فجأة رأيت الحروف والكلمات تتحرَّك وتتحوَّل بين يديَّ إلى أسنَّة بنادق، ورؤوس سيوف، وسكاكين، وغبار، ومسحوق بارود، وسفن حربيَّة مليئة بالبشر. ثمَّ سمعت هدير البحر وانفجارات جافَّة كانت قريبة من دمدمة الرُّعود على جبال البشرات، ونداءات الاستغاثة التي كانت تأتي من بعيد بشكل شبه مكتوم.

فجأة، شعرت برغبة في إغماض عينيَّ قليلًا، إذ لم أعد قادرًا على تحمُّل الضوء الذي تسرَّب قوِّيًا من بين فجوات النوافذ المغلقة، ومن الكوّة العالية.

سكنت شعاعًا حادًّا، وبدأت أمشي على الشفير الحادّ للذاكرة، وكأنِّي كنت أكتشف أرضًا بكرا لأوَّل مرَّة. كلّ شيء بدأ من تلك اللَّحظة المفعمة بالخوف. فجأة، تحوَّلت الحروف والأبجديَّات النائمة إلى عاصفة حادَّة، لم أكن قادرًا على تحمُّلها ولمسها. جاءتني، بقوَّة، أصداء الصرخات والناس الذين يتقاتلون على حافَّة البحر. لا نجدة ولا سفن تأخذهم. النساء يندبن زمنًا مضى، الأطفال يُفصلون عن أمهاتهم ويتشبَّثون بحبال السفن الراسية. يتحوَّل الندب والعويل إلى كورس جنائزيّ بلا حدود، يملأ حافَّات الموانئ. كان بحر المارية مظلمًا بالبشر الواقفين ينتظرون شيئًا لا يعرفونه، ولكنَّه كان قاسيًا وشبيهًا بالموت. تتداخل الأصوات... تتذابح النداءات الضائعة...

أرجوك... يرحم والديك، لا تفصلني عن ابني... أنا أيضًا مسيحيَّة منذ جدّي الثالث... أقسم لكم أنِّي لم أعد لديانتي منذ أن صدرت أوامر محاكم التفتيش المقدَّس... ابني يا سيِّدي... لا تبعثوني في سفينة وهران، فأنا لا أعرف أحدًا هناك... أنا من بلنسيا ولست من أراغون.... أنتم تظلمونني... ضعوني على الأقلّ، في سفينة فيها أناس أعرفهم... حبَّس وين رايح؟ البحر ليس ملكك... يا يمّا وين راح نروح، لا حبيب لا والي... أبنائي يا سيِّدي... أبنائي... أنت رجل دين وتعرف ما معنى أن ينزف قلب أمّ... واللَّـه ما لي أحد يا سيِّدي....

ما لي أحد غير اللَّـه... يا سيِّدي.

من أوراق[1] سيدي أحمد بن خليل
المدعو «غاليليو»[2]

(1) كُتِبَ على الورقة الأولى بالخطّ الأحمر المغربيّ: أوراق سيِّد حامت بنغاليليو. تحتها، في شكل ممحو قليلًا، كلمات كتبت بالحروف اللّاتينيَّة، ومحيت مع الزمن وكتب فوقها مرَّة أخرى بالعربيَّة. ثمَّ كتب تحتها التاريخ الميلادي: شتاء 1570 بخط أحمر أيضًا لكي يصبح بارزًا أكثر. عددت الخروم والثقوب على الورقة الأولى التي لا تحوي شيئًا آخر غير ذلك، فوجدتها بعدد 27 خرمًا. أكَّد لي سليم أنَّه يمكن سدّها كلّها بالوسائل الحديثة حتى لا تتَّسع وتمسّ الكتابة والحروف. الطريقة الإيطاليَّة مثاليَّة وناجحة في الترميم (ماسيكا).

(2) أصله بن خليل وليس بنغاليليو. الأسبان حرَّفوا الكثير من الأسماء العربيَّة بسبب نطقها الصّعب: ابن رشد أصبح Averoes، ابن سينا، أصبح Avicenne، أبو عبد اللّـه أصبح Aboabdil، وهكذا.... وقد ذكره ابن ميمون البلنسي في كتابه الموسوم: ترحيل الخلف نحو بلاد السلف. ويحكي جزءًا من آلام الأندلسيِّين أثناء ترحيلهم. وقد ورد حديث طويل عن سيدي أحمد بن خليل المسمَّى بنغاليليو الروخو، ويسمِّيه ابن ميمون البلنسي: مولاي أحمد بن خليل، صاحب مكتبة البيازين. ومن ضمن ما حكاه عنه أنَّه كان عاشقًا للكتب لدرجة أنَّه فكَّر يوميًّا، عندما اندلعت حرب البشرات، أن يحرق نفسه في مكتبته بدل الخروج من أرضه. ولكنَّ رجالًا صالحين منعوه من ذلك. وعندما اشتدَّت الحرب في جبال البشرات، انضم إليها وهو لا يعرف كيف يأخذ سلاحًا بين يديه. ميغيل سرفانتس كرَّر خطأ الأسبان في نطق اسمه في روايته الكبيرة: دون كيشوت دي لامنشا، إذ هو من يروي القصّة بكاملها، وقد ربطتهما صداقة كبيرة في القرن السادس عشر لدرجة أنَّ غاليليو الروخو هو من حماه العديد من المرَّات من موت مؤكَّد مع آغا الجزائر حسن فينيزيانو (ماسيكا).

الورقة الأولى

وفيها ظروف اعتقال سيد أحمد بن غاليليو الروخو،
وطرده من حاضرة غرناطة الجريحة،
وترحيله إلى منافي وهران بعد موقعة جبل البشرات،
وتعدِّي محاكم التَّفتيش المقدَّس على حرمة جسده.
ولقاؤه مع مالك روحه ومنقذه الكاهن الطيِّب، أنجيلو ألونصو.

***المحروسة، شتاء* 1570**[(1)]

ـ 1 ـ

علَّمتني مسالك الدُّنيا القلقة أن أثق في عقلي وأن أحمل الزمن محمل الجدّ. تخبِّئ لنا الأقدار ما تشاء، ولكنَّها تمنحنا أحيانًا مسالكها بسخاء. كانت طرقي وعرة، ولكنِّي وصلت حيث اشتهيت، متأخِّرًا. لكنِّي وصلت. نزلت على الأرض التي علقت رائحتها بتربة جسدي وكتبي وأشيائي الخفيَّة، ووصلت. وصلت، لأنِّي في النهاية كنت أريد أن أصل حتى ولو غرقت في قلب حوت أعمى، وعلت أناشيدي الخفيَّة على الرَّغم من انكساري:

---

(1) هذه الورقة وردت في شكل مقدِّمة لبقية الكرَّاسات. كان من الصعب ترتيبها، فقد جاءت مفصولة عن بقية الرحلة الأولى لغاليليو الروخو، سيد أحمد بن خليل. كتبت كلّها بالخيميادو. هي الجزء الذي ترجمه سليم وهو في إسبانيا. كانت الخطوط رقيقة، لكنَّها كانت واضحة كلّ الوضوح. حتى الثقوب التي خلّفتها دودة الورق، لم تأكل إلَّا قليلًا من جنباتها. الخط ظلّ هو هو، لا أدري أيَّة قوَّة استطاعت حفظه؟ هل أعيدت كتابته أم أنَّه نفس خطّ غاليليو، كما قال سليم؟ أشعر بأنَّ اليد التي كتبته كانت يد هارب، لأنَّ كلّ الحروف كانت تنزلق نحو الأسفل مخلِّفة وراءها انحدارات وهلعًا كان ما يزال راكنًا في الذاكرة. حتى حروف الخيميادو العربيَّة كانت بالطريقة نفسها التي يتخفَّى وراءها الخوف والأسئلة الغامضة. محاكم التفتيش المقدَّس! عليَّ أن أشكر سليم، فقد قام بالمستحيل ليجعل من هذه الأوراق سرًّا مكشوفًا وإلَّا لاستحالت قراءتها. (ماسيكا).

موت لبحار آبويا

لمواج لهبيلة

والبر بعيد... بعيد.

وصياحي طال آبويا...

الآن، وقد أصبح الموت على العتبة، أستطيع أن أقول إنَّ لهذه الدار، دار لالة سلطانة بلاثيوس، الموجودة في القصبة السفلى، ليس بعيدًا عن سوق الجمعة أو سوق الزواوش[1]، قصة غريبة وكبيرة تعيدني إلى زمن كم اشتهيت أن أنساه وأن لا أورثه لأحد. لكنْ في هذا البيت بعض دمي وصراخي، وسعادتي وشهواتي وانخطافات النشوى، ولهذا لا أريد أن يلفّ غبار الموت مثل هذا المكان. كلّ واحد نسج قصَّة في هذا البيت كما اشتهى. بعضهم قال إنَّ ساحرًا بناها وسكنها وطرد كلّ من اقترب منها. آخرون أكَّدوا أنَّها كانت لحسن الخزناجي! قائد الأسطول البحريّ، والمكلَّف بدفع رواتب ريَّاس البحر وبحَّارته من الانكشارية. كلّ واحد نسج حكايته الخاصّة كما سمعها، أو كما تخيَّلها هو بنفسه. قصَّة طويلة وغريبة حتى فيَّ أنا الذي ما زلت على قيد الحياة. هناك أيضًا من يقول إنَّها بنيت على أنقاض وليّ من أولياء اللّـه الصالحين سيدي بلال قارة، وقد أقسم أن يهدمها على ساكنيها في الوقت الذي يشاء. يحدث معي أحيانًا أن لا أصدِّق ما حدث لي أيضًا. كثيرًا ما أقول إنَّها مجرَّد خرافة لا أكثر ولا أقلّ. لكن قبل الدار هناك حياتي الخاصَّة التي قادتني نحو هذه الأرض النديّة والناشفة في الوقت نفسه.

ينتابني حزن غريب، يعبر داخلي كضباب الضفاف المغلقة. آن الأوان أن أحكي عن هذه الدار، وأنا أودِّع هذه الدُّنيا التي سرقت

(1) العصافير.

منّي زوجتي سلطانة بلاثيوس، في وقت مبكر، عندما عمَّت الأمراض الفتَّاكة هذه التربة، الطاعون الأسود، ولم تبق لي إلَّا ابنتي لالة مارينا التي ورّثناها بعضًا من أمراضنا القاسية وأشواقنا الجميلة، وأحاسيسنا الهشَّة.

شجني كبير لا يهدِّئه إلَّا كأس الياسمين الساخن مرشوشًا بفتات عود النوَّار، مثلما كان يفعل والدي بالضبط في غرناطة كلَّما انتابته الحمَّى الغامضة، قبل أن يهدأ وينام مفتوح العينين. أشربها دافئة ثمَّ أنام على ظهري وأرشق عينيَّ في بياض البيت والحيطان اليتيمة. وأنا أجوب الفراغ، أرى مفتاح بيتي الأندلسيّ معلَّقًا يتيمًا حتى بدأ صدأ البحر يعلوه. كان يتدلَّى عند مدخل البيت كشِباك الصيَّادين. تركته هناك فقط لأقنع نفسي بأنَّ منفاي مؤقت، وأنَّ ضرِّي سيزول بالصبر. حتى عندما شيَّدت بيتي اخترت له مفتاحًا شبيهًا، وعطرًا كأنَّه عطر غرناطة، ولا أشرب إلَّا زهورات الياسمين وعود النوَّار.

كلَّما كتبت أو رفعت رأسي تذكَّرت كلّ شيء... كلّ شيء، حتى أغصان الأوراق وألوان الفراشات ورائحة البارود في جبال البشرات القاسية.

لا شيء يكسر عزلتي في هذا اللَّيل إلَّا البحر الذي ينتابني موجه السخيّ، محمَّلًا بأحاسيس غامضة تأتي من بعيد. من بعيد حيث لا شيء إلَّا الصراخ والخيبة القاتلة، ومنفى لا دواء له إلَّا الحكي.

✺✺✺

لا أدري إذا كنت أوفر حظًّا من غيري، لكنِّي أعتقد ذلك. الرسوُّ في وهران، ثمَّ الانتهاء في ميناء الجزائر، تحديدًا في خليج الغرباء، منحني حياة رسمت نفسها بنفسها، ولم أكن في النهاية إلَّا رجلًا يركض وراء أكثر حواسّه خطورة وجنونًا. قلبي. غيري سبقني إلى وهران حيث

حظ الحياة كان أوفر. إسبانيا الكاثوليكيَّة كانت هي سيِّدة الأرض وشيء من البحر. هي نفسها بقضائها، ونظمها وقسوة محاكمها التفتيشيَّة. يوم تجرَّأت وعلَّقت مفاتحي في مدخل البيت، كنت على يقين أنِّي سأعود يومًا بمجرَّد أن يكسر الأتراك شوكة أشباح ملوك الروم الأسبان.

مازلت تحت سقف كنيسة الموت التي عُذِّبت فيها، ولهذا أستعير لغة الخيميادو مضطرًّا، فهي لغتنا السرِّيَّة التي أنقذت كتبنا وأرواحنا من تلف أكيد. ثمَّ من يدري؟ وهران التي تملأها أيضًا محاكم التفتيش ليست بعيدة، ولا أبغي من وراء ذلك إلَّا التستُّر من خوف مزمن ما زلت أحمله في داخلي ولم أتملَّص منه. مازلت على شبه يقين بالانقلابات التي يمكن أن تحدث في أيَّة لحظة. الأفاق ليست سعيدة أبدًا، الخيبات والانتكاسات تتخفَّى بين أسطر كتاباتنا ورسائلنا وتاريخنا. وإلَّا ماذا يعني أن تعيش أكثر من ثمانية قرون لم تخلق لك أيَّة وسيلة دفاع ولا أيَّة مناعة؟ لقد دفعنا ثمن الذين قطعوا هذا البحر. أحيانًا أنتشي بما خلَّفه أجدادي، وفي أحيان أخرى أتمنَّى من قلبي أن أصعد إلى قمَّة جبل كوكو وأصرخ بأعلى صوتي حتى يجفَّ حلقي: ماذا فعلت بنا يا طارق؟ وما دهاك يا موسى بن نصيْر؟ من تكونان؟ رجلان حملا خفقانًا صوب الجهة الأخرى، أم غبار قنابل البارود، ووضعوها في كلّ زوايا شبه جزيرة أيبيريا لتنفجر فينا لاحقًا ونتحمَّل أذاها؟ ماذا فعلتما بنا في النهاية؟ تقاتلتما مثل هابيل وقابيل لعرش لم يكن لأحد منكما، ثمَّ انتصرتما على بعضكما بعضًا، وانهزمتما بعد ثمانية قرون، بعد أن ورَّثتما حروب الأخوة لمن جاء بعدكما من ملوك الطوائف؟ هل أغضبُ منكما لأنَّكما لم تكونا في النهاية إلَّا معمِّرين صغيرين جريا وراء الذهب والنساء، أم كنتما علامة عصر لم يُكتب له أن يستمرّ طويلًا؟

ـ 2 ـ

يُو سُويْ سيد حامت بن غاليليو[1]... أنا سيِّد أحمد بن خليل الذي تنتهي سلالته عند أطياف سلالة خير النساء، لالة مولاتي فاطمة الزهراء بنت النبيّ الأكرم. من الذين نفذوا من خرم الإبرة وكان يفترض أن أموت، لكنَّ اللّـه والصدفة الطيِّبة شاءا غير ذلك. لست أدري من الذي دفع برجل التفتيش المقدَّس بعد أن قتل رفيقي تحت التَّعذيب ومصّ عظمه وزهق روحه، أن يأمر بطردي وترحيلي، فقط لأنَّ لديَّ أصولًا مسيحيَّة. لا أدري من أين أتى بها أبدًا؟

جاؤوا بي من أتون الحرب. كنت بين الموت والحياة، ولم أكن أملك أيَّة قوَّة تسمح لي بالوقوف، وظللت منتصبًا الزمن الذي شاؤوه. لم يكن لديَّ أي شعور بحواسّي ولا حتى بوزني. جرُّوني نحو كاتدرائيَّة قديمة كان باديًا عليها أنَّه لا حياة فيها إلَّا بومة كانت تجد متعة كبيرة في الوقوف على أحد أجراسها الصدئة وتزقق على المارة. عندما دخلنا، بدا كلّ شيء عاديًّا. الصورة الداخليَّة لم تكن عاكسة لخارجها، فقد أعطتني ألفة غريبة. قلت لا يمكن أن ينام اللّـه في الخرائب برفقة بومة أدمنت التَّحليق والتوقُّف على الكنيسة، وقذف فضلاتها على العابرين. وقفت قليلًا على الزرابيّ الجميلة، وخفت أن أمشي عليها ولكنَّهم جرُّوني. تأسَّفت. كانت من السِّجاد الفارسيّ القديم ذي الرُّسومات الرائعة والطيور والنباتات والتَّشكيلات الكثيرة. رأيت ذلك في سوق طليطلة الكبير في إحدى سفراتي مع خالي. نظر أحد

(1) أنا سيِّد أحمد بن خليل. هذه الجزئيَّة كتبت في الأصل بلغة الخيميادو السرِّيَّة. قام سليم بترجمتها كغيرها من الفقرات الأخرى. كان خوف غاليليو كبيرًا من اكتشاف سرّه ليس فقط من الأسبان، ولكن أيضًا من الأتراك الذين ظلّ يحافظ تجاههم على مسافة السلم كما يقال. ويخاف أيضًا من محاكم وهران التي كانت تمارس الدور نفسه. لم يحسّ في أيّ يوم من الأيَّام أنَّه في منأى عن خطر الموت (ماسيكا).

الرهبان، وكان يسمَّى ميغيل، عرفت ذلك من نداء صاحبه له، إلى سيِّده نظرات قلقة كأنَّه كان ينتظر أمره، فأذن له بعينيه أن يرفع ملتقى السجّادتين الفاخرتين لتبرز فجأة قطعًا خشبيَّة مرصوصة ومنتظمة بشكل دقيق لا يظهر ما تحتها. نزعها بدورها قطعة، قطعة، ليكشف عن درج كان ينزل عميقًا كسلَّم بلا نهاية حتى جهنّم. بدأت تنتابني فجأة أسوأ الأحاسيس وأكثرها سوادًا. تمنَّيت أن أصرخ بأعلى صوتي، ولكنِّي لم أتمكَّن. شرعنا في النزول، وأنا متَّكئ على كتفي الراهب ميغيل الذي كان كأنَّه يواسيني في مصاب جلل بنظراته وخطواته الثقيلة التي كانت تعطيني فرصة للتنفُّس والراحة. كان راهب آخر يحمل شمعة طويلة تضيء جوانب الكنيسة الخفيَّة ووجه أحد رؤساء محاكم التفتيش. ولما كنت أواصل قطع الخطوات والنزول وأتَّكئ على ظهر الراهب ميغيل، قال لي وهو يبتعد قليلًا عنِّي، واضعًا يده على كتفي متلطفًا: يا بني، لا تمسس كتفيَّ برأسك الثقيل، وبيدك الملوَّثة بدم القتال، إنَّ جسدي طاهر ومقدَّس. بدون تحكُّم في تصرُّفي، رددت وأنا أكاد أسلّم بموتي: يا سيِّدي لا يليق بيدي أن تتنجَّس بلمس ردائكم وجسدكم النتنين. أكفّكم ملطَّخة بدم الأبرياء! هزّ رأسه راسمًا ابتسامة صفراء وهو يتمتم، وبالكاد كنت أفهم كلامه: سنرى... إذا كنت ستتحمَّل لمسات التطهُّر التي ستغسلك من أدرانك.

بدأنا ننزل(1) نحو الدرج الموالي، وكأنَّنا كنَّا ننزل نحو أعماق جهنَّم. كلَّما توغلنا، زادت الروائح الكريهة الممزوجة برائحة العفونة والرطوبة،

---

(1) وسائل التَّعذيب وأشكاله المختلفة، حقيقيَّة، وقد ذكرتها جلّ المصادر التي اطَّلعت عليها. آخرها ما رواه أحد ضباط نابليون، بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس حين أرسل نابليون حملته على أسبانيا، وأصدر مرسومًا سنة 1808 م بإلغاء دواوين التفتيش المقدَّس في المملكة الأسبانيَّة. وأظهر كلّ أفعالها المشينة والممارسات التي ظلَّت تتبعها على مدار قرون عديدة، ذهب ضحيَّتها الآلاف من الناس بأبشع الطرق وأكثرها وحشية (ماسيكا).

قوَّة وانتشارًا. لم أتحمَّل. شعرت بأمعائي تندلق دفعة واحدة. تقيَّأت. ولكنَّهم واصلوا النزول. دخلوا بي عميقًا نحو غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشريَّة التي امتدَّت على مسافات كبيرة تحت الأرض. رأيت فيها ما يستفزّ خوفي وصبري، ويدعو إلى القشعريرة والتقزُّز. رأيت غرفًا صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عموديّ، وبعضها الآخر أفقيّ، فيبقى الإنسان سجين الغرف العموديَّة واقفًا على رجليه مدَّة سجنه حتى يموت بلا أكل ولا شرب، وتبقى الجثث في السجن الضيِّق حتى تتفسَّخ، ويتساقط اللَّحم عن العظم، وتأكله الديدان. ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى، فتحوا كوّة صغيرة نحو الفضاء الخارجيّ. تعثَّرت وأنا أسير مقيَّدًا بالسلاسل الثقيلة، في أجسام، اتَّضح تحت نور الشمعة التي مالت نحوي، أنَّها بقايا هياكل بشريَّة، ما زالت في أغلالها. كان الكثير من السجناء يئنّون في الزوايا الخلفيَّة من الطابق الأرضيّ للكنيسة، رجالًا ونساءً، كانت أصواتهم تصلني من أمكنة مختلفة. الكثير منهم كان في الرَّمق الأخير من الحياة. بعضهم يصرخ بأعلى صوته بعد أن أصابه الجنون من كثرة التعذيب. الكلّ كانوا عرايا، وأجسادهم سوداء من كثرة الدم الذي نشف عليها أو ربَّما بفعل الظلمة. تمنَّيت أن أضع عليهم شيئًا، ونسيت أنِّي أنا أيضًا كنت في وضعيَّتهم نفسها، ولا أعلم إن كان بعضهم ما يزال على قيد الحياة، إذ كانت رؤوسهم منكسرة كرايات مهزومة.

نقلوني بعد ذلك إلى غرف أخرى مضاءة بشكل أفضل، كمن يتجوَّل بسائح جديد على الأمكنة، فرأيت فيها ما تقشعرُّ لهوله الأبدان. رأيت آلات مخيفة لم أكن في حاجة كبيرة إلى معرفة عالية لأدرك أنَّها للتعذيب وتمزيق الأجسام، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشريّ. كنت أعرف تفاصيل اشتغالها من الذين مرُّوا على مثل هذه الأمكنة وخرجوا بصدفة هاربة أحياء. كانوا يبدأون بسحق عظام الأرجل،

ثمَّ عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا، حتى يهشِّم الجسم كلّيًّا ولا يبقى به شيء يحكمه. وتخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة في شكل قطع مسنَّنة تخترق كلّ شيء من شدَّة الكسر، والدِّماء الممزوجة باللَّحم المفروم. ثمَّ رأيت وأنا أجرجر من طرف ميغيل، مرافقي الذي لم يترك لي فرصة التنفُّس، صندوقًا خشبيًّا في حجم جسم رأس الإنسان تمامًا، كان يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى يمنع من الحركة كليًّا، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه قطرات الماء البارد على رأس المعذَّب، بانتظام، في كلّ رمشة عين. يبقى المعذَّب على حاله تلك حتى الموت. كنت أعرف أيضًا أنَّ الكثيرين ممَّن نجوا قد جُنّوا بسبب هذا اللَّون من التَّعذيب الذي كنَّا نسمع به ولم نره أبدًا. في الزاوية المظلَّلة قليلًا التي تشبه منبرًا من منابر مساجد غرناطة الصغيرة، آلة أخرى للتَّعذيب يبدو أنَّها كانت أرحم مثلما وشوش الراهب ميغيل في أذني:

ـ هي أرحم لأنَّها لا تترك للمعذَّب الوقت الكثير للألم، تأخذه بسرعة. هذا عندما نريد أن نرحم المقتول وننفِّذ له أمنيته الكبيرة، أي أن يموت بسرعة. كانت على شكل تابوت ثبتت فيه سكاكين حادة ورؤوس معدنيَّة مدبَّبة. يلقون بالشاب المعذَّب في هذا التابوت، ثمَّ يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق مزَّق جسم المعذّب، وقطَّعه واخترق الجسد في كلّ مكان. وبقدر ما يضغطون، تتقاطع الأجسام الحادَّة في الجسد. هناك درجتان: الأولى للتعذيب وهذه يكون الضغط فيها محدودًا، والثانية القاتلة، ويكون فيها الضغط كلّيًّا، فينتهي الشخص داخل بركة من الدم، وجسد لا يمكن لملمة أشلائه بسهولة.

كان الراهب يقتلني رعبًا حتى قبل أن تلمسني أيَّة آلة حادَّة. الذي لم يدخله الراهب في اعتباره، هو أنَّ الخوف عندما يصل إلى الأقاصي

ينقلب إلى حالة بياض يتساوى فيها كلّ شيء. ثمَّ رأيت آلات كالكلاليب التي كنت أعرفها سلفًا، ولم يكن ميغيل في حاجة إلى الشرح والتخويف. تُغرز في لسان المعذَّب ثمَّ تُشدّ وتُسحب، ليخرج اللِّسان معها، أو ينزع جزء منه فقط، بحسب درجة التجريم. وكلاليب أخرى كانت تغرس في أثداء النساء وتُسحب بعنفٍ حتى تتقطَّع الأثداء أو تُبتر بالسكاكين. الكماشة، الآلة التي توضع في الفم ويتمّ توسيعها شيئًا فشيئًا حتى فصل الفكَّين وتمزيق كلّ العضلات.

حمل ميغيل سوطًا طويلًا وقرَّبه من عينيَّ متلذِّذًا بذعري. همهم وكأنَّه يخشى أن يسمعه من كان يسبقنا من أعضاء محاكم التفتيش: هل تعرف وظيفة هذا السوط؟ ليس لتحريك البغال للحرث والدرْس. أجمل من ذلك. أنظر جيِّدًا. ليست ضفيرة جلديَّة، ولكنَّها مصنوعة من الحديد الرَّقيق والناعم مثل الشعيرات، يُضرب بها أعداء الدين، وهم عراة، فتتناثر لحومهم وتتفتت عظامهم. بربك! أليست إبداعًا جميلًا؟

كنَّا نتَّجه نحو درجات القيامة كما وصفتها الكتب المقدَّسة وكتب الأوّلين. هبطنا أكثر وكأنَّنا كنَّا نتوغَّل باستمرار نحو نفق طويل وعميق. لا أمل، فقد تأكَّد لي نهائيًّا أنَّه لا صوت يسمع من هذا القبر. التحق بنا كهنة آخرون بألبسة فضفاضة، فأصبحنا أنا ميغيل في الوسط. تتبعنا مجموعة، ويسبقنا آخرون، وظلمة عيونهم لم تكن ترى إلَّا الموت والدم.

عندما وصلنا لآخر الدرج، وجدنا أنفسنا في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، يخترق وسطها عمود من الرُّخام، به حلقة حديدية ثقيلة. لم ينتظر ميغيل طويلًا بعد أن أشَّر كبير الرهبان بالشمعة التي كان يحملها، بأن يربطني بإحكام. كانوا ثلاثة عشر راهبًا. وجدت الفرصة لعدِّهم. كانت بنياتهم ضخمة إلَّا ميغيل، فقد كان قصيرًا وناتئًا. ربطني ميغيل بحماس كبير، بالقرب من إحدى السواري المهيَّأة لمثل

هذه الأمور. كنت قبالتهم، عاريًا مجرَّدًا من أيّ لباس، حتى من القدرة على الكلام بعد أن نشَّفوا حلقي ورفضوا أن يعطوني ماء. كان في حنجرتي شيء يشبه الرمل وحراشف السمك. حاولت أن أغمض عينيَّ كما تعوَّدت أن أفعل كلَّما وصل الألم إلى أقاصيه لأخرج من دائرة الخوف والضغينة، ولكنَّهم كانوا في كلّ مرَّة يوقظونني بالماء البارد.

أحكموا وثاقي جيِّدًا. شعرت بلحمة اليد تنزع وبجلدي يقشَّر كما تقشَّر اللَّيمونة. كانت لحظتي الأولى في التحمُّل. لم أصرخ. ثمَّ قيَّدوا رجلي بالطريقة نفسها حتى أشعروني بأنَّ قدميَّ ستفصلان عن رجليَّ. كانت البرودة تلسع الجسد العاري كلِّيًا. كانوا يشعرون بمتعة غريبة وهم يكتشفون بعد تعريتي بأنَّ عضوي الذي ضمر نهائيًّا، كان مطهّرًا. عرفوا جيِّدًا أنَّ شكوكهم لم تكن باطلة. كانوا أمام الضحية المثاليَّة. المارنوس أو الموريسكوس، لا يهمّ، كلاهما يحتاج إلى التطهُّر بالنار. تلمَّسوا جسدي للحظات. تلمَّسوا زواياه الأكثر حساسيَّة، ثمَّ غسلوا أيديهم في طاس ماء، الواحد تلو الآخر، وكأنَّهم كانوا يتوضأون، راحوا يواجهونني تحت ضوء خافت كان كافيًا لأن يظهر لي جانبهم الحاقد والأكثر سوادًا. عرفته من جبروته وهيبته. كان يجلس على المصطبة، رئيس ديوان التفتيش، عرفت فيما بعد أنَّه هو نفسه أليخندرو الأراغوني، وعلى جانبيه، القضاة المتخصِّصون الذين لا تكاد وجوههم تُرى من تحت القلامين التي كانت تغطّيها. سألوني أسئلة كثيرة بعضها كنت أسمعه، والبعض الآخر كان يمرّ مثل الهواء الساخن على حواف أذنيَّ ولا يدخل أبدًا. رموا عليَّ الماء البارد لأنَّهم شعروا أنِّي كنت قد بدأت أغيب عن الوجود. ولأنَّهم لم يحصلوا على ما أرادوه في الجلسة الأولى، أجَّلوا البقية للجلسة الثانية. بدا إليَّ في لحظة من لحظات صفائي، أنَّهم لم يكونوا يعرفون بالضبط ما كانوا يريدونه منِّي.

في الجلسة الثانية، أجبت من دون أيَّة مقاومة:

«ـ أنا مرتدّ. مسيحيّ وأقوم بكلّ طقوسي. لم أحمل السلاح يومًا ضدّ الملوك الكاثوليك، ولكنِّي حملته ضدّ اغتصاب نسائنا وضدّ الظلم الذي مورس علينا. كنت أدافع عن أختي التي اغتُصبت في حيّ البيازين أمام الجميع. حتى جارنا الشَّيخ المسيحيّ الذي دافع عنها، على الرَّغم من تقدُّم سنّه، اتُّهم بالردَّة والهرطقة وأُحرق أمام الملأ، ولم يرحموا لا سنّه ولا دينه. كنت أدافع عن أختي التي اختطفها أحد العساكر وساقها إلى القلعة ليغتصبها ويرميها بالقرب من الحيّ اليهوديّ عارية، ليُلبسوا اليهود التُّهمة وليدخلونا في نار جهنَّم التي كنَّا نحترق بها نحن الاثنين. ماتت بالنزف والغبن. إلى اليوم أتذكَّر أنينها وصراخها ورغبتها في الموت. فقد انتهت بين يديَّ. سمعت أنفاسها وهي تتقطَّع. كانت أنفاسي.»

قلت لهم أيضًا، غير آبه بالموت، بعد أن نسيت كلّ النزف الذي لحق بجسدي:

«ـ سأبكي عمرًا ذهب في الريح ولم يسمح برؤية قاتل أختي، لا لأنتقم منه فقط، ولكن لأسأله أوَّلًا: لماذا فعل ذلك في ناس أبرياء لم يناصبوه أيَّ عداء؟ كانوا مثله في دينهم وإيمانهم. أسألكم، أنتم من تعرفون اللَّـه جيِّدًا، ماذا كنتم ستفعلون لو كنتم في مكاني؟ كيف كنتم ستتصرّفون أمام اغتصاب ابنتكم، أختكم أو أمكم؟»

صمتوا طويلًا قبل أن يسألوني إذا كنت حقيقة مسيحيًا، أم أنَّني كنت فقط أمارس التقيَّة للنفاذ من حكمهم؟ فرددت عليهم كلّ الصلوات المسيحيَّة التي كنت أتقنها أحسن من الكثير منهم. لا أدري ماذا حدث لأحد الكهنة. أنجيلو ألونصو، بكى. عرفت فيما بعد أنَّه كان جديدًا على المهنة، ومقرّبًا من الرئيس، وأنَّه كان يعرفني، وشهد أنَّه كان يراني في

الكنيسة كلّ يوم أحد. فوجئت، لأنَّ ذلك لم يكن صحيحًا. عندما اقترب منِّي ليضع على جسدي كساء مثلما أمر رئيس التفتيش الذي انسحب بعدها لأداء مهامِّه في مكان آخر، وشوش في أذني بأنِّي سأخرج سالمًا، ولكن يجب أن أصرّ على أن أردِّد ما قلته وما دافعت به عن نفسي.

في اليوم التالي، أطلقوا سراحي، شرط المغادرة النهائيَّة من الأراضي الأيبيريَّة. ورافقني الكاهن أنجيلو ألونصو إلى المارية للخروج مع المغادرين.

إلى اليوم، لا أعرف بالضبط لماذا فعل ذلك كلّه من أجلي معرِّضًا حياته للمخاطر الكبرى. كنت أظنُّه مخبرًا لا يعرف شيئًا آخر سوى حمل الشمعة للكاهن الكبير، لكنْ مع الوقت، تأكَّد لي أنَّه لم يكن كذلك، وأنَّه كان يعرف ابن رشد، وابن ميمون، وأنَّه كان متأثِّرًا بفلسفتهم ومعجبًا بعقلهم، ولكنَّه في الوضع الذي كان فيه لا يستطيع أن يكون إلَّا كذلك.

ـ أنا أنجيلو ألونصو. أتمنَّى أن تخرج بسرعة قبل أن يغيِّروا رأيهم إذا أخبرهم شخص آخر بعدم مسيحيَّتك، أو تخلِّيك عنها. اذهب إلى هناك، ستجد حتمًا من يحميك، أو على الأقلّ لن يقتلك بسبب ديانتك.

ـ لماذا قلت إنَّك كنت تراني كلّ يوم أحد في الكنيسة.

ـ أعرفك أكثر ممَّا تعرف نفسك. وأعرف أختك، لالة ثورا (زهرة) جيِّدًا. كنت من الذين وجدوها مرمية في حيّ البيازين، أنا من أخبر الأهل عنها، وأعرف حتى العسكري الذي اغتصبها. رأيته كيف دخل إلى الحيّ وكيف كان يحرق ويخطف من يريد. كانت عند الباب عندما اختطفها وقتل الرجل الذي حاول أن يقاوم، ودفع بعيدًا الشَّيخ المسيحيّ الذي أُلقي عليه القبض وأُحرق أمام الملأ.

ـ زوجها. الدون كاميليو؟

قلتها عفويًّا وكأنِّي أفضي بسرّ لصديق عزيز. انتابتني لحظة غليان. كنت أعرف نقطة الخلاف بينهما. افترقا بالتراضي، لكنَّه لم يتحمَّل يومًا اتِّخاذها لقرار الانفصال. ظلَّ يهدِّدها حتى غاب نهائيًّا عن حيّ البيازين. قيل لنا بعدها إنَّه التحق بجيوش الملك التي كانت تتصيَّد الموريسكيِّين المختبئين وراء قناع التقيّة، لأنَّه كان الأعرف بهم.

صمت بمرارة. كرَّرت مرَّة أخرى:

ـ هل لي أن أعرف اسمه فقط؟

ـ في ماذا يمكن أن يفيدك؟ أنت ستخرج بشكل نهائيّ من هذه الأرض؟ أمامك مصاعب أخرى عليك أن تواجهها وتتخطّاها لتتمكَّن من العيش. لا تكسر نفسك من الآن. الحياة أثمن.

ـ اشف غليلي يا سيِّدي. أريد فقط أن أعرف اسمه ليعلق إلى الأبد في ذاكرتي، وكلَّما انتابتني زهرة في الحلم، قلت لها إنِّي أعرف مغتصبها وقاتلها، وإنِّي سأقتله إذا واجهته يومًا.

ـ غارسيا غوميز دي نافارو، وهو نافاري الأصل، أصله برتغالي، ثلاثينيّ العمر. كان يعيش في بلنسيا. والده كان صانع سفن قبل أن يتحوَّل إلى مسؤول السوق الأوَّل في ترحيل الموريسكيِّين والمارانيِّين. أغلبية ما تراه من سفن في الأحواض والمرافئ، هي ملكه الخاصّ وملك عائلته، أو المجموعات التابعة له.

تمنَّيت شيئًا واحدًا ظلّ في حلقي طوال هذا الزمن، أن أجد فقط يديَّ حرَّتين. لن أفعل شيئًا آخر سوى الركض إلى حيّ البيازين أو على سواحل بلنسيا، والبحث عن غارسيا غوميز دي نافارو وقتله، وتسليم نفسي للمحرقة. أواجهه للحظة. أقول له وأنا أدفن سكِّيني في قلبه: هل عرفتني يا صاحبي؟ أنا أخو زهرة التي سرقت الحياة منها. تمنَّيت أن أسحلك في شوارع البيازين، أجرّك حيًّا، ولكن الزمن تغيَّر.

نظر إليَّ أنجيلو ألونصو، بعينين دافئتين ومستغربتين ممَّا كان يدور في داخلي من أشياء غير طيِّبة، ووساوس حارقة لم أكن قادرًا على تخبئتها.

«ـ طبعًا أنت تفكِّر في قتل غارسيا غوميز دي نافارو! لن تختلف عن غيرك في هذه الحالة. إنَّهم يقتلونك للأسباب نفسها. أو شبيهة لها. قتل لالة ثورا (زهرة) ليس فقط لأنَّه اشتهاها، إذ كان يمكن أن يرحل بها ويفعل بجسدها ما يشاء، بعنف أقلّ، فهو مالك للسُّلطان والقوَّة، ثمَّ يطلق سراحها. عذَّبها وتركها تموت بين يديك، لأنَّه شمّ فيها رائحة غير رائحته. للحياة وقت واحد يا صاحبي يجب أن لا نضيّعه، وللحروب أوقات تأكل فيها الأخضر واليابس. سننسحب من هنا، وسيأتي غيرنا، وسيحكون عنَّا ما سمعوه من فظاعتنا. هي كثيرة، فلا تزدها ثقلًا. قتله لن يرجع لالة ثورا (زهرة). في ماذا كنت سأتضرَّر لو تركتهم يمزّقونك كما فعلوا مع من سبقوك؟ لو لم أغامر بنفسي وأحكي في خلوة الأسرار، مع رئيس محكمة التفتيش ألخندرو الأراغوني، القريب من عائلتي وهو من وظَّفني، بأنَّنا كنَّا بصدد ارتكاب جريمة لا يغفرها الربّ، بقتل رجل أصبح منَّا بقلبه وروحه؟ املأ قلبك يا غاليليو بالنور، ما تزال الدُّنيا أو بعضها أمامك. أمامنا جميعًا.»

لا أدري كيف دخل كلامه إلى قلبي، وكيف محا الكثير من الأحقاد. كلَّما فكَّرت في العودة يومًا، والانتقام، قفز أمامي أنجيلو بهدوئه وسماحة وجهه. أشكّ أحيانًا إذا كان حقيقة إنسانًا، وإذا لم يكن أكثر من ذلك. ملاكًا ضائعًا في زمن لم يكن له. كان أنجيلو حاضرًا في كلّ حياتي.

كان في كلّ مساراتي ومسالكي. ما أحدثه فيَّ لم يحدثه غيره.

أنجيلو ألونصو كان حظّي الكبير، وصدفتي التي لن تتكرَّر أبدًا.

الورقة الثانية

وتحكي عن حزن الغرناطيِّين، وعن نيران جبال البشرات.
وقصَّة غاليليو مع الدون فرناندو ونشوء رباط الدم المقدَّس،
حرب الأخوة من الموريسكيِّين والمدجَّنين،
والأتراك المتطوِّعين،
وموت الأمير سيدي محمد بن أميَّة،
وخيانة سفن العدوة الأخرى،
واستسلام الجميع، ونهاية الزمن الأندلسيّ على يديْ دون خوان النمساوي.

خريف 1573

كنت أعبر حافة الميناء أنا وأنجيلو ألونصو وبعض الحرس الملكيّ. كنت موضوعًا تحت الرقابة حتى الطرد النهائيّ. كان عدد الناس على حافَّة ميناء المارية لا يُعد ولا يُحصى. نساء، رجال، شباب، مشايخ، أطفال، ورزم ثقيلة من العفش، تراكمت حتى أصبحت مثل الجبال في

مواجهة سفن ثقيلة كأنَّها حيوانات خرافيَّة. بعضها يبتلع الركَّاب ويمضي، وبعضها الآخر ينتظر أن يحين دوره.

الراهب أنجيلو ألونصو، سرعان ما سلَّمني لغيره معتذرًا بأنَّ مهمَّته قد انتهت. خليفته لم يكن رحيمًا معي، ولا حتى مع غيري. كنت مؤمنًا بشيء واحد هو أنِّي لم أرتكب خطأ، وأنِّي كنت أدفع ثمن تاريخ صنعه الآخرون، وأنَّه كان عليَّ أن أتحمَّل بصبر كبير ما كان يحدث لي، لأنَّ الصدفة شاءت أن أوجد في الزمن الذي لم يكن عليَّ أن أوجد فيه، وفي اللَّحظة القاسية التي كان عليَّ تفاديها. كانت حربي عادلة، وكنت فيها ذرَّة ضائعة تنتظر يدًا تضعها في نفق النهايات. أدرك أنَّ زمنًا مات وانتهى، ولكن كان عليَّ أن لا أقبل بالقدر المسلَّط علينا. كنت أعرف أيضًا أنَّ حربي خاسرة، ولكن كان عليَّ أن أخوضها بكلّ ما أملك من قوَّة، وأن أقاوم حتى الموت زمنًا كان قد انتهى. هناك حروب نعرف سلفًا أنَّها خاسرة ومع ذلك نخوضها لا لربحها، ولكن لتأخير مهالكها قليلًا، ربَّما انفتحت في الأفق كوَّة صغيرة غير محسوبة. كنت أعرف وأنا أقف بجانب سيدي الدون فردناندو دي كردوبا فالور (محمد بن أميَّة صاحب الأندلس وغرناطة)، أنَّنا سنموت في جبال البشرات الباردة التي يقتل صقيعها اللَّيليّ، وجوعها وخياناتها وعزلتها، قبل أن تقتل نارها. كنت أحمل السِّلاح وفي رأسي ذلك الشتاء القاسي الذي سلَّم فيه أبو عبد اللَّه الصغير مفاتيح غرناطة، وتركنا نموت وراءه. تعلَّمت بالسماع والحياة الصعبة، أنَّ القائد العظيم هو من يموت مع رعاياه، لا من يتركهم وهم في أمسِّ الحاجة لا لقوَّته فقط، ولكن لمؤانسته وصوته وبركاته حتى ولو كانت كاذبة، لتحمّل اللَّحظات الأكثر قسوة. كنَّا نموت، وكان في رأسي محمد الصغير وهو يبحث عن كلماته المرهقة، لمرافعة أمّه عائشة التي أشاحت بوجهها وهي على الهضبة المشؤومة: *زفرة الموريسكي الأخيرة*.

كانت السفن الإيطاليَّة والبرتغاليَّة تتقاتل على الزجّ بالجميع من وراء البحر. هاجر كثير من أشراف غرناطة، بعد بيعت أملاكهم بثمن بخس، بينما اندسَّ القسم الأكبر من المسلمين في المدينة وما حولها. عدا جموع المدجَّنين الموجودين في بلنسية، في شرقي الأندلس، وفي سرقسطة في شمالها، الذين كانت أعداد كبيرة منهم لا تزال تحتفظ بدينها الإسلاميّ حتى جاءها الأمر الصارم: إمَّا الطرد، أو التنصير لمن يريد البقاء. الحرب هي دائمًا حرب المنتصر والسلام سلامه أيضًا. فقد تنكَّر المنتصرون لكلّ حرف خطُّوه في المعاهدة، واستطالوا على جموع المنكسرين في حرب غريبة. في عام 1501 أصدر الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، مرسومًا ملكيًّا يقضي بضرورة تنصير المسلمين، فحاول بعض مسلمي غرناطة الاحتجاج ببنود اتِّفاقية التسليم، فإذا هي لم تعد تساوي قيمة الحبر الذي كُتبت به. وعندما قرَّروا المقاومة والتَّصدي لهذا المشروع، وحلَّ بشيخهم الزبيريّ الطاعن في السن من بلاءٍ كبير، سُحق المعارضون في حيّ البيازين تحت سنابك الخيول، وتحوَّل الحيّ إلى ساحة للموت. قتل الجنود القشتاليُّون كلّ من اعترض سبيلهم، دون تمييز. وتمَّ تقديم رؤوس الفتنة إلى محاكم التفتيش. قام زبانية الكاردينال خمينيث، مطران طليطلة، ورأس الكنيسة الأسبانيَّة، بالقبض على المسلمين لمجرَّد الشبهة، وحشدهم في ساحة غرناطة الرئيسيَّة. تمَّ إعدام مائتين من علماء المسلمين حرقًا أمام الجميع، حتى يكونوا عبرة لغيرهم. ألحق بهم بعض المسيحيِّين الذين احتجوا على المقتلة. ثمَّ جُمِّعت كتبهم ومصاحفهم، فأحرقها الكاردينال خمينيث أمام الملأ، ولم يستثن منها سوى 300 كتابًا من كتب الطب. فُرض التنصير على عموم من بقي من المسلمين فرضًا، وأُغلقت مساجدهم، أو حوَّلت إلى كنائس، وأُجبروا على تغيير أسمائهم العربيَّة إلى أسماء نصرانيَّة. حظّروا عليهم استعمال الحمَّامات وأمروهم بهدم المقامة منها، سواء كانت عامَّة أم

خاصَّة. منعوهم من إقامة الحفلات على الطريقة الإسلاميَّة، وأن تُجرى الحفلات طبقًا لعرف النصارى والكنيسة الكاثوليكيَّة. وحظّروا عليهم إغلاق المنازل أثناء الاحتفال وفي أيَّام الجمعة وأيَّام الأعياد، وألزموهم بإبقائها مفتوحة ليستطيع القسس ورجال السُّلطة أن يروا ما يقع في داخلها من المظاهر والممارسات.

عندما تمَّ تأسيس محاكم التفتيش الكنسية في غرناطة، كان الجحيم قد أصبح حقيقة مرئيَّة، إذ بدأت ملامح المدينة تمّحي ويحلّ محلّها عنف أعمى. فقد سلّطوها على كلّ المناهضين لها من مسلمين ويهود ومسيحيِّين، بوحشيَّتها وهمجيَّتها، وفظاعة أساليبها في التحقيق والتَّعذيب. كان يتزعَّمها الكاردينال المتحجِّر القلب خمينيث نفسه، الذي أصبح هو المفتش الأعظم الذي كان القيِّم الأكبر على الحرائق والموت الشنيع. انتشر قساوسته في كلّ أرجاء غرناطة يقبضون على أيّ أحدٍ من المسلمين أو اليهود، لمجرد الشبهة. وقد وجدت محاكم التفتيش المقدَّس، في هذه الفئة المستضعفة، أخصب ميدان لنشاطها، فأخضعتهم لرقابتها الدائمة، وجعلتهم شغلها الشاغل. صادرت أموالهم، وانتهكت أعراضهم، ونكَّلت بهم أشدّ تنكيل، وأقامت لهم المحارق الجماعيَّة، وملأت منهم سجونها المظلمة والعفنة، وتفنَّنت في أساليب تعذيبهم وإرهاقهم جسديًّا ومعنويًّا، وتركت في مأساتهم أعمق الأثر. كان مجرَّد ذكر اسم هذا الديوان يثير الرُّعب والفزع. من الأساليب الوحشية التي كانت تتبعها محاكم التفتيش في تعذيب المسلمين: الجلد علنًا، الكيّ بالنار، حرق الأقدام بالفحم المشتعل، ربط أطراف المتهم في إطار مثلث الشكل، التجويع التَّدريجيّ، التعذيب بالأسياخ المَحميَّة وحرق البطن والعجز، سحق العظام بآلات ضاغطة صُنعت خصِّيصًا، تمزيق الأرجل، فسخ الفكّ، وغيرها من الوسائل الهمجيَّة المثيرة. لم تكن

محاكم التفتيش تتحرَّج من أيّ شيء، فقد كانت هي السلطة العليا. من صلاحياتها القبض على الأبرياء من دون حرج، ومطاردتهم لأدنى شبهة، وتقديمهم للتحقيق والتَّعذيب والمحاكمة، دونما حاجة لتوافر البيّنة أو الأدلة القاطعة، واقتحام منازلهم للتفتيش فيها عن مصحف مخبَّأ، أو أيّ أثر من شعائر المسلمين، مع استجواب الأطفال القصَّر، وسؤالهم إن كانوا يرون آباءهم أو أمهاتهم يصلُّون أو يقرأون القرآن أو التوراة. كان إحراز الكتب والأوراق العربيَّة والعبريَّة، يعتبر في نظر المحقِّقين من أقوى الأدلة على الردَّة، ويعرِّض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب. حتى إنَّهم كانوا يفتشون عن عورة الصبيّ، أو الرجل، فإن وجدوه مختَّنًا علموا أنَّه مسلم أو يهوديّ، بطشوا بأهله وبزوجته، وأحيانًا بأبنائه بأشد أنواع البطش والفتك، والحرق، أو نبش القبور وحرق الرفاة انتقامًا. دستور محاكم التفتيش يجيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام في حقِّهم، وتصادر أموالهم، وتوقَّع العقوبات عليهم مثلهم مثل الأحياء بأن تعمل لهم تماثيل تنفَّذ فيها عقوبة الحرق.

بعض الموريسكيِّين ربَّى أبناءه على الإسلام وعلى النصرانيَّة، وهو حال أسرتي، لتفادي العذاب والمحارق. الكثير من أقاربي من أمِّي على الخصوص، كانوا تجارًا ميسورين وأصحاب مزارع كبيرة وحرفيِّين يشتغلون في الذهب. وظَّفوا الكثير من الخبرات اليهودية في محلَّاتهم. استطاعوا من خلال ما كانوا يدفعونه من ضرائب إضافية وإتاوات للأمراء المحلّيِّين، لدعم الخزينة الأسبانيَّة، أن يخفِّفوا من وطأة الكثير من القوانين الجائرة الصادرة ضدهم، أو تجميدها أو تأجيل سريانها. وقد استمرَّ ذلك حتى سيطرة الملك فيليب (1555 ـ 1598) على مقاليد الحكم، فكان عهده قاسيًا على كل أفراد العائلة ومن كانوا في حمايتهم. تمَّ تجديد وتعزيز معظم القوانين المجحفة التي صدرت في عهد

أسلافه، وأظهر إصرارًا منقطع النظير على وضع كلّ تلك القوانين دفعة واحدة، موضع التنفيذ، وبشكل حازم وجازم وشديد الصرامة، ومن دون أيّة هوادة فيها أو رحمة. وقد تمَّ إشعار الأهل بذلك في أوَّل يناير 1567، وهو اليوم الذي سقطت فيه غرناطة، واتَّخذته أسبانيا عيدًا لها. في ظلال اليأس والخوف، نشبت الثورة في غرناطة في ليلة عيد الميلاد، 24 ديسمبر 1568. كانت حرب الطلقة الأخيرة أو طلقة الرحمة منذ سقوط غرناطة. اضطرمت في سهول وجبال البشرات، في شكل ردود فعل وعصيان صغير، قبل أن تعمّ وتكبر بسرعة بحجم الظلم والقسوة. وأعلن الموريسكيُّون استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة والموت، ضدّ الأمبراطوريَّة الإسبانيَّة.

اختاروا يومها فتى قوّيًّا وسلَّموه عهودهم وأرواحهم. كان في سنّ العشرين، من أهل حيّ البيازين في غرناطة، ويدعى الدون فرناندو دي كردوبا فالور. أصبح من لحظتها زعيمًا لحلم ظلَّ متأرجحًا قبل أن ينهار نهائيًّا. هو من بقايا أحفاد ملوك بني أميَّة. وما إن تسامع الموريسكيُّون بإمارة الدون فرناندو حتى انضمَّت إليه وفود كثيرة جاءت من الجهات والمدن حتى أصبح تنظيمها صعبًا. احتفلوا بتتويجه على قمم البشرات، أميرًا عليهم في 29 ديسمبر 1568، في احتفال بسيط فُرشت فيه على الأرض أعلام إسلاميَّة ذات أهلّة، فصلَّى عليها متَّجهًا نحو مكَّة، وأقسم أن يموت في سبيل أرضه وعرضه. وسمَّى نفسه باسم ملوكي عربي هو محمد بن أميَّة صاحب الأندلس وغرناطة.

انتشرت الثورة كما تنتشر النار في الهشيم، وتعاظم شأنها بسرعة كبيرة. وعلى الرَّغم من المحاولات الإسبانيَّة للقضاء عليها، إلَّا أنَّها فشلت كلُّها، ومُنِيَ الطرفان بخسائر كبيرة. هدم الأسبان مدن الموريسكيِّين وقراهم فوق رؤوس ساكنيها من الشيوخ والنساء والأطفال، لإجبار

الثوّار على وضع السلاح. وذبح الثوّار كل من شمُّوا فيه رائحة الملوك الكاثوليك. ردَّة فعل اليائس التي يغيب عنها الذكاء والرزانة.

كنت في فرقة التموين بالمال والسلاح، والتنسيق البحريّ ـ الجبليّ، أي العمل على استمرار الرَّبط بيننا وبين من كان يوردنا بالأسلحة، من المايوركيِّين والعثمانيِّين. كنت أستقبل السفن الصغيرة التي كانت ترسو في الموانئ الجنوبيَّة المهجورة والموحشة. تضع سلاحها وتستلم أموالها، ثم تغيب في أعماق البحر من جديد. كنت أعرف كيف أسيِّر كلّ هذه الوضعيَّات إذ لا حرب بدون أسلحة ولا أموال. وأثبتت الدوريَّات البحريَّة الإسبانيَّة أنَّها غير قادرة على حرمان الثوَّار من الاتصال بمن يمدّهم بالأسلحة.

وشيئًا فشيئًا تراخت قبضة النظام الإسبانيّ على جنوب الأندلس نتيجة للضربات المتتالية والمقاومة العنيفة. الكثير من الفرق، وصلتهم بعض الأسلحة من إحدى قطع الأسطول العثمانيّ المرابطة في خليج تونس، حيث كان قائد الأسطول ينتظر الأوامر والمدد من السلطان العثمانيّ للتدخُّل في إسبانيا لصالح المسلمين. فقد كان التنسيق الذي قمنا به والترتيبات مفيدًا، سمح للمقاومة أن تطول قليلًا. قسوة تعذيب محاكم التفتيش جعل موت الجبال أهون، وضخَّم عدد المنتمين إلى المقاومة. أدَّى ذلك إلى ضجة كبيرة في مدريد، عاصمة الأمبراطورية، وسادت أجواء الذعر الشديد في بلاط الملك الأسبانيّ الكاثوليكيّ فيليب، من إمكانيَّة وصول القوات العثمانيَّة النظاميَّة وأسطولها، وتدخُّلها في الحرب لصالح الموريسكيِّين. أثناء حوار مع الرسول البابويّ، أعلن المسؤولون الإسبان أنَّه إذا حصل تدخُّل من جانب العثمانيِّين، فإنَّ إسبانيا قد تسقط في أيدي المسلمين. وخلص الملك فيليب والقادة الأسبان والبابا ورجال الكنيسة إلى ضرورة تدخل الجيش الأسبانيّ بكلّ ثقله لوضع حدّ لتلك

الانتفاضة، ولإخمادها بأسرع ما يمكن، وقتلها في عشّها، قبل أن يتمكَّن السلطان العثمانيّ من جمع قوَّاته المنتشرة في البلقان وشرقي أوروبا، ومن ثمَّ توجيهها إلى أسبانيا.

استقرَّ الرأي في مدريد على إرسال أفضل وحدات الجيش الإسبانيّ بقيادة دون خوان النمساوي (1547 ـ 1578) ودعمه بكلّ الإمكانات البشريَّة والحربيَّة، لسحق انتفاضة الموريسكيِّين في غرناطة، وما حولها.

ثمَّ تراجعوا. فقد رأى أصحاب الرأي في بلاط الملك فيليب، أنَّ الحلّ العسكريّ غير ناجع بمفرده للقضاء على الثورة، ودعوا إلى أن يكون الحلّ العسكريّ متزامنًا مع اللُّجوء إلى أساليب السياسة والحيلة. وحظيت هذه الخطة بالدَّعم والتأيِّيد من قبل الملك الذي أعطى توجيهاته بوضعها موضع التنفيذ، فراح السياسيُّون الأسبان يبحثون عن أنجع السبل لاختراق صفوف المقاومين، ومن ثمَّ إحداث الانشقاق في قيادتهم.

عملوا على تقسيم المجتمع الموريسكي الهشّ والمنكسر أصلًا، إلى قسمين: فئة الموريسكيِّين المحاربين، وهم الذين حملوا السلاح وقاموا بالثورة دفاعًا عن دينهم وأنفسهم وأعراضهم، وفئة الموريسكيِّين المدجَّنين، وهم الذين لم يحملوا السلاح، ولم يشتركوا في الثورة وظلُّوا على ما هم عليه من ولاء. على هذا الوتر الحسَّاس بدأ السياسيُّون الأسبان يعزفون، فجاؤوا بزعماء من المدجَّنين، وبعثوا بهم كوفد إلى إخوانهم من المحاربين في جبال البشرات، ودعوهم إلى إلقاء السلاح وإيجاد صيغة تفاهم تحمي الزرع والضرع والنسل من الهلاك. كان على رأس هؤلاء المدجَّنين رجل محترم ومعروف بفروسيَّته، ألونصو فينيغاس. بعث إلى الأمير محمد بن أميَّة برسائل كثيرة يعاتبه فيها، ويؤكِّد له مجانبته للعقل وتعريض أمَّته للهلاك من حيث لا يدري.

لا أعرف إذا ما كان عليَّ أن أحقد على ألونصو فينيغاس، أم أحاول أن أتفهم خياراته السلميَّة؟ عندما أفكِّر طويلًا أتساءل إذا لم يكن من الأفضل الاستماع إلى العقل؟ سيدي محمد الأمويّ كان يثق بشكل أعمى في العدوة الأخرى. لكنَّ العدوة الأخرى كانت منشغلة بهمومها الخاصَّة. أصواتنا كانت تصلها باردة وميِّتة. سعيدة بصفقاتها وتجارتها مع الأسبان والعثمانيِّين والفينيسيِّين. كان حزني كبيرًا عندما رأيت لأوَّل مرَّة الحيرة ترتسم على وجه سيِّدي الذي لم يكن يملك غير هذا. لأوَّل مرَّة أيضًا أرى انزلاق الثقة من عينيه وتسرُّب الخوف ممَّن كانوا يحيطون به. سألته:

ـ سيِّدي، أرى شكًا يطبع محيَّاك؟ هل نسير في طريق المدجَّنين؟

ـ لا. يا غاليليو. الأمر أخطر. عندما تقف في مفترق الطرق ولا تعرف أيّ الطرق الأسلم، هل طريقنا في الجبال التي ركبناها عن ظلم وقسوة، أم طريق الدون ألونصو فينيغاس الذي لم أشعر أنَّ في كلامه خيانة، بقدر ما فيه من تعقل؟ نحن نخوض حربًا أصبح مؤكَّدًا لنا أنَّنا نخوضها وحيدين، بعد أن تواطأ أخوتنا من وراء العدوة الأخرى ضدّنا بصمتهم وجبنهم.

ـ أنت صاحب القرار يا سيِّدي. هناك حالة حيرة في عيون الجميع؟

ـ سواء كان المدجَّنون يدركون عواقب فعلهم هذا من عدمه، فإنَّهم قد سمحوا لأنفسهم بممارسة الضغط علينا وأربكونا في ثقتنا الهشَّة، ربَّما بسبب قوَّة تعقُّلهم وتبصُّرهم، أو جبنهم؟ وفي هذا لا أعتقد أنَّهم كانوا جبناء. كانوا يفكِّرون بطريقة أقرب إلى العصر منَّا.

ـ معضلة يا سيِّدي. نحن في وضع لا نُحسد عليه. نعم للجنوح للسلم، ولكن أين كان الدون فينيغاس وغيره من دعاة السلام والمصالحة، أين كانوا عندما كان سكان غرناطة من المستضعفين يُطحنون تحت رحى وكلاليب محاكم التفتيش؟

ـ هل لنا خيارات أخرى غير الموت أو وضع السلاح؟

فجأة، ذهبت حيرته وانسحبت بعيدًا، وكأنَّه استيقظ من غفوة لم تطل كثيرًا.

ـ الدم سال كثيرًا ونداءات الاستغاثة تملأنا، ولا أعتقد أنَّنا نستطيع أن نتراجع إلى الوراء حتى ولو شاء ذلك غيرنا. سيقتلنا الجبليُّون قبل أن تعدمنا محاكم التفتيش المقدَّس. أحرقوا شبابهم ويتَّموا أولادهم معنا. ثمَّ أنَّ الضرَّ كبير. المصالحة لن تصبح نافعة عندما يعمّ الشرّ وتسود المظالم، وتنتشر روائحه الكريهة. هكذا أفضل من حالة الحيرة والخوف. لا أرى الآن أيّ جدوى في كلام فينيغاس. حتى حلفاؤنا الأتراك، كما تعرف وهم من يوردنا بالأسلحة، يرفضون الاستسلام. وقد يقتلوننا إذا سلمنا في الأمر قبل أن يبيدنا الأسبان. لنمت على أرضنا واقفين أفضل من أن تأكلنا المنافي، هذا إذا كان ذلك من حظّنا. لم نفقد الأمل في النجدة. لقد بدأ الأتراك والمغاربة المتطوّعون في التململ وفي عيونهم يبرق حقد كبير. يجب أن نجد حلًّا سريعًا. لقد رفضوا حتى مبدأ الحوار مع الأسبان، ويريدوننا أن نظلّ في قلب النار. يرفضون أيّ تفاهم وقد اقنعوا الكثير من الموريسكيِّين، ولا حلّ لديَّ إلَّا الذهاب وراء الشهادة حتى التهلكة.

بدأت أرى يوميًّا خطّ الانشقاق الذي كان يدبُّ في صلب المجموعة التي تحوَّلت إلى رتل صغيرة تأتمر بقادتها، الأتراك لهم قائدهم والمغاربة كذلك، وحتى جزء كبير من الموريسكيِّين كانوا يولون ظهورهم لأوامر سيدي الأمير محمد بن أميَّة. كان الأمر يزداد كل يوم تعقيدًا. قرأت في عيني الأمير القائد رغبة كبيرة في حقن الدم. لكنْ من يُعلن الحرب ليس هو من يُسكت مدافعها في النهاية.

ربَّما كان أول خطأ ارتكبه سيِّدي أنَّه انصاع لأوامر من نصحوه. نبَّهته. قلت له سيِّدي، المغاربة أبناء جلدتنا. الأتراك حملوا السلاح معنا وغامروا بأنفسهم في البحار من أجلنا.

ردَّ وهو على يقين ممَّا كان يقوله:

ـ من أجل القرصنة وبيع الأسلحة. نحن سوق مضمونة. توقيف الحرب هو توقيف بيع السلاح لنا.

شعرت فجأة بأنَّ لهجته تغيَّرت تمامًا، وأصبح الأمير في منزلق خطير. حاولت أن أوقفه وأنبِّهه لما كان يحاك ضدّه. وكلَّما قلت له سيِّدي... قال أعرف. في مرَّة من المرَّات بعد أن صدّينا الهجمات الإسبانيَّة الأولى التي كانت تريد أن تقتحم الجبل. صرخت بأعلى صوتي:

ـ سيِّدي ومولاي... أنت ترمي بنفسك إلى التهلكة.

ـ هل هناك تهلكة أكثر ممَّا نقوم به، وما نحن فيه؟

ـ أتكلَّم على فصل القادة المغاربة والأتراك؟

ـ فصلوا أنفسهم بأنفسهم. ألم تر؟ إنَّهم يرفضون الانصياع للأوامر. هل أقاتلهم؟ وافدون على الأندلس ولا يعرفون أنظمتها وناسها وعاداتها.

ـ هل هذه حربنا أم حربهم؟

وانتهى الوضع بخلاف قاس أدَّى في النهاية إلى سقوط الأمير محمد بن أميَّة على أيدي المتطوِّعين الأتراك، الذين لم يمهلوه حتى يعيد ترتيب نفسه، فقد أصبحوا جيشًا داخل جيش، وقاموا بما كانوا يقومون به في تونس والجزائر. كلَّما غضبوا على حاكم أكلوا رأسه، وأتوا بغيره قبل أن يزيحوه أو يخنقوه ويعوِّضوه بشخص غيره.

لا أدري إذا كان المدجَّنون هم السبب في الفتنة والقتل! ولكنَّ شيئًا كان فينا من يوم حملنا سلاح المقاومة. كان زمن ما قد انتهى وحلَّ محلَّه زمن آخر. حاولنا تمديده. اجتمع قادة الفرق من كلّ الجماعات، الأندلسيَّة والمغربيَّة والتركيَّة، واختاروا خليفة جديًّا هو ابن عم الملك القتيل، فتسمَّى بمولاي عبد اللَّه محمد. وكان هذا الأمير أكثر فطنة وروية وتدبّرًا وخبرة من محمد بن أميَّة، فحمل الجميع على احترامه، وشُغل حينًا بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب، وألتفَّ حوله جيش مدرَّب قوامه زهاء عشرة آلاف مقاتل، بمن فيهم المتطوِّعون المغاربة والترك، فضلًا عن الأعداد الكبيرة من المتطوِّعين من بقايا الأندلسيِّين. وحصل مولاي عبد اللَّه على تعزيزات من قيادة الجيش العثمانيّ في الجزائر، وكان ذلك سببًا في نجاح حملاته الأولى ضدّ الأسبان. مع هذا التصعيد، راح زعماء الثورة الموريسكيَّة يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقًا وغربًا يناشدونهم اللَّه في الإغاثة، وكانت أكثر كتبهم إلى مولاي عبد اللَّه، ملك السعديِّين في فاس، لأنَّه كان الأقرب إلى أراضيهم، ولكن الضفة الأخرى كانت ميَّتة.

رأى الأسبان أنَّ الفترة كانت مناسبة لحسم معركة كانت كلّ يوم تزداد اشتعالًا. قام هذه المرَّة دون خوان النمساويّ، القائد الأسبانيّ الذي كلَّفه الملك بقمع الثورة، ووفر له مختلف أنواع الدعم، بشنَّ حملات واسعة، خلال عامي 1569 ـ 1570. فصفَّى الجيوب المتبقّية والثغور. وأحرق المساكن ودمَّر البلاد وهجَّر السكان، وأفرغ الكثير من القرى. كان شعاره: لا هوادة. انتهت هذه الحملات القاسية بالإذعان التدريجيّ لجيوش مولاي عبد اللَّه. أقنع الأسبان الحبقي، أحد أهمّ قادة الثورة الميدانيِّين الموريسكيِّين، مقابل بعض الضمانات والتسهيلات، فانشقّ عن الثوَّار، وأعلن الاستسلام للسُّلطات الأسبانيَّة، بعد مفاوضات سرِّيَّة

لم تدم طويلًا. الحبقي دفع حياته ثمنًا لالتزامه بتوقيف الحرب، فقد سحبه الثوار نحوهم وقتلوه. تحوَّل بعدها الكلّ إلى مجموعات صغيرة تشبه قطَّاع الطرق، ضائعين في الجبال، بقادة صغار أكثر ميلًا نحو مصالحهم الشخصيَّة. لم يعد أحد من الباقين في الجبال مقتنعًا بما كان يحدث. الخوف من القتل كان يلجم الجميع. لكنّ مولاي عبد اللَّـه رفض الاستسلام وقرَّر المضي في المقاومة حتى الرَّمق الأخير. لجأ مع قلَّة قليلة من الذين بقوا إلى جانبه، إلى الكهوف في قمم جبال البشرات. يقول الكثير من الموريسكيِّين إنَّهم كانوا يكتبون ويدفنون رسائلهم، متيقّنين بأنَّ تاريخًا آخر كان يُصنع في الألم والخوف وضغائن الأخوة. كانت تلك وسيلتهم للحياة والتخفِّي، فابتدعوا الخيميادو التي لا يفهمها غيرهم. سيدي عبد اللَّـه مات رافعًا سيفه وأصبع الشهادة. حزّ المنتصرون رأسه، ووضعوه على عمود وراحوا ينصبونه في عمق المدينة لتكسير ما تبقى من معنويات المحاربين، بينما كانت الكتائب المتبقّية تسقط الواحدة تلو الأخرى، وتسلَّم لمحاكم التفتيش المقدَّس، لتغيب نهائيًّا عن المرتفعات و الأحواز ومخابئ المدينة.

لم يكن حظّي أفضل من غيري. غيري قُتِلَ، ولست أدري أيَّة صدفة كانت ورائي؟ فقد كنت جريحًا على حافَّة شاطئ موحش، على الرَّغم من عزلته، واندفانه تحت صخرة جبليَّة كبيرة، إلَّا أنَّهم وجدوه بوشاية أكيدة من سجين تركيّ كان يعادي سيدي الدون فردناندو دي كردوبا فالور. وأغرقوا الفلوكا المحمَّلة ببعض الأسلحة والبارود والسيوف والسكاكين والألبسة الثقيلة - لأنَّ برد البشرات كان عدوَّنا الكبير. جرُّوني يومها بترابي وخوفي وعطشي نحوهم. أخرجوني من المغارة التي لجأت لها وكانت بمخرج واحد، مثلما يُخرجون قنفذًا أعموه بالدُّخان. أوقدوا النار من حولها حتى اضطررنا إلى الخروج قبل أن نموت مخنوقين بالأدخنة.

وهم يجرُّوننا على حافَّة البحر البارد، لم أسمع إلَّا تكسُّر الأمواج ونشيدًا حزينًا كان يصعد من الأعماق، هل كانت أعماقي أم أعماق البحر؟ لست أدري!

موت لبحار، آبويا

البر بعيد بعيد، آبويا

وصياحي طال...

مشينا على حافَّة الساحل طويلًا، مكبَّلين بالسلاسل والحبال، حفاة وشبه عراة. جمَّدت البرودة أرجلنا حتى لم نعد نحسّ بها. انتابتني أسئلة غريبة تحت هذيان الهزيمة القاسية. تمنَّيت فجأة أن أصرخ بأعلى صوتي، ولا أدري إلى اليوم إن كنت فعلت ذلك أم لا! لأنِّي بعدها لم أسمع إلَّا قهقهة العسكر الذين كانوا يقودوننا، وهي تنطفئ شيئًا فشيئًا في عمق البحر:

«- ثمانية قرون ونيِّف، وكأنَّ شيئًا لم يكن. كل شيء عاد إلى طبيعته الأولى، كما كان، أو كما يجب أن يكون. وكأنَّك يا طارق بن زياد ما صرختَ وما فتحتَ! وكأنَّك يا موسى بن نصيْر ما عزلتَ وما تولّيتَ! وكأنَّك يا عبد الرحمن الداخل ما رفعتَ سيفك وما دخلت! وكأنَّك يا عبد الرحمن الناصر ما ناورتَ وما استخلفتَ! وكأنَّك يا منصور بن أبي عامر ما قتلتَ وما حجبتَ! وكأنك يا محمد الصغير ما بعتَ وما اشتريتَ، لتنفذ من خرم الإبرة كأيّ خائن صغير!؟ كأنَّكم لم تكونوا. كأنِّي لم أكن».

الورقة الثالثة

وتتحدَّث عن ضربة الشمس القاسية التي تعرَّض لها غاليليو.
نداءات المرحَّلين اليائسة، في مواجهة مصائرهم.
وأخيرًا، كيف التقى غاليليو الروخو حبيبته سلطانة للمرَّة الأخيرة، وما جرى بينهما من أحاديث خاصَّة ووعود.

ـ . . . كأنَّكم لم تكونوا. كأنِّي لم أكن.

ـ نعم. . . ماذا قلت؟

نبَّهني أحد الحرّاس بعد أن أخرجني سؤاله من غفوتي.

ـ لا شيء يا سيِّدي. كنت فقط أهذي. . . أهذي. . . ليس أكثر.

جاء دورنا. كنت مستسلمًا لأهواء الحرّاس الذين وُضِعتُ تحت تصرُّفهم بعد أن تخلَّى عنِّي الكاهن الثاني الذي لم أعرف اسمه أبدًا. لم يتكلَّم طوال المدَّة التي قضاها معي، وكأنَّ لسانه كان قد قُطع نهائيًّا. كان يأمرني بالإشارة، بعينيه وبأصابعه. من حين لآخر، كان يتمتم في

أذن مرافقيه من الحرَّاس، ثمَّ يواصل سيره، يسأل عن السَّفينة التي كانت ستقلني مع المجموعة التي كانت مقيَّدة معي في السلاسل الثقيلة نفسها لمنعنا من الهرب، يبدو أنَّها السفينة البرتغاليَّة المتَّجهة إلى وهران. فقد كانت هي الأكبر، والأوسع، والأكثر قدرة على نقل عدد ضخم من المسافرين. لم يشرحوا لي إلَّا الكلمات التي قالها لي أنجيلو ألونصو بسماحته المعهودة:

ـ أنت تعرف أنَّ وهران مدينة إسبانيَّة، ولا يوجد أيّ إشكال للاستقرار فيها. يمكنك أن تعيش هناك، وتتواصل مع من تحبّ في تلك المدينة.

ـ ولكنِّي يا سيِّدي لا أعرف أحدًا.

ـ ستتعرَّف عليهم. هناك سلطة إسبانيَّة يمكنك أن تلتجئ إليها عند الحاجة. وضعك أحسن من وضع الذين مُزِّقوا في دهاليز محاكم التفتيش المقدَّس ولا من سمع أصواتهم وصرخاتهم، وأفضل من الذين قُتلوا ورُموا في السواحل المهجورة. لك أن تتخيَّل حجم المأساة!

في لحظة هاربة، وأنا على حواف ميناء المارية، تذكَّرت فجأة ما انتابني وأنا أسير بمحاذاة أنجيلو في ذلك الصباح الدافئ، قبل أن يسلِّمني للرجل المغلق. فكَّرت أن أبعث معه برسالة إلى سلطانة التي لم أرها منذ أن سرقتني جبال البشرات. كان وسيلتي الوحيدة للتواصل معها أو مع أخيها، لكنِّي خفت. وكأنَّ أنجيلو سمع ما في قلبي، من أحاسيس غامضة، سبقني إلى الكلام.

ـ أنا أعرف الحيّ الذي تسكنه، وقد سكنته مدَّة. يمكنك أن تترك رسالة أسلِّمها لسلطانة.

استغربت. سمَّاها باسمها. زاد يقيني أنَّه ملاك زرعه اللّـه في عمق حرائقي، ولم يكن بشرًا. أنا لم أنطق أبدًا أمامه باسم سلطانة. أردت أن

أسأله أكثر، ولكنِّي في النهاية اتَّخذت قرار الصمت وكتابة الرِّسالة. أخرج من صدره ورقة وقلمًا، حرَّر يدي، ثمَّ ابتعد عنِّي قليلًا بكثير من الأدب. شعرت بحرّيَّة غريبة، تنفَّست عميقًا قبل أن أسخر من اللَّحظة: ثمَّ ماذا لو أهرب الآن؟ ثمَّ عدت إلى رشدي. اتَّكأت على حائط قديم شعرت بصلابته وقسوته ورائي، وبدأت أكتب. أتذكَّر إلى اليوم حرفًا حرفًا كلّ ما قلته. كنت خائفًا من شيء غامض، ولهذا لم أترك العِنان لقلبي لكي يقول ما كان يملأه:

«لالة سلطانة الغالية... حبيبتي. الزمن لم يكن رحيمًا معنا. قلتِ لي لا تركب رأسك، ولكنِّي ركبته، لا تكن عنيدًا، فكنت مجنونًا، لا تحارب في الفراغ، فحملت البندقية وأطلقت الرصاصات المتبقّية على أرض كنت فيها ولم تكن لي. لا تنتحر، فرميت روحي بين كفِّيْ سيدي الدون فردناندو دي كردوبا فالور (محمد بن أميَّة صاحب الأندلس وغرناطة)، وها أنا ذا اليوم، نتيجة لذلك كلِّه أركب سفينة ثقيلة، أخشابها مثقلة بالسوس والماء، متَّجهًا نحو فراغ جديد اسمه وهران. كما تعرفين، سيدي الأمير محمد بن أميَّة، قُتل من طرف الكتيبة التركيَّة، وأنا جُرحت، لكنِّي ما زلت حيًّا. لم تحرقني محاكم التفتيش ولم تمزِّقني لسبب لا أعرفه إلى اليوم. ربَّما لأنَّ ملاكًا اسمه... نزل من السماوات العليا وسرقني من مخالبها بذكائه الفطريّ. تمنَّيت أن أودِّعك، ولكن... ربَّما هكذا أفضل. ميناء المارية لا رائحة فيه إلَّا رائحة الملح، والأسمال والصدأ والخوف الذي احتلّ الأبدان. سأرى كيف أتَّصل بكِ وأنا في وهران. ليست لديَّ طيور العشَّاق الزاجلة، العابرة للبحار، ولكنِّي متأكِّد من أنِّي سأجد مسلكًا إليكِ، حتى ولو في آخر العمر. وربَّما عفا الملك عن حماقاتنا السابقة، وأعاد لنا حقَّنا في العيش على هذه الأرض. فالأرض التي يُدفن فيها جدّك

الأوَّل والثاني والثالث... والعاشر، هي بالضرورة أرضك. وإذا لم أعد، سأحمل في رأسي حلمنا الغالي، وسأبني بيتنا الأندلسيّ على الأرض الأخرى، وسنسكنه معًا. لي يقين بذلك لا يلين أبدًا. سنبنيه هنا في هذه الدُّنيا، قبل الآخرة. لا أدري في أيّ مكان، ولا في أيّ زمان، ولكنِّي مطمئنّ للآتي. واجهت موت المحاكم وخرجت كاملًا، فلن تقهرني أيَّة قوَّة أخرى بعد الآن. حلمي الذي وعدتكِ به واشتهيتِه وأنت ترينه منجزًا في أحد مرتفعات غرناطة، سيلازمني لآخر العمر. أحفظ كلّ كلماتك وأنت تقفين بدهشة أمامه:

ـ أيَّة رقَّة فكَّرت في هذا البناء؟ أيّ ذوق رفيع. أنظر... الأسقف، الحيطان، المداخل، الأبواب المقوَّسة، الأعمدة؟ النوافذ المفتوحة على هواء الجبال؟ هل تدري ما ينقص غرناطة وهذا البيت؟ بحر جميل فقط، تستقبل الأبواب المفتوحة نسائمه المالحة كلّ صباح...

ضحكتِ. بان إشراق ابتسامتك، ثمَّ قلتِ وأنت تلتصقين بطولي: هل تدري حبيبي؟ هذا مهري؟ قادر عليه؟

لم تكوني جادَّة طبعًا، ولكنَّك عشقتِ البيت مثلي، حتى أصبحنا نزوره كلَّما تمكَّنّا من ذلك، ولم تمنعنا لا الهضبة التي كان علينا تسلُّقها، ولا الأشجار التي اندفن في عمقها، ولا أصحاب البيت الذين طلبنا منهم أن يسمحوا لنا بالدخول، فدخلنا، فحفظنا كلّ تفاصيله الداخليَّة. عندما عرف صاحبه بأنَّنا عشقناه، وأنَّنا كنَّا شابَّين يبحثان عن أجمل عش، طلب ابنه، فجاءنا بمجموعة أوراق وهو يقول: هذا أصل التَّخطيط الأوَّل، يمكنكما أن تستفيدا منه، ولا توجد به إلَّا تحويرات قليلة في الإنجاز. عندما تصمّمان، تعالا. ابني تعلَّم حرفة الهندسة العمرانيَّة من معلِّم أشبيلي، يمكن أن يفيدكما كثيرًا...

كلّ شيء في القلب يا سلطانة. سأدعو اللّـه أن يمنحني بعض العمر فقط، لأراك فيه عروسًا مجلّلة بالبياض، وبعدها لن أطلب العيش أكثر حتى ولو كانت لذّة الحياة معك ترضيني وترضي اللّـه. صبرًا عمري. صبرًا... صبرًا.»

حبيبك غاليليو الروخو

طواها أنجيلو ألونصو بحذر، ثمَّ وضعها في صدره، قبل أن يسلِّمني لغيره وهو يتمتم.

ـ يا اللّـه تشجَّع. كلُّها أيَّام وترحل هناك، وتبدأ حياة جديدة. أنت ما زلت شابًّا. سأطلب منهم أن يفكُّوا قيدك بمجرَّد ركوبك على ظهر السفينة. لأنَّ المحاربين كما تعرف، والزعران والمنتفضين، والسرَّاق والقتلة، يسافرون مقيَّدين. سأجد من أوصيه عليك.. لا تخف.

الشمس حارقة على حافَّة المارية، تنزل عموديَّة وقاسية. تضرب في الرأس بحدَّة. الناس تائهون. لا أحد يسأل عن أحد، سوى عن أولاده وأقربائه. لأوَّل مرَّة أرى الإنسان صغيرًا كفأر وأنانيًّا بشكل قاتم. عليك أن تدبِّر خبزك وماءك وفراشك يا ابن أمِّي، قلت في خاطري. ربَّما كان حظّي الوحيد أنّي لم أشكُ من هذه الخصاصة، لأنَّ الحارس الذي أوصاه أنجيلو هو من كان يقوم بذلك من تلقاء نفسه. الماء والخبز وبعض الفواكه الجافَّة. الناس يتحوَّلون أحيانًا إلى أقصى درجات الأنانية عندما يُحرمون من كلّ شيء. يصبحون شبيهين بالحيوانات، إذ يفكِّر كلُّ واحد في مساحته الخاصَّة. سقطت امرأة من كثرة الدفع، لم يسعفها أحد بما في ذلك زوجها أو مرافقها. جرَّها الحرس ووضعوها في الزاوية الخلفيَّة ككتلة من الزبالة التي كانوا يريدون التخلُّص منها. قال أحدهم لمرافقها، الذي ظلَّ منشغلًا بالبحر والسفينة التي كانت تحاول أن ترسو بصعوبة:

ـ احمل معك زبالتك ولا تتركها وراءك، وإلّا سنضطرّ إلى رميها في البحر.

الوسخ والعرق وطنين الذباب الكثير. صرخات كثيرة كانت تتوالى من هنا وهناك. في كلّ العيون حيرة غريبة لا تصدِّق ما كان يحدث لها. نداءات متقطِّعة تأتي في شكل صفير هارب، من عمق الجمع المتماوج: عاش الملك فيليب... عاش... عاش... ارحمونا... اقتلونا... لم نعرف وطنًا غير هذا. هنا نبتنا ونبت أجدادنا الأوائل... لا نريد أن نذهب... كلّ الأصداء كانت تصطدم بالواجهات السميكة والصدئة لسفن التهجير والنقل!

في تلك اللَّحظة بالذات، لا أدري لماذا، ولكنِّي في أعماقي لعنت طارق بن زياد والبحر الذي دفع به إلى هذا المكان، وضعف الجيش القوطيّ الذي لم يمنعه من المرور وخيانة الدون خوان. ولعنت طمع موسى بن نصيْر الذي لم يزد الطين إلَّا بِلَّة. صرخت أيضًا في أعماقي: ألم يكن من الأجدى لكم ولنا أن تعفونا من هذا الجرح النازف؟ ثمَّ تداركت حماقتي في النهاية. ولعنت هذه المرَّة الشيطان الرجيم، الذي سكن بقوَّة وعمق في لحظة ضعفي.

كان ميناء المارية ممتلئًا بالبشر الذين كانوا يتضاعفون. رائحة تشبه رائحة البصل المحروق كانت تخرج من البحر. ملوحة السمك الفاسد. حتى اللَّحظة لم أكن مقتنعًا بالشكل الكافي بأنِّي سأغادر وطني للمرَّة الأخيرة وأنِّي لن أعود. لم أكن سعيدًا بقطع البحر. لكن عندما تأكَّد لي أنَّ الأمر كان أكثر من جدِّي، بدأت ارتعش من الداخل. واعتلتني برودة لم أعد قادرًا على مقاومتها ولا على تحمُّلها. ذلك كان يعني أنَّ زمني الذي عشته توقَّف عند هذه اللَّحظة، وأنِّي لن أرى أبدًا أهلي ولا المرأة التي حملت السلاح من أجلها. وأنِّي سأفقد غرناطة وحيّ البيازين إلى الأبد.

كانت الضفَّة الأخرى التي تصوّرنا انتفاضتها صامتة ولا تحرِّك ساكنًا أبدًا. بعض المرحَّلين كانوا بلا قيود، والبعض الآخر كان مصفَّدًا مثلي في سلسلة لا متناهية من البشر المربوطين بعضهم ببعض. وجوههم محروقة وشيء ما يتراقص في عيونهم يشبه قدرًا لم يكونوا قادرين على تحمُّله. نسيت كلّ شيء إلَّا سلطانة التي مُنعت من رؤيتها، وأميري الذي تركت روحه معلَّقة بين جبلين في حربه المستحيلة. رائحة هذه التربة أصبحت فجأة غريبة. في البداية لم أحسّ تجاهها بأيَّة عاطفة. شيء ما كان يبعدني عنها. ثمَّ مع مرور الوقت، بدأت الأمور تستقيم. لا أدري ماذا حصل! كلُّ شيء تمَّ بسرعة غريبة. سرقوا من حضني كلّ شهواتي وأحلامي. يبدو أنِّي فكَّرت بشكل جيِّد عندما تركت كلّ ممتلكاتي بين يديْ سلطانة وأخيها. لم يكن مهمًا أن يكون أجدادي من أمِّي تجارًا ووجهاء كبارًا في المدينة. لقد كان الأمير الأمويّ، الدون فردناندو دي كردوبا فالور هو دليلي في ظلمات ذلك الزمن المستعاد قبل الانكسار النهائيّ. لا أدري لماذا غفرت أيضًا للمدجَّنين وعلى رأسهم ألدون ألونصو فينيغاس، الذي لم يكن خائنًا ولا مخطئًا بشكل كامل. كان يريد مخرجًا شريفًا للدون فرناندو، ولكنَّ الأتراك لم يكن ذلك يناسبهم ويناسب تجارة أسلحتهم.

لا أدري إذا ما كان للحزن طعم، ولكنِّي شعرت به مالحًا. كانت ملوحة الساحل الثقيلة تسدّ حلقي. الجفاف يملأ حلقي. الوجوه مكدودة. العرق الأسود يتصبَّب من الجبين المتعب. كان البحر هادئًا في ذلك اليوم، يبدو كمرآة تنزلق عليها الأشياء بدون أن تكسر سطحها الأملس. كانت السفينة راسية في مكانها بعدما أفرغت سلعها القادمة من وهران. قيل لنا هي ذي السفينة التي ستنقلنا إلى العدوة الأخرى. كان الناس يتباكون ويندبون ويصرخون. فجأة، أظلم الميناء الصغير بالبشر، ولم يعد قادرًا على التحمُّل. الأطفال يعوون جوعًا، النساء يندبن. الكثير من الناس

هربوا بعد أن رموا بأنفسهم في البحر، إذ لم يكونوا قادرين على التحمُّل. لا أدري إذا وصلوا حيث كانوا يريدون! كان العسس لا يبذلون أيَّ جهد لاسترجاعهم. يرقبونهم حتى يندفنوا في أعماق المياه، ثمَّ يعودون إلى حراستهم. يعرفون جيِّدًا أنَّ أغلبهم كان يموت في اللَّحظة التي يرمي فيها بنفسه. رفض الكثيرون أن يركبوا السفن، لكنَّهم أُجبروا على ذلك بالقوَّة. كان المنظِّمون يدفعون بهم كمن يدفع بقطيع من الأغنام والأبقار الجائعة.

توجد دائمًا في حياة الإنسان لحظة غريبة لا يعرف كيف يفسِّرها، ولا يدرك سرَّها أبدًا. لكنَّها تصنع كلّ شيء في حياته القادمة. كانت حُبيبات المطر الخريفيّ الثقيلة قد بدأت تتساقط حبَّة حبَّة. كنت أعدُّها وأحاول أن أستنشقها وأنسى رائحة الملوحة الحادَّة. أغمضت عينيَّ قليلًا. ثمَّ فتحتهما لأملأ أنفي وجسدي ونظري بالمدينة، وبالمكان وبالجبال المحيطة. ثمَّ فتحتهما للمرَّة الأخيرة بعد أن ملأت صدري وعينيَّ بهوائها وألوانها. وقبل أن أغمض جفنيَّ للمرَّة الأخيرة، وأنسى كلَّ شيء ولا أتذكَّر إلَّا ما أحببته وحلمت به طويلًا، انتابني برق أعمى بصري فجأة. لم أصدِّق ما سمعت وأنا أتهيَّأ للرُّكوب. ومع ذلك، لم أخطئ في الصوت أبدًا. كانت صرختها حادَّة كالألم. غاليليو لا تركب... أرجوووووك. غاليليو... لا تركب. التفتُّ صوب الصوت وأنا على شبه يقين من أنَّه من بنات أوهامي السَّمعيَّة. لابدَّ أن تكون لالة سلطانة. كنت مثقلًا بالسلاسل، وورائي العديد من الحرّاس، يدفشون الناس دفشًا، يسبقهم كاهن بعينين غامضتين. ثمَّ رأيت أنجيلو ألونصو وهو يتمتم في أذنه وسلطانة تضع في يده كيسا أسود من الذهب أو النقود. هكذا خمَّنت. فجأة سحبني الحرّاس، وتمتم أحدهم في أذني.

ـ يا حظك! ما أسعدك. أمامك ساعات تستطيع أن تشبع فيها من حبيبتك، ستكون آخر الركاب.

سعدت بالموت المؤجَّل، لأنِّي في لحظة من اللَّحظات شعرت أن الدُّنيا ما تزال بألف خير على الرَّغم من القسوة والقهر. قبل أن أسلَّم عليها انحنيت أمام أنجيلو الذي قبل بمنحي هذه الفسحة. بست رجله. وكان في كلِّ مرَّة ينسحب قليلًا إلى الوراء ويحكُّ على رأسي عفوًا... عفوًا... ثمَّ التفتُّ نحو لالة سلطانة، كانت مشرقة كقمر وممتلئة كتفّاحة. مرَّ العالم في ذهني في رمشة عين مثقلة بالخيبة. لم أتذكَّر شيئًا سوى ذلك اليوم الربيعيّ الذي أصبح بعيدًا، حينما جاءتني لالة سلطانة إلى المكتبة. كانت ترمي شعرها إلى الوراء كالغجريات. قالت إنَّها تريد *مخطوطة العاشقين ونجوم الأفلين*؟ ضحكت. كنت أحسّ بها أكثر من اللواتي كن يأتين إلى مكتبة *روسا روخا*[1] بحيِّ البيازين. قلت لها: هذا كتابي الذي أطالعه يوميًّا ويمنحني قدرًا من الراحة الداخليَّة. قالت لأنَّها رأتني منشغلًا به، ولهذا تريد أن تقرأه. جئتها بالكتاب. ثمَّ وجدت لها مكانًا في المكتبة، في الزاوية المضاءة بنور النافذة الخارجيَّة، بالقرب من طاولات قديمة، وقلت لها إقرأي وقولي لي رأيك. تأمَّلتها من بعيد كيف فتحت الكتاب بعد أن انسدل شعرها عليه، ورأيت دفئًا مشعًّا يصعد من عينيها بعد لحظات من القراءة. الدُّنيا التي لاقتنا على كتاب، جمعتنا على كتاب، وجعلتنا نعشق الدُّنيا أيضًا على كتاب. كانت واقفة بنفس خجل المرَّة الأولى للقائنا في مكتبة *روسا روخا*.

اشتهيت في لحظة من اللَّحظات أن أسحبها في أثري، وأرمي بنفسي في عمق البحر، كما فعل من سبقني من المجانين، ولكنِّي عدلت عن الفكرة نهائيًّا لأنَّ حسّ الحياة كان أقوى. السلاسل الثقيلة التي بقي جزء منها في رجليَّ، كانت كافية بأن تجرّني وتجرّ معي لالة سلطانة نحو أعماق البحر. لم أتكلَّم، ولم تتكلَّم. ولكنِّي بخوائي شعرت بامتلاء

(1) وتعني الوردة الحمراء من الإسبانيَّة: Rosa roja

غريب. قبَّلتها في كلّ المساحات العارية. وضعت وجهها بين يديَّ، وتأمَّلت طويلًا عينيها الهادئتين كعيني عصفور حائر. لامست بحنان رؤوس أصابعها، وبستها أصبعًا أصبعًا وظفرًا ظفرًا. لثمت كلّ قطعة من قماشها. انحنيت على التربة التي مشت عليها على حافة الميناء، وصلَّيت لها بلا خجل من العيون التي ظلَّت ملتصقة بما كنت أفعله. تأمَّلت صدرها والسلسلة التي تتخبَّأ بين نهديها، كانت آخر هدية قبل انسحابي نحو جبل البشرات. كانت الوحيدة التي تحسّ بأنِّي لن أعود، وأنِّي ركبت رأسي وصمَّمت على الموت. في تلك اللَّيلة الأخيرة، كنت أنا من وضعها حول رقبتها وتركتها تتسرسب داخل أدفأ مكان، بين نهديها النافرين المتَّقدين. لم ننم أبدًا. وعندما مرَّ عليَّ أصدقاء الأمير الدون فردناندو دي كردوبا فالور، كنت غافيًا على صدرها العاري. شعرت كأنِّي ليلتها عشت آخر يوم في حياتي بالشكل الذي اشتهيته وأردته وحلمت به، ساعات قبل القيامة. كانت مشرقة تحت القنديل الزيتيّ كلوحة من لوحات الغريكو العظيمة. استرجعت ذلك كلَّه وأنا مندهش أنَّ ما كان يحدث لي لم يكن حقيقة أبدًا، ولكنَّه كان استمرارًا للّيلة الأخيرة التي رحلت بها نحو بارود جبال البشرات، وأرحل بها الآن نحو ميناء وهران وخلوة غاباتها، التي كثيرًا ما تحدَّث حولها أمامي الأتراك العارفون الذين تركوها للأسبان.

قبَّلت عينيها الباكيتين، للمرَّة الأخيرة. لثمت ملوحة دمعها بحرقة. بدت كقديسة، لم تكن أقلّ من الكاهن أنجيلو. لم أسأله، لكنِّي كنت أدرك جيِّدًا عظمة وخطر ما كان يقوم به من أجلي. تمنَّيت أن لا أرحل بدمعها على ألبستي الرثَّة، وهي تسلِّم لي حقيبة بها ألبسة وأكلًا وأغطية. تمتمتْ. وضعتُ يدي على شفتيها. قلتُ:

ـ أعرف.

ـ أحبُّك، وسأنتظر عودتك.

ـ لا تكوني مهبولة. لا تنتظريني. أنت حرَّة في حياتك بدءًا من هذه اللَّحظة.

ـ لا. وهل أنت وحدك من يقرِّر؟ لن أتركك. إمَّا أن أعيدك أو أتبعك. وعد منِّي.

ـ كلُّ أموالي وذهبي عند الدون فرديريكو، أخوك. خذي منها ما تشائين. كلُّ مخصَّصات العرس والبيت الأندلسيّ. كان هو شوقنا وحلمنا، ولكن الدُّنيا القاسية أرادت غير ذلك.

ـ سنبنيه كما قلت لك. أنا متأكِّدة من ذلك. الزمن لن يموت برحلة. أنا سأتبعك إذا لم يعيدوك إليَّ. سأتبعك... سأتبعك عمري...

ـ إلى أين؟

ـ أينما كانت رائحتك. ألم تقل مخطوطة *العاشقين ونجوم الآفلين* إنَّ لكلّ حبّ نجمة ترعاه؟ سأكون نجمتك التي لا تغيب. وإنَّ الحبيب للحبيب غطاء؟ سأكون غطاءك في الأيَّام القاسية والصعبة. وإنَّ الحبيب للحبيب مسافة؟ سأكون، عمري، مسافتك بين القلب ولسانك.

ـ سلطانة... كلُّ شيء عند الدون فرديريكو دي طوليدو...

هزَّت رأسها كطفلة عنيدة، وكأنَّها لم تسمعني:

ـ إذا لم تعد، سأتبعك حافية القدمين، أو على قطعة خشب.

ـ اللَّـه يحفظك. دمتِ في القلب والعين.

قلتها وكأنِّي كنت أتعامل معها على قدّ عقلها، فقد كنت أعرف أنَّها مهبولة، ويمكن أن يركبها عفريت الركض باتِّجاه مبهم، لم أكن أعرف منه شيئًا إلَّا كلمة اسمها وهران.

عندما فتحت عينيَّ مرَّة أخرى، كان الضباب قد نزل على وجه المارية، ولم يبق أمامي إلَّا أن ألوِّح بيدي للمرَّة الأخيرة صوبها. ربَّما منحتنا الحياة شيئًا خاصًّا وخارقًا لا نعرفه إلَّا عندما نعيش قسوته.

أَغلقتُ كلّ المنافذ لكي لا أرى حزني وانكساري في عينيها، وهدأ الصراخ والبكاء ونحيب الناس الذين استسلموا لقدر كانوا يجرُّونه وراءهم.

توغَّلت السفينة الثقيلة في أعماق البحر. لم يكن أحد يعرف ما كان ينتظره في أفق الرحلة. كانت تتجشَّأ بالبشر وجبال الأغراض الخاصَّة. لم يكن مهمًّا! ماذا يساوي العفش والمال عندما تترك نفسك وراءك؟ لا شيء أبدًا. كلُّ مدّخراتي تركتها للكونت فريديريكو دي طوليدو، أفضل من يحميها. فقد وعدني في العديد من المرَّات أنَّه سيجد وسيلة لإيصالها لي عندما يستتبّ وضعي.

كانت في الأفق وهران التي تنتظرنا، مدينة مليئة بالحيرة. قيل لنا إنَّ أهاليكم هناك وسيحتفلون بكم! سيقيمون لكم أعراسًا لم تحلموا بها. لكنَّ قلبي كان يخبرني بمأساة أخرى كانت تلوح في الأفق.

الناس في البداية كانوا مذعورين، ولكن منذ اللَّحظة التي أصبحت فيها السفينة في عرض البحر، هدأ كلُّ شيء في حالة من الاستسلام الغريب القريب من الموت. كلُّ شيء انتهى، وحلَّ الصَّمت مكان العويل والبكاء. ودفن غالبية الركاب نظراتهم القلقة في عمق البحر والموج، أو في أفق كان رماديًّا ورصاصيًّا كالخوف. لم يكن أحد يفكِّر في شيء محدَّد سوى في فراغ كان يصعب فهمه وتحديده.

أغمضت عينيَّ على صوت الأمواج التي تصاعدت عاليًا، وأصبحت تضرب السفينة من كلّ الجهات. بهدوء، انزلقت في عمق *روسا روخا*، نزعت مخطوطة *العاشقين ونجوم الأفلين* من يديها، وضعت رأسي على ركبتيها، ثمَّ نمت طويلًا وكأنِّي متُّ.

الفصل الثاني

وصلة[1] الخيبة

(1) الوصلة في الموسيقى الأندلسيَّة هي المقطوعة الرابطة بين إيقاعين مختلفين، منها وصلة زيدان مثلًا، التي تعطي نوعًا من الهارمونيا والتناسق والسلاسة للإيقاع الموسيقيّ ولا يبدو غريبًا أو نشازًا.

-1-

المسافة الرابطة بين البلدية والدار لم تتغيَّر، ومع ذلك كلَّما عبرتها شعرت بها تطول كلّ يوم أكثر، أو أنَّ جزءًا منها قد اختُصر، بحسب الحالة التي أكون فيها. عليَّ أن أستنشق البحر وملحه. ثمَّ أشقّ سوق الجمعة أو ما تبقَّى منه، في منتصفه. أصادف الكثير من الوجوه التي أعرفها وتعرفني. تصبِّح عليَّ وأصبِّح عليها: صباح الخير خويا باسطا... صباح النور حاج مراد... واش أخبار البيت؟ كلاوا كل البلاد وما شبعوش؟... ولن يشبعوا أبدًا حتى يشبع الموت منهم... كلُّ واحد يناديني بالاسم القريب منه. نثرثر قليلًا عن هموم الدُّنيا. يؤكِّدون لي أنَّهم مستعدُّون للشهادة معي عند الضرورة. لكن الذي حدث في الآونة الأخيرة أثارني إلى حدّ كبير، وحزّ في قلبي. فقد أصبح الكثير منهم يتهرَّبون من ملاقاتي. عندما يرونني ينعطفون متسلِّلين نحو الرَّصيف الآخر، أو يختلطون مع المارة لكي لا يلاقوني. الحاج إبراهيم الذي بمجرَّد ما أنهى عدَّة الحجّ، وضع زوجته الثالثة في عداد أخواتها كما يقول، وقال لها أنتِ هنا إذا شئت، تأكلين وتشربين، ولكن إذا ما عجبكش الحال، الباب يفوت بقرة. كانت تفهم جيِّدًا أن لا بقرة غيرها، ولا

باب غير باب منزلها. تزوَّج من شابة قتل الإرهابيُّون زوجها الشرطيّ. جاء بها من مداوروش، من بلاد الشاوية، حيث أراضيه التي استرجعها من الدولة بواسطة القوانين الجديدة ومعارفه الكثيرين. عندما نبَّهته ابنته التي كانت كلمتها مسموعة لديه أكثر من كلّ نساء البيت:

«ـ يا بابا.. البنت صغيرة ومجروحة، حرام!»

قال بلا تردُّد:

ـ تزوَّجتها بإرادة والدها ولم أسرقها، وسترتها من المتربِّصين بها.

ـ ولكن هل سألتها عن رأيها.

قال وهو يبرم شاربيه التركيَّين:

ـ هذا شغل الرجال يا بنتي، وليس شغل النساء. يجب أن لا تطبِّقي عيشة المدينة على القرية. مداوروش تمشي بمنطق السترة، وأنا أسترها من العيون التي تتصيَّدها في كلّ مكان.

ـ ولكن رأيها مهمّ. صغيرة بزاف. أصغر منِّي بكثير.

ـ ومالو؟ هي الوحيدة التي سأربِّيها على يديَّ، وربَّما كانت الأخيرة، عملًا بالسنة النبويَّة الشريفة. سمعت في مكَّة أنَّ الرسول جاء بعائشة وعمرها تسع سنوات ودخل عليها وعمرها عشر. وهذه ليست صغيرة. عمرها سبع عشرة سنة. وجسدها، اللّـه يبارك، يرحم من مات وخلَّى. هي قرأت وتعرف الحساب. وأنا أحتاج إلى من يساعدني على همّ الدُّنيا. الرملة لازم لها رجالها وحساباتها يا بنتي. وأنا بدأت أتعب، وأنتِ وقتك ليس لي.

ـ يا بابا لم أمنعك من الزواج، قلت لك فقط إنَّها صغيرة، صغيرة جدًّا.

ـ لا حياء في الدين يا ابنتي. المرأة هي نصف الدِّين. عندما تصبح قادرة على الفراش وعلى الحمل، ليست صغيرة.

كان الحاج إبراهيم، قبل سنوات، كلَّما مررت على السوق، وكلَّما رآني ناداني من بعيد، وسحبني من يدي نحو المقهى. هو يعرف جيِّدًا أنَّ اسم: *مقهى الساحل*، وحده كان كافيًا أن يجذبني نحوه. يضحك وهو يربّت على كتفي:

ـ نسيت لزرق؟

ـ وشكون ينساه يا رجل؟

يلتفت الحاج إبراهيم نحو صاحب المقهى، عمي آكلي الذي سقطت كلّ أسنانه، ولم يغيِّر أبدًا من عاداته، الصباح لأغاني حسيبة رشدي وصالحة، وبقية اليوم للأغاني القبائليَّة القديمة.

ـ توحشنا حسيبة رشدي يا آكلي خويا.

يصدح صوتها مليئًا بالحنين:

سير... سير يا لزرق سير،

المخلولة في تستنى، وأنا خايف من الغير...

ـ شوف يا خويا مراد، هذه طاحونة، أكلت كلّ شيء. الأخوة لبعضهم. إذا احتجتني للشهادة، سأقف معك. الحاج إبراهيم، أخوك عند ربِّي. الدار سُرقت منك، وكلّ المشايخ يحكون أنَّها دارك. لا نأخذ معنا إلَّا ما قمنا به تجاه الواحد القهَّار. لازمك حجَّة حقيقيَّة. واغسل عظامك مثلما فعلت أنا.

بعد شرب القهوة، يأخذني من يدي وينزل بي قليلًا نحو موقف السيَّارات، ويريني سيَّارته الأخيرة. سيارة كبيرة وكأنَّها شاحنة عسكريَّة، بها سائق يرتعش لكلّ كلمة تخرج من فم الحاج إبراهيم.

ـ هذه سيَّارة الهامر. الماريكان شاطرين يا خويا، عندما يتعلَّق الأمر بالتجارة. سيَّارة عسكريَّة في الأصل حوَّلوها بلمسة سحريَّة إلى مدنيَّة. عندما تركبها تشعر بالقوَّة والجبروت والسلطان. تحب تضرب دورة بها.

ـ اللّـه يكثر خيرك. رايح للبلدية.

ـ أنت تعرف يا خويا مراد، نحن لم نأخذ من الدولة أيّ شيء، ولم نغلق أيّ مصنع، ولم نهدم أيَّة دار. الرمل مبزع في كلّ مكان، على من طاق! شيء واحد في الماريكان مليح، هي أنَّهم وضعوا كلّ ما هو عسكريّ تحت تصرُّف مواطنيهم. حتى الإنترنت الذي قرَّب كلّ شيء، كما تقول ابنتي التي ترفض أن تشتغل في شركة الرمل معي. جيل اليوم يا خويا مراد، ما يعرف والو، ويحطِّم مستقبله بيديه. الهامر كالمرأة الشابة، تزهيك لمَّا تركبها. تشرب قهوة أخرى؟

ـ يكثِّر خيرك، كما قلت لك، عندي موعد في البلدية.

ـ إذا احتجت إلى أيِّ شيء كلِّمني. أنا أعرفهم جميعًا من صغيرهم لكبيرهم. في يدي كما الخاتم. أرجوك لا تتردَّد نحن أخوة. الرفقة تقتل السبع في هذه الغابة يا صاحبي.

منذ أن عاد من الحجَّة الأخيرة تغيَّرت طباعه كثيرًا. أصبح هو كذلك يتفاداني. قيل لي إنَّه يحضِّر للحملة القادمة الخاصَّة بالمجلس الوطنيّ، لصالح أحد بارونات الحزب. أوَّل شيء قام أنَّه انتمى إلى حزب الجبهة، قالوا له هو دابتك الوحيدة للوصول إلى برّ الأمان. بقرة الجميع، يحرثون بها، ثمَّ يشربون حليبها حتى يدمونها، وعندما ينشف ضرعها، لن يتردَّدوا لحظة واحدة في ذبحها وتقاسم لحمها أيضًا. اشترى كلّ سوق الرَّمل بعدد السيَّارات التي أصبحت تقوم بذلك. كلَّما ألقوا القبض على الشوافرية[1] كما يسمِّيهم، لا يخسر شيئًا، كما يقول لأصدقائه المقرَّبين، الأمر لا يستحقّ أكثر من هاتف ثقيل ومملوء، هو لا يحبّ الهواتف الفارغة. أدهن السَّير

(1) من الكلمة الفرنسيَّة Chauffeurs التي تعني السائقين، وجُمعت على صيغة فواعل العربيَّة.

يسير. في النهاية هو يخدم الدولة كما يقول، وإلّا ستحزم كلّ الشركات الأجنبيَّة، التي تشتغل في البلاد، الصينيَّة واليابانيَّة، وغيرها، أمتعتها وتغادر نهائيًّا. ماذا تستطيع أن تفعل بدون رمل؟

كلُّ شيء كما هو منذ سنوات، إلّا المسافات التي تتقلَّص أو تزيد.

كلَّما دخلت إلى البلدية، أمشي قليلًا، أحسب الخطوات داخل الساحة الكبيرة التي تشبه ثكنة، تُرفع فيها الأعلام في كلّ صباح، وتعزف الأناشيد الوطنيَّة. ثمَّ أرفع رأسي تجاه سماء باردة وحانية كثيرًا، كلّ يوم تجفّ قليلًا. فلا أرى إلّا واجهة جميلة ومنقوشة من قصر تركيّ قديم، بعضهم يقول إنَّه كان أحد قصور حسن فينيزيانو، تركه وحوَّله إلى دار لليتامى قبل أن يعود إلى تركيا في المرَّة الأخيرة. ثمَّ حُوِّل في الحقبة الاستعماريَّة إلى ثكنة، بعد أن غيَّرت أجزاء كبيرة من ملامحه الخارجيَّة والداخليَّة، وأضيف له الكثير من تفاصيل المدينة الأوروبيَّة. لكنَّ الجادِّين من الناس يؤكِّدون أنَّ البناية في الأصل شُيِّدت لتكون بلدية، أُنجزت على النموذج الموريسكي المفتوح، في الفترة الكولونياليَّة، ولا علاقة لها بالحقبة التركيَّة. الشرخ الذي أحدثه فيها زلزال العاصمة الأخير، ما يزال هو هو، لم يغلقه أحد. ولم يرمَّم أبدًا. بدأ الشقّ الذي ينطلق من رأس البناية حتى أساسها الأرضيّ، يتَّسع أكثر فأكثر مخترقًا بياض الحائط في شكل جرح مفتوح.

وأنا أدخل إلى البلدية، وجدت حسين التريسيان[1]، معلَّقًا على كرسيّ. أصبحت أعرفهم كلَّهم من الموظَّفين الكبار حتى الصغار، بأسمائهم وألقابهم، وأحيانًا بنعوتهم. كان حسين يتعرَّق ويتنفَّس بصعوبة بسبب سمنته وثقل جسمه، يحاول جاهدًا أن يركِّب لمبة احترقت منذ مدَّة.

---

(2) الكهربائي، وأصل الكلمة فرنسيّ وحوِّرت قليلًا: L'éléctricien.

ـ لماذا لا يرمِّمون هذا الشقّ الخطير مثلما تفعل أنت الآن؟ ستسقط هذه البناية الضخمة والجميلة يومًا ما على رؤوسهم الخشنة، قبل أن تسقط على غيرهم.

ـ اخط داري واشطح بعيد! هكذا يقولون. يا عمِّي مراد: هذا الشقّ موجود في دواخلهم. عليهم أن يشفوا منه أوَّلًا، حتى يدركوا ما يجب عليهم فعله على البناية.

أدهشني حسين التريسيان بحكمته. لم أضف ولا كلمة. وجدت أنَّ كلامه كان من القوَّة بحيث وجب عليَّ زمّ فمي والصَّمت نهائيًّا. طلبت منه شيئًا كنت أعرف أنَّه لن يتوانى عن فعله:

ـ مليح وجدتك يا حسين وليدي. قد أحتاجك لترتيب الضوء على خزانة المخطوطة التي يريد تلاميذ مدرسة الاستقلال رؤيتها. هل يمكن أتَّكل عليك.

ـ يا عمِّي مراد، أنا ابنك. تأمرني بما تشاء. اطلب عيوني نمدّهم لك.

ـ اللّـه يحفظك. كنت أعرف قلبك.

ثمَّ واصلت نحو موعدي.

استقبلني كريمو عند المدخل. كان بشوشًا كعادته ومرحًا. يبدو أنَّه لا يملك إلَّا لسانه، لأنَّه ليس هو من يقرِّر في المسائل الكبرى على الرَّغم من أنَّه هو أمين عام البلدية. وهذا المنصب يخوِّل صاحبه سلطة كبيرة، لأنَّه الأعرف بكلّ التفاصيل والأسرار الإداريَّة.

ـ مرحبًا عمِّي مراد.

ـ ما فهمت والو يا كريمو وليدي. يقولون لي إنَّ الفصل في قضية البيت الأندلسيّ، سيتمّ بالتراضي ويبعثون لي بورقة تهديد وبحكم قضائيّ لجلسة قادمة.

ـ لأنَّك رفضت الحضور يا عمِّي مراد. والدولة، كما تعرف، عواطفها وأمزجتها باردة. نريد حلًّا تراضيًا لا يتضرَّر منه أحد.

ـ أيَّة أمزجة يا ابني وأيَّ ضرر؟ إنَّهم يبيعون البيت على رأسي يا كريمو! هناك عدوان سافر أكثر من هذا؟

لاحظت، بل استغربت من أنَّ لغة كريمو تغيَّرت تمامًا منذ المرَّة الماضية. لم تعد بها تلك السلاسة التي عوَّدني عليها، انتقاء الكلمات التي لا تجرح الضيف حتى ولو كان القرار قاسيًا. تردَّدت، لأنِّي افترضت نفسي أنِّي لم أفهم جيِّدًا كلامه.

ـ أنا لم أرفض الحضور يا كريمو!! رفضت الظلم فقط والطريقة التي يتمّ بها الاستيلاء على البيت. سبحان اللَّـه، هذا البيت بيتي، وبيت أجدادي منذ القرن السادس عشر، ولي الحقّ، كلّ الحقّ في الدِّفاع عنه.

ـ هذا الحقّ سقط منذ الاستعمار الفرنسيّ يا عمِّي مراد.

ـ حتى هذا القرار غير صحيح، فقد استرجعته العائلة، والوثائق موجودة.

ـ قانون الدولة واضح في هذا الإطار، هو قانون البيان فاكا[1]. أنت لا تسهِّل مهمَّة البلدية. نحن نريد أن نحلّ به مشكلة الأرض، وهناك من اشترى المساحة كلَّها لتشييد برج بمائة طابق يحلّ جزءًا كبيرًا من مشكلات السكن العويصة، أسواق ومطاعم ومكاتب ستغيِّر من وجه البلدية والمدينة بكلّ تأكيد. كلّ الناس باعوا يا عمِّي مراد، ولم يبق إلَّا أنت!؟

ـ ماذا عليَّ أن أفعل إذن؟ أن أسلِّم في حقِّي ودمي؟ يبدو أنَّك حتى اليوم لم تفهمني يا كريمو. أنت لا تعرف ماذا تعنيه تلك الدار التي تُسرق

(1) أصل الكلمة فرنسيّ: Les biens vacants، أيّ الأملاك الشاغرة، المقصود بها التركة الاستعماريَّة.

كل يوم قليلًا منّي؟ في كلّ زاوية منها أصوات ونداءات وحشرجات، وتقطُّع اللَّذة، وتنفُّس الرُّعب، وصرخات استغاثة لأناس الكثير منهم كانوا منّي! هل تعرف ماذا يعني ذلك؟ أعرف كلّ ناسها وساكنيها، كلّ الذين عبروا أبوابها أمواتًا وأحياءً أو هاربين. أشعر بهم فيَّ. هل تفهمني؟ لست مسكونًا، ولكنّي كلَّما مشيت في حديقة الدار، رأيتهم واحدًا واحدًا. أشرب معهم قهوة الصباح، وأسهر معهم كلّ ليلة حتى الفجر. قد تقول عنّي هذا الرجل مجنون! معك حقّ. البيت يا ابني ليس قبرًا صامتًا، وليس مساحة خالية من الأحاسيس، ولكنَّه حياة مستمرَّة. هذا البيت الذي تريدون بيعه، قاوم كلّ الغزاة وظلَّ واقفًا، ويقاوم اليوم قَتَلة من نوع جديد، الورثاء، الذين يريدون تنكيسه نهائيًا كما يفعلون مع الجِمال قبل الإجهاز عليها وذبحها. أنا ماض يا كريمو، لم يبق في العمر الكثير، ولكنّي سأمنعهم من تبريك الجمل وذبحه حتى ولو بقي في عمري يوم واحد.

دارت عيناه الصفراوان بشكل غريب مثل عينيْ كلب. صمت قليلًا ثمَّ أضاف.

ـ واللَّـه يا عمّي مراد أسمعك بكلّ حواسّي. ولكنَّ العقل عقل والعاطفة عاطفة. البيت أصبح خربة، وسيسقط اليوم أو غدًا. خلّيني أقول لك إنَّك تتحدَّث عن شيء لم يعد موجودًا في الحياة، ولكنَّه موجود فقط في قلبك ورأسك. وأنا أتفهَّم هذا جيّدًا، ولكنَّ الدولة والمصلحة الوطنيَّة العليا...

ـ لم أفهم جيّدًا! قاطعته.

ـ كلّ جيرانك باعوا للدولة، وأنت مصرّ على مقاومة طاحونة أكبر منك ومنّي. ثمَّ إنَّ بقية الورثاء من أولاد أخيك وعائلتك، حتى اللي فيهم ريحة اللحمة في الشاقور، جاؤونا بملفَّات تثبّت أهليّتهم وحقّهم في الدار، ويطالبون بالبيع لاستلام حقوقهم. يرون أنَّ السعر الذي منحته شركة التعمير

والأبراج، مقبول جدًّا. كلُّ الناس قبلوا بالتراضي وتخلُّوا عن فكرة الإصرار على استعادة حيطان ميِّتة وراشية إلَّا أنت؟ المشكل أنَّك كلَّما أثبتَّ أنَّها دار أجدادك، تكاثر الطامعون فيها. هل أعطيك القائمة؟ هناك من لا تعرفهم أصلًا، ظهروا هكذا فجأة في الآَونة الأخيرة؟ كلُّهم ينادون بتحريرهم من ثقل الشروط التي وضعتَها للخروج من البيت، أي بتحويلها إلى ما كانت عليه، دار للثقافة أو الموسيقى أو التراث؟ يا عمِّي مراد، أيُّ تراث يقاوم برجًا من مائة طابق؟ ينتظرون بفارغ الصبر بيع الدار واستلام حقوقهم بسرعة. هم من سيقاضونك إذا واصلتَ في هذا الطريق. أقول هذا حبًّا فيك وليس لشيء آخر.

ـ لم أفهم؟!

مدَّ كريمو يده إلى الدرج، أخرج منه ورقة قدَّمها لي. عبرتها بسرعة بعينيَّ.

ـ أعرف أغلبهم. كل واحد تحرِّكه نوازع خاصَّة، ولكنْ ولا أحد منهم يملك ربع ورقة تثبِّت أهليَّته أو انتماءه لهذا البيت. وسنرى إذا كانوا قادرين على فعل ذلك!

ـ ومع ذلك يدَّعون أنَّهم من السلالة، أو عاشوا في البيت الأندلسيّ ردحًا من الزمن ممَّا أعطاهم الحق في المطالبة بتعويضات الدولة وشركة التعمير والأبراج، التي أصبحت سخيَّة هذه الأيَّام. من حقِّك أن تطلب السعر الذي تشاء، وسنحاول من جهتنا أن نقيِّمها معك من طرف مختصّ، ونعطيك حقَّك كاملًا. أنظر إلى القائمة وستعطيني كلَّ الحقّ.

لم أكتم غضبي. كادت عيناي تنفجران. فقد علتني غصَّة قاسية سدَّت حلقي عندما رأيت أبناء أخوتي في القائمة، من صغيرهم إلى كبيرهم. السخط والكآبة.

ـ واش أقول لك يا كريمو؟ لا أكذب عليك، أنا متألّم جدًّا. أعرف أنَّ الطمع يفسد الطبع، لن أمنعهم، فليفعلوا ما يشاؤون. اللِّي قابض على الهواء بيديه، فليخنقنا، إذا شاء.

كلَّما تعمَّقنا في النقاش كان وجه مراد يزداد مرارة وصفرة. كنت أشعر بارتباكه الكبير وخوفه الضامر. كان عبثًا يحاول أن يبدو متَّزنًا، وأن لا يجرحني. قدَّرت فيه ذلك. لكنَّه في النهاية واجهني بالحقيقة المرَّة.

ـ واش أقول يا عمِّي مراد؟ وظيفتي أن أخبرك بالحقيقة لا أكثر، وهذا سبب الدَّعوة. سيزيلون كلّ شيء. الدولة هذه المرَّة مصمَّمة على الانتهاء من هذه الوضعيَّة الغريبة. ألم تلاحظ أنَّ الدار أصبحت معزولة بعد أن عُرّيت كلّ المناطق التي من حولها؟ ألم تر صورة البرج المنصوبة في كلّ الأمكنة، أصبحت تسيِّل ريق كلّ السكان وأصحاب الشركات؟

ـ أعرف وأرى. البلاد كلُّها تعرَّت ولم تعد قادرة حتى على حماية نفسها. لم تعد معقلًا للحرِّيَّة. لقد ظنَّ النازحون نحونا منذ أكثر من أربعين سنة، أنَّهم في أمان مطلق، يقودهم وهم ثورة المليون ونصف المليون شهيد الذي لم يبق منه الشيء الكثير! قبل مدَّة قصيرة اغتالوا معارضًا إسبانيًّا كان محميًّا في هذه البلاد منذ الحرب الأهليَّة، عاش مع أهله الذين ماتوا كلُّهم على هذه الأرض وساهموا في تحريرها. قُتل العالم العراقي الذي ظنَّ في لحظة من اللَّحظات أنَّه أصبح في منأى عن كلّ مكروه، هاربًا من مفاعل بغداد، ثمَّ من الأردن، قبل أن يجد في بلاد الحرِّيَّة قبرًا مفتوحًا ينتظره! عن أيَّة تعرية تتحدَّث يا ابني؟

ـ ماذا ربحوا يا عمِّي مراد من اغتيال الخبير العراقيّ؟

ـ ربحوا. لقد عزُّوا ضعف البلاد الأمنيّ أكثر. هذه هي الحكمة. ليس سهلًا أن يُقتل خبير نوويّ كبير على أرضك! هرب من العراق ليختبئ في

بلادنا ويشتغل في مفاعل عين وسارة، هذا على الأقلّ ما يقوله الكثير من العارفين. النمس تتبَّع قضيَّته جيِّدًا، وكتب عنها بالتَّفصيل في الشاهد. أخطأوه في عمَّان، وها هم يصيبونه هنا. يقولون الموساد.. ربَّما! لكنَّ الموساد وحدها لا تستطيع. في كلّ جرائمها كانت أذرعتها المساعدة وطنيَّة بامتياز. حلقة الضباع.

- يا عمِّي مراد، تظنّني نائمًا على أذني كأيّ إداريّ غبيّ لا ينتظر في النهاية إلَّا راتبه الشهري؟ مثلك أعرف جيِّدًا أنَّ حلقة الضباع موجودة ورائحتها زادت انتشارًا. الكلّ يسمع بها ولا أحد رآها. نتكلَّم عليها، ولكنَّنا لا نستطيع أن نجزم أنَّها موجودة. ربَّما كنَّا كلُّنا أعضاء في هذه الحلقة بدون دراية منَّا. حلقة ميد إن ألجيريا[1]. أُفْرِغَت البلاد من أمخاخها، وتُفْرَغ اليوم من أيّ نسغ حيّ فيها. خلِّ البئر بغطاه يا عمِّي مراد، خلِّيه. اليد بصيرة، والقلب مدوِّد. خلِّنا في الأرض، أنا لم أستدعك لتوبيخك، حاشا، أنت أكبر بكثير من ذلك كلّه. أكبر ممَّا تتصوَّر أنت نفسك، ولكنْ من واجبي أن أخبرك بأنَّ المخاطر التي تحدق بك وبالدار أصبحت أكيدة، ولم أعد قادرًا على فعل الشيء الكثير، لا لك وحتى لي.

- لست مجبرًا على توريط نفسك يا كريمو وليدي.

- وعدت سليم أن أفعل المستحيل، ولكن هذه هي حدودي القصوى.

- هناك من سيقف في وجوههم. سأدقّ على كلّ الأبواب لإنقاذ البيت وليفعلوا به ما يشاؤون، فقط أن لا يهدموه. لقد تحدَّثت مع رئيس البلدية وقد أبدى استعدادًا كبيرًا لحلّ هذه المعضلة. سأرى مدير الديوان العقاريّ، شاب طيِّب. سأدخل على وزير العدل إذا استدعى الأمر ذلك. سأصرخ في الساحة العامة بأنَّ الورثاء أصبحوا ضباعًا، وأنَّ الضباع أصبحت قاتلة.

---

(1) Made in Algeria.

ـ يبدو أنَّك لم تفهمني جيِّدًا يا عمِّي مراد! لقد اشتروا الكثير من الناس بالرخيص. حلقة الضباع ليست أمرًا. رئيس البلدية، أعرفه جيِّدًا. يدفئك بالكلمات الطيِّبة، هو منهم ويأكل معهم في الماعون نفسه. الكلاب تتعاضض، ولكنَّها لا تفترس بعضها بعضًا.

ـ سنوات وهم يفعلون الشيء نفسه. ماذا حقَّقوا؟ سيستمرُّون إلى متى؟

لا أدري ماذا حدث لي يومها، ولكنِّي وأنا أمرّ على حسين التريسيان مرَّة أخرى، تقيَّأت في ساحة البلدية، إلى درجة أنَّني أحسست بأمعائي تندلق دفعة واحدة أمامي. تمنَّيت أن أعود بسرعة إلى بيتي، وأخرج من هذا الخوف بلمح البصر. عندما سألني حسين التريسيان الذي نزل مسرعًا من أعالي السلّم:

ـ واش بك عمِّي مراد باسطا؟ خير إن شاء اللّـه؟

ـ والو. لا شيء. فقط قلبي تعمَّر وما قدرش يتحمَّل.

لم أرفع حتى رأسي نحو حسين التريسيان. شممت رائحة عرقه الحادَّة.

ـ تهلا في روحك عمِّي مراد باسطا.

خرجت ولم ألتفت ورائي.

ـ 2 ـ

شيء ما يتحرَّك بسرعة كبيرة في هذه المدينة.

اللَّافتات الدّعائيَّة، البلاستيكيَّة والورقيَّة، والمصنوعة من القماش الملوَّن، تكاثرت في كلِّ زوايا الحيّ، وأهمّ مواقع المدينة: المطار الدوليّ والداخليّ، اتِّحاد العمَّال، محطَّة القطار، المحطَّة البرِّيَّة، دار الصحافة، الكتاني، رياض الفتح، مداخل الميترو، الحافلات، القاطرات، شارع البحر، الميناء، كارفور، كازينو الحافة الذي يرتاده الشباب كثيرًا، مدخل الجامعة المركزيَّة ونفق الكليَّات، الفنادق الكبرى: شيراتون، ميركور، سوفيتال، هيلتون والأوراسي، كلُّها تتغنَّى بالبرج الأوَّل، البرج الأعظم، الذي سيخترق عذريَّة العاصمة، وبعدها بشهور قليلة، خمس مدن كبرى أخرى: وهران، تلمسان، قسنطينة، عنابة، تيميمون. أينما التفتُّ، واجهتك اللَّافتات بصورها، بشعاراتها التي لا تترك لك أيّ مجال للتأمُّل أو التفكير. تسحبك من أنفك وتشلّ كلّ حواسك.

برجكم العالي. مساكنكم الراقية، أسواقكم المفضَّلة. مطاعمكم المتنوِّعة: الإفريقيَّة، الآسيويَّة، الأوروبيَّة، والأميركيَّة. مطاعمكم

السريعة: كويك، وماكدونالك، وخبزتي، وغيرها، تستجيب لكلّ طلباتكم وتربحكم الوقت... شركاتكم القريبة من احتياجاتكم، على بعد أمتار من بيتكم تختصر عليكم المسافات.. فضاؤكم الدَّائم لقضاء كلّ حاجياتكم. البرج الأعظم يمنحكم أسواقه العالميَّة وكلّ ما تطلبونه. على مساحة هكتارين ونصف، موقف سيَّارات بثلاثة طوابق، أسواق حديثة، محلَّات، مصارف وبنوك عالميَّة في خدمتكم. نحترم الطبيعة لأنَّها أمّنا جميعًا، كلّ موادّنا التغليفيَّة قابلة للرسكلة. لحومنا حلال، وأجباننا طريَّة وحليبنا بلا مواد كيماويَّة، الكلّ آتٍ من مراعي المتيجة النقيَّة...

من وراء لافتات الدّعاية، كنت من حين لآخر ألمح وجوه المرشَّحين للمجلس الوطنيّ الشعبيّ، الذين لا يوجد فيهم وجه واحد بشوش. كلُّهم كانوا مكشِّرين، وكأنَّهم يحملون الدُّنيا على قرونهم. تنزلق من على ملامح الكثير منهم علامات الغباوة.

قبل زمن، عندما كنت أسمع بهذه، مقاولة البرج الأعظم الضخمة المتعدِّدة الجنسيَّات، التي نزلت فجأة في بلادنا، ثمَّ في مدينتنا، وأخيرًا في حيِّنا، ثمَّ في بيتنا، كنت أظنّ أنَّها مجرَّد وسيلة للضغط علينا ودفعنا بقبول الشروط المفروضة علينا من القضاء والبلديَّة، ولوضعنا أمام الأمر الواقع، لكن بعدما لمست هذه الآلة الدعائيَّة بعينيَّ، أدركت فجأة بأنَّ الخطر لم يكن مجرَّد ورقة ضغط، ولكنَّه كان حقيقة أقسى ممَّا توقَّعته.

منذ أن بدأت فكرة بيع *البيت الأندلسي* وما يحيط به من بقايا الحديقة القديمة وبعض البنايات التي باعها أصحابها بلا تردُّد إلى المقاولة بتدخُّل البلديَّة لضمان حقوقهم كاملة، بدأت منذ مدَّة غير قصيرة عمليَّات الهدم وعزل البيت نهائيًّا، حتى أصبح كأنَّه جزيرة ضائعة في فضاء من الفراغ والقلق. تدرك المقاولة المختلطة جيِّدًا أنَّ الاستهلاك في هذا المكان مهمّ. كلُّ الدِّراسات التحضيريَّة التي قامت بها قادت إلى النتيجة

نفسها. حتى إنَّ هناك الكثيرين ممَّن كانوا يرفضون البيع، لم يتردَّدوا تحت ثقل المغريات. *البيت الأندلسي* هو الوحيد الذي قاوم هذه الطاحونة. تكاثرت شكاوى الورثاء، لأنِّي كنت حجر عثرة في طريقهم. حتى الذين لا أعرفهم، رفعوا ضدِّي شكاوى عديدة قبل أن ترفعها البلديَّة نفسها.

كنت متعبًا ومنتهكًا في داخلي، بحاجة ماسَّة إلى الراحة بعد الحرائق التي نشبت في بطني وأمعائي وأنا أغادر البلديَّة.

حاولت أن أنسى!

كنت منهمكًا في ترتيب الحديقة الصغيرة التي بقيت حيَّة وسط هذا الفراغ الكبير عندما سمعت جفاف فرامل سيَّارات وهي تتوقَّف بالقرب من الباب الخارجيّ للبيت. أدركت بحدسي أنَّها ليست سيارات عاديَّة، ولكن أكثر من ذلك. من وراء الشجرة التي كنت أقف بمحاذاتها، رأيت ثلاث سيَّارات سوداء مصطفَّة الواحدة وراء الأخرى، حتى إنَّها أغلقت الجزء الأكبر من المدخل الرئيسيّ للحديقة. توقَّفت محرّكاتها التي ظلَّت شغَّالة للحظات. نزل منها مجموعة من الرّجال. كلُّهم شباب، بين الثلاثين والأربعين. على عيونهم نظارات سوداء تزيد من غموضهم. تتدلَّى من آذانهم خيوط تليفونات نقَّالة مثل الأقراط. أحسست أنَّ في حركاتهم المرتبكة شبهة ما وخوفًا مبطَّنًا، ونرفزة، كالذين يرافقون المسؤولين عادة. تقدَّمت قليلًا لكي يروني بشكل أوضح، ولكن لم يحدِّثني أحد منهم، وكأنِّي ظللت طوال مدَّة وقوفي بعيدًا عن زاوية نظرهم الحادَّة.

لم يكن الأمر عاديًّا. بدا لي في لحظة من اللَّحظات أنِّي شممت رائحة الضباع التي تحدَّث عنها كريمو. هم هكذا، روائحهم تسبقهم. لم يكن الأمر مجرَّد أحاسيس، ولكنِّي حتى عندما أغلقت أنفي، تسرَّبت الرَّائحة من وراء المحرمة التي وضعتها على فمي، ومن وراء الأشجار التي

فقدت أوراقها. حتى شجرة اللبلاب التي تتسلَّق الحائط بصمت وهدوء، كانت تتشبَّث بالحائط خوف موتها بفعل الرائحة الكريهة.

كنت مشدودًا بشكل غريب إلى حركتهم. ألبِستُهم السوداء لم تكن مطمئِنة أبدًا. داروا حول الدار دورات عديدة كمن يبحث عن شيء بعينه. كان أحدهم يجرُّ رجله اليمنى بصعوبة. هو الذي كان يؤشِّر إلى أعالي الدار ويشرح لهم التفاصيل التي كانت تصلني متقطِّعة. سجّلوا في كرّاسات صغيرة بعض الملاحظات. كان الرجل الذي يجرّ رجله، يسأل المارة أسئلة كانت تصلني أجزاء صغيرة منها في شكل جمل مبتورة: **هل يوجد سكان دائمون... رجل وامرأة فقط.... يخرجون كلّ صباح؟ نوعية السيَّارات التي تتوقَّف هنا وهناك... رجال أم نساء... سيَّارات صغيرة أم شاحنات... كم هي أعمارهم؟...**

لم أكن أفهم جيِّدًا إلَّا بإعادة تركيب جمل الرجل الذي كان يجرّ رجله اليمنى، والذي كان من حين لآخر يلتفت نحوي بحذر، وكأنَّه كان يتفاداني عمدًا، أو يخشى أن أعرف عنه سرًّا من الأسرار. حاولت أن أغيِّر مكاني ليروني أكثر. بدا لي أنِّي كنت أفيد لهم من بقيّة المارّة. جلست بشكل أصبحت فيه مرئيًّا لهم، وانتظرت. ولكن لم يسألني أحد. لم يسألوا حتى الأطفال الذين ظلُّوا ينظرون إليهم بوجل وخوف وابتسامات ساخرة وهاربة، تنطفئ بسرعة كلَّما التفت نحوهم الرجل الذي كان يجرّ رجله اليمنى. من مسافة تسمح لهم بالهروب إذا استدعى الأمر. لم يحدث أيّ شيء يعكِّر صفو حركاتهم. تأمَّلوا الأشجار وكأنَّهم كانوا يعدُّونها: النوافذ والأبواب. المقرنصات والأعمدة. الأرضيَّة. الأسلاك التي تحيط بالحديقة. سجّلوا كلّ شيء على أوراقهم وكرَّاساتهم. صوَّروا كلّ التفاصيل. كأنِّي لم أكن موجودًا. لم يعيروني أيّ انتباه، كأنِّي لم أكن بالنِّسبة لهم أيّ شيء آخر إلَّا ذلك الظلّ الهارب بين الأشجار والمنعكس من حين لآخر على

الحيطان، أو ربَّما كنت الشيء الذي كان عليهم تفاديه بكلّ وسيلة، لأنِّي كنت الحلقة الأضعف أو الأكثر تعقيدًا.

لم تكن زيارتهم بريئة.

تقدَّم منهم علي وليد الحومة. شاب دخل السجن عاقلًا ومتنوِّرًا وعاشقًا في الأحداث التي عصفت بالبلاد قبل سنوات، وخرج منه بلحية وبعقل شبه مفقود. لا يتدخَّل إلَّا ليبدي ملاحظة يرى أنَّه من واجبه أن يقولها حول الحجاب. الناس في البداية رفضوه، حتى إنَّ هناك من كان يردّ عليه بالضرب، ولكنَّهم مع الزمن تعوَّدوا عليه. الكبار الذين يعرفونه جيِّدًا، يقولون له: صح يا عليلو ما يكون غير خاطرك. والصبيان ينادونه علي بومباتوميك[1]. **عليليو! شوف يا خو، أنت هو الصحّ، الباقي كلُّه فستي**[2]. **تقدر عليها يا بومباتوميك. يجب أن تنفجر في وجوههم الباردة يومًا**. ينبسط ويعود إلى بيته في المرتفع مرتاحًا. كلُّ فجر، عندما أقوم باكرًا لتنفُّس ملح البحر قبل أن تلوِّثه السيَّارات، أراه عائدًا من المسجد. يحيِّيني. يقول لي صباح الخير عمِّي مراد، ثمَّ يغيب بين الأسوار القديمة والحيطان حتى قبل أن يسمع ردِّي. لكنَّه يظلّ يراقب حركة المارَّة، فينصح هذا، ويهدِّئ من روع ذاك، ويفكّ نزاعًا بين شابين، يبعد الأطفال إذا اعتدوا على شابَّة. ينصح بالعودة إلى التَّقوى والارتكان إلى اللَّـه. محور كلّ نصائحه للبنات والنساء هو الحجاب. كلَّما رأى امرأة أو شابَّة، أو طفلة تجاوزت بالكاد عشر سنوات، سافرة الوجه، ركض وراءها ونصحها بالعودة إلى مسلك اللَّـه. ثمَّ ينسحب بعد أن يقول لها كلمته المعتادة: **ستدخلين إلى النار**؟ بعضهن لا يتوانين في الردّ عليه: **باسم اللَّـه الرحمن الرحيم! من وين خرجت؟ تأكلك إن شاء اللَّـه أنت أوَّلًا**. ينسحب ولا يردّ. يشعر

---

(1) من الكلمة الفرنسيَّة Bombe atomique أيّ القنبلة الذِّريَّة.

(2) كذب.

بنفسه معنيًّا بكلّ ما يجري في الحيّ. لم أره يومًا إلَّا وهو منهمك في شيء، ليس بعيدًا عن البيت، أو في المنحدر، أو في مخرج المسجد. يضمّ ويقبِّل رؤوس الناس.

اقتربَ من الرجال الغامضين وهو يسترجع أنفاسه من شدَّة الركض. سألهم عمَّا يريدونه. نظر إليه أحدهم، وتفرَّسه من رأسه حتى أخمص قدمه:

ـ واش اسمك أنت؟

قالها الرجل وهو يتفرَّس لحيته وعينيه المكحَّلتين، من جديد بنوع من الازدراء.

ـ أنا علي. أصحابي ينادون لي عليلو أو وليد الحومة. الأطفال، يعجبهم اسم بومباتوميك.

اقترب منه الرجل حتى حاذى أنفه:

ـ تعرف واش نقول لك أنا؟ روح نف بعيد. يا اللَّـه طر عند يماك!

تراجع عليلو قليلًا من شدَّة الدَّهشة. ولكنَّه لم يمنع نفسه من الردّ على حركتهم بنوع من الشجاعة. كدت أذهب فقط لأنصحه، بأن يبتعد، ولكنَّه كان قد توغَّل كعادته، في جنونه معهم. تدخَّل بنفسه من جديد بطريقته المعتادة وأسئلته المقلقة لمن لا يعرفه:

ـ واش بك يا خو؟ اللَّـه يسامحك.. أنا لم أقل ما يزعجكم! أنتم غرباء على الحيّ، وبإمكاني مساعدتكم. أنا ابن هذا الحيّ، وأعرف تقريبًا كلّ السكان، من صغيرهم لكبيرهم.

اقترب منه شخص ثان، كان منهمكًا في الردّ على التلفون النقّال. سأل صاحبه بالكثير من السخرية والاستهزاء:

ـ واش به هذا الزعطوط؟

ـ يقول إنَّه يعرف كلّ الناس اللِّي هنا، صغير وكبير! هل يمكن أن يفيدك؟

نظر إلى عينيه المكحَّلتين قليلًا، ثمَّ التفت نحو الجماعة التي كانت تدور حول الدار:

ـ باين من كحل عينيه أنَّه إمَّا قوَّاد أو... عطاي. وأنا ما أحبّ لا القوّادة ولا العطاية. عندما أريد امرأة، أعرف من وين أجيبها، بلا قوّادة وبلا مزيتة. قل له يروح يطير بعيد، وإلَّا نحرق له لحية الربي على وجهه.

ثمَّ اقترب منه حتى التصق به. فتح جاكيته الأسود مبرزًا عن سلاح أوتوماتيكيّ، بريتا ملتصقة كالعقرب الأعمى بصدره. لعبة جهنَّميَّة.

ـ شبعت وإلَّا أزيد لك؟

ارتعب عليلو في مكانه.

ـ يا خويا ما كاين غير الخير، وعلاش بك هذا الشيء؟

من جديد استجمع كلّ قواه الداخليَّة، ثمَّ حاول أن يهدِّئ من ورعه وعيناه مثبّتتان على صدر الرجل. لم يكن يعرف أنَّه كان يزيد في استفزازهم، لأنَّ الأطفال الذي كان المشهد يسلِّيهم، كانوا كلَّما تحدَّث مع أحدهم، تضاحكوا عاليًا وصرخوا جماعيًّا بأعلى أصواتهم: برافو بونمباتوميك... برافو...

ـ وقيل ما فهمتونيش يا خو! أنا هنا لمساعدتكم. هذه الدار عندها صاحبها. وهو غير موجود. لا هو ولا زوجته. هو خرج باكرًا لشغله كالعادة، اسمه... واللّـه اسمه راح لي... يا ربي واش اسمه... لا أتذكَّر إلَّا كلمة الكارتيل، وهي، زوجته، جاء من يأخذها مباشرة بعد خروج زوجها... أخوها، وإلَّا واحد من العائلة.

ـ وقيل رأسك حجرة! قلنا لك القوادة معنا ما تنفعش؟ روح تروَّح وخلينا نشوف شغلنا.

ارتعش علي وليد الحومة في مكانه، وتراجع كثيرًا حتى غاب في زاوية الحيّ. تتبّعت حركته حتى اختفى نهائيًّا. بشكل غريزي، تبعه الأطفال أيضًا. شعرت براحة داخليّة غريبة. لأوّل مرّة لم يلتفت وراءه كما تعوّد أن يفعل مع ناس الحيّ، ولم يشتم أبدًا. ربّما يكون قد تشمّم الخطر المحدق به كحيوان برّيّ.

عندما انتهوا من تسجيل كلّ شيء، وصوّروا المكان من مختلف الزوايا، تضاحكوا عاليًا. ثمّ داروا للمرّة الأخيرة حتى انطفأوا في الزوايا المطلّة على الحديقة من الجهة الخلفيّة، قبل أن يعودوا إلى سيّاراتهم وينطلقوا بقوّة نحو المنحدر الذي ينتهي إلى طريق البحر.

يومها، لم أدر ماذا حصل لي، ولكن ارتسمت في ذهني الظلال الغريبة التي رأيتها في ذلك الفجر وهي تنحدر من أعالي المرتفع باتّجاه طريق البحر. من بين الظلال كانت حركة أحدها متعرّجة وتجرّ رجلها اليمنى مثلما يفعل الرجل الذي كان يقود الجماعة الغامضة. لكنّني سرعان ما ألغيت الفكرة، لأنّي لم أر لها أيّ معنى. ما الذي جاء بالأعرج إلى هذا المكان فجرًا. وهل هو نفسه؟ ثمّ إنّ مثل هذه الحركة أصبحت يوميّة وعاديّة في الحيّ. الناس يسألونني عادة عمّا سمعوه عن البيت، العفاريت التي تسكنه وترفض المغادرة، البلديّة المتواطئة، بارونات حزب الجبهة، التهديم، الشركات الأجنبيّة التي اشترته؟ هذه المرّة، لم يتقدّم أحد من الجماعة التي نزلت فجأة على المكان، بسؤاله، ولم يستفسروني عن أيّ شيء.

مثلما جاؤوا، عادوا.

كلّ السيّارات السوداء انزلقت بهدوء نحو المنحدر، الواحدة تلو الأخرى، وكأنّها احتفاليّة عرس، عبر المسار الذي ينتهي في طريق البحر الواسع.

ما كدت أتمدَّد قليلًا بسبب تعب انتابني بعد التهاب المفاصل الذي أصبح يرهقني كثيرًا، ولم تنفع معه الأدوية إلَّا عندما آخذ الحقن التي قال لي ذات مرَّة سليم: يا جدِّي، هذه الحقن من آثارها أنَّها ترشي العظام. ضحكت، ولم أفكِّر في أيَّة إجابة، فقد حضرتْ من تلقاء نفسها: وهل بقي في جسدي شيء يُرشى بعد كلّ هذا العمر يا ولدي؟

قبل أن أدخل إلى الغرفة، بعد نزع الأوراق الميِّتة من تحت الشجرة العملاقة التي تخترق حديقة الجزء الأيمن من البيت حيث أقيم، توقَّفت سيَّارة موح الكارتيل. أعرفها جيِّدًا من شخير محرِّكها الثقيل. وكثيرًا ما يعلن البغل القبرصيّ عن وجوده بمزمورها الخشن، بسبب أو بغير سبب، ليعلم سارة أنَّه قد وصل، وتطلّ هي عليه من أعالي البيت. لكنَّه هذه المرَّة لم يفعل شيئًا. صرخ بصوت أجش مليء بالرمل.

ـ سارة؟ سارة؟ وينك يا سارة؟

لم تطلّ، كما تعوَّدت أن تفعل. ظلَّت النافذة مغلقة. تأكَّد بسرعة أنَّها غير موجودة.

التفت نحوي. كنت متسمِّرًا عند العتبة رهن إشارته.

ـ ما شفتش سارة؟

ـ لا يا سيِّدي. ربَّما كانت نائمة.

ـ سألتك هل رأيتها فقط؟ الباقي، أعرفه جيِّدًا. هل سقيت الحديقة اليوم؟

ـ لم أفعل يا سيِّدي، أنتظر عودتك من عملك، أو قيام سيِّدتي سارة وأوامرها، لكن يبدو أنَّها تأخَّرت كثيرًا وهذا ليس من عادتها.

ـ أكيد سارة غير موجودة. ربَّما تكون قد ذهبت عند أهلها، كما تعوَّدت أن تفعل نهاية كلّ أسبوع. بإمكانك أن تسقي النباتات في الحديقة

وأن تنظِّفها من الأوراق الميِّتة. أنا عندي شغل. إذا رجعتْ قل لها تتلفن لي. نقَّالها مغلق منذ الصباح.

لم يدخل إلى البيت، ولم يكلِّف نفسه تعب الصعود والتأكُّد بنفسه. كنت أعرف أنَّها غير موجودة. الشاب الملتحي يقول إنَّه رأى شخصًا يأخذها في سيَّارته ـ ربَّما كان أحد أقاربها! حتى سليم لا يأخذها أبدًا من بيتها، ينتظرها بعيدًا، على حافة الطريق السريع، عند مخرج محطَّة البنزين. ألسنة الناس يا جدِّي، سكاكين... يقولها، وهو يضحك، كلَّما ذكر لي أنَّه كان مع سارة.

ـ إذا شفتها قل لها أن لا تخرج من البيت. الجوّ مش مليح اليوم.

رنَّ صوت موح الكارتيل في أذني باردًا وجافًّا.

ـ أمرك سيِّدي. ربَّما تكون سيِّدتي قد نزلت نحو سوق الجمعة، هي تحبّ الطيور كثيرًا. أو ربَّما إلى البريد كما تعوَّدت أن تفعل... مجرَّد احتمال!

سمعني. كنت متأكِّدًا من أنَّه سمعني، ولكنَّه لم يردّ عليَّ. أخرج سيَّارته الجديدة جيب *ورنغلر* الجديدة، بينما ترك الأخرى متوقِّفة على حافَّة الطريق. لم أسمع إلَّا قوَّة المحرِّك الذي حوَّل السيَّارة إلى طائرة. ثمَّ انطفأ كأنَّه كان يستعدّ لحرب أكيدة. انطلق نحو المنحدر كما فعل رتل سيَّارات الرجال الغامضين، الذين سبقوه. لم يترك لي حتى فرصة إعلامه بالزوَّار الذين بحثوا عنه، الذين حلُّوا بالمكان بشكل غامض وفجائيّ. لم تعجبني حركتهم. الذي بقي عالقًا في ذهني واستغربته، هو أنَّهم سألوا الكثير من العابرين ولم يسألوني ولا بكلمة واحدة، مع أنِّي كنت قبالتهم. بعدها قلت في خاطري، ليكن، هم هكذا، **حوت ياكل حوتْ، الكبير يعيش، والصغير يموت. حوت ياكل حوت، الكبير يكبر والزمن يفوت.**

-3-

مات يوم آخر.

ماذا يوجد في هذا البيت يمكن أن يُسرق؟ لا شيء. ماذا كانوا يريدون من وراء اقتحامهم البيت في غيابي. كنت عاجزًا عن إيجاد إجابة ما. لا شيء في البيت يهمّ السارق!

عندما انسحبوا تركوا وراءهم رائحة غريبة، ثقيلة جدًّا على الأنف. بدأت أتفقَّد الروائح وأفكِّكها بحاستي الشمّية الحادَّة. كلاب؟ قطط؟ حمير؟ خنازير؟ يمكن. كثيرًا ما ينفلت خنزير من مخبئه الجبليّ، فيجد نفسه في المدينة؟ ذئاب؟ يمكن أيضًا. لقد عادت بعوائها القريب جدًّا، بعد خمسين سنة على الأقلّ، من غيابها. تعوي ليليًّا في جبل كوكو وفي المنحدرات القريبة، وكثيرًا ما تدوسها السيَّارات الليليَّة. عندما يكون الهدوء والصفاء وقليل من البرد، نسمع عواءها يتردَّد هنا وهناك. الغريب أنَّها جاءت مع الأمراض المصاحبة لها، والتي انتفت منذ زمن طويل، الطاعون والسلّ. بغال؟ قد يكون.

تتبَّعت خيط الرائحة مثل ذئب حادّ الحواس، ثمَّ فجأة أصبحت الرائحة أقوى. عرفتها. هل كانت الضباع حقيقة هنا، أم مجرَّد إحساس غامض؟ لا أدري.. ولكن كان هذا إحساسي وأنا أتفقَّد الفراش، والوسائد القديمة، والبطَّانيَّات المغسولة، وفوَط الحمَّام، وماطلا السرير القديم التي قُلبت على ظهرها؟ لم تكن فكرة الضباع مجرَّد كذبة طارئة، ولا صورة تشبيهيَّة، ولكن حقيقة. روائحها عمَّت كلّ أرجاء المدينة وكأنَّها تنهش جيفة كريهة. المعروف عن الضباع أنَّها تتحرَّك جماعات جماعات، لأنَّها جبانة. لا يُخاف من أذاها فرديًّا، لكنَّها عندما تتكتَّل تؤذي إلى أقصى الحدود.

لكن ماذا يوجد في هذا البيت يمكن أن يُسرق؟ أو يهمّها؟ لا شيء.

في النهاية، كالعادة، وصلتُ إلى اليقين أنَّ الذين دخلوا إلى هذا البيت كانوا يبحثون عن المخطوطة لسرقتها، لمحو أيّ أثر لتاريخه. لم أجد ما يقنعني إلَّا هذا. مليح أنِّي أخبِّئها في المعبر، أي المكان الفصل بيني وبين البيت، بين بيت الخدم الذي أقيم فيه، والبيت الكبير. في مدخل الممرّ السرِّيّ. تعوَّدت، كلَّما خرجت، حتى ولو كان ذلك لدقائق، أن أضع المخطوطة في المعبر، لأنَّه أكثر الأماكن أمنًا. لم أخبر سليم، ولكنِّي كنت أعرف سرّ انشغاله في الأيَّام والشهور الأخيرة على المخطوطة. عندما يئس منِّي في دفنها في المتحف الوطني للآثار والمخطوطات، أو المكتبة الوطنيَّة، اقترح عليَّ تصويرها والاحتفاظ بها في مكان آمن وأكيد. ثقتي في المحيط لم تعد كبيرة. أشعر أحيانًا أنَّ كلّ شيء يضيق عندما نقنط، عيوننا، قلوبنا، أشواقنا، فقط لأنَّ المحيط صغر حتى أصبح باتِّساع خرم إبرة.

كان قلبي ممتلئًا بالرماد. كلام كريمو، بقدر ما أعادني إلى الحاضر المؤلم آلمني كثيرًا. وبدأت أشعر بأنَّ كلامه متَّزن تمامًا، إذ كيف أدافع عن بيت لم يعد لي. شكَّكني في كلّ يقيني، ولكنِّي لو فكَّرت لحظة واحدة أنَّه لم يعد لي، لن أبقى ثانية واحدة بالبيت أبدًا. ولهذا صمَّمت أن لا

أستسلم لهم أبدًا. كنت أعرف أكثر من غيري أنَّ البلديَّة لم تبع البيت الأندلسيّ لتسهيل مهمَّة السكان ليستفيدوا من سوق واسعة قريبة منهم، ولكن ليستفيدوا هم. لقد تحوَّلت البلديَّة إلى سمسار كبير، يتحكَّم في سوق أراضي البناء والعمران الجديد. لا شيء يمرّ من دون رضاهم. كنت متأكِّدًا من أنَّ المسالة لا تتوقَّف عند حدود البلديَّة، ولكنَّها تصعد بعيدًا لتصل إلى الدوائر العليا في البلد. في هذه ركبت رأسي، ولم أكن مستعدًّا لأن أخفِّف عليهم جشعهم.

لم تكن الحياة مغلقة. هناك دائمًا خيط نور يأتي بالصدفة، نلتصق به حتى النهاية، ويعطينا بعض الرغبة في الاستمراريَّة. بدأت أحضِّر لاستقبال تلاميذ *مدرسة الاستقلال* الذين كانوا يتهيَّأون لزيارة *البيت الأندلسي* مع معلِّمتهم، في إطار برنامج وزارة التربية **أيَّام التراث**، التي قرَّرت الدولة بموجبها فتح المتاحف والبيوت القديمة على التلاميذ لتعريفهم بتاريخهم وتراثهم.

عندما اتَّصلت بي صونيا، معلِّمة مدرسة الاستقلال، كانت خائفة من أن أرفض طلبها. ولكنِّي فاجأتها بموافقتي بلا أدنى تردُّد. على العكس من ذلك، فقد وجدت في طلبها قوَّة غامضة أسندتني أكثر، وأنِّي لم أكن الوحيد في هبلي. قالت وهي تعتذر:

ـ عمِّي مراد أنا أعتذر. كنت خائفة من رفضك لأنِّي أعرف انشغالاتك هذه الأيَّام. لا حقّ يضيع يا عمِّي مراد ما دام هناك من يدعمه. فأنا أريد أن أبيِّن للتلاميذ أنَّ التاريخ ليس بعيدًا عنهم، في أكلهم وبيوتهم وألبسة أهاليهم. لقد علَّموهم تاريخًا مزيَّفًا وبعيدًا عنهم، ولهذا كرهوا كلّ شيء. اخترنا أن نأتيك أحسن من الذهاب إلى أيّ متحف. المكان قريب منَّا وأنت تعرفه جيِّدًا. أغلب سكان القصبة، يا عمِّي مراد، يسكنون قصورًا، ولكنَّهم لا يعرفون قيمتها. فقد اقتسمتها الأجيال المتعاقبة وورثتها أو باعتها لعائلات

لا تعرف قيمتها ولا تاريخها. خلِّينا على الأقل نحسِّسهم أنَّ ما يرونه هو جزء ضئيل من تاريخ وعبقرية أجدادهم، وليسوا في حاجة لا إلى رفع العلم، ولا إلى الخطابات الرنَّانة ليدركوا أنَّ لهم وطنًا جميلًا.

ـ سعيد باختيارك لهذه الدار قبل أن تزول. متى ما شئت يا صونيا ـ بنتي. أعطيني فقط بعض الأيَّام للتحضير لاستقبالكم، وطلب الإذن من صاحب البيت. رأسه خشن، ولكنِّي أستطيع إقناعه، يسمع لي من حين لآخر، أعرف مزاجه. لكي يتمكَّن التلاميذ من التوغُّل حتى الداخل، والصعود إلى المشربيّات التي كانت قبل زمن قريب مفتوحة على البحر قبل أن تغطِّيها البنايات العالية التي نبتت في المحيط كالفطر الخشن.

ـ لقد هدموا معظمها. قالوا من البناء الفوضويّ!

ـ أنتِ ذكيَّة، ولا يمكنك أن تصدِّقي خرافة مثل هذه. اشتروها من أصحابها وهدموها. البلديَّة وسيط نشيط بين المواطن والمقاولة المختلطة المكلَّفة ببناء البرج. فيها مأكلة كبيرة يا بنتي. يغدقون على الناس ولهذا باعوا كلّهم.

ـ أيَّة جرأة؟ سأحاول أن أقنع المدير لكي لا أذهب بعيدًا بالتلاميذ حتى المتحف الوطنيّ. دارك قريبة من مدرسة الاستقلال، وهذا يسهِّل من مهمَّتنا، وسيقلِّل من مخاطر التنقُّل، ولن يمانع الأهل في الموافقة على تسريح أبنائهم لساعات.

ـ اتَّفقنا.

كان يجب أن أهيِّئ كلَّ شيء. ساعدني حسين التريسيان في كلّ شيء. سحبنا الخزانة الزجاجيَّة قليلًا إلى الأمام لكي تسهِّل حركة الزوَّار. ثمَّ حركت لمبة الهالوجين التي جاء بها حسين من البلديَّة. وزَّعنا أوراق المخطوطة في شكل كرّاسات كما كانت في الأصل، ووضعناها من وراء

الزجاج بعد أن نظَّفته جيِّدًا. أغلقت الكلّ، ثمَّ سلَّط حسين التريسيان الضوء الهادئ، بدقَّة متناهية، على كلّ المخطوطة حتى يتمكَّنوا من رؤيتها وتأمُّلها، والإحساس بها وربَّما شمْ رائحتها. أصبح البيت فجأة متحفًا صغيرًا يحتوي على النباتات التي جمعتها، وكنت أعرف أسماءها ومصادرها. قضيت اليوم بكامله وأنا أنزعها وأضعها في أصص لأهديها للتلاميذ. مسك اللَّيل الأشبيلي. ياسمين غرناطة. وردة الشام. عنب *بزول العودة*، يقول جدِّي إنَّه جاء به من جبال البشرات المتوحِّشة. التفاح الأندلسيّ. حضَّرت الأصص بحسب عدد التلاميذ الذي أعطته لي صونيا. كنت سعيدًا. لأوَّل مرَّة أشعر أنَّ المكان استرجع بعضًا من قيمته المقتولة، على الرَّغم من أنِّي كلَّما فتحت النافذة من الناحية الشماليَّة، رأيت الفراغات التي خلَّفتها الجرافات التي هدمت كلّ البنايات من حولي، ولم تترك إلَّا جراحات قاسية على الأراضي التي وضعت عليها علامات: ملك عموميّ.

لم أسمع باب الحديقة عندما انفتح وانغلق. ولكنِّي سمعت صوت سليم يأتي من وسط الساحة. عادة سليم لم تتغيَّر منذ زمن بعيد، إمَّا وحيدًا أو بصحبة صديقه الصحفي يوسف النمس، الذي لم يوقف بحثه منذ أن سمع بالقضية وكلماته التي تتكرَّر دومًا:

ـ يجب أن لا نسمح للضباع أن تفعل ما تشاء!

عندما يتجاوز المدخل الحديديّ يسمع صوت سليم إيذانًا بدخوله، بعد أن يرفع رأسه نحو الطابق الأوَّل. فاجأته ضاحكًا:

ـ لا داعي حبيبي، سارة ليست هنا، حتى البغل القبرصيّ كان يبحث عنها.

ـ جدِّي، أحببت أن أطمئنّ عليك كما تعرف! أمَّا سارة فأنا أعرف جيِّدًا أنَّها غير موجودة، ولن تعود.

ـ دبِّر رأسك، لا أريد أن أعرف البقيَّة.

ثمَّ التفتُّ نحو يوسف النمس المحمَّل بعشرات الأوراق والصور:

ـ هل وجدت شيئًا جديدًا؟

ـ المشكل يا عمِّي مراد تجاوز مشكلة البيت، وأصبح يمسّ قطاعات أخرى. أينما أدخلت يدك، أصابتك رائحة العفن التي لم تتصوَّرها مطلقًا. الورثاء لم يتركوا شيئًا واقفًا إلَّا وأفسدوه.

انتبه سليم للأصص الكثيرة ولنظام البيت الجديد. شعرت فجأة بسعادة كبيرة في عينيه.

ـ واووووو كلّ هذه الأناقة يا جدِّي. هاهاها... أعرف لأنَّك محبّ للورود والنباتات، ولكن هذا كثير. لا.لا. لابدَّ أن تكون قد أصبحت عاشقًا؟ لا نفعل هذا إلَّا من أجل امرأة؟ على فكرة يا جدِّي أنت تتهرَّب دائمًا. إلى اليوم لم تذكر لي علاقتك بحسيبة رشدي؟ حكاية سير يا لزرق سير... مش طبيعيَّة. تحتاج إلى توضيح؟

ـ طبعًا، كلّ هذا الذي تراه، من أجل امرأة!

قلتها بفرحة مبطَّنة تراقصت على ملامحي.

ـ ألم أقل لك يا جدِّي؟ أعرفك جيِّدًا. هه واش حكاية حسيبة رشدي؟

ـ صونيا. معلِّمة الحيّ. تعرفها جيِّدًا.

ـ طبعًا. هل هي العروسة؟ جدوووو؟!

ـ لا. صونيا تريد أن يزور التلاميذ البيت تطبيقًا لتعليمة وزارة التربية في إطار حملة **أيَّام التراث** لتحسيس التلاميذ الصغار بقيمة موروثنا الحضاريّ والثقافيّ المادّيّ وغير المادّيّ. وفكَّرت بالمناسبة أن أمنح كلّ تلميذ أصًّا ونبتة أندلسيَّة، ربَّما عنت له أو لأهله شيئًا.

ـ أجمل هدية. ولكن أستغرب كثيرًا هذه الإجراءات. من جهة يهدمون، وينهبون بلا خجل، ومن جهة أخرى يركضون لتحويل جزء من تراثنا العمراني ليصبح من محميَّات اليونسكو؟ والآن يقترحون أيَّامًا للتراث! لا أفهم ما يحدث؟ أصبحنا حابسين يا جدِّي.

ـ يا اللَّـه، فرصة لإسْعاد التلاميذ على الأقلّ. سيتعرَّفون على بعض ما يحيط بهم من جمال لا يعيرونه أيّ انتباه. المساكن التي يقيمون بها كان الكثير منها قصورًا عظيمة. ربَّما استطعنا أن نورث لهم بعضًا ممَّا خسرناه ودمَّرناه بجشعنا وإهمالنا.

ـ كانت لديَّ رغبة لأسألك عمَّا فعلته مع كريمو، ولكن لا يهمّ. فقد سألته وأعطاني هو نفسه فكرة عامَّة عمَّا دار بينكما، وعمَّا يدبِّره ورثاء الدم وحلقة الضباع.

ـ هذا من ذاك. الورثاء استفادوا من دم الشهداء في شكل مصالح وشركات ومنظَّمات مختلفة للمزيد من النهب. وحلقة الضباع، خرجت من صلبهم قبل أن تتحوَّل إلى مافيا في العقار وفي كلّ المشاريع التي تشترط وجودها فيها كشريك بدون أن تدفع ملّيمًا واحدًا، وإلَّا لن يتمّ التوقيع على أيّ شيء. فاحت، يا ابني، الرائحة الكريهة حتى أصبحت تزكم الأنوف.

ربَّما كنت قاسيًا، لكنْ كنت أفضي بأحاسيسي كما كنت أشعر بها. كنت خائفًا من ردَّة فعل سليم ويوسف، من حدَّة رأيي، ولكنَّهما كانا معي على الخط نفسه.

ـ جدّو... كلامك سكّر وعسل، ولكنِّي لم آتِ من أجل هذا، اليوم على الأقلّ. أنا هنا لأخبرك بأنِّي وجدت حلًّا للمخطوطة من دون تحريكها من مكانها. سآتيك هنا بالسكانير قريبًا، لتصوير كلّ الوثائق الهامَّة. الوضع هذا لم يعجبني. المحاولات المتكرِّرة للسرقة ليست عاديَّة. إنَّهم يفتِّشون عن شيء

آخر كما قلت لك سابقًا. يوسف النمس عنده سكانير متطوّر، والصور تخرج ملوَّنة، وشبيهة بالأصل في كلّ شيء، وربَّما أحسن. الفكرة من عنده. هو يعرف كيف يتصرَّف. له خبرة مع الأشياء النادرة التي يتحصَّل عليها من هنا وهناك. يعرف جيِّدًا كيف يتعامل مع المخطوطة. حشرة الورق بدأت تأكل أطرافها.

قالها وهو يحني رأسه متفاديًا فرع البرتقالة التي توحَّشت كثيرًا ولم تجد من يقلِّمها. خرجت من حديقة البيت الكبير، وبدأت تتمدَّد باتِّجاه حديقة دار الخدم.

ـ أفضل. لا أريد أن أخسر المخطوطة. هي إرثي الوحيد كما تعرف. ما حكّ جلدك مثل ظفرك. أدرك يا ابني أنَّ لا أحد يملك القدرة على ملامسة المخطوطة بالقدر من الحبّ الذي ألمسها به. سأضع عليها ختمي وملمسي إذا بقي لي شيء من العمر. لم يعد ذلك رفاهًا، ولكنْ واجبًا ضروريًّا وفاء لوصية جدّك الأوَّل، أن أكتب أنا أيضًا عن زماني. ثمانون سنة من المآسي والمشاهدات ليست أمرًا هيِّنًا.

ـ أنا أيضًا أحبّ هذه المخطوطة التي حملت أشواقنا وخوفنا، وأحبّ هذه الأشجار وهذه المعابر الضيِّقة التي بدأت تموت، لكن يا جدّو هناك حياة موازية لذلك كلّه، عليَّ أن أخوضها بكلّ ما أملك من قوَّة. أمكنتنا العظيمة كلّها ماتت أو هي في طريقها إلى الزوال. والتي ما تزال حيَّة، أصيبت كلّ حيطانها بالبرص. حتى نافورة المدينة الكبيرة تنوي الحكومة ردمها، لأنَّها أصبحت مرتعًا للأوساخ والذباب. الشعب الذي يرمي الزبالة يشبه حكومته في كلّ شيء، تربيتها الكريمة ومنجزها العظيم بعد نصف قرن من الاستقلال.

ـ معك حقّ يا ابني. قرأت في كتابات جدّك سيدي أحمد بن خليل، عن أمير عربيّ كبير كان صديقه، سمعه يقول: لم يقنعني الشعراء أبدًا وهم يتنافخون شعرًا، إلَّا شاعر واحد، نسيني وظلَّ يتأمَّل شجرة مالت بقوَّة صوب

الأرض، بعد أن نزعت الريح بعض أغصانها. لم يتكلَّم أبدًا، لكن في عينيه نما حزن شهقت له الشجرة.

أخذته من يده بعد أن أبعدت أوراق الدالية وفروع شجرة البرتقال، التي حالت بيننا وبين رؤية النافورة التي كانت تبدو في يتم كبير:

ـ شايف. في ذلك المكان حيث كانت النافورة؟ بالنسبة لك زالت وانتهت! صمتت وماتت! بالنسبة لي ما تزال في مكانها كما في اليوم الأوَّل. كان ماؤها يملأ الساحة. وتمزُّقها يصل الآن إلى أذني وقلبي. عندما كنت صغيرًا في سنّك، كنت أتلذَّذ بصوتها الدافئ الذي يملأ المكان هسهسة جميلة توقظ فينا كلّ المدفونات. تسيل يوميًّا بلا توقُّف. بها نظام غريب، كلَّما سقطت الأمطار بكثافة، سكنت نهائيًّا، بحيث لا نسمع إلَّا حسّ الأمطار وهي تنكسر على الأسقف القرميديَّة، وكأنَّها كانت ترفض أن تضاهي الأشياء الجميلة.

ـ ومع ذلك، يا جدِّي، أشعر أحيانًا بأنَّ عمرها وصل إلى نهايته، وعلينا أن نتخيَّل شيئًا آخر أجمل.

ـ ليس البرج الأعظم!

ـ لمَ لا يا جدِّي إذا لم يُبن على أنقاض البيت الأندلسيّ.

ـ وأنا لا مانع لديَّ أيضًا، يبتعدون بهمِّهم واللّـه يسهِّل عليهم.

ـ على كلٍّ، سأعود لك لتصوير المخطوطة والوثائق الأخرى. أردت فقط أن آخذ إذنك.

ـ أنت تعرف يا ابني أنِّي لا أمانع، مادامت المخطوطة الأصليَّة لا تخرج. احذر يا ابني. لا يمكن الاستهانة بما يدور هذه الأيَّام في المدينة. الوضع العام ليس على ما يرام.

ثمَّ التفتُّ نحو يوسف النمس. كان منهمكًا في تصوير رخامة المدخل التي نُقش عليها اسم لالة سلطانة. ربَّما العلامة الوحيدة المتبقّية من ذلك

الزمن الذي هرب بسرعة وكأنَّه لم يوجد أبدًا. كان هادئًا ومنهمكًا. يتفحَّص كطبيب من قريب الأشكال والخطوط وعمليَّات المحو المتكرِّرة، التي لا حظها على الرخامة قبل تصويرها. ثمَّ يقطع الطريق. يبتعد قليلًا. يصوِّر واجهة البيت كاملة. أردت أن أنبِّهه بأن يأخذ حذره هو أيضًا، ولكنْ ملاحظتي بدت لي عبثيَّة ولا قيمة لها. لم أظهر له ما كان في قلبي من ذعر. كنت خائفًا عليه. موت خطيبته كاهنة، جرح سيلازمه طوال حياته. لم يكن ذلك مجرَّد صدفة أبدًا، أو خطأ، أو انتحارًا في حالة ارتباك نفسي، كما قالوا في الصحف الرَّسميَّة وصحيفة حزب الجبهة: *الثورة* التي يسمِّيها بعض القرَّاء الملاعين: *الدورة*، أي كيف داروا على رفقاء السلاح بعد الاستقلال. يوم انتحرت سحبوه نحو مخفر الشرطة، وبهدلوه. جرجروه في أروقة المحاكم. اتَّهموه بأنَّه كان وراء الانتحار، لأنَّها كانت حاملًا منه ورفض أن يعترف بالجنين أو يتزوَّج بها. ولكنَّ القضاء في النهاية أنصفه. القضية كانت امرأة درست الملفّ بعمق، وكأنَّها كانت محاميّة كاهنة. قالت له: شوف، سأبحث في ملفّك، إذا ثبت أنَّك كنتَ وراء العملية، واللّـه سأدفِّعك الثمن مزدوجًا، الاغتصاب وجريمة القتل. ولكنَّها في النهاية، بعد تأكُّدها السريع من براءته، دافعت عنه باستماتة.

طنَّت في رأسي جملته الأخيرة بعد أن انتهى من التصوير، ووجدنا ، أنا وسليم، مازلنا عالقين في قصَّته وفي شجاعة القاضية، التي بقدر ما هدَّدته دافعت عن قضيته باستماتة.

«ـ خلِّيها على اللّـه يا عمِّي مراد. قادرون على كلّ شيء، ليس هذا فقط. تدمير البلاد أو بيعها بالرخيص إذا استدعت مصلحتهم ذلك. لكنَّ ناس الخير أيضًا، في كلّ مكان. هناك من ساعدني في المخفر، وفي القضاء، وأنقذني من براثنهم. نساء هذه الأرض جواهر يا عمِّي مراد، امرأة واحدة واجهت كتيبة من الكَذَبة عندما تيقَّنت من براءتي».

- 4 -

ـ واحد... اثنان.... عشرة... عشرون! عشرون فقط؟ وين راحت البقية يا صونيا؟ قلتِ لي إنَّ عددهم سيكون اثنين وثلاثين تلميذًا؟

ـ عارف يا عمِّي مراد، عقليتنا؟ خسرت عددًا مهمًّا من البنات خصوصًا، بسبب العائلات المنغلقة التي ما تزال تظنّ أنَّ المكوث خارج المدرسة هو مضيعة للوقت. المهمّ أنِّي نجحت في الباقي. وكلُّهم حماس لاكتشاف عالم يعرفونه ولا يعرفونه.

انغمست صونيا من جديد في عدِّ تلاميذ مدرسة الاستقلال. كنت أتأمَّلها على مسافة مترين، داخل الحديقة. كان حضورها قويًّا بشخصيَّتها النافذة ونظرتها الهشَّة. لست أدري ما الذي ذكَّرني بمزحة سليم وهو يريد، كعادته منذ سنوات، أن يكشف الغطاء عن نساء حياتي. هو لا يعرف أنَّ حسيبة رشدي لم تكن مطيَّتي في الحبّ، ولكنَّها كانت قصَّتي أيضًا.

كانت صونيا أنيقة كتفَّاحة، وبريئة كنسمة. المبادرة جميلة وجديدة على مدارسنا. لست أدري من صاحب الفكرة في وزارة التربية، ولكنَّها

ممتازة. موح الكارتيل لم يمانع عندما عرف أنَّ التعليمة من وزير التربية. قال إنَّه يعرفه جيِّدًا عندما كان طفلًا يلعب في الحديقة المقابلة لبنايات الحيّ الشعبيّ الفقير، حيّ الكبريت الذي تكدَّست فيه الخلائق من كلّ نوع. لم يعرف لماذا سمِّي حيّ الكبريت إلَّا عندما اشتعلت الحرب الأهليَّة من عمق الحيّ نفسه. ويدرك جيِّدًا أنَّ الحرب التحريريَّة التهبت أكثر في حيّ الكبريت. اسم على مسمًّى:

«ـ لم يكن عدوانيًّا. لم يكن أحد يتخيَّل أنَّه سيصبح وزيرًا. كان الأطفال يغارون من هندامه النقيّ دائمًا. مسالم، ولكنَّه كان يدرس بشكل جيِّد. لا أدري من جاء به وزيرًا، ولكنَّه لم يخطئ في حقِّه أبدًا. فقد وضعه في مكانه المناسب. يا اللَّـه مادام هو اللي صاحب الفكرة، أعرف أنَّ في ذلك خيرًا. افتح للتلاميذ الأبواب واحذر أن يسرقوا شيئًا، أياديهم طويلة».

كنت سعيدًا جدًّا أنَّه لم يعترض على الفكرة. مزاجه صعب. ثمَّ إنِّي كنت أظنّ أنَّ غياب سارة سيزعجه، إلَّا أنَّه لم يبدُ عليه أيّ انشغال. سافر إلى الحدود المغربيَّة ـ الجزائريَّة في مهمَّة خاصَّة وقصيرة. أفهم التفاصيل في فمه، حتى عندما يختزلها.

«ـ على كلِّ حال لا يوجد أيُّ إزعاج. أعرف أنَّك ستحافظ على البيت أكثر منِّي. أنا رايح لتلمسان. أسوِّي وضعيَّة خاصَّة وأعود. ادعُ معي يا عمِّي مراد، ربِّي يجيبها على خير.

ـ إن شاء اللَّـه تفلح في مسعاك، وتعود لنا بألف خير».

قلتها ببرودة، لأنِّي كنت أدرك في أعماقي أنَّ مسعاه لن يكون ملائكيًّا، كيفما كان. كنت أنوي أن أساله عن سارة، ولكنِّي خفت أن أأزِّم الأمر، فيتراجع عن مقترحه.

كانت صونيا بصحبة نصيرة، أستاذة التاريخ التي كانت تشرح للتلاميذ عن البيوت الموجودة في العاصمة، وعن هندستها وموادّ بنائها، وعن عددها التقريبيّ. بينما علامات الدَّهشة ترتسم على ملامحهم، وفي عمق عيونهم مثل العصافير. كنت سعيدًا أنَّ هناك شابات مثل نصيرة، يتخرَّجن من المدارس الوطنيَّة، يحملن مثل هذا الحبّ لكلّ ما يحيط بهنَّ. أعرف جيِّدًا أنَّهنَّ لسن مقياسًا، ولكن مع ذلك، يبرهنَّ على أنَّ الدُّنيا ليست مغلقة، كما يمكن أن نتخيَّلها أحيانًا.

التحق جميع التلاميذ نحو صونيا. بسرعة تحلَّقوا حولها.

ـ هذه الدار تسمَّى البيت الأندلسيّ. اسم مالكها موجود على الباب. سنراه مع بعض. عمرها أكثر من أربعمائة سنة، أربعة قرون ونيِّف. كانت في الأصل مكانًا معزولًا، قبل أن يتمّ تشييدها شيئًا فشيئًا، بحسب الحملات التي تواكبت عليها. السكان الأوائل، الرومان، المسلمون، الأندلسيُّون، الأتراك، الفرنسيُّون، ثمَّ ناس ما بعد الاستقلال، أي نحن.

ـ ولكنَّنا لسنا مستعمرين مثل الرُّومان والأتراك والفرنسيِّين.

تدخَّلت تلميذة، كانت تبدو في عينيها علامات النباهة.

ـ لا. نحن أبناء كلّ الحملات التي مضت. لم نأت من فراغ. فينا من كلّ هؤلاء الذين سبقونا إلى هذه الأرض، ولسنا في النهاية إلَّا نحن. خلّينا نرجع إلى البيت. بعضهم يقول إنَّه كان مزارًا صغيرًا مهملًا لوالي يسمَّى سيدي قارة بلال. مجموعة حيطان ترابيَّة أكلها الزمن. آخرون يقولون إنَّه كان موقعًا عسكريًّا رومانيًّا قديمًا بدليل وجود ناظور في المكان نفسه. كان يتمّ تحديد السفن الصديقة الوافدة، وسفن الغزاة.

ـ وهل للناظور دور في ذلك؟

قالت تلميذة وهي تريد أن تعرف أكثر.

ـ طبعًا. الناظور يقرِّب. إذا كان زجاجه المكبِّر قويًّا، نستطيع أن نتعرَّف على طبيعة السفينة القادمة، شكلها، أعلامها، وربَّما وجوه بحَّارتها، فنتَّخذ الإجراءات اللَّازمة للدفاع.

تدخَّلت بدون أن يطلب منِّي ذلك عندما رأيت عيون التلاميذ مشدودة إلى صونيا.

ـ كلام صونيا صحيح. وبإمكاني أن أظهر لكم بقايا الناظور، في المقصورة. لم يعد كما كان، فقد مسَّته تغييرات كثيرة في الحقب المتتالية، لكنَّه مهمّ. ويمكنني أن أظهر لكم بقايا الركيزة الرومانيَّة، التي تحوَّلت فيما بعد إلى حائط سميك من حيطان سيدي قارة بلال.

قادتهم نصيرة نحو رخامة المدخل، فتحسَّسوها بأبصارهم وأياديهم الناعمة. وجدت أستاذة التاريخ صعوبة كبيرة في إقناعهم بتفسير وجود الخط العبريّ في بيت أندلسيّ. كانت أقسى الأسئلة التي ارتبكت أمامها نصيرة.

ـ البيت كان ملكًا لليهود؟ ما الذي جاء بهم إلى بلاد المسلمين؟

تدخَّلت لأخفِّف الثقل على نصيرة:

ـ ألم تقل لكم الأستاذة قبل قليل إنَّ هذه الأرض مرَّت عبرها أقوام كثيرة؟ وديانات كثيرة أيضًا؟ لأنَّ كلّ قوم يدينون بدينهم الخاصّ.

ـ وأخذنا منهم الكثير؟

قال تلميذ آخر وهو على يقين بما كان يقوله. كان أكبر من سنّه.

ـ معناه إحنا فينا من اليهود والمسيحيِّين؟

تضاحك بقية التلاميذ المحيطين به.

ـ الآن، أصبحت هذه الأرض للمسلمين، ولكن في وقت مضى، وقع لليهود ما وقع لنا نحن أيضًا. الأسبان المتطرِّفون كانوا يحرقونهم مثلنا. ولهذا هربوا إلى هذه الأرض، لأنَّهم وجدوا بعض السلام فيها، وسكنوها مثل الجميع. واشتغلوا في الحِرف اليدويَّة في القصبة، باب عزون، باب الجديد، وسوق الجمعة. لم تكن مشكلة فلسطين، ولا مشكلة الاستعمار ولا قضية التهجير. الدُّنيا الآن تغيَّرت طبعًا.

بدأ عناد الطفل يخفت قليلًا، شيئًا فشيئًا.

سألت شابة، في عينيها بريق حادّ من الحياة، في عمق شعرها وردة حمراء مثل الغجريَّة. تذكَّرت جدِّي غاليليو وهو في عمق مكتبته، في غرناطة، غارقًا في قراءاته، وفي وجوه عاشقات الكتب والمخطوطات.

ـ سمعنا بلي راح يهدموا هذا البيت؟ هل هذا صحيح؟ كلّ ناس الحومة يقولون هذا الكلام. بعضهم يقول سيهدمونه لأنَّه مسكون بجنّيّ يهوديّ جاي من بلاد اسبنيول؟

تضاحك باقي التلاميذ مرَّة أخرى، ضحكات مرتبكة هي مزيج من السخرية والخوف.

ـ لو استمعنا لكلّ ما يقوله الناس، قلت موجِّهًا كلامي للأستاذتين أيضًا اللَّتين لم تزل عنهما الحيرة التي ارتسمت على ملامحهما، لانطفأت المدينة وربَّما البلاد بكاملها. العفاريت الزرقاء والحمراء، اليهوديَّة والمسيحيَّة والمسلمة، يصنعها من يريدون الاستيلاء على هذه البيوت. هناك بيوت سكنها مسؤولون كبار مباشرة بعد خروج الاستعمار، يقف الجنِّيّ عند أبوابها ولا يتجرَّأ على الدخول؟ العفاريت تشتهي الدور التي يريدون بيعها للمضاربين فقط!

ضحك التلاميذ مع إشراقٍ برز في عيونهم بقوَّة. شعرت نصيرة بنوع من الراحة الداخليَّة. بينما استفسرت صونيا أكثر:

ـ يا عمِّي مراد. قلبك طيِّب. كلّ ما يحيط بالبيت الأندلسيّ تمّ محوه! الشركات الأجنبيَّة تستعدّ للاستيلاء على المكان. قرأنا هذا في الإعلانات، وأخي شاف الخبر في الإنترنت. فكرة تهديم البيت ليست بدعة ولكنَّها حقيقة.

ـ أنا كذلك قرأت ذلك في الصحف، وأقرأه يوميًّا في الإعلانات المعلَّقة. ولكن هذا الكلام ليس جديدًا. هناك عمليَّة ضغط للتنازل عن هذا المكان للسماسرة الذين باعوا كلّ البيوت على رؤوس أصحابها. هناك قانون يحكم هذه البلاد وإلَّا على الدُّنيا السلام. طاق على من طاق. غابة. حوتْ ياكل حوتْ. أعتقد أنَّنا لم نصل بعد إلى هذه المأساة. الفكرة موجودة، ولكنْ إرادة الدفاع عن الحقّ موجودة أيضًا.

ـ يعطيك الصحة عمِّي مراد.

ـ نواصل حركتنا داخل الدار ليروا بأعينهم قدرة أجدادهم وإمكاناتهم الخلَّاقة.

كان التلاميذ سعداء جدًّا عندما رأوا كلّ الطوابق. كأنَّ عمليَّات الشرح غيَّرت نظراتهم، ودفعت بالكثير منهم إلى بيوتهم التي يقيمون فيها والمشربيَّات المتهالكة التي تحتويها، وكيف أنَّ الكثير منها سقط كما حكى الكثير من التلاميذ بعد أن انفكَّت عقدة ألسنتهم، وهم يقفون أمام النافورة التي كانت تقف في المكان بيتم كبير.

ـ هل بها ماء يسل؟

ـ لا.

قلتها بشكل جافّ. واصلت بدون أن أخفي حزني:

ـ النافورة يا ابني مثل ابن آدم تحتاج إلى من يهتمّ بها. السكان في هذا البيت غير ثابتين. يأتون ويذهبون، بحسب المشترين والبائعين.

هناك مخطَّط مع صاحبة البيت، السيِّدة سارة، لإصلاحها، لكنْ هذا يحتاج إلى وقت كبير، وهي غائبة. الحديقة، وحدها يجب إعادة غرس الكثير من أشجارها أو تقليمها، حتى لا تموت.

وعندما سُئِلت عن صاحب البيت الأصليّ، حاولت أن أبسِّط لهم الفكرة. حدَّثتهم عن جدِّي الذي نطقت اسمه العربيّ سيدي أحمد بن خليل فقط، ولم أتكلَّم عن غاليليو الروخو، لأنِّي كنت سأضيِّعهم مرَّة أخرى مثلما فعلت نصيرة عندما أغرقتهم في الكتابة العبريَّة. حدَّثتهم عن الحقب المختلفة التي مرَّت على البيت. كنت أدرك جيِّدًا من عيونهم أنَّ شيئًا نائمًا استيقظ في أعماقهم، وكنت سعيدًا لذلك.

ثمَّ التفتت صونيا صوب التلاميذ عندما وقفنا في الحديقة، وهي تلمّ شعرها الذي انسدل على وجهها، ناعمًا كماء سلس:

ـ ماذا نطلب من عمِّي مراد الآن؟

ـ المخطوطة... المخطوطة... المخطوطة...

ـ أيَّة مخطوطة؟

تساءلت وكأنِّي لم أكن أعرف شيئًا، أو كأنِّي لم أحضِّره لاستقبالهم.

ـ المخطوطة يا عمِّي مراد. إذا ما شافوهاش، كأنَّهم ما شافوا والو. حدَّثتهم عنها كثيرًا.

ـ إذا لم يتعبوا من شدَّة الصعود والنزول، سندخل إلى بيت الخدم وأريهم المخطوطة.

ـ ما تعبناش يا عمِّي مراد.

صاح التلاميذ بصوت واحد.

خرجنا من الحديقة الكبيرة، ثمَّ دخلنا من جديد ناحية بيت الخدم. شعرت أنَّ المكان كان حميمًا أكثر والأشجار منوَّرة ومقصوصة بشكل جيِّد. الكثير منها بدأ هذه السنة يعطي ثماره مبكرًا.

تحلَّقوا حول الخزانة الزجاجيَّة وبدأوا يدورون ويحاولون أن يفكُّوا حروف المخطوطة. لم يروا شيئًا شبيهًا لذلك من قبل. كانت صونيا تحاول أن تشرح قليلًا سرّ المخطوطة، وطريقة الكتابة. بينما وراءها نصيرة تحاول جاهدة أن تتمّ الشرح وسط وشوشة التلاميذ وضحكاتهم الملعونة ودهشتهم. ثمَّ تحلَّقوا بي جميعًا وأنا أتَّكئ قليلًا على الخزانة التي كانت فيها المخطوطة كعريس استثنائيّ، تحت أضواء الهالوجين الخافتة.

ـ اقرأوا ما هو مكتوب على الصفحة الأولى.

تدافعوا قليلًا قبل أن يستقرُّوا، ثمَّ بدأوا يتنافسون في القراءة. لكنْ عبثًا. فقد بدت الحروف الملتوية في غاية الصعوبة. كانت بعض الحيرة ترتسم في عيونهم وهم يحاولون عبثًا أن يفكُّوا معنى من معاني الحروف الملتصقة. تدافعوا قليلًا قبل أن يتركوا مسلكًا مرَّ من خلاله أحد زملائهم الذي كان يبدو عليه أنَّه أفهمهم. لكنَّه هو بدوره تراجع بعدما اصطدم بصعوبة فكِّ الشفرة المعقَّدة. أحيانًا يتضاحكون بسعادة عندما يفكُّون كلمة، ولكنْ من دون معنى.

ـ هل فهمتم شيئًا؟

ـ لا... كأنَّها ليست عربية.

قالت إحدى التلميذات بخجل.

ـ طيِّب... هل فيكم من يعرف الإسبانيَّة؟

ـ ماسيكا ... سيكا بنت السبنيوليَّة... سيكا... سيكا... سيكا...

طلبها التلاميذ بشكل جماعيّ. اندهشت من كلمة بنت اسبنيوليَّة، ولكنِّي أجَّلت ذلك.

ـ أين ماسيكا؟ يا اللّـه تقدَّمي قليلًا.

التفت الجميع نحو طفلة كانت في الزاوية الخلفيَّة من البيت. كانت منشغلة بشيء آخر. مشدودة بعينيها إلى الخارج، إلى الأشجار والعصافير، والفراشات التي كانت تحطّ على الأغصان، ثمَّ تنطفئ في الفضاء أو بين النباتات، لتخرج ثانية.

قلت لها وهي تحاول أن تختصر ابتسامة خجل هربت من بين شفتيها، كأنَّها كانت متعوِّدة على هذه التَّسمية الغريبة التي لم تحرِّك فيها أيّ غضب: سيكا بنت السبنيوليَّة.

ـ تعالي يا ماسيكا ابنتي. اقرأي.

تأمَّلت المخطوطة من وراء الزجاج الواقي. قرَّبت نظرها أكثر.

ـ هل فهمتِ شيئًا؟

ارتسمت حيرة كبيرة على محيَّاها.

ـ لم أفهم.. ليست لغة إسبانيَّة!

ـ ما عليهش يا ماسيكا. اقرأي فقط. هذا خط مغربيّ. صعب قليلًا. ولكنْ حاولي أن تقرأي معي وتخيَّلي الكلمات باللُّغة الإسبانيَّة:

ـ يو سوي سيت هامد بنغاليلو...

فجأة، ارتسمت سعادة كبيرة على محيَّاها وفي عيون زملائها. واصلت القراءة معي بشكل أقلّ صعوبة من الأوَّل، وكأنّ لسانها فُكَّ نهائيًّا.

ـ يو سوي *سيِّد حامت بن غليليو... إسبيراندو أو، بور ميخور دثير، تيرميندو بييردير لا بيدا، كي يا مي كانسا*[1] فهمتها تقريبًا: أنا سيِّد أحمد بن غاليليو... أتمنَّى أو بالأحرى، أخاف ضياع الحياة التي أصبحت الآن تتعبني.

---

(1) Eperando o, por mejor decir, termiendo perder la vida, que ya me cansa
(أتمنَّى أو بالأحرى، أخاف خسران الحياة التي باتت الآن ترهقني.)

ـ أرأيتِ؟ ليست الأبجديَّة بكلّ هذه الصعوبة. لكي تقرئيها عليك فقط أن تفكِّي حروف العربيَّة وتتخيَّلي الكلمات بالإسبانيَّة. هذه هي اللُّغة التي كان يكتب بها أجدادنا الأندلسيُّون، وكانت تسمَّى ***الخيميادو***.

ـ ولماذا كانوا يكتبون بهذه اللُّغة الصعبة؟ تساءلت ماسيكا وهي تدوِّن كلمة الخيميادو في ورقة خاصَّة من كرَّاستها الصغيرة.

ـ لم يختاروها، ولكنَّهم ابتدعوها للحاجة. عندما انغلقت عليهم سبل العيش وأصبحوا محارَبين في حياتهم ودينهم، كتبوا بها نصوصهم، وقرآنهم، وتفاسيرهم، وقوانينهم ليدافعوا بها عن أنفسهم. كانوا يرفضون أن يموت تاريخهم. كانوا أبناء تلك الأرض التي بقوا فيها أكثر من 800 سنة، أي ثمانية قرون. أجدادهم وأجداد أجدادهم من تلك الأرض.

ـ بزاف.

قالت ماسيكا بعفويَّة وحيرة.

ـ بزاف، ومع ذلك طُردوا. نظرة الإنسان قصيرة وحكمته في هذه الدُّنيا قليلة. عندما ينتصر كثيرًا ما يتحوَّل إلى طاغية، ويمارس ما مورس ضدّه عندما كان ضعيفًا. بدل أن يكون حكيمًا وكبيرًا ومتسامحًا مع الآخرين من الضعفاء، لأنَّهم في النهاية منه على الأقلّ في جانبهم الإنسانيّ، يتحوَّل فجأة إلى فرعون صغير!

شعرت ماسيكا بسعادة كبيرة وهي ترى التلاميذ منكفئين على المخطوطة، ويحاولون قراءة صفحاتها المختلفة، وفكَّ حروفها الصعبة. كلَّما توصلوا إلى إيجاد الكلمة والمعنى غمرتهم السعادة. كثيرًا ما كانت تعجبهم الرسومات المحيطة بالكلمات وتختم الفقرات بألوان زاهية وجميلة. بقيت محافظة على ألقها في وسط الكتاب على الرَّغم من انمحاء بعضها على الأطراف. رغبتهم لِلمْسها لا تقاوم. كنت أشعر بذلك في عيونهم. كانت الأحرف جميلة وتنميقاتها المذهَّبة قريبة من الكتب المقدَّسة القديمة.

عندما استمتعوا بالمخطوطة وعرفوا سرّها وجمالها، خرجوا إلى حديقة بيت الخدم. شرحت لهم طبيعة المكان الذي كنَّا فيه، ولماذا انفصل عن بقيَّة الدار؛ ثمَّ الموادّ البنائيَّة التي شُيدت بها الدار في البداية، ثمَّ النموذج الأندلسيّ الذي صيغت به، وطبيعة البيت الأندلسيّ. سرّ النوافذ الصغيرة والملوَّنة التي تشبه زجاج الكنائس، كيف عُشِّقت بموادّ ما تزال إلى اليوم تقاوم الطبيعة على الرَّغم من مرور كلّ هذا الزمن. كوَّات صغيرة، ولكن كافية لعبور نسمة الحياة. كانت عندما تُفتح لا شيء يُرى من خلالها إلَّا زرقة البحر، قبل أن تدخل الأشجار والطيور العابرة وخيوط الكهرباء والتلفونات الفوضويَّة التي أصبحت تغطِّي على كلّ شيء، وتحرم المُشاهد من رؤية أمكنة جميلة وحيَّة. طبيعة الزجاج خاصَّة، لا يخبِّئ الشمس، ولكنَّه يخفِّف من قوَّة أشعتها القاسية ويجعلها مستساغة ومتحمَّلة، وهادئة في دفئها. كانت لهذا النوع من الزجاج خاصّيَّة تركيبيَّة توزِّعها إلى آلاف الأشعّة الرقيقة ممَّا يخفِّف من حدَّتها.

كان التلاميذ سعداء، وكان الوقت يمرّ بسرعة كبيرة!

داروا طويلًا حول الحديقة. شمُّوا مسك اللَّيل، أشجار البرتقال، اللَّيمون، الزيتون، الكروم... ملأوا أكفّهم الناعمة بنوّار الياسمين الذي كانت رائحته تفوح من بعيد. وعدتهم أنِّي في المرَّة القادمة لن أكتفي بالكلام على البيت، ولكنَّني سأتحدَّث عن التاريخ التَّفصيليّ للرجل الذي بناها سيدي أحمد بن خليل، ليهديها لحبيبته سلطانة، التي تركت كلّ شيء وراءها، وجاءته مغمضة العينين في سفينة مثقلة بالخوف والهاربين من البطش.

ـ والجملة التي قلت لنا بأنَّك ستشرحها أيضًا ونسيت؟

لاحظت ماسيكا بابتسامة ملعونة.

ـ أيَّة جملة يا ماسيكا؟

ـ حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدمًا فيه أو عبيدًا.

ـ برافو. سيدي أحمد بن خليل قال هذا الكلام لكي يحافظ من يأتي بعده على استمرار الحياة في هذا البيت، وهذا ما أفعله اليوم. لأنَّه بيت مرتبط بالحبّ في زمن كانت تسوده الكراهية بين الناس وبين الأديان، بين الأجناس وبين القوميَّات. زمن حروب. الحقد يسمَّى أيضًا العمى بعيون مبصرة. في المرَّة القادمة، أعدكِ بأنِّي سأبدأ من هذه الجملة. خلاص. وعد شرف.

ثمَّ اصطفّوا استعدادًا للخروج بعد أن وضعت في يديْ كلّ واحد منهم أصًا من الأصص وفيه نبتة. طلبت منهم أن يسقوها وأن يهتمُّوا بها، وأن لا يتركوها تموت، لأنَّ بها رائحة تأتي من بعيد. من تاريخ أجدادهم. كانوا سعداء ويحاولون أن يتذكَّروا الكلمات التي قرأوها أو فكُّوها، بعد أن التصقت بأذهانهم.

عند مخرج البيت، التفتت صونيا نحوي:

ـ شكرًا يا عمِّي مراد باسطا. اللّـه يكثِّر خيرك. لم أر أبدًا التلاميذ فرحين بهذا الشكل مثلما هم عليه الآن. كلّ ذلك بفضلك وبفضل طيبتك وسماحتك. لأوَّل مرَّة يعرفون أنَّ في بلادهم أبنية شيَّدها أجدادهم الذين لم يكونوا أغبياء ولا قاصرين. في الأسبوع القادم، سنزور كنيسة نوتردام دافريك[1]. لقد تحدَّثت مع مونسينيور هنري تيسيي[2] وهو مستعدّ لاستقبالنا وشرح تاريخ الكنيسة. هؤلاء التلاميذ الصغار مادَّة خام يا عمِّي مراد، ويمكنهم أن يفتحوا أعينهم على ما يحيط بهم بلا رفض ولا حقد. صعب، لكنَّها معركة تستحقّ أن نخوضها.

---

(1) L’église Notre Dame d’Afrique.

(2) Monseigneur Tessier شخصيَّة حقيقيَّة وهو كبير أساقفة الجزائر.

أشار التلاميذ بأياديهم الناعمة بشكل جماعيّ، وهم يصيحون في صوت واحد وسعادة كبيرة: إلى اللِّقاء. ردَّدت: إلى اللِّقاء.

كان علي وليد الحومة، الشاب الملتحي، ينظر إليهم راشقًا عينيه في صونيا غير المتحجِّبة وأهمل نصيرة المتحجِّبة. سمعته يقول لها كما تعوَّد أن يفعل:

ـ معلِّمة وبلا حجاب؟ راح تدخلين النار لأنَّك سافرة. استري روحك.

لم يسمعه التلاميذ، ولم يعيروه أيّ انتباه. كانوا منهمكين في أفراحهم الصغيرة. أهملته صونيا بابتسامة ساخرة، ثمَّ واصلت تنظيمها للتلاميذ لكي يقطعوا الطريق بشكل جماعيّ. ثمَّ مشى الجميع باتِّجاه مدرسة الاستقلال التي لم تكن بعيدة كثيرًا عن البيت.

عندما كادوا يختفون وراء شِباك الحديقة، انفصلت ماسيكا عن المجموعة ورجعت ركضًا. تخيَّلت أنَّها تكون قد نسيت شيئًا مهمًّا، أو كأنَّها كانت تريد أن تقول شيئًا لم تشتهِ أن تقتسمه مع الآخرين. هذا ما خمَّنته:

عندما وصلت كانت تتنفَّس بصعوبة، خدَّاها الحمراوان يكادان ينفجران دمًا.

ـ عمّو مراد... اسمح لي. هل يمكنني أن أزورك في الأيَّام القادمة لتريني المخطوطة الحقيقيَّة؟ أريد أن أشمّها وألمسها! وتشرح لي عن سرّ هذه المخطوطة؟ أريد أن أعرف أكثر، عن رحلة سيدي أحمد بن خليل نحو أرضنا؟

اندهشت قليلًا لسؤالها، لأنَّها تخلَّت فجأة عن طفولتها، وحكت كما يحكي الكبار.

ـ طبعًا يا ماسيكا. مرحبًا بك في أيّ وقت تشائين. أخبري فقط والديك ومعلّمتك وتعالي.

ـ ما عنديهش أهل، لا أعرف إلَّا أمّي ومعلّمتي.

تفاديت أيّ سؤال آخر حتى لا أؤخِّرها أكثر.

ـ أخبريهما، وتعالي متى شئت.

ـ ماما تقول أيضًا إنَّ أجدادها مثلك موريسكوس.

ـ موريسكيون! أمّك ليست إسبانيَّة؟

ـ أجدادها من عرب الأندلس كما تقول هي.

ـ نحن من عائلة واحدة. أنا جدّ سعيد بك يا ماسيكا. تعالي متى شئت، وسأشرح لك عنهم كيف حطّوا الرِّحال أوَّل مرَّة على هذه الأرض، التي بدأت تنساهم بسرعة وكأنَّهم مجرَّد ناس غرباء، كانوا هنا ثمَّ انطفأوا.

ـ شكرًا.

ثمَّ ركضت من جديد نحو المجموعة. مرَّت كلمح البصر حتى إنِّي شككت في نفسي إذا لم أكن فقط تخيَّلتها قد عادت. غابت بسرعة في عمق المجموعة. تتبَّعت الجميع حتى غابوا نهائيًّا في المنحدر الذي يقود نحو مدرسة الاستقلال والطريق الوطنيّ. بينما عدت إلى البيت برغبة متناهية نحو المخطوطة التي أخرجتها من الخزانة الزجاجيَّة ورقة ورقة، لأصفِّفها من جديد وأضعها داخل مجلَّدها ذي القفل القديم. ظللت مشدودًا إلى الورقة الرابعة والورقة الخامسة والورقة السادسة. لا أعرف لماذا، ولكنْ هذا ما حصل معي. كانت رائحة الورق قويَّة ومغرية للافتتان بها، والاندفان في تفاصيل أبجديَّتها.

من أوراق سيدي أحمد بن خليل
المدعو «غاليليو» (2)
الورقة الرابعة

رحلة غاليليو الروخو وعزلته وحنينه إلى سلطانة.
حكاية شرائه لبستان حميد كروغلّي المهمَل، وبنائه للبيت الأندلسيّ.
بداية العمل في محلّ الذهَّاب ميمون البلنسي،
وتعرُّفه على الجنوي والطملقي، والمهندس المالطي.

صيف 1570

السنوات تعود، ولا شيء فيها يتشابه سوى العمر الذي يمضي بسرعة البرق.

نظرت إلى مرآة البحر. صرخت: ها أنت وحدك من جديد يا ابن أمِّي وأبي، يا سيدي أحمد بن خليل؟ من أذنب في حقِّك؟ من أحرق نفسك وقلبك، من حرَّك مواجعك؟ من أباد حسَّك وأيقظ أنينك؟ محاكم التفتيش المقدَّس أم ذووك؟ توركيمادا أم طارق بن زياد أم موسى بن نصيْر الممحون بالحكم؟

منذ زمن بعيد، لم أكتب شيئًا يستحقّ أن يدوَّن. ربَّما كانت الكتابة رديف الحياة، إذ نفقد الشهوة أحيانًا في كلّ شيء بما في ذلك مواصلة العيش؛ ونتحوَّل أحيانًا إلى شعلة مضيئة، ولكنَّها حارقة أيضًا، لا قوَّة في الدُّنيا تستطيع الوقوف في طريقها. لقد أقسمت بأن أحافظ على الذاكرة متَّقدة، وسأفعل اليوم أيضًا بما أستطيع أن أدوِّنه قبل انطفاء الرُّوح.

عندما التقينا لأوَّل مرَّة أنا وسلطانة، كنَّا في نعومة العمر والحواس، أقسمنا كأيّ عاشقين نائمين في فقاعة الشوق الجميل، أن نورِّث أبناءنا كلّ الضوء الذي أحاطنا وأصابنا بدفئه في القلوب، ونبعدهم عن كلّ الظلام الذي دخلنا في غفلة منَّا، لكي لا يلبسوه ولا يورِّثوه لذريَّتنا. لكن بين الأشواق والحقيقة حرائق مثل الجبال. أحاول أن أختزل الزمن، فالعمر المتبقي لم يعد كافيًا للصعود من جديد إلى هضبة الجنون. أحاول أن أمسكه، وأنظر في وجهه الذي غابت عنه كلّ التجاعيد، لكنَّه الزمن يفلت من يديَّ، كمشة رمل ناشف وماء زلال. هو هو يسبقني دائمًا حيث أظنّ أنِّي وصلت قبله. كلَّما فتحت عينيَّ وتصوَّرت أنِّي، على الأقلّ، لحقت به، وجدته قد هرب منِّي وتجاوزني بخطوتين. لا ينتظرني أبدًا. سرعته قاسية. لمح من الهواء السّاخن الذي ينسحب حتى قبل أن تفتح عينيك. حرقة. رمشة. لمحة ضوء تتأرجح في الأفق كالبرق الذي يخطف الأبصار ويهرب. لم أصل بعد إلى تلك الظلمة القاسية التي تسرقني من ساعتي. ما تزال ساعتي بعيدة أو على الأقلّ ضائعة في المدارات، تتحرَّك بالسرعة التي تشاء. أشتهيها أحيانًا أن تثقل من خطاها فقط لتمنحني فرصة، لا لأشبع من الحياة، فأنا شره لدرجة الجنون، ولن أشبع منها أبدًا، لكن فقط، أن تمنحني فرصة لاحتضان ذاكرتي في عزّ اشتعالها.

كلّ شيء ننساه إلَّا الأشواق التي تحرقنا في العمق وتسلخ بعضًا من جلدنا. أنا هو أنا لا شيء تغيَّر فيَّ سوى ما لا أراه. ما يزال غاليليو

الروخو، المسمَّى في أرجاء البلاد والقصبة المحروسة، بسيدي أحمد بن خليل، تيمُّنًا بهذه الأرض وأوليائها الصالحين، هو هو كما قذفته أول سفينة ممتلئة بالخوف، على حواف ميناء وهران. هذه الأرض التي تخيَّلتها دائمًا رمالًا وصحارى، وأفاعي وعقارب مسمومة، وأحجارًا صمَّاء باردة وبلا أيَّة روح، ووديانًا تخطُّها تجاعيد الجفاف، ولم أكن أعرف أنَّ جنَّتنا كانت هنا أيضًا. أحيانًا أسأل نفسي لماذا رحل طارق بن زياد؟ أيُّ جنون أصاب عينيه وقلبه؟ لماذا زحف نحو أرض الغير، ونسي أنَّ له أرضًا تحتاج إلى يديه وإلى قليل من الحبّ والصبر؟ لماذا رمى نفسه وناسه في بحر لا شيء فيه كان يضاهي الموت؟ مات الذين رافقوه قبل أن يصلوا إلى الضفَّة الأخرى؟ ومات الباقون على أرض لم يكن يعرف مداها ولا ناسها؟ أصرخ أحيانًا بلا صدى: لماذا يا طارق حوَّلتنا إلى ثغريين Tagarins وكنَّا أبناء أرض مليئة بالسخاء. يجب أن تقف أمام المرآة لترى فقط ما فعلته بأحفادك؟ كم يلزمك من الوقت لتدرك أنَّ جرحك كان كبيرًا، وجراحات ومناف لا تُداوى؟ ستقول لي إنَّك أنشأت ما اشتهيته؟ ولكنَّك بنيت لنا منفى وثمانية قرون من الأسئلة والحيرة التي لم تنم يومًا واحدًا طوال هذا الزمن: متى نركب الريح مرغمين، ونساق خارج هذه التربة؟

كان عليَّ أن أفهم أخيرًا أنَّ لا مصير إلَّا مصير هذه الأرض. ولا انتظار إلَّا هذه الأشجار المثبَّتة في أمكنتها الطبيعيَّة والواقفة باستقامة. كنت خارج قيمة الصفر، وكان عليَّ أن أبحث من لحظة بدء الخليقة حيث كلُّ شيء يبدو غريبًا ومتبرِّمًا من ملمسك. كان عليَّ أن أتعوَّد على الهواء والريح والملح والخوف.

سكنني حنين مكتبتي. بحثت عن مكتبة في المحروسة تملأ خوائي وفراغات جرحي، ولكنِّي لم أعثر على شيء من ذلك. قيل لي إنَّ بقسنطينة رجلًا طيِّبًا يدعى ابن الفقّون، يحبّ الكتب والمخطوطات،

ويمكنك أن تشبع جوعك الأبجديّ. قسنطينة كانت بعيدة وطرقها غير سالكة. قيل لي عندما أصررت على السؤال إنَّ هناك الكثيرين ممَّن يملكون المخطوطات، بالمحروسة نفسها، لكنَّهم يخافون عليها. فلا يظهرونها إلَّا لمن يقاسمهم الملح والثقة. وكان عليَّ أن أتحمَّل قسوة الفقدان لأتمكَّن من العيش.

لم تكن أمامي خيارات كبيرة سوى الالتحاق بسفن ريّاس البحر. كنت أعرف مسالك البحار والجبال، ولم يكن شيء يثقل عليَّ أو يستحيل على إرادتي الصلبة. حتى صائغ الذهب اليهوديّ ميمون البلنسي، الذي كنت أعمل معه في القصبة، لم يكن إلَّا وسيلتي للاستمرار! رجل طيِّب. شغَّلني بسبب الحرفة التي كنت أعرفها جيِّدًا. وضعه كان شبيهًا بوضعي. جاء مع الدفعات الأولى من المارانوس الذين طُردوا من الأندلس. مارانوس وموريسكوس كنَّا في العاصفة نفسها. كان يشتغل لصالح الرايس كروغلّي.

الصدفة تصنع الأقدار أحيانًا.

اشتريت من الرايس حميد كروغلّي أرضًا صغيرة في أعالي المدينة. كانت مهملة ولم تمسسها يد منذ زمن بعيد. أحطتها أوَّلًا بالصنوبر الحلبي، والبرواق والسدرة ريثما تكبر الأشجار، وغرست فيها كلّ ما كان يمتُّ بصلة بأرضي الأولى: البرتقال، الكروم، الزيتون، تفّاح الشمال، الياسمين، مسك اللَّيل... كان يوجد في وسط هذه الأرض، بيت صغير مهمل، متشقِّق الحيطان، مليء بأدوات الحرث التقليديَّة: محراث قديم صنع من شجر الزيتون يحتاج إلى دابّتين لجرِّه، مناجل لحصد الغلَّة، فؤوس ومذاري للحَفْر وتنقية الأرض. وجدت حتى آلة ضخمة تنام على كتلة تشبه الصخرة القديمة، في شكل قمع، تستند على قطعة حديديَّة خشنة، وصدئة قليلًا، تستقرّ على محور المفترض أنَّه يدور. حاولت أن

أفهم قيمتها ومعناها. أدركت منذ البداية أنَّها لابدَّ أن تكون ناظورًا لأنَّها كانت موجَّهة صوب البحر. فكَّكتها بصعوبة كبيرة، قطعة قطعة، بعد أسبوع من الجهد المضنيّ. حتى الأجزاء التي اندفنت جزئيًّا في عمق الأرض، حفرت حولها، وأخرجتها ووضعت الكلّ في الماء ومحلول اللَّيمون، كما كنَّا نفعل مع الفضَّة والذهب. وتركتها هناك كمن ينجز خمرة معتَّقة، حتى ذاب الصدأ الذي كان يعلوها، وبدأ اللَّون النُّحاسيّ يظهر واضحًا. بعد أيَّام، غسلت الكلّ في قليل من رماد الفحم محاولًا أن لا أؤذي سطحها النُّحاسيّ، ثمَّ نشَّفتها جيِّدًا بعد أن مرّرت عليها قليلًا من زيت الزيتون الثقيل. نظَّفت قاعدتها جيِّدًا وشَحَّمتها، وأعدت تركيبها كما كانت. دوَّرتها. بدت حركة محورها سهلة جدًّا. عرفت بسرعة جدوى ما قمت به. أحدثت ثقبًا واضحًا في الحائط الذي كان يغطِّي البحر عن محور الآلة. نظرت من وراء الماسورة النُّحاسيَّة، الطويلة، فرأيت السفن قريبة والبحر والموج على بعد شبر منِّي. كلُّ شيء كان على مرمى البصر. وعلى الرَّغم من عمى الزجاجة الأساسيَّة قليلًا، إلَّا أنَّها كانت تظهر حركة السفن قريبة منِّي. انتزعت الزجاجة وذهبت بها عند صنائعيّ على حافَّة البحر، كان يشتغل في ورشة الناظورات من كلّ الأحجام. عندما رآها بدت له كبيرة. توغَّل في محلِّه المليء بالخردوات ليعود بماسورة منظار شبيه، وانتزع منه قطعة الزجاج التي بدت في وضع جيِّد. قال: سترى بها أحسن، لأنَّها ليست مخدوشة وليست عمياء. ركَّبتها بصعوبة، وإذا بالبحر يدخل بيتي بشكل فجائيّ، وإذا بالسفن البعيدة تملأ بصري. كنت أجد متعة خاصّة للراحة بعد تعب اليوم على ظهر السُّفن، أو في محلّ الذهب مع ميمون البلنسيّ. أنزوي وراء الناظور وأتأمَّل البحر بشغف، فأنسى نفسي بسهولة. من موقعي، أدخل في السفن العابرة وأخرج منها كما يحلو لي. أتوغَّل في مدينة غرناطة بلا أيِّ مانع ولا عسس ولا محاكم تفتيش. ولأنِّي خفت عليه من مضار الأمطار، هدمت الحائط القديم.

بنيت له مخبأً سميكًا يحميه من الرُّطوبة والمياه، وجعلت في الفتحة نافذة صغيرة وطويلة عرضيًّا، بزجاج واقٍ من الرياح. كلَّما تأمَّلت البحر، شعرت بدفء العزلة. أصبح المكان مثل بيت الخلوة، الذي يعينني على تحمُّل صعوبات المهاجر وقسوتها.

ربَّما كان الناظور كذبتي التي تريحني، ولكنَّه كان فضائي الأزرق والجميل.

الصدفة هي التي قادتني نحو هذه القطعة الأرضيَّة المطلَّة على البحر والزاحفة دومًا نحوه. لم يكن البيت الريفيّ الخرِب، الذي ورثه الرايس حميد كروغلّي عن والده يهمُّه كثيرًا، ولهذا فكَّر في بيعه. قال لي عندما عرف أنِّي كنت من المرحَّلين، بأنَّه لن يجد مشتريًا أحسن منِّي. قطعة الأرض وما عليها. بيت خرِب وقطعة حديديَّة مرَّ عليها زمن لم تعد تصلح لأيِّ شيء. قال لي:

ـ أنظر يا ابني، إنَّ اللَّـه يحبك! الأرض أرضي والخربة التي بها ملكي. قد ورثتهما عن العائلة، ولا وقت لي لا لحرث الأرض ولا لإصلاح الخربة. لديَّ في عمق القصبة محلّ صياغة يديره ماراني[1] طيِّب، اسمه ميمون البلنسيّ، رجل أمين وصاحب حِرفة. وعرفت أنَّ شغل الذهب حرفَتُكَ أيضًا وحِرْفَة عائلتك. تحتاجني وأحتاجك. تنفِّذ لي طلبات نساء الداي وبناته وحريم الأغوات وسلك البحريَّة والريَّاس، بالنَّقش الذي يريدون على الذهب. تشتغل مع ميمون البلنسيّ. هو مثلك، أيضًا جاء من هناك. أدفع لك قليلًا من راتبك، والجزء الآخر آخذه منك مقابل الأرض والبيت. في نهاية السنة، تصبح مالكًا للتربة وللخربة، إن شئت أعد بناءها أو خرِّبها من أساسها، فهي لا تصلح للشيء الكثير!

---

(1) أصلها الإسبانيّ Los Maranos، وتعني الكلمة يهود الأندلس. مثلما تعني كلمة Los Moriscos، مسلمي الأندلس.

ـ طيِّب، سيِّدي الرايس! ولكنْ كيف نحمي أنفسنا قانونيًّا، أنت تعرف يا سيِّدي أنَّه لا ضامن لنا أمام الموت، لا ندري ماذا تخبِّئ لنا عواقب الدُّنيا؟

ـ بسيطة. معك حقّ. أنا نفسي حياتي على كفّ عفريت. الموت والحياة بيد الخالق، ولا أحد يعلم متى يناديه منادي الغيب. هذا ليس مشكلًا. نكتتب بهذه الصيغة عند قاضي البحَّارة، أعرفه جيِّدًا، تحتفظ أنت بورقة وأحتفظ أنا بثانية، وعندما تنتهي المدَّة نطلب عقد بيع قضائيّ نهائيّ، فتصبح الأرض والخربة ملكك. أعتقد أنَّ أمرًا مثل هذا عادل.

ـ عادل جدًّا. كنت أعرف يا سيِّدي الرايس أنَّك لن تخيِّب ظنِّي. كَرمُك كبير.

ـ حقَّك الكامل.

كان الرايس حميد كروغلّي رجلًا طيِّبًا، وبحَّارًا حقيقيًّا. كثيرًا ما غامر بنفسه لإنقاذ بحّارته. كان يعرف عملي ودرجة إتقانه مثلما يعرف البحر الذي يشمّ خطره أو سلامه، من رياحه الشرقيَّة والغربيَّة، ومن موجه، ومن السماء وعنف روائح ملحه. كثيرًا ما جهَّز سفنه، ثمَّ وقف يتأمَّله طويلًا قبل أن يتَّخذ قراره بإلغاء الرحلة. ويتَّضح فيما بعد أنَّ البحر الذي كان يبدو هادئًا، أصبح بعد ساعات عاصفًا.

كان ذكاؤه وقّادًا وحِيَله كثيرة. عندما تتكاثر الطلبات على ميمون البلنسيّ، ويكون الجوّ ممطرًا أو ضبابيًّا والرياح غربيّة، إمَّا يلغي الخرجة ويحرِّر الجميع من غنيمة البحر المحتملة، أو يحرِّرني من الخروج مع البحّارة ويفرّغني للعمل مع ميمون. يسرِّحني بطريقة سلسة تبدو في شكل عقوبة:

ـ الروخو! أنت اليوم معاقب لأنَّك نمت كثيرًا، أكثر من المعتاد؛ ووصلت متأخِّرًا إلى مكان عملك. لن تخرج معنا في عرض البحر، ولن

تستفيد من الغنائم. شغلك تشحيم المدافع، وفحص المجاذيف، وتحضير أكل البحّارة، وتهيِّئ السَّفينة للخروج. وبعدها أنت حرّ، ميمون البلنسيّ يحتاجك أكثر منّا.

أجهِّز نفسي كما يجب، وأنضمّ لفرق التشحيم وتهيِّئ الأسلحة والمدفعيَّة والسفينة، وفحص ألواح التجذيف، السواري والأشرعة، وكيفية فتحها وحالات أحبالها، والسلالم والسيوف، والتأكُّد من صلاحيَّة كلّ شيء تفاديًا لمفاجآت البحر القاسية. عندما أنجز أعمال الصيانة، أصعد هضبة القصبة لأقضي بقية اليوم بصحبة ميمون البلنسيّ الذي يعمل كثيرًا، ولا يتكلَّم إلَّا قليلًا. يكرِّر دائمًا على مسمعي حكمة الذئب المعروفة:

ـ *اللّي تتكلمه اجريه يا وليدي*. شفت يا الروخو! كلّ صنعة وعندها مولاها، لو لم تكن صاحب حرفة ما قُبلت بسهولة. عندما ننتهي من إنجاز طلبات الذهب، والفضَّة، وترصيع الجوهر في ألبسة أعراس بنات السلطان، وحكّام هذه البلاد الذين يثقون في صنعتنا، يصبح الحديث ممكنًا.

ثمَّ نشرب شايًا مليئًا بالنعناع الحارّ. نتذاكر، ونستعيد بعض ذكريات بلنسيَّة، التي كلَّما ذكرها، دمعت عيناه ولملم بنعومة خيوط الذهب لكي لا تصيبها الدُّموع. يحاول أن ينسى بتغيير حديثه، قبل أن يغرق من جديد في عمله. يحاول أن يخترع الشكل الذي طُلب منه إنجازه، أو يقلِّد قطعة خاصَّة وُضعت أمامه، فينجز شبيهًا لها مع تحسينات أخرى. أساعده في كلّ شيء. كثيرًا ما صحَّحت له المقاسات التي يخطئ فيها في بعض الأحيان. يقول وهو يمسح دمعات هاربة:

ـ أخطر شيء في صنعتنا يا الروخو، هو التكرار. كلّ قطعة يجب أن لا تشبه أختها حتى ولو كانت تشبهها في الشكل. الشبيه لا قيمة له

مطلقًا، لأنَّه مجرَّد نسخة منسوجة. نحتاج إلى لمسة خاصَّة لكي نجعل الذهب يتكلَّم لغة أخرى تعطيه هوية استثنائيَّة، وإلَّا ما قيمة ما نقوم به؟

ثمَّ ينهمك من جديد في عمله، ولا ينتظر حتى ردَّة فعلي. فلا أسمع إلَّا نار التنُّور المشتعلة، وصوت مبرده الرَّقيق وهو ينحت أطراف القطع الذهبيَّة، ثمَّ أراه وهو يلحِّم وينحت إلى أن ينتهي دائمًا بأشكال متقنة الصنع. يزنها بعد ذلك، ويحدِّد قيمتها الفعليَّة قبل أن يضعها في قطن يفرشه لها، ثمَّ يدخلها في الصندوق الخشبيّ الصَّغير الجميل الذي يحمل اسم العائلة أو العروسة. الصناديق الخشبيَّة المختلفة الأحجام يصنعها جاره الذي يقدِّم له طلباته في أوقات متقدِّمة بعد أن يعطيه المواصفات المختلفة، من الخشب العادي حتى الخشب المرصَّع بالعاج، بحسب الزبون وقدراته. حكمة ميمون البلنسيّ كبيرة: *إذا أردت أن تربح جار زبونك، أعطه ما يدهشه حتى ولو خسرت من رأسمالك في المرَّة الأولى*. أعتقد أنَّ الطلبات التي تنهمر عليه، خارج ما يريده منه الرايس حميد كروغلّي، أصبحت كثيرة، وصرنا نبحث عن شاب ثقة، نكوِّنه ويساعدنا في الصنعة.

عندما أنتهي من جهد اليوم، أركض نحو أرضي التي بدأت أشجار الأرز الحلبيّ ترسم حدودها بشكل واضح، ممَّا يقلِّل من أطماع العيون التي تترقَّب كلّ الحركات. وجود الرايس حميد كروغلّي بجانبي يخيف الجميع من الاقتراب من الأرض أو من الخربة، ويحدّ من أطماعهم. أخطر الجشعين هم الانكشاريَّة الذين لا سلطان لهم إلَّا سلطان البطش والقوَّة. نصحني حميد كروغلّي بعدم الاقتراب منهم:

ـ وإذا طمعوا في رزقك، كن صغيرًا وفاوضهم، وإلَّا اخسر وفارق. تفادهم قدر ما تستطيع، أو أخبرني لكي أتدخَّل قبل استفحال الوضع.

بعد سنة لم تكن سيِّئة أبدًا، أصبحت مالكًا حقيقيًّا ليس فقط للخربة، ولكن أيضًا للأرض التي تمتدّ إلى أكثر من فدّان. كان عليَّ إعادة ترتيب كلّ شيء. الصيَّادون الذين كانوا قد حوَّلوا الخربة كما يسمِّيها الرايس حميد كروغلّي، إلى ملجأ لهم، قد انسحبوا نهائيًّا عندما رأوني أعمل بها. ويزيد خوفهم أكثر عندما يرون حميد كروغلِّي وبعض بحَّارته بألبستهم التي تظهر من بعيد. انطفأوا فجأة من المكان.

الخربة بُنيت على بقايا معبد رومانيّ قديم حوَّله المسلمون اللَّاحقون إلى مركز متقدِّم لحراسة السواحل، قبل أن ينشأ بالجوار منه مقام سُمّي الولي سيدي قارة بلال. . فقد كُتب على إحدى صواريه المتبقّية أنَّ اليد التي صنعته هي *يد الحسين ابن أحمد التيجاني*. يؤكِّد على ذلك القوس ذو الانحناءة الخفيفة التي هي أقرب إلى ما هو موجود في مدن إسلاميَّة كثيرة، والكتابات الدِّينيَّة التي أكلتها عوامل الإهمال والرياح والأتربة التي غطَّت كلَّ شيء. حتى عندما رمّمت البيت وأضفت له الكثير، حافظت على الأقواس العربيَّة بكلّ كتاباتها، وعلى الرَّكائز الرومانيَّة القديمة. اعتمدتها كمتكأَت جزئيَّة من الجهة اليمنى للبيت، إذ إنَّ قوَّة مقاومتها كانت كبيرة. الجزء الأرضيّ، يظهر هذا العمود، ممَّا أعطى طابع القدامة على جزء من البيت. حافظت حتى على أشجار الرُّمّان والبرتقال والتفّاح التي وجدتها، وأعدت تقليمها، وغرست بجانبها برتقال بلنسيَّة وليمونها. سلَّمني النقلة ميمون البلنسيّ الذي كان يحتفظ بالكثير منها، وتفّاح المارية، ومسك اللَّيل الأشبيلي، وياسمين غرناطة، والبنفسج البرِّيّ الذي كانت تزخر به جبال البشرات في فصل الربيع.

كانت أشجار الصنوبر الحلبيّ التي أحطتُّ بها البستان، تعطِّر كلّ الأمكنة المحيطة بها، بالخصوص في الصباح عندما تبدأ الأنداء

في الذوبان تحت تأثير الشمس الصباحيَّة الناصعة. الأشجار القديمة، كالرّمّان والبرتقال وزيتون جنوب إيطاليا لم أنزع منها ولا واحدة، ولكنِّي قلَّمتها كلَّها بشكل كامل، طعَّمت بعضها بفروع أخرى من أصل أيبيري، بمساعدة بحَّار من جنوا كان فلَّاحًا قبل أن تحوِّله الظروف إلى بحَّار في سفن حميد كروغلّي. هو من أكَّد لي بيقين غريب، أنَّ الزيتون المغروس هو زيتون جنوا. يعرفه بحجم أوراقه وقامة الشجرة وطبيعة نوّاره وسِمك قشرة الجذع. فقد ساعدني أيضًا على غرس الكرمة التي جئت ببعض فروعها من جار ميمون البلنسيّ، واسمه طملقي، أي طام المالقيّ، أو طام ساكن مالقة، وتنجب عنبًا يسمَّى *بزول العودة*. الحبَّة الواحدة تملأ العين قبل الفم والكأس. هذا النوع من الكروم يحتاج إلى عناية خاصَّة في البداية، ولكنَّه سرعان ما يستقلّ عندما يشتدّ عوده. بسرعة أعطت الكرمة ثمارها الأولى، قبل أن يتحوَّل عنبها إلى أحلى أنواع النبيذ فيما بعد. كنت أعصرها في البيت بمساعدة بحَّار جنوا. كان يعرف كيف ينزعها وكيف يخمِّرها، حتى دفعتني طرائقه إلى التَّفكير في التَّخلِّي عن كلِّ شيء والتفرُّغ للفلاحة. كان يأخذ جزءًا منها الرايس حميد كروغلّي له ولسيِّده حسن فينيزيانو الذي استقبل، في مرَّة من المرَّات، تجَّار البندقية وتجَّار مالطا، بنبيذي الذي استحسنوه كثيرًا.

كلَّما دخلت إلى البستان، بعد تعب العمل اليوميّ، تذكَّرت، بساتين غرناطة. شعرت كأنِّي لم أكن غريبًا. لم تكن تهمّني البحريَّة ولا سوق الذهب بقدر اللَّحظات التي أهرب فيها إلى المكان، وأتخيَّل البيت الذي سأنشئه في الداخل لسلطانة التي لم تساورني لحظة شكّ واحدة، في أنَّها ستأتي، على الرَّغم من أنِّي لم أكن أعرف الطريق الذي ستسلكه تحت ضغط أهلها وخوف الأمواج الخادعة. الوحيد الذي كان يحسّ بألم الفقدان هو أخوها: الدون فريديريكو دي طوليدو.

كلُّ شيء نبت بسرعة، وتعالت الأشجار وبدأت تفصل الحدود بشكل واضح عن غيرها من الأراضي الأخرى. أصبحتُ سيِّد شأني داخل الأرض الطيِّبة.

حاولت أن أسترجع تفاصيل البيت الأندلسيّ كلَّها، كما اكتشفناه أنا وسلطانة لأوَّل مرَّة. كان البيت الموجود على هضبة حيّ البيازين مرتسمًا في رأسي. كان عليَّ أن أجد من يساعدني على إنجازه. أصبحت أفكِّر في الأمر بجدِّيَّة. نصحني ميمون البلنسيّ بمهندس مالطيّ مرتد، بنى الكثير من البيوت في القصبة. ولكنَّه نصحني بعدم تركه يفعل ما يشاء. الرجل طيِّب، ولكنَّه عنادي ومهبول، ينفِّذ شهواته أكثر من شهوات زبائنه. يحبّ الأشياء القديمة جدًّا. يقال إنَّه هو من شيَّد قصر حاكم مالطا قبل أن يُلقيَ عليه القبض أرناؤوط مامي ومعاونه، دالي مامي في أعالي البحار ويطلب فدية مستحيلة. ثمَّ استحلى الرهينة البلاد، ولم يعد يفكِّر في العودة إلى مالطا. زارني المالطيّ العديد من المرَّات. كان يسجِّل ملاحظاته ولا يتكلَّم أبدًا. في فصل الرَّبيع حيث كان كلُّ شيء مليئًا بالحياة، أخذني من يدي وجرَّني حتى الخربة، وسألني:

ـ أين تريد إنشاء بيتك؟

ـ تحت أشجار الرّمَّان، هكذا فكَّرت.

ـ لا. قالها بصرامة. ستخسر جزءًا كبيرًا من الأرض الجميلة وفرصة رؤية البحر بامتلاء. الذين شيَّدوا الخربة لم يكونوا مخطئين. كانوا يريدون رؤية البحر في كلّ الأوقات. وأنت ستفعل ذلك.

تذكَّرت لحظتها كلام ميمون البلنسيّ. ولكنِّي لم أناقضه، لأنَّ كلامه لم يكن سيِّئًا.

ـ بيتك سيكون جميلًا في هذا المكان. أنا أقترح عليك أن تستفيد من الخربة. بدون تهديمها. أن تدعم حيطانها وتنشئ أعمدة أخرى. هذا

الهيكل الرومانيّ قويّ ويعطي روحًا خاصَّة لبيتك، ويربحك وقتًا لا بأس به. ثمَّ إنَّه لا يضرّ بفكرة ما تريد إنشاءه.

في المساء، شرح لي مخطَّط السكن ورسمه بدقَّة بناء على المعطيات التي سلَّمتها له، وبناء على طبيعة المكان الذي كنَّا فيه. استعمل في مخططته جزءًا كبيرًا من الأساس الرُّومانيّ، كركيزة للجهة اليمنى للبيت. كنت في أعماقي أبحث عن كلّ ما يمكنه أن يعطي معنى لمنفاي.

لم أفكِّر في شيء وأنا أقاوم صعاب المدينة، فقد ظللت مشدودًا إلى سلطانة في كلّ ما كنت أفعله. إلى وجهها وعينيها ودمعاتها الأخيرة، إلى حزنها وأشواقها المكسورة. كانت آخر صورة في ميناء المارية، تملأني. لم أيأس يومًا واحدًا من مجيئها. كنت على يقين من أنَّها ستأتي، اليوم... غدًا... بعد غد... سنة... بعد سنوات، ليكن، سأنتظر. شيء ما في داخلي، يصعب تفسيره، كان ينبِّئني بذلك. أحيانًا، في لحظات الخلوة عندما أقف من وراء الناظور، أراها بلباسها الأندلسيّ الفضفاض، ولا أخرج من المقصورة حتى يسحبني النوم أو الإغفاءة الطويلة على تفاصيل وجهها المنكسرة أو السعيدة. هي هي، لم يتغيَّر فيها أيُّ شيء. ضحكتها وسحر قلبها الممتلئ نورًا ولذَّة. رعشات خوفها من الأقدار الخفيَّة. أحلامها التي لا حدود لامتدادها. عندما تنتابني أحزان الفقدان، وتنزل الظلمة على وجهي، أراها معلَّقة في يد رجل آخر. أتمتم بيأس: ألم يكن من الممكن الانتظار قليلًا يا سلطانة؟ ما جدوى اللِّقاء هاهنا في انتظار سفينة لن تصل أبدًا. لم أكن ملاكًا في حياتي، ولكن سلطانة كانت كلّ شيء. حزني وسعادتي، أرضي وفقداني. حبِّي، شوقي، إرادتي القوِّيَّة في الحياة، منفاي وقلقي. كانت حبلي القويّ الذي يشدُّني إلى تلك الأرض التي لم تعد بعيدة، وعزائي الكبير في الفقدان. كنت مدركًا أنَّها هي أيضًا كانت معلَّقة في الهواء مثل النسمة الهاربة. مجروحة في الصميم. وجهها

الطفوليّ لم يغب ولا لحظة واحدة. تحمَّلتُ على مضض أن تسرق منِّي تربتي التي عُجنت فيها، ولكنْ ظللت ملتصقًا بحلم سلطانة الهش.

حينما أتخفَّى داخل المقصورة، وأفتح زجاج الناظور بكلّ طوله، يتراءى لي البحر باتِّساعه وعبث أمواجه، ثمَّ أرى سفن الصدفة التي تدخل في المشهد بدون استئذان، أتخيَّلني داخلها. أقول في خاطري، لكي أخفِّف من شجني وحزني: ربَّما كانت مجرَّد سفن للصيَّادين. ثمَّ فجأة، وبدون سابق إنذار، تتراءى لي سلطانة بابتسامتها الرائقة وهي تتحسَّس أوتار عودها، مع صديقاتها، في بيت خالتها شوشانة، صوت حيّ البيازين النقيّ والصافي، في درب القيصريّات. أميِّز مخارج حروفها المليئة بالسلاسة، وصوتها الصافي والعذب كحفنة ماء. أعرف من أين يأتي، ومن أيَّة خفايا الرّوح يتماهى. أعرف حتى حالته التي هو فيها في عرس صوتي جماعيّ، قبل أن ينفرد عن بقيَّة المجموعة بشكل ناعم ومتواتر، في إيقاع يكاد يكون كنسيًّا.

آه يا مولاي...

شمس العشية غربت واستغربت.

عيني....

في جبال البشرات، وأنا أواجه نيرانًا كنت أعرف، قبل أميري، أنَّها نيران الحرب الخاسرة التي كان علينا خوضها باستحقاق، وبكبرياء الخاسرين، كان صوتها يأتيني متسرِّبًا من بين شقوق الحجارة الباردة والأشجار اليتيمة التي تتخفَّى فيها ظلال العابرين. أسمعه فيملأ خوائي داخل حالة سهو، لا أخرج منها إلَّا عندما ينادي أميري: الدون فردناندو دي كردوبا (محمد بن أميَّة صاحب الأندلس وغرناطة) وهو يحكّ على رأسي بطيبته المعهودة.

ـ شفت يا غاليليو، الدُّنيا في النهاية ليست بكلّ هذا السوء مادامت هذه الجبال تسمح لنا بالهرب من حين لآخر نحو من نحبّ.

أكاد أساله: ما الذي عرَّفك يا سيِّدي بأنِّي منشغل بسلطانة، ثمَّ أفضِّل أن أردّ بما يليق بمقامه.

ـ الدُّنيا صعبة يا مولاي، ولكن... لكلّ شيء ثمن علينا أن نتحمَّله.

ـ لا. لا ترد عليّ كأي عسكريّ بائس. أنا لم أطلب منك ذلك. أعرف جيِّدًا حالة القلب المحروق الذي ترك وراءه أعزّ ما لديه. خلّيك في أحاسيسك الجميلة، فهي أعذب ما فيك.

وقبل أن أعتذر منه وأشكره، يكون قد غاب داخل الجماعة، المحصورة بين الصخور والوديان، يكلِّم هذا، يناقش ذاك، يجلس قليلًا مع أولئك، فقط ليستمع إلى حالاتهم اليائسة أحيانًا. يسأل عن الغائبين ويحزن عندما يخبره الواقفون أنَّ فلانًا قُتل في قلب النار. دافع باستماتة قبل أن يستسلم لأقدار الصدفة التي أصابته وأنقذت غيره. وحين يُذكر أمامه بغضب كبير أنَّ فلانًا هرب والتحق بالمدجَّنين. يهزّ رأسه:

ـ ولو... في النهاية، إذا كنَّا نتفرَّد في الحياة، نحن نتساوى أمام الموت، لا يهمّ... فيفعل الناس ما تمليه عليهم دواخلهم، فهي الأهمّ، ولكنَّ الجبن إرث سيِّئ.

أتذكَّر أنِّي في لحظات الخلوة، كتبت شعرًا كثيرًا عن سلطانة. استرجعت وجهها وملامحها وأنا في عزلة المرتفعات القاسية، لكنَّه كلّه مات مع صوت البارود الذي كان كلَّ يوم يزداد كثافة وقوَّة. لا أتذكَّر منه اليوم الشيء الكثير، بل لا أتذكَّر شيئًا منه. ربَّما لأنَّه لم يكن شعرًا أصلًا، أو لم يكن في مقامها. ربَّما كانت أبياتًا استعرتها من أصحابها في لحظات الغفلة، وعندما عادت لي كلّ حواسي، عرفت قائليها الأصليِّين. مجتزأَت من مأثورات قديمة سَرَقتها ذاكرتي من الكتب التي كانت تمرّ كلّ يوم على يدي وأنا أفلِّي المخطوطات التي هرَّبها الرجال العابرون. ربَّما...

* * *

الورقة الخامسة

نشوء البيت الأندلسيّ على هضبة القصبة المحروسة.
حكاية عودة لالة سلطانة من منفاها مع أخيها دون فريديريكو دي طوليدو.
ولقاء الجميع مع السفير الدانمركي وزوجته وأخته العاشقة.
أسرار أوَّل ليلة عشق بعد غياب طويل،
وقصَّة النافورة الفينيسيَّة في صحن البيت.

... اليوم[1] ربيعي. يوم العمر.

---

(1) في الكرّاسة التي تشكِّل الورقة الخامسة، هناك بعض الصفرة التي تعمَّقت في بعض المواقع، حتى محت الكثير من الكلمات، لكن بعض الأحرف المتبقية والمعنى، أنقذ الكلمة، إذ يمكن ببساطة معرفتها. لكن يبدو أنَّ الصفرة تتقدَّم على الورقة وتزحف في اتِّجاه التهام بقية حروف الكلمة. في بعض المواقع تبدو جليًّا اليد التي كتبت فوق الحرف الأصليّ ممّا شوَّه الوثيقة، لأنَّ شكل الأبجديَّة اختلف. على الرَّغم من أنَّ اليد حاولت أن تتبع نفس دوائر الحرف الأصليّ عندما يكون هذا الأخير موجودًا جزئيًّا، لكنَّه عندما يغيب تحت اللَّطخة، تستعمل أبجديَّتها ويغيب تمامًا الخطّ المغربيّ الأندلسيّ الأصليّ، المقوَّس الحروف والمعقوف الجوانب. لا ندري إذا كان سبب اللَّطخة راجع للرطوبة أم لحشرة الورق، أم للحرق الذي طال المخطوطة (ماسيكا).

أريد أن أتريَّث قليلًا، وأن أملأ صدري بالهواء، لأنِّي كلَّما تذكَّرت الحادثة لا أنسى أبدًا لحظة السعادة التي كادت تخنقني. كلّ ما سأرويه عرفته لاحقًا. عندما وقفت وجهًا لوجه أمام أجمل فتنة لا أدري كيف أسمِّيها: الصدفة أم الحظّ؟

وصل الدون فرديريكو دي طوليدو، في زيارة تفاوضيَّة مع الأتراك لإطلاق سراح بعض الرهائن، قادمًا من وهران. طلب رؤيتي بوسيط كان يعرف جدِّيًّا مكاني في الميناء أو عند ميمون البلنسيّ. كنت سعيدًا أنَّه لم ينس عشرتنا في غرناطة حتى وإن كان هو وعائلته قد اختاروا التدجين. كان بي شوق عارم فقط لسؤاله عن سلطانة. عن حياتها ووضعها، ومآلها؟ وكنت أدرك سلفًا أنَّه سيفهم مقاصد أسئلتي. هيَّأت نفسي لكلّ الاحتمالات حتى أسوأها، لكي لا أموت قهرًا. حتى إنِّي بدأت أفكِّر في العودة سباحة أو التشبُّث بأيَّة عبّارة تزحف نحو السواحل الأيبيريَّة. لكنْ في أعماقي كنت مرتاحًا، فأنا أعرف جرأة ورزانة الدون فرديريكو. فقد كان شخصيَّة قادرة على الإقناع بشكل كبير، وربَّما لهذا السبب اختاره الأسبان لهذه المهمَّة. يتقن العديد من اللُّغات: الإيطاليَّة، القشتاليَّة، العربيَّة والعبريَّة، الدانمركيَّة، وقليلًا من الجرمانيَّة والإنجليزيَّة. ثقافة واسعة وذكاء يفيض من عينيه، وسماحة غريبة ترتسم على وجهه من نطقه للكلمة الأولى. هناك نوع من الناس ليسوا في حاجة إلى أن يرفعوا أصواتهم لكي نصدِّقهم أو نأخذهم مأخذ الجدّ. نظراتهم الطيِّبة والصافية تكفي. كان قادرًا على إقناع الأتراك بإطلاق سراح الرهائن، ولهذا اختارته حاشية الملك ليكون مفاوضًا، على الرَّغم من أنَّهم يعرفون جيِّدًا أنَّه ماراني، وأهله الأوائل من الكونفرسوس[1] الذين كان يُحرَّم الحديث معهم. كان له حظّ غريب، ولا

---

(1) من اللفظة الإسبانية Conversos، أي المرتدُّون، الذين تخلُّوا عن دينهم الأصلي، واعتنقوا المسيحية.

أحد يعرف الأسباب. لم نعرف ظروف التقرُّب الغريب وصعوده السريع في السلَّم الإداري، على الرَّغم من أنَّنا كنَّا نقطن في الحيّ نفسه، نخدم مع صنَّاع الذهب من أهله وأهلي. كنت أتفوَّق عليه بالعمل في المكتبة التي لم تكن تعيلني، ولكنَّها كانت تمنح لي حياة الراحة والتأمُّل التي أفتقدها اليوم. وكان يتجاوزني برزانته وهدوئه وعمله الخفيّ. لم يكن أحد يعرف ما كان يقوم به في سفراته التي لا تتوقَّف طوال السنة إلى طليطلة، ولهذا سمِّي فريديريكو دي طوليدو. لا أدري أيَّة حاسة شمّ قادته نحوي، ولكنَّه وجد مكان إقامتي كما حكى لي فيما بعد بالتَّفصيل، لأنَّه كان مصمِّمًا على رؤيتي قبل العودة. أدركت في وقت لاحق، السَّبب الحيوي الذي جعله يسخِّر كلّ وسائل السفارة الدانمركيَّة التي كانت وسيطًا في المفاوضات، ليصل إلى مخبئي، في عمق القصبة. المؤكَّد أنَّ الإشارات التي كنت أبعثها مع المسافرين والعابرين والمغامرين، شحذت حواس شمّه وأوصلته إليَّ.

كلُّ شيء بدأ بشكوك غريبة وخوف كان ينتابني كلَّما دُعيت إلى مكان معيَّن، غير الميناء والقصبة والبستان. حتى مع الرايس حميد كروغلّي المتقلِّب المزاج. لم أعرف سبب دعوة السفارة الدانمركيَّة. قيل لي فقط إنَّ شخصًا جاء من شبه الجزيرة الأيبيريَّة ويريد أن يراني. ظننتها كذبة انكشاريَّة يريدون بموجبها قتلي، والاستيلاء على أرضي التي أصبحت فيها أشجار اللّوز منوَّرة، لكنَّ حماية الرايس كروغلّي وسلطته، وطيبته أيضًا، كانت تعطيني بعض الإحساس بالرَّاحة الداخليَّة. القصص التي كنت أسمعها من هنا وهناك ومن بعض البحَّارة، كانت تذهل وتخيف من كثرة الظلم والقسوة الممارسة على الناس. كنت دائمًا أقول لنفسي وأنا في غاية الحيرة: هؤلاء الذين كانوا يعيِّنون حاكمًا في الصباح، ويأكلون رأسه في اللَّيلة نفسها أو في اليوم الموالي، لن أصعب عليهم مطلقًا. مجرَّد لقمة! كنت أدفع ضرائبي، ولا أترك ذرَّة من الشكّ تحوم

حول عملي وممتلكاتي، ممَّا كان يعطيني إحساسًا بجدوى ما كنت أقوم به. ومع ذلك، كان سندي الأكبر هو الرايس كروغلّي، وإلَّا ما تجرَّأت على التفكير في البقاء وشراء الأرض التي سرقت جهدي بلذَّة. لم يكن أمامي من حلّ سوى الذهاب إلى الموعد. أغمضت عينيَّ، وقلت في خاطري: إذا كان الموت قد حضر، فلا قوَّة في الدُّنيا تستطيع تأخيره أو تقديمه. أخذني المبعوثان في المساء حتى السفارة الدانمركية التي لم تكن بعيدة كثيرًا. يبدو أنَّهم لا يكنُّون حبًّا كبيرًا للأتراك، إذ شعرت أنَّهم يريدون أن يظلّ كلّ ما جرى سرًّا.

كانت إقامة السفير واسعة. مطلَّة على البحر، وسط غابة من الأشجار العملاقة التي شكَّلت حولها غطاءً جميلًا من الصفصاف العملاق والصنوبر الحلبيّ. استقبلتني حاشية من أشخاص عديدين، من خدم وعمال داخليِّين، ألبستهم نقيَّة ومطرَّزة، ووجوههم حليقة. قادوني نحو المغسل. غسَّلت، ثمَّ نشَّفت يديَّ. جاءتني امرأة أنيقة قالت إنَّ اسمها عتاب. استغربت من الاسم قليلًا، ابتسمت ولم أعلِّق. ضيَّفتني من ركوة نحاسيَّة على كأس قهوةً عربيَّة، ثمَّ انسحبت بدون أن تغادرها ابتسامتها. شربت القهوة وجلست أنتظر. جاءني بعدها رجل طويل القامة، وبجانبه امرأة أنيقة ومترجم. سألني أيَّة لغة أتكلَّم. قلت القشتاليَّة، العبريَّة والعربيَّة، وقليلًا من التركيَّة. هزَّ رأسه بلا استغراب. ثمَّ قال:

ـ جيِّد. نتحدَّث بالإسبانيَّة أسهل لي ولك.

وافقت على مقترحه. قال وهو يحاول أن يجد الكلمات المناسبة:

ـ يسعدني سيِّد غاليليو الروخو، أن أقدِّم لك شخصًا تعرفه، وهو مَن طلبك، وهو هنا في مهمَّة رسميَّة. لابدَّ أنَّك تعرفه جيِّدًا. الدون فريديريكو دي طوليدو.

هززت رأسي بأن نعم، وتركت بشائر السعادة ترتسم على وجهي. ثمَّ تمتمت بكلمات لا أدري كيف خرجت من شدَّة عنف اللَّحظة التي أسرتني.

ـ الدون فرديريكو دي طوليدو، أخي وحبيبي.

كان في ذهني سؤال واحد: أرجوك طمئنّي عن سلطانة؟ لكنَّ السؤال الخفيّ الذي يأكلني من الداخل منذ أن حللت بهذه الأرض، وكنت الوحيد الذي يعرف شططه وقسوته: أما زالت سلطانة تنتظرني على هضاب البيازين، وحواف ميناء المارية، أم تزوَّجت ذهَّابًا غنِّيًا، أو تروبادورًا هائمًا تائهًا في المدن التي يعبرها يوميًّا، ونست كلّ شيء؟ ما كان يطمئنني هو سؤاله عنِّي منذ أن وصل إلى المحروسة. رأيت فقط الوجه الإيجابيّ للسؤال. لكنْ كان له أيضًا جانب خفيّ وأسود: ربَّما أنَّ ضمير سلطانة عذَّبها، وجاء ليخبرني بأن أهتمّ بحالي ولا أبقى منتظرًا وراء حافَّة مجنونة، وحافَّة مستحيلة العودة لها.

دخل الدون فرديريكو دي طوليدو. هو هو لم يتغيَّر إلَّا قليلًا. فقد زادت أناقته أكثر، وسَمِنَ قليلًا. زادت كلماته تألُّقًا. عندما يحادث شخصًا، يبحث له عن المقام المناسب، ثمَّ اللُّغة الطيِّعة التي توصل لباقته وتقديره، ثمَّ الحركات المصاحبة. لكنَّه عندما رآني، نسي نفسه أمام السفير. وعندما تفطَّن، اعتذر.

ـ عذرًا يا سيِّدي السَّفير، غاليليو أكثر من أخي. ضيَّعته في بحر الموت، وها أنا أجده مرَّة أخرى. حزنت يومها لأنِّي لم أستطع فعل أيّ شيء من أجله. العمى بلغ درجة أصبح من المستحيل بعدها فعل الكثير. حاولت أن أصل حتى الملك، لأقنعه بالتدخُّل لصالحه، ولكنِّي لم أستطع. على كلّ حال، حتى هو لم يكن ليِّنًا، فقد ركب رأسه ولم يسمع إلَّا لجنونه ونداءات جبل البشرات.

قالها بنوع من الحسرة وهو يضغط على كتفي بعد أن احتضنني طويلًا.

ـ الحروب مدمِّرة للجميع وقاسية.

علّق السفير.

ـ نعم يا سيِّدي، الحروب قاسية وقاتلة. جرح كبير ومفتوح على النار. لم يتركوا لنا أيّ خيار. كانوا مصمِّمين على رمينا، سواء تعقَّلنا أم لم نتعقَّل، فقد كان محكومًا علينا بالطرد من تلك الأرض التي بَدَوْنا عليها فجأة ككائنات غريبة يجب أن تباد أو تُرمى في البحر. يكثِّر خيرهم أنَّهم تركونا، أو تركوا بعضنا أحياء وإلَّا... الكثير منَّا لم يكن لهم هذا الحظّ، أو لنقل لم تسعفهم الصدفة التي كانت بجانبنا.

ـ المهمّ أنَّك بخير والتقيتما.

ردّ السَّفير وهو يدعونا بلباقة إلى الجلوس.

لم يقل ولا كلمة عن سلطانة. خفت أن أكون أنا البادئ بسؤالي المعلَّق في حلقي غصَّة خانقة. أخبرني بأنّ كلّ مدخَّراتي وذهبي ونقودي الذي تركته في حمايته، موجودة بالسفارة الدانمركيَّة مقابل وصل يحمي حقِّي في الملكيَّة، وأستطيع أن أستلمها متى شئت. سلَّمني السّفير وثيقة عليها توقيعه الشخصيّ وختم السفارة، تؤكِّد على وجود كلّ المدخَّرات لديهم.

ـ هذه حماية لك، قال السفير مرَّة أخرى، حتى في حالة مغادرتي البلد، أو الوفاة، بإمكانك استلام أموالك متى شئت بلا أدنى مبرّر. نحن لسنا في النهاية إلَّا وسيط خير. نعرف الظروف جيِّدًا.

ـ شكرًا.. تمتمت. شكرًا سيِّدي.

قد يبدو الأمر غريبًا، لكنِّي لم أكن معنيًّا بكلّ تلك الإجراءات والاحتياطات، فقد صنعت حياتي، ووجدت مسلكي الذي كان يمنحني حياة طيِّبة. أسئلتي الحقيقيَّة التي ظللت أخنقها لكي لا تطير من حنجرتي كالطيور الجريحة، هي التي كانت تعذِّبني. سلطااااااانة؟!

سألني السفير، وهو يقرأ حيرتي في ملامحي التي لم تكن مرتاحة ونظراتي الزائغة، وغياب حماسي فيما يتعلَّق بمالي. زاد خوفي. فهمت أنَّ عودة المال إليَّ، معناها فكّ الروابط، والخسارة الفادحة، وقرنت الكلّ بنهاية العلاقة بيني وبين سلطانة التي لم تعد في حاجة إلى ذلك، بعد أن ارتبطت بشخص آخر يعيلها ويحبُّها:

- هل برأسك شيء آخر؟

كرَّر السفير مرَّة أخرى.

لم أفكِّر كثيرًا، لأنِّي كنت قد وصلت إلى حدودي القصوى من الصبر.

- تعبت يا سيِّدي، وعليَّ أن أُخرج ما في قلبي. تحمَّل قلَّة ذوقي. أشتهي يا سيِّدي فقط أن يُفرج الدون فرديريكو عن قلبي، وبصري وروحي هناك. لم يسرقوا منِّي تربة، هذه تهون لأنَّ أرض اللَّـه واسعة، لكنَّهم سرقوا منِّي نداء عميقًا نحو الحياة، وكتموه يا سيِّدي وهو في عزّ عنفوانه.

سبقتني دمعات لم أستطع مقاومتها.

- سلطانة يا سيِّدي، لا قيمة للمال وأملاك الدُّنيا بلا سيِّدة الرُّوح والمحتلَّة لعشّ القلب. أشتهي فقط أن أساله عن حالها. أخاف أن تكون هي أيضًا انطفأت في دنيا الخوف والحروب القاتلة. اشتقت إلى صوتها، حنينها، وجهها. اشتقت إلى لمستها، همسها، غمزاتها. هل تعرف يا سيِّدي أنَّ وجودها هو من أعطاني القدرة على الصبر والمقاومة. لو تعرف

يا سيِّدي، ما تستطيع امرأة أن تفعله فينا؟ وجودي إلى اليوم حيًّا، يعود لها. فقد عشت معلَّقًا على حلم أن تأتي هي أو أذهب أنا نحوها، في أيَّة أرض أخرى أكثر رحمة، تقبل أن تحضن قلبين مسالمين! لا معنى للأرض التي اشتريت، ولا البيت الذي حلمت به بدون وجودها. هذا هو تعبيري الوحيد عن وفائي لامرأة لم تمنحني الحبّ فقط، ولكن الحياة أيضًا.

ـ أفهمك جيِّدًا. ومع ذلك إذا احتجت لمهندسين أكفَّاء يمكننا أن نساعدك على ذلك.

ـ اتَّفقت مع المالطي.

ـ حسنًا فعلت. شخصيَّة كبيرة على الرَّغم من جنونها.

ـ في قلب كلّ فنان شيء من الهبل والجنون، وإلَّا سيكون إنسانًا عاديًّا ومسطَّحًا.

عندما تدخَّل فريديريكو الذي ظلَّ صامتًا طوال فترة صراخي الداخلي، شعرت بأنَّ روحي المفقودة، التي تبعثرت كالرَّماد في الفضاء الفارغ، قد عادت تتدفَّق من جديد كنهر جافّ فاجأته مياه الوديان الصغيرة.

ـ غاليليو، لا تهتمّ، لقد جئتك بخرائط بيتك الذي رأيته أنت وسلطانة، التي منحها لكم الرجل، صاحب البيت الأندلسيّ. يمكنك الآن أن تبنيه براحة، ما دام المال موجودًا، ولن تضطرّ إلى التقتير على نفسك.

ـ لبيتي الأندلسيّ معنى واحد اسمه سلطانة.

ـ لا تهتمّ... لا تهتمّ... كلُّه خير... لا تهتمّ.

كرَّرها العديد من المرَّات.

صمتّ قليلًا ولكنِّي لم أستطع، إذ شعرت بحرارة الموت تصعد من داخلي.

ـ تعرف يا فريديريكو، الفرق بيننا وبين الذي يدير شؤون الدولة هو، أنَّنا لا نفكِّر كثيرًا عندما يلبسنا العشق. نضيِّع ملكة الحساب ويصبح رهاننا شخصًا واحدًا ووحيدًا. العالم كلُّه يُختزل في ابتسامة أو في فرحة هاربة، أو في شوق ينزلق بين الأكفّ. بينما يظلّ الحاكم، أو من يدور في دائرته، يقلِّب كلّ شيء، حتى التفاصيل الصغيرة، قبل أن ينطق.

ـ عذرًا، أفهم من هذا أنَّك ما زلت متعلِّقًا بسلطانة بعد كلّ هذا الزمن؟

ـ أحبّ سلطانة؟ ياه ما أبعدك عن الصواب يا فريديريكو. أحتاج إلى نحت كلمات أخرى للتَّعبير عن حرائقي الداخليَّة، عن بحري الذي ينام فيها بكلّ جبروته.

ـ أيّ حظ أنَّكما مازلتما قادرين على كلّ هذا الصفاء. هي أيضًا تتشبَّث بأيَّة فرصة. أنا متأكِّد من أنَّها ستقطع البحر وتأتيك. لقد رفضت كلّ العروض ومصمِّمة أن تتقاسم معك وحدتك.

ـ يااااه! كم أخفتني! لا تدري أنِّي كنت مذعورًا وخائفًا من أن أكون قد فقدتها إلى الأبد! أعرف أنَّها عنيدة أكثر منِّي، ربَّما لهذا السَّبب أحببنا بعضنا بعضًا. إذ أراك كأنِّي أراها. ألمسك، كأنَّ في دمك شيئًا من روحها. أكاد أقول لك أشمّ رائحتها فيك.

سحبنا السفير بعد ذلك نحو فضاء أوسع لساحة خلفيَّة.

ـ ما دمت مشتاقًا للأندلس، سنسمعك إيقاعًا جميلًا يعيدك إلى الزمن الهارب.

ـ شكرًا يا سيِّدي.

جلسنا في الزاوية الأنيقة المظلَّلة بأغطية وزربيات كثيرة الألوان. رشَّ علينا أحد الخدم ماء الزهر، فانبعثت منه رائحته عطَّرت المكان كلَّه.

كانت النافورة المواجهة لنا قد بدأت تقذف بمائها الذي لوَّنته القناديل المشتعلة والشموع التي كانت تحيط بالحوش بكامله في شكل منظَّم جدًّا. سمعنا إيقاعات المياه الناعمة كأنَّها أمطار شتويَّة دافئة. كانت الفرقة قد اتَّخذت مواقعها مقابلنا، على الأفرشة التي كان يغطِّيها سجاد ندرومة وتلمسان وفاس. عرفت ذلك من الرُّسومات والخطوط الخاصَّة. تجلَّت رائحة الياسمين، ثمَّ انتشرت شيئًا فشيئًا قادمة من وراء حيطان السفارة. شعرت فجأة بدوار كبير في رأسي. الغريب أنِّي في لحظة صَعُبَ عليَّ الإمساك بها، شعرت بنفسي في غرناطة، في بيت شوشانة، خالة سلطانة. التحضيرات نفسها، وتكاد تكون الوجوه نفسها لولا الظلال الخفيفة التي تخبِّئها. ومع ذلك، شممت عطر سلطانة. كدت أصرخ لولا تعقُّلي: سلطانة هنا. سلطانة فيَّ. سلطانة قريبة منِّي كظلِّي. لو كنت قد شربت كثيرًا لافترضت أنَّ جنون الشرب استفحل فيَّ، ولكنْ لا شيء من ذلك. تذكَّرت فجأة أنِّي قضيت معها الظهيرة بكاملها، عندما نسيت نفسي وراء الناظور، حتى غياب الشمس. كانت رائقة، ولكنَّها لم تستطع أن تخفي حزن عينيها.

سألني السفير وفريديريكو في آن واحد، وكأنَّهما اتفقا على السؤال نفسه:

ـ هل أنت مرتاح.

ـ جدًّا. شدَّة الشوق أشعرتني بشيء غريب رماني بعيدًا. شممت رائحة سلطانة.

قرأت الدَّهشة في عيونهم جميعًا.

كنَّا جالسين، نحن الخمسة: السفير وزوجته وأخته الكبرى، التي زارت هذه الأرض أوَّل مرَّة مرافقة لأخيها فأصيبت بعدواها، فبقيت فيها؛

ثمَّ أنا والدون فريديريكو. لم تتوقَّف السيِّدة العاشقة عن مدح القصبة وأسواقها وحافَّة بحرها وناسها الطيِّبين وبيوتها الجميلة.

قبالتنا في الزاوية التي غطَّتها الظلال، كانت فرقة العزف النسائيَّة قد استكملت عددها واستعدَّت للنوبة الأولى. كانت الوصلة خفيفة. جماعيَّة، على إيقاع واحد، لم تتسابق فيها الأصوات، ولكنَّها ظلَّت في حركة جماعيَّة حتى من حيث العزف. ثمَّ فجأة، في النوبة الثانية، ارتفع الصوت بشكل أنينيّ ممزوجًا بالخوف والغياب، على إيقاع رمل الماية. كنت دائمًا أحبُّه وهو نقطة ضعفي. فيه يمتزج كلُّ شيء، شفافيَّة الفقدان، خيبة الحاضر وهشاشة اللِّقاء. فجأة، سمعت صوتًا متميِّزًا كأنَّه كان يخرج من جرح في القلب. أدركت بدقَّة سرَّه الباطنيَّ. لا يمكن أن أخطئ فيه، ومع ذلك؟ ثمَّ بدأ الصوت يتهادى شيئًا فشيئًا. دخلت امرأة ممشوقة القامة، تضع على رأسها شالًا بلون تدرُّجات البنفسجيّ، محاطة بامرأتين تبثَّان البخور من آنيتين نحاسيَّتين. أغمضت عينيَّ لكي لا أموت مختنقًا بعبرة الفقدان. انتابني بقوَّة وجه شوشانة وجلساتها الناعمة وسلطانة سيِّدة الصوت والأمكنة. كلّ هذه الطقوس سبق أن عشتها بكلِّ تفاصيلها. زادت النداءات الداخليَّة، فأغمضت عينيَّ لكي لا أُجنّ، وأسمع نشيج المرأة ذات الشال البنفسجيّ. صرخت: لا يمكن.. ولم أستطع كتم صوتي أمام من كان بجانبي:

ـ سبحان اللّـه، كأنَّها سلطانة! قامتها! حركتها! طقوسها!

بدأت الكلمات تملأني، فقد كنت أحفظها عن ظهر قلب من كثرة ما غنَّتها لي سلطانة.

شمس العشية

غربت واستغربت،

عيني يا....

لم أستطع. قمت من مكاني، شعرت بقلبي في غير مكانه. وقبل أن أصرخ: أعيدي الوصلة، أرجوك. أعادتها بتثاقل ونعومة مغرية مثلما كانت تفعل سلطانة في لحظات الانتشاء عندما تخرج صديقاتها اللَّواتي كنَّ يكوِّنَّ الفرقة، وتعود إلى الأغنية تقطِّع أجزاءها الصغيرة، مع بحَّة مجروحة في خاتمة الكلمة الأخيرة.

كنت قلقًا وفي غير حالتي الطبيعيَّة. نسيت كلَّ من حولي.

ـ لا. لا يا فريديريكو. لا يمكن لأذنيَّ وقلبي أن يكذبوا، وإلَّا فأنا نسيت كلّ شيء. هذا عزف لالة سلطانة ولا أحد غيرها، وهذا الأنين لن يكون إلَّا لها.

ـ هل أنت على يقين ممَّا تقوله؟

ـ لا تشكِّكني في كياني.

كلامه ألهب مشاعري وزاد يقيني أنِّي لم أكن مخطئًا. نسيت كلًّا من السفير وأخته التي كانت تحاول أن تسألني بنعومة عن رأيي في المدينة وفي ناسها. اتَّجهت مباشرة نحو المغنِّية التي كان الشال ذو التدرُّجات البنفسجيَّة يغطِّي وجهها. كانت ما تزال تغنِّي. كلَّما اقتربت منها سحبني عطرها نحوها. عندما أصبحت أسمع أنفاسها المتقطِّعة، وضعتِ العود على الوسادة، ثمَّ قامت. الفرقة المصاحبة لها لم تتوقَّف عن العزف. رفعت الحجاب البنفسجيّ من على وجهها. وضعتُ يدي على فمي لكي لا أصرخ. سلطانة. شعرت بدوار ينتابني لأوَّل مرَّة بتلك اللَّذة. عادت كلُّ الأيَّام الجميلة ركضًا واخترقتني كالسهم الحارق. لا أدري إلى اليوم ماذا فعلت، ولا وماذا حدث لي وقتها، كأنِّي استعدتُ بصري الذي ضاع منِّي زمنًا طويلًا. لا أتذكَّر سوى أنَّها أخذتني من يدي وجرَّتني وراءها

نحو سطح البناية كخبيرة بحواشي المكان، مقابل البحر، وصلبتني على الحائط كالمسيح القتيل، ثمَّ تهاوت وهي تبكي. كلُّ شيء كان ساكنًا لم أسمع إلَّا هسهسة الصفصاف العملاق، وتمزُّق الموج القريب، ونشيجها المتقطِّع الذي استمرَّ طويلًا على صدري. عندما فتحت عينيَّ، خفت أن يكون كلّ ما حدث لي مجرَّد استيهامات الناظور. تلمَّستها. تحسَّستها. شممت عطرها. مصصت شفتيها. لثمت عينيها المائلتين كعينيْ غجريَّة. هي. كانت هنا، ملتصقة بي، بلحمها ودمها.

لا أدري كم طال بنا الزمن، لم نكن قادريْن على الكلام.

استجمعتْ كلّ قواها، وهمستْ:

ـ حبيبي، لنا كلّ العمر، نعود. الجماعة ينتظروننا.

ـ نعود عمري.

لم أسالها أيَّ سؤال. لساني اندفن في حلقي. كنت عاجزًا عن الكلام. ربَّما لأنَّ الوقت لم يكن مناسبًا. انتابني سؤال آخر، هل جاءت فقط لرؤيتي، أم للبقاء معي؟ ربَّما لأنِّي كنت خائفًا من الإجابات التي كان يمكن أن ترميني نحو فراغ جديد، ولهذا صمتُّ.

كانت الفرقة الموسيقيَّة النسائيَّة ما تزال تعزف وَصْلاتها المتتالية. رأيت أخت السفير تبكي عندما انضممنا للجماعة. تمنَّيت أن أسألها هل ذكَّرناها بشيء قاس، لنعتذر لهشاشتها المفرطة، ولكنَّها انسحبت نحو المغسلة قبل أن يعود لها إشراقها على الرَّغم من علامات السنّ القاسية. اقتربتْ من سلطانة. سمعت همسها. كان يأتيني بنعومته:

ـ عندما رأيتكما مع بعض تأكَّد لي أنَّ الدُّنيا ظالمة، ولكنْ لا قوَّة في الدُّنيا تستطع أن تمنع قلبين من أن يتحابَّا. من فرَّقكما كان قاتلًا غبيًّا. أنا أيضًا...

ثمَّ غرقت في قصَّتها الخاصَّة، فهمت منها أنَّها هي أيضًا جاءت إلى هذه البلاد سائحة، فوجدت نفسها في دوَّامة موجة من الحبّ لم تستطع أبدًا مقاومتها، ولولا الطاعون القاتل لاستمرَّت طويلًا، ولهذا هي حزينة دومًا، لكنَّها كلَّما رأت عاشقين تأكَّد لها أنَّ الدُّنيا ما تزال بخير.

سألني الدون فرديريكو دي طوليدو، بعد العشاء، مبتسمًا:

ـ هل لك مكان تسكِّنها فيه؟

لم أفكِّر ولم أبحث عن جملي. قلتها ببراءة طفل..

ـ أجمل مكان. قلبي وفي عينيَّ.

صمتُّ قليلًا، ثمَّ واصلت:

ـ فقدنا كلَّ شيء، ولم نفقد حقَّنا في الحياة. أنا مقيم مؤقتًا في القصبة القديمة ريثما أنتهي من بيتي. سيكون عشّنا الأندلسيّ أنا وسلطانة. سنبني البيت المشتهى، كما أردناه، وكما رأيناه في ذلك اليوم ونحن نعبر حيّ البيازين دربًا دربًا، وهضبة هضبة. هل تعرف يا دون فريديريكو أنِّي مازلت إلى اليوم أتذكَّر ذلك البيت الأندلسيَّ الذي زرته أنا وسلطانة، على هضبة غرناطة الكبرى؟ لقد هبلني المهندس المالطي وهبلته حتى انصاع لي في النهاية. قال لي أنت الوحيد في هذه المدينة الذي أملى عليَّ شروطه القاسية، خصوصًا عندما عرف أنِّي أبنيه لامرأة لم أكن أعرف إذا كانت ما تزال ملتصقة بحلم شيَّدناه مع بعض أم اندثر كلُّ شيء، بما في ذلك أشواقنا الصغيرة التي كُسرت وهي في عزِّها. لم يكن لي أيُّ تصوُّر علميٍّ، عن البيت، ولكنِّي كلَّما حدَّثته عنه، كنت أراه. بفضل جهوده العظيمة وحنكته، ووصفي الدَّقيق، جعلني أراه وجعلته يلمسه. أدخلته في مخِّه حتى أصبح يتصوَّره مثلي، وأكثر. مع الخطط التي جئتني بها، سأسهِّل من مهمَّته.

ـ ألا تخاف على نفسك من الريَّاس والانكشاريَّة؟

قال السفير الذي كان منهمكًا بقصَّة أخته، وغناء الفرقة النسائيَّة.

ـ تعلَّمت حكمة كبيرة في هذه المدينة: *حاول أن تظلّ صغيرًا ولا تتركهم ينتبهون لذكائك*. كلَّما تحدَّثوا عنك قالوا ذاك الحِرفيّ الذي يعمل عند فلان. الفلان هو حمايتك أو بلاؤك، بحسب الأوضاع. لكنْ في النهاية، هذه الأرض تحبّ أيضًا من يحبُّها. على الرَّغم من قسوة الريَّاس والانكشاريَّة والحكَّام، إلَّا أنَّها ليست بكلّ ذلك السُّوء الذي نسمع عنه. يكفي أن يأخذوا حصصهم وضرائبهم، حتى يستقيم كلّ شيء. صحيح أنَّ انكشاريَّتها جشعون، ولكنَّهم يخافون أيضًا من الذين يملكون حقّ الشكوى ضدَّهم. سيدي حميد كروغلّي الذي أشتغل في سفنه ومحلِّه في القصبة، له سطوة كبيرة وقريب من حسن فينيزيانو، ولهذا لا يقربون أبدًا بحَّارته وعماله وأملاكه.

ـ على كلٍّ إذا احتجت إلى أيّ شخص يساعد المالطيّ أو يساعدك على إتمام مشروعك، نحن في الخدمة. لدينا مختصُّون يمكن أن يفيدوك.

ـ شكرًا كثيرًا. يكثِّر خيركم يا سيِّدي.

ليلتها بتنا في السفارة. أعطونا جناحًا جميلًا كان ينفتح على الحديقة. عندما أردت أن أسالها عمَّا قاسته طوال الزمن الماضي، وضعت أصابعها الناعمة على شفتيَّ، وهمست وهي على صدري:

ـ ششششششت. ليس هذا وقته. أريد اللَّيلة أن لا أفكِّر في أيِّ شيء آخر سواك. أنت، كما اشتهيتك، وكما حلمت بك. وأن لا تفكِّر في أيِّ ألم إلَّا في ما يمكن أن أمنحه لك من حبّ وجنون.

كان الخدم قد حضَّروا لنا حمَّامًا ساخنًا ثمَّ انسحبوا. دخلت في المغطس الحجريّ الساخن، بينما ظلَّت سلطانة تنزع ثيابها، قطعة قطعة.

كان جسدها مضيئًا كحفنة نور منفلت من أيَّة سيطرة. كانت كأنَّها تمثال من شمع. إنَّ اليد التي صنعتها مكثت فيها زمنًا طويلًا لكي لا تترك أيّ خلل يشين الجسد. عندما سحبت شعرها وراءها، بان نهداها، تفَّاحتان بحجم فراغ الكفّ. حلمتان برأسين صغيرين، كلَّما لمستهما شفتا العاشق زادتا من اشتعالهما. ضحكتْ:

ـ يجب أن تغمض عينيك.

ـ سأظلّ هكذا، أملأ عينيَّ بك، حتى ولو قادني نظري إلى جهنَّم.

ثمَّ جاءت معي نحو المغطس. وشوشت في أذني:

ـ هل تريد أن تسمعني.

ـ تسألينني؟ احكِ لي عن كلّ ما تريدين؟ ما يفرحك وما يحزنك.

ـ ألم أقل لا نتحدَّث الآن في مثل هذه الأمور. أريد أن أغنِّي لك، ما رأيك؟

ثمَّ تركت صوتها يتلوَّى ساحبًا وراءه حنينًا كان يملأني. مرَّت أمام عينيَّ حتى سحب المدينة وعواصفها وأوراقها عندما تهبّ رياحها وغبارها وترابها. مسالكها ومهالكها. دروب البيازين ومحلَّات الذهب. مكتبة المخطوطات ونساءها العابرات بغمزاتهنّ الملعونة. ملامسي الأولى على جسد سلطانة الناعم، في المكتبة نفسها، عندما اكتشفت للمرَّة الأولى العاصفة التي كانت تتخفَّى وراء ملامحها المسالمة. أتذكَّر كلماتها المتقطِّعة وهي بين ذراعيَّ، وفي عمق جسدي، في إحدى زوايا المكتبة:

ـ هل أعجبك ذلك؟

ـ هبلني. يلعنك ما ألذَّك.

ـ حتى لا تقول يومًا إنَّ المارانيات لا يعرفن الحبّ. ليكن حبيبي، أعطيتك جسدي وقلبي كما اشتهيت. ربَّما يكون الآن أهلك قد هيَّأوا لك موريسكيَّة تقاسمك أشواقك، أحلى وأجمل منِّي.

ـ ليس مهمًّا. مادام قلبي في كفِّك. الأديان ليست في النهاية إلَّا ظلالًا هاربة لأشياء عميقة فينا، يتقاسمها الحبّ والكراهية. الناس هم من جعلها مقياسًا وضوابط للقسوة والعزلة. لا عاش دين يفصلني عن قلبي وعن أحاسيسي العميقة.

ـ حبيبي، هذا جنون! اشتهيتك واشتهيتني. الآن نمضي، كلٌّ لخرابه وقلقه.

ـ ما كان بيننا ليس مجرَّد نزوة أو لحظة.

من يومها، كان علينا مقاومة عواصف البعد المتتالية، وخوفه المبطَّن، والناس الذين يحيطون بنا.

في الصباح، انسحبنا من السفارة الدانمركيَّة، نحو القصبة، إلى بيتي الصغير. فقد تيقَّنت ليلتها أنَّ الدُّنيا لم تكن بكلّ تلك القسوة، وأنَّ ليلة حبّ واحدة نعيشها بامتلاء، قادرة على ترميم كلّ الشقوق التي أحدثتها السنوات القاسية فينا. كانت سلطانة قد صنعت غدها كلّه معي، وحلمت طويلًا حتى قبل أن تطأ رجلاها سفينة الخروج. لم تحمل معها إلَّا عودها، وحفنة أوراق خطَّت عليها هندسة البيت القديم الذي رأيناه في غرناطة، وبعض النباتات:

ـ سنجعل من هذه الأرض مكاننا الجميل، فهي تربتنا أيضًا. سيكبر أولادنا فيها، وسنعلِّمهم كيف يحبُّون الناس. وسيتغيَّر كلُّ شيء. في وقتنا... في الزمن الذي يلينا... في حياة أحفادنا. لا يهمّ عمري. لنا كل العمر لنحيا ونموت ونحيا أبدًا.

الطاقة التي شعرت بها لم أعهدها في نفسي. ربَّما كان الحبّ، أو ربَّما كان الشوق إلى سلطانة هو السَّبب، ولكنِّي أصبحت أشتغل وأحاول أن أبذل جهودًا مضاعفة لإتمام البيت. فقد كان *البيت الأندلسي* هو شغلي الشاغل. مثل جنين تراه كلّ يوم يتشكَّل قليلًا. لقد حافظ المهندس المالطيّ على كلّ مقترحاتي ومقاساتي، بل زكّاها عندما عرف كيف يدمج تفاصيل الخربة ولا يضيِّع شيئًا منها، ويدخلها في عمق الهندسة الكلِّيَّة. أضاف لها التفاصيل التي قرأها في المخطَّط الهندسيّ الذي جاءت به سلطانة. هبلته. في ظرف أقلّ من سنة، كان البيت قد نبت من عمق البستان، مثلما اشتهيناه. نسخة من البيت الغرناطيّ، ولكنَّه كان يتفوَّق عليه بأعمدته العتيقة التي كانت تبدو كأنَّها رومانيَّة أدخلت عليها لمسة أندلسيَّة. كانت فكرة المهندس المالطيّ صائبة، إذ كان يرفض أن نهدم شيئًا كان قوِّيًا وقديمًا وجميلًا. حوَّل جزءًا مهمًّا من الخربة القديمة إلى قبو حامل للجزء الأيمن من الدار، بعد أن دعَّمه بركائز كبيرة لبست اللَّون الترابي نفسه.

سلطانة بحاستها الأنيقة، أضفت عليه كلّ رشاقتها. ألحَّت في بناء البيت على شيئين أساسيَّين في العمارة الموريسكيَّة: الأبواب والساحة التي تظلِّلها السقيفة وتخترقها نافورة تعطي للمكان حياة متحرِّكة ومرئيَّة. البيوت ليست مقابر ليليَّة كما تعوَّدت أن تقول، ولكنَّها مستمرَّة. الجميل في حرفيّي القصبة، أنَّهم لم يكونوا دائمًا خلَّاقين، لكنَّهم كانوا مقلِّدين ماهرين. يكفي أن تأتي أحدهم بالقطعة ليصنع لك شبيهًا لها في كلّ تفاصيلها الدَّقيقة. كان الأصل الذي رأيته نافورة فينيسيَّة، مأخوذة من إحدى دور الأغا، نبهني إليها ميمون البلنسيّ الذي رآها في أحد المحلّات وأعجبته كثيرًا. قال لي إذا أخذتها لن تندم عنها، ولا تحتاج إلَّا لترميمات خفيفة. تأكَّدت من ذلك بنفسي. كانت نافورة مذهلة بألوانها الزاهية كلَّما اخترقتها شمس الصباح أو شمس الغياب التي تتسرَّب وراء أوراق أشجار

اللبلاب ومسك اللَّيل. بدا جليًّا أنَّها كانت منقوشة بيد فينيسيَّة ماهرة على الرَّغم من بعض الكسور. معشَّقة بزجاج جزر البندقية النادر الذي يعكس الماء والأنوار انطلاقًا من ألوانه. سألت البائع، إذا كانت النافورة للبيع؟ ضحك. قال كل ما يعرض هنا هو للبيع طبعًا. ولا تغرُّنَّك كسورها؟ أدركت لحظتها أنَّه كان يُدرك قيمة ما كان يبيعه. ثمَّ ابتسم وهو يردِّد عليَّ قصَّتها، وكيف ارتحلت من بين الدور الفينيسيَّة قبل أن تُهدى للآَغا هي وعمَّالها الذين يشرفون على تشغيلها في قصره، فيتخلَّص منها بسبب شقوق تافهة قبل أن تصل على محلِّه. سألته عن صلاحيَّتها وأنا لا أعرف كيف ستكون إجابته. قال وقد ارتسم يقين غريب في عينيه: اشتريتها، وستأخذها كما في أوَّل يوم بين يديْ منجزها الأوَّل. لم أتساءل كثيرًا، فقد كانت أجمل هدية لسلطانة. يوم استلمتها، لم يكن بها أيُّ خدش وكأنَّها خرجت للتوّ من مشغل الرجل. كنت مندهشًا كيف أصبحت النافورة، في ظرف أقلّ من شهر، جديدة بعد أن رُمِّمت كلّ شقوقها بالمادة نفسها التي صُنعت بها في الأصل. عندما رأتها سلطانة كادت تُجنّ:

ـ لم أرَ مثل هذه الألوان في حياتي أبدًا! من أين جئت بها؟

ـ من إحدى جزر فينيسيا. من يتقن العمل على الزجاج والتعشيق، والرخام، مثلهم؟

عندما رُكِّبت في مكانها الذي اختاره لها المالطيّ، تغيَّر كلُّ شيء في الدار، كأنَّها لم تكن إلَّا قبرًا واسعًا كما كانت تقول سلطانة. نغمات تشتُّت المياه أعطت البيت حياة أخرى. كانت سلطانة تجد لذَّة كبيرة في الجلوس على الحافة اليمنى من النافورة، حيث يتسلَّق مسك اللَّيل الحائط تاركًا عطره يعمّ المكان. يختلط عزفها وعزف صديقاتها اللَّواتي أحطن بها في البيت، برنين المياه المتكسِّرة، والعائدة في دورة لا تنتهي. كانت دائمًا تقول عندما تأخذها رعشة الماء:

ـ للماء غرابة ودهشة. كلَّما عزفت في هذا المكان، وأنا أستمع إلى هسهسته، تأكَّد لي أنِّي لست وحيدة، وشعرت بحضور فرقة بكاملها تصحبني.

كان *البيت الأندلسي*، أصغر من البيت الغرناطيّ قليلًا، ولكن أدفأ منه. حديقته كانت واسعة، وأشجاره لم تنتظر طويلًا لكي تزهر بسرعة. كان حضور سلطانة كافيًا لكي أعشق الحياة أكثر، وأنسى همَّ الغربة الذي أدخلني في حياة جديدة اقتنعت منذ البداية أنَّها الحياة الطبيعيَّة التي كان يجب أن أعيشها. عدت بسرعة إلى زمن توقّف خمسة قرون في أرض أخرى، لأعاود الجري والركض كما كنت أفعل دائمًا، وأختزل الزمن الذي لعب فيه أجدادي لعبة الموت والحياة حتى انطفأوا فيه.

حتى الكروغلّي لم يكن ينهكني. كان يتفهَّم جدِّيًا وضعي الجديد. تضاعفت أرباحه من جهدي وجهد ميمون البلنسيّ، إذ كنَّا دجاجته التي تلد ذهبًا. فقد اتَّسعت تجارته إلى حدّ أنَّه أصبح يرفض بعض الطلبات الثانويَّة. ما كنَّا نصنعه للآغوات وريَّاس البحر، وضيوفهم وعشيقاتهم المعروفات والسرّيّات، أصبحنا نقوم به أيضًا من أجل عليَّة القوم في المحروسة، وفي أعراسهم واحتفالاتهم. نتيجة للعمل الكثير، فقد أعفاني من خرجات البحر، وفرَّغني للعمل الدَّائم في ورشة ميمون البلنسيّ الذي أصبحت شريكه في كلّ شيء، بعد أن منحني كلّ أسرار المهنة نظرًا لتقدُّمه في السنّ. أنساني كتبي ومخطوطاتي التي ظللت زمنًا معلَّقًا عليها. قال:

ـ هذه ليست بلاد الكتب. أينما حلّ القراصنة والانكشاريَّة، حلَّت المصالح الصغيرة وبريق الأشياء اللَّامعة. انسَ كتبك، وانتبه لحرفة تنقذك من موت أكيد.

ـ لم تكن حرفة الذهب إلَّا شغلًا ثانويًّا في حياتي. كنت ملتصقًا بالمخطوطات. أشتريها، وعندما أضطرُّ إلى بيعها يوجعني قلبي، ولكنَّها كانت حِرفتي، وكان عليَّ أن أقبل بجروحها أيضًا. لقد جبت جزيرة أيبيريا، وتحصَّلت على مخطوطات ثمينة، في الطبّ، والفلك، والأدب، والفلسفة، أُحرق أغلبها. لبستني الحِرفة. هي التي أوصلتني إلى أحضان سلطانة. أليست مخطوطة *العاشقين ونجوم الآفلين* هي خاتمنا المقدَّس؟

ـ ولكنَّك يا حبيبي لم تعد في غرناطة. أنت في المحروسة، كلّ يوم تحسب أرباحها التي جنتها من القرصنة والتجارة وبيع الرهائن الذين يأتون بهم من أعالي البحار. أيُّ مخطوطة مهما كانت عظيمة، لن تقف أمام هدير البحر الذي يجلب وراءه المال والذهب.

ـ كان حلمي دائمًا أن أنشئ مكتبة للمخطوطات، وأسافر عبر العالم، كما كنت أفعل في غرناطة. وأعود من رحلتي سعيدًا كلَّما عثرت على ضالّتي، أو على المخطوطة التي وصلتني أخبارها من الرحَّالة الذين لمسوها أو رأوها. كنت أقول لنفسي: حتى ولو خسرت حياتي في رحلة وأنا أفتِّش عن مخطوطة ضائعة، سأموت سعيدًا، لأنِّي سأكون قد أشبعت بصري بما اشتهيته.

ظلَّ ميمون البلنسيّ عاقلًا، وهو من حدَّ من تهويماتي التي لا حدَّ لجنونها أحيانًا.

ـ تلك أحلام الشباب يا ابني. انتهى كلّ شيء وكن متبصِّرًا. أنت في أرض أخرى، وعليك أن تضمن حياة تنقذك من موت الجوع وسطوة الطامعين. فقد منحتك كلّ ما اختزلته من أهلي وأقاربي الذين اشتغلت معهم. أنت محظوظ، ستعيش جزءًا من عمرك بقرب من تحبّ. لالة سلطانة قمر، وأنت هلال. لن تجد امرأة تغامر بفقدان كلّ شيء من

أجل رجل تحبُّه. أنا لم يكن لديَّ حظُّك. لقد غادرتني زوجتي من أجل محارب مسيحيّ، وسافرت معه. لا أدري أين ذهبت؟ ولهذا أضربتُ عن النساء. هل تتخيَّل رجلًا يضرب عن النساء؟ لابدَّ أن يكون مريضًا أو غبيًّا، مع أنِّي لست لا هذا ولا ذاك. لا تستغرب، عندما انتزعوني من أرضي لم أشعر بأيّ ضرر أبدًا. وكأنَّ ما كانوا يقومون به يدخل في طبيعة الأشياء ولم يقلقني أبدًا، تعرف لماذا؟ لأنِّي أصلًا كنت ميِّتًا. ثمَّ التفتُّ نحو صنعتي واندفنت فيها. كنت أعرف أنَّه أينما ذهبت، ثمَّة ذهب يحتاج إلى صنائعيّ محترف. عندما اقترح عليَّ سيِّدي حميد كروغلّي أن أنشئ مشغلًا كبيرًا للذهب وأعمل تحت وصايته وحمايته، لم أتردَّد لحظة واحدة. الصنعة وقاية أكيدة من الجوع والموت.

ـ يا عمِّي ميمون، كلامك نفسه ذهب.

كان يومها ميمون البلنسيّ حزينًا، ولكنَّه كان صافيًا كقطرة ماء. لأوَّل مرَّة أشعر أنَّ العمر كان قد خطّ علاماته على أصابعه الرشيقة، ووجهه المضاء بشعاع الأولياء، ولكنَّ الزمن القاسي نفسه لم يمسس ولا ذرَّة واحدة من رشاقة يديه، وذاكرته الحيَّة ونباهته القويَّة.

الورقة السادسة

حكاية أهوال رحلة مايوركا، ونجاة الروخو منها.
نجاة الرايس حسن كروغلّي وبحّارته
من عواصف عرض البحر،
وانتشاء لالة سلطانة ولالة مريم في البيت الأندلسي،
وتأسيس فرقة جاهاركا، أو *لاكاسا أندلوسيا* للموسيقى.

شتاء 1575

عندما استدعاني الرايس حميد كروغلّي للميناء، لم أكن سعيدًا. شعرت كأنَّ شيئًا انكسر، وأنَّ الرايس غيَّر رأيه فيَّ بالخصوص أنَّه يشتغل كثيرًا على السماع، وأرجعني إلى سفن القرصنة التي لم أكن أحبُّها، بل إنِّي كنت أخافها، لأنَّ الموت فيها ليس من السفن المقابلة، ولكن من أعالي البحار نفسها. لم أكن أعرف بأنَّه سيمنحني شيئًا سيقلب حياتي رأسًا على عقب، ويعيدني من جديد إلى كتبي ومخطوطاتي.

كنَّا نستعدّ للإبحار، عندما سحبني الرايس إلى الجهة اليمنى من السفينة التي كانت قد امتلأت بالجدّافين الأقوياء والخدم، وحرفيِّي السفن والمصلِّحين، والشراعيِّين والمشرفين على المدافع. أخذني من يدي حتى رأس السفينة التي كانت ملكًا لأرناؤوط مامي، كما يسحب وراءه صديقًا عزيزًا.

ـ اسمع يا الروخو، أنا عند وعدي، ولن آخذك إلى البحر، على الرَّغم من نبلك وشجاعتك، أعرف قلقك جيِّدًا في أعالي البحار. ميمون البلنسيّ يحتاجك في الورشة أكثر من أيّ زمن مضى. أردت فقط أن أخبرك بشيء مهمّ. كلَّمني اليوم الرايس سيدي الرايس أرناؤوط مامي، أنَّهم ألقوا القبض على مجموعة من الرهائن يبدو أنَّهم في غاية الأهمِّيَّة، ويحتاجون إلى مترجم يثقون فيه. فكَّرت فيك، وقلت بلا دراية وبشكل عفويّ: لن تجدوا أحسن من غاليليو الروخو. رجل طيِّب ويُتقن لغات عديدة. سألوني عنك، فأعطيتهم صورة أثارت شهيَّتهم للتعرُّف عليك. بمجرَّد عودتنا، أرجو أن تكون جاهزًا للقاء الآغا حسن فينيزيانو. وربَّما قد تتغيَّر حياتك برمَّتها وتصبح من وجهاء المدينة. لن أقف في وجهك أبدًا. لو كنت بحَّارًا عنيدًا، كنت وضعتك على رأس السفينة، ولكنِّي أعرف أنَّك رجل مسالم لم تُصنع أصلًا لهذه المخاطر.

لم أتردَّد في الردّ عليه، لأنِّي في لحظة من اللَّحظات انتابني إحساس غريب من الخوف. كنت سعيدًا في حياتي، ولم أكن بحاجة لمن يشوِّش عليَّ. حتى مهنة القرصنة لم أمارسها كما كانوا يريدون، وقد أنقذني سيدي حميد كروغلّي العديد من المرَّات من موت مؤكَّد. ثمَّ إنَّ مهنة سكّ الذهب أعجبتني كثيرًا، وأصبحت بلمسة ميمون البلنسيّ أُبدع فيها بشكل مذهل. قلت له وأنا حذر من غضبه:

ـ أنا يا سيِّدي بخير ولا أطلب شيئًا. أحترم قرار سيِّدي ولا أرفض لك طلبًا، ولكنِّي مرتاح في عملي مع ميمون البلنسيّ. حرفة الصياغة تمنحني فرصة طيِّبة للعيش.

ضرب على ظهري بقوَّة، وهزَّني كما يفعل عادة مع أصدقائه الذين يحبّهم.

ـ لا تكن غبيًّا. أنت لم تُصنع لهذا كلّه. مكانك قصر حسن فينيزيانو يا حبيبي. سنناقش هذا بعد العودة. سنتوجَّه نحو جزيرة مايوركا. عليك أن تتفرَّغ للعمل كمترجم في قصر حسن فينيزيانو. رجل صعب، لكنَّه كريم، ولا يقبل بأنصاف الحلول. يكره الرخاوة. رأيته مرَّات عديدة مع الرايس أرناؤوط مامي، في عينيه بريق جميل ودمويّ في الآن نفسه.

عندما حكيت القصَّة لميمون البلنسيّ، صمت طويلًا، ولم يقل أيَّة كلمة. حتى عندما حاولت معه. قال إنَّ الناس في مثل هذه الحالات يختارون وحدهم وبدون أي تشويش، إمَّا تكون جهنَّم حليفتهم أو يدخلون في أعماق الجنَّة. في كلِّ الأحوال لا يمكنهم، بل ليس لهم أصلًا أيُّ خيار في أن يقبلوا أو يرفضوا. قد تمرّ على حافة الجنَّة، وقد تغرق في وحل أنت لم تُصنع له. ثمَّ واصل العمل. لكنَّ شيئًا في أعماقي كان يقودني نحو شيء ملتَبس بين الحزن والفرح. حزن لأنِّي سأخسر حتمًا هذا النمط من الحياة، وفرح لأنَّ الوضعيَّة الجديدة ستخرجني من دائرة اجتهدت أن أكون فيها ولكنِّي لم أُهيَّأ لها، وقد جرَّبتها مع أخوالي وانتهت بي الرياح نحو المخطوطات والكتب.

كانت رحلة مايوركا من أبأس رحلات الرايس حميد كروغلّي. لم يكن مخطئًا، فقد كانت رحلته التي كادت أن تفقده حياته، ليس بسبب قراصنة آخرين تربَّصوا به كما يحدث عادة، إذ كان يعرف كلّ المسالك

الصعبة، ولا بسبب صيد كان أسمن ممَّا تعوَّد عليه، ولكن بكلّ بساطة، لقد وجدوا أنفسهم في عمق عاصفة عمياء كادت أن تردمهم أحياء تحت الماء. ولولا شجاعة الرايس حميد كروغلّي، الذي ظلَّ يعطي الأوامر برفع وإنزال الأشرعة، وتوجيه رأس السفينة في اتِّجاهات مواتية للرياح لكي لا تتضرَّر، حتى تمَّ تجاوز اللَّحظات العصيبة، بالخصوص بعد أن ارتسم اليأس على وجوه الناس. كانت التيَّارات قويَّة وعلى عكس التوقُّعات. فقد سُحبت السفينة نحو الأعماق الأكثر خطرًا ودورانًا. حتى السفينة التي رحلوا من أجلها وكان يُفترض أن تكون مليئة بالنساء الجميلات الحاملات لكلّ أنواع الذهب، لم تخرج. عادة الرايس أن لا يقتل ولا يسبي إلَّا في حالات نادرة، عندما تكون سفن الرايس أرناؤوط مامي قريبة، وإلَّا فهو لا يأخذ إلَّا الأشياء الثمينة ويحرِّر أهلها، ويقول بضحكته الانفجاريَّة: أمامكم البحر، أن تصلوا أو تموتوا، ولكن ليس على يديَّ، ثمَّ ينصحهم في اتِّخاذ طرق سالكة حتى لا يسقطوا من جديد بين أيدي قراصنة لا يرحمون. لكنْ كثيرًا ما تلتجئ السفن الأخرى إلى المقاومة، فيغيِّر من إستراتيجيَّته، ويصبح وحشًا بحريًّا رافعًا صوته عاليًا: تبكي أمّه ولا تبكي أمّي. يا اللَّـه. إلى الأمام. ثمَّ يختلط الحابل بالنابل. في أغلب الأوقات يتمّ ذلك في عمق سفنهم. هذه هي حروب البحر. إذا أردت أن تزرع الرعب في قلب عدوِّك، عليك أن تنتقل أنت نحوه وتسحب سفينته في اتِّجاهك، وأن تركبها، وأن تحتلّها، ثمَّ تحوِّلها كما هي بمالها وبشرها، نحو مينائك الدائم.

كان البحَّارة لا يتوقَّفون عن ترديد ما حصل لهم في الرحلة، ولكنَّهم أجمعوا كلّهم على شجاعة الرايس كروغلّي الذي لم يدّخر جهدًا في إنقاذ السفينة بكاملها، وأكَّد لبحَّارته أنَّهم سيخرجون سالمين جميعًا أو يموتون جميعًا. فلا وجود لأنصاف الحلول في أعالي البحار.

ـ شفت يا الروخو، الدُّنيا عندما تمنحك عمرًا جديدًا لا تتوانى، وهي بهذا كريمة. وعندما تسحب منك عمرك، فهي أيضًا لا تمرّ عبر المسالك الوعرة، يمكن أن تموت وأنت تربط حبل السفينة بعد أن خرجت من الصعاب القاسية. أشكرك على انتظارك وقبولك، أنت تحمِّر وجهي أمام الآغا.

ـ لم أفعل شيئًا يا سيِّدي الرايس. كلُّ طلبات الريَّاس وعليَّة القوم نُفِّذت. وهي لا تنتظر إلَّا عودتك للتسليم. العمل كان كثيرًا، ولكنَّه كان ممتعًا وسمح بالتفنُّن كثيرًا أنا وميمون البلنسيّ.

ـ ميمون بدأ يتعب. يجب أن نفكِّر في أياد أقوى وأكثر لياقة. صناعة الذهب تتطلَّب العمر والجهد والخبرة.

ـ لن تجد خبيرًا أفضل من البلنسيّ. لقد أصبح محترفًا، ويعرف جيِّدًا ذوق عليَّة القوم.

ـ أنت طيِّب يا الروخو. شكرًا على وفائك.

ـ كنت أيضًا وفيًّا لكرمك وشجاعتك وأصالتك. عندما سمعت حكاية العاصفة حزنت، لأنِّي تمنَّيت أن أكون معكم ولو للمرَّة الأخيرة، لأساعدكم على الخروج من موت كان أكيدًا لولا قوَّتكم وإقدامكم، وأحكي لأبنائي قدرة الإنسان على المقاومة حتى في أقسى الظروف وأصعبها!

ـ تعرف لماذا حرَّرتك؟ غير صنعة الذَّهب والطلبات الكثيرة. لسبب بسيط. في كلِّ البحَّارة والجدَّافين والخدم والمدفعيِّين، كنتَ الرجل الوحيد الذي كانت تنتظره امرأة شرعيَّة؛ أمَّا الباقي، فكلُّهم نحتوا من حيطان باردة وحجارة وخوف لا أكثر. في كلِّ موانئ العالم لهم نساء، ولا يربّون الكبدة على أيَّة واحدة منهنَّ. أنا... كما تعرفني. عاش

ما كسب مات ما خلّى. كنت سعيدًا أنّي لم أترك شخصًا واحدًا خلفي يموت حزنًا.

ـ ولهذا يحبُّك الناس. في ميثاق الشرف الذي تعلّمته في جبل البشرات يا سيِّدي، هو أن لا تترك من معك عرضة للموت، وتكتفي بإنقاذ نفسك.

ـ هذا لا يضبط دائمًا في لغة البحارة. إنقاذ الجميع هو رهاننا في النهاية. لكن، إذا كان من الممكن إنقاذ الثلثين والتضحية بالثلث الآخر! نحن لا نتردَّد، على الأقلّ في لغتنا. الأزمنة والحياة تختلف. البحر ليس مثل الجبل، لا يمنحك زمنًا طويلًا ومهلة للتفكير، إمَّا أن تتحرَّك بكلّ ما يمكن أن يلحق ذلك من مخاطر، أو تموت ببلادة. أحزن موت هو أن تقف مشلولًا لا تعرف ما عليك فعله بقدر كبير من إمكانات النجاة.

لم يكن صيد البحَّارة الذين رافقوا حميد كروغلّي وفيرًا، لكنَّهم كانوا كلُّهم سعداء بعودتهم أحياء.

ـ على كلّ حال، ابق في عملك مع ميمون البلنسيّ، سأخبرك عندما يطلب منِّي ذلك أرناؤوط مامي.

كانت سلطانة مليئة بأحلام البيت الأندلسيّ الذي أصبح حقيقة. تجاوزت بسرعة آلام الفقدان والأهل، بالخصوص بعدما عاد الدون فريديريكو إلى غرناطة. كان رأسها ممتلئًا بالأشياء الجميلة. جعلت من البيت ملجأ لكلّ عاشق للموسيقى. أعادت تكوين فرقتها التي تملأ قلبها. وجدت ضالّتها في لالة مريم التي ساعدتها في كلّ شيء. حتى في نساء الفرقة: شافية، وريدة، تسيبورا، راشا، دليلة، ماميت، نانوت، ريمونة، آليسا، كلّهن من المرحّلات القديمات أو الجديدات. وعندما فكَّروا في اسم الفرقة، كان مقترح لالة مريم هو الأجمل. قالت وهي تضحك: لا يوجد مثل جاهاركا، أو *لاكاسا أندلوسيا*. البيت الأندلسيّ. بسيط ومليء بالإيحاءات.

انتفضت سلطانة كمن يخرج من تفكير طويل:

ـ يعطيك الصحَّة يا لالة مريم. *لاكاسا*[1] هي كلّ شيء. اللّمَّة، الفرحة، العائلة، الأسرار، التذكُّر. الحميمية التي تعطي لكلّ ما نقوم به معنى. اللَّـه يحفظك يا لالة مريم.

كانت راحتها الكبيرة، عندما تجلس مع فرقتها حول النافورة الفينيسيَّة، وتسقي الحديقة وترشّ الكلّ بعطر مسك اللَّيل الذي كنَّا قد غرسناه في صلب الجنان، وأصبحت سلطانة تخلطه مع قشور البرتقال حتى خلقت منه عطرًا خاصًا، لا أحد يعرف تركيبته إلَّا هي. كنت حين أسألها، تجيب ضاحكة بعينين سوداوين غجريَّتين:

ـ لمن تريد أن توصل الوصفة. لو كان نسمع عندك عشيقة نقتلك ونعلقك، ونخنق روحي معك. هذا العطر ينعش الأجساد المتعبة، ويدفع بها إلى أقاصي الجنون والحماقات. ولهذا سأمنعك منه إلَّا عندما تكون في فراشي. ولن تقنعني بغير ذلك. لن أقول لك عن التركيبة.

ثمَّ تتضاحك عاليًا. وفي المساء، في أوقات فراغها، أراها مثل ساحرة جميلة تجمع قشور الرمَّان، والبرتقال، والزيتون الصغير، وغيرها، وتبدأ في عمليَّات التَّخمير. تضع الكلّ في محلول شبيه بالماء، وتدخله في إناء تغطِّيه بإحكام. وعندما تكشف عنه بعد أيَّام، تضيف له محلولًا معطَّرًا كانت تشتريه من أسواق القصبة، يأتي به التُّجار من بلاد السند والهند. ثمَّ تشمّ وتزيد حتى تستقرّ الرائحة بدقَّة. ثمَّ تغلي الكلّ في عمل تقطيريّ دقيق. تسألني عندما تنتهي من عملها: ماذا تحسّ يا عمري؟ أحسّ بكِ. بظلِّكِ. بروحكِ. بأنفاسكِ الممتلئة شوقًا وحنينًا. أجيب بلا تردُّد وأنا أقبِّلها تحت مهوى القرط الذي صنعته لها بيدي وبلمسة ميمون

(1) من اللُّغة الإسبانيَّة La Casa وتعني البيت.

البلنسيّ، خلف أذنها بالضبط، في غفلة منها. أشعر بها تنكمش مثل الحلزون. تحاول أن تلتفت نحوي. أكتشفها من جديد بتفاصيل وجهها التي على الرَّغم من السعادة، تخيِّم على عينيها ضبابة حزن. تتسرَّب الأنوار من خارج الزجاج الملوَّن الذي يشبه زجاج الكنائس، فيغرق البيت والأفرشة في عرس من الألوان التي لا تحدّ. ثمَّ نتحوَّل إلى ذرَّتين هاربتين في فراغات اللَّذة والشوق. كلَّما احتضنتها أشعر برغبة جارفة لاسترداد الزمن الذي سُرق منَّا.

ـ حبيبي... تتمتم.. سلطانة. أهذا من مفعول العطر فقط؟

بكلمات متقطِّعة:

ـ لا... مفعولك عمري... مفعول الشوق الذي يجتاحني...

نصعد نحو المقصورة العالية التي نقلنا لها الناظور بمقترح المالطيّ الذي لم يكن مخطئًا. جسدان ينامان داخل الجاذبية المغرية نفسها. نفتح المقصورة ثمَّ نتأمَّل البحر من وراء الناظور، ونرمي البصر إلى أقصى نقطة ممكنة، حتى تصبح السفن العابرة على مرمى اليد. نثرثر ونضحك وأحيانًا نصمت طويلًا. نتخيَّل الناس الذي يتحرَّكون داخل السفن، نتوغَّل في أشواقهم وأحلامهم وأسئلتهم القلقة.

تخرجني سلطانة من صمتي كعادتها:

ـ يا أحمق. يا مهبول! كيف صبرتَ عليَّ كلّ هذا الزمن؟ كيف لم ترني كلّ مدَّة غيابي، وتكشف عمَّا كان بقلبي من شوق إليك، وتأتي للميناء لاستقبالي كما يفعل العشَّاق المجانين تجاه حبيباتهم؟

ـ واللّـه.. كنت أراكِ كما أنتِ الآن، حتى قبل أن تركبي أيَّة سفينة. كنت في خلوتي هذه، في كلِّ مساء، آخذك من يدك وننزل سويًّا على حافَّة الميناء نبحث عن أجمل اللَّحظات، لنسرقها من المارة الرَّائعين

ومن المدينة النائمة على أفراحها وخوفها، ثمَّ نتوغَّل بعيدًا فنستعيد كلَّ الموانئ التي سرقت أفراحنا، والجبال والكنائس والجوامع الكثيرة التي تمتلئ بالناس الطيِّبين والقتلة في الوقت نفسه.

كلّ العطر الذي كانت تصنعه، تهديه لصديقاتها في الفرقة. وعندما يسألنها عن المكوِّنات كما أفعل معها، تتظاهر بالنسيان، أو تقول إنَّ هذا من أسرار أجدادها في غرناطة ولا يمكنها فضح السرّ. ولكنَّها تعد بأنَّها ستورث ابنتها سحر الحرفة وأسرارها.

في إحدى المرَّات غضبت منها لالة مريم، سيِّدة الصياح والاستخبار. لا أحد من أعضاء الفرقة يعادلها في استخبار الحوزيّ الذي لا تتقنه إلَّا القليلات من نساء تلمسان خصوصًا. هي التي تضبط الطبع والإيقاع والميزان. بدون حضورها يختل كلُّ شيء، وتهتزّ حتى فرقة جاهاركا، *لاكاسا أندلوسيا*. احمرَّ وجهها وشعرت بضنك كبير اختلط فيه الجدّ بالهزل، وتحوَّلت فجأة إلى نمرة شرسة:

ـ شفت يا غاليليو العزيز؟ واش دايرة فينا امرأتك؟ تقتلنا بالماء البارد والأسرار العمياء. أعطيها كلّ شيء، وتخفي عليَّ سرّ عطورها؟ أنانيَّة.

ـ لا يا لالة مريم. أنتِ أحسن من يعرف قلبها.

ـ أجدادها علَّموها الكتمان. قلت لها يا بنت الناس، لسنا في محاكم التَّفتيش المقدَّس، نحن في أرض أخرى، تلاقى فيها دمنا وفرحنا وخوفنا أيضًا. ضحكت وأصرَّت على أنَّها لن تكشف عن وصفة عطرها. تعتبره سرًّا عائليًّا. ماذا لو مارست معها العقلية نفسها؟ أنا أيضًا أملك ما لا تعرفه في الموسيقى، لن أريها أيّ شيء ونخلِّيها معلَّقة كالعصفور المخنوق. سترى. تعرف أنَّ استخبار الحوزيّ أنا لالته، واللّـه نعلِّقها في الهواء حتى تقلِّل من أنانيَّتها وإلَّا لست لالة مريم.

ثمَّ تغمزني لكي أتواطأ معها. أقرأ في عينيْ لالة مريم كلّ ملعنات النسوة السرِّيَّة:

ـ معك حقّ يا لالة مريم؟ لالَّهم ونص. وما عاش اللِّي يرفض لك طلبْ.

تُفاجأ سلطانة من انضمامي لصفّ لالة مريم. تتفرَّسني. وكأنَّها كشفت سرّ اللُّعبة:

ـ يا لالة مريم.. وهل أستطيع أن أخبِّئ على روحي سرّ العطر؟

ثمَّ تبدأ في عرض التفاصيل كمن يقصّ حكاية لا تنتهي أبدًا، إذ إن كلّ عطر يسحب وراءه قصصًا لا تنتهي وصراعات وحروبًا وأعراسًا مليئة بالفرح. ولالة مثل الطفل، عالقة بكلّ تفصيل يخرج من شفتيْ سلطانة.

عندما تنتهي، تقترب منها. ثمَّ تضع رأسها على صدر لالة مريم الحنون كصدر أم.

ـ تعرفين يا يمَّا مريم تركت كلّ شيء، بما في ذلك أمِّي، من أجل هذا الأحمق الذي يساندك الآن. ما قيمة لمسة ليس فيها حنانك؟

تمسك لالة مريم رأسها، وتدفنه أكثر في صدرها.

يُرشّ الصحن بماء البرتقال وعطر الياسمين، وتجلس النساء حول النافورة ويبدأن في الغناء. يسترجعن كلّ الوصلات الأندلسيَّة الضائعة. يركّبنها قطعة قطعة كمن يبحث عن أثر عليه أن يرمِّم أجزاءه الضائعة. الكلمة الأخيرة دائمًا للالة مريم. تسترجع الإيقاعات العالقة برأسها حتى تجدها في حالة اكتمالها. صوتها تخشَّن قليلًا مع الأيَّام حتى فقد جزءًا من أنوثته، ولكنَّها كانت سيِّدة الميزان. تعيد الدندنات العديد من المرَّات، قبل أن تمسك بعودها وتبدأ في تجسيد المقطوعة الممزَّقة، حتى تستقيم ويكتمل معمارها النهائيّ. كان زوجها، سيدي أحميد ابن دالي، عندما يجد

بعض الوقت، يأتي برفقة لالة مريم ويبدأ معها في الاسترجاع نفسه. كان معلِّمًا كبيرًا. الكلّ كنَّ يناديه سيدي المعلِّم، أو سيدي محمد الأشبيلي. عندما يضبط الميزان نهائيًّا، لا أحد يناقشه، بما في ذلك لالة مريم.

يمتلئ المكان بالألوان والعطور والقهقهات. فيهنَّ العازفات المتمكِّنات التي كانت لالة مريم على رأسهن كلّهنَّ، كاتبات الزجل الماهرات اللَّواتي يذهبن نحو جنونهنَّ لدرجة إخجال الرجال في يقينهم وجرأتهم. المغنِّيات المردِّدات وراء لالة مريم التي تضبط ميزان الإيقاع، ولالة سلطانة بصوتها الشجيّ الذي يذكِّر بحالة غريبة من الغياب. كانت لالة مريم في حالات انخطافها تطلب منها أن تطيل في الوصلة، وأن لا تتوقَّف أبدًا، لأنَّها جرَّتها حيث ينام أدفأ شيء فيها ويتخفَّى.

لم تكن سلطانة في حاجة إلى زمن كبير لكي تتعوَّد على المدينة، وتسترجع عالمها المسروق.

حتى عندما كان يأكلني العمل في ورشة ميمون البلنسيّ، كانت سلطانة تقوم بكلّ شيء بنفسها. لم تحتفظ من الخدم إلَّا برجل واحد وزوجته كانا يبيتان في دار الخدم، ويقومان بكلّ حاجات البيت الداخليَّة؛ وبثلاثة خدم في الجنان، كانوا يسهرون عليه وعلى ترتيب الورد والبرتقال والدالية وتقليمها كلَّما طالت فروعها؛ وعاملين في المعصرة التي كانت تحوِّل العنب نبيذًا. كانت سلطانة تشرف بنفسها على الورود ونوَّار مسك اللَّيل والياسمين، وتعلِّم العمَّال كيفية جني الورود التي غرست منها تشكيلات متعدِّدة، وأوراق اللَّيمون والبرتقال، وكيفيَّة لفّها داخل قطعة قماش مندَّاة حتى لا تتسرَّب روائحها العطرة، وتظلّ محافظة على عبقها كلِّيًّا قبل ترنيخها وخلطها، وغليها وتقطيرها.

لأوَّل مرَّة تكتشف سلطانة أسرار مدينة كانت كلّ يوم تزيد قربًا منها.

الفصل الثالث

سفر المخطوطة القديمة

-1-

كلُّ شيء تبدَّل.

يبدو أنَّ الذين تحدَّثوا عن تغيُّر نظام فصول السنة لم يكونوا مخطئين. ما عدا فصل الصيف الذي حافظ نسبيًّا على حرارته القاسية، كلّ الفصول تداخلت حتى أصبح من الصعب التَّفريق بين الخريف والشتاء وبدايات الرَّبيع. زادت الحرارة في وقتها وتضاعفت البرودة حتى في غير وقتها.

ما رأيته في ذلك الصباح أثبت لي بأنَّ فصلًا غير فصل الخريف الذي تعوَّدت على بعض نظامه بأوراقه الصفراء، وبعض رياحه الموسميَّة المعروفة أوقاتها، وحتى برومانسيَّته، كان يلوِّح في الأفق بسيوله وعواصفه وبرده. كان الجوّ كأنَّنا كنَّا في شهر ديسمبر حيث تتجمَّد كلُّ الأشياء في أمكنتها. طوال حياتي، لم أر أبدًا خريفًا شاقًّا مثل هذا. كانت الرياح الشماليَّة تأتي باردة كأنَّها مسحت في طريقها جبالًا من الثلوج قبل أن تصل إلينا محمَّلة بذراته اللَّاسعة.

هبَّت الرِّياح في ذلك الصباح منكِّسة كلّ شيء حتى تحوَّل الفضاء إلى أغبرة من الرَّماد مثل تلك التي تحدث قبل الزلازل المفاجئة. ارتعشت

أوراق الوجوه الملتصقة على أوراق الإعلانات، بالمحلّات العامَّة، وأعمدة الكهرباء، وتمزَّقت لافتات الإشهار للبرج الكبير، وملحقاته من شركات كبيرة. سقطت على الأرض قبل أن يعاود عمَّال البلديَّة تعليقها وإلصاقها من جديد في وقت قياسيّ. المصالح نفسها التي تقضي شهورًا بكاملها، وربَّما أكثر من سنة، من أجل تبديل زجاج مكسور أو لمبة محروقة.

كانت الرياح من القوَّة بحيث لم تسمح لهم بإعادة اللَّافتات إلى وضعها في أمكنتها بسهولة.

لست أدري ما الذي سحبني نحو وجه والدي!

في مثل هذا الجوّ القاهر بالضبط، والبارد جدًّا، مات أبي. لكن لم يكن الزمن خريفًا. كنَّا في عزّ الشتاء القاسي، وفي البرودة نفسها.

يقول الكثير من الناس إنَّهم عندما رأوا الضباع تجوب المدينة في عزّ النهار، والغربان تعود إلى الأشجار في وسط المدينة، والذئاب تعوي ليلًا غير بعيد عن الطريق السَّريع، تأكَّدوا أنَّ البلاد لم تعد بخير. أنا لم أر الضباع، ولكنِّي أشمّ روائحها الكريهة يوميًّا. ولهذا أتساءل أحيانًا إذا لم يكن ذلك كلّه مجرَّد استعارة؟ المشكلة، أنَّه في لحظات البؤس واليأس، تختلط الاستعارة بالحقيقة وتتقلَّص المسافات. سكَّان بعض الأحياء الخلفيَّة يقسمون برؤوس أمَّهاتهم التي لا تلمسها النار، أنَّهم رأوها تتجمَّع في الزوايا المظلمة، وتلوك الفراغ بفكاكها القاسية استعدادًا لهجمات قاتلة على كلّ من يقربها.

لا أدري بالضبط لماذا بعد أن أقفلت جلد المخطوطة، لململتها في قطعة القطيفة الحمراء التي لم تعد تقيها من أيّ شيء، سوى أنَّها عندما سحبتها أوَّل مرَّة من مخبأها الذي نبَّهني إليه والدي. كانت ملفوفة فيها، وكأنَّها أصبحت جزءًا من تاريخها الداخليّ. عندما أخذتها، لا أدري لماذا ظللت محترزًا من أن يراني شخص ما؟ كنت أشعر بأنَّ عينًا ما كانت تترصَّد كلّ حركاتي، فأمسح

بعينيّ المحيط الذي كنت فيه، فلا أسمع إلّا أنين الرياح الذي يأتي من بين الفجوات محمّلًا برياح البحر الغربية. المسلك نفسه الذي رأيت فيه الرجل الأعرج برفقة أصحابه، المنحدرين نحو طريق البحر.

لا أدري من أين انتابني ذلك الخوف الضامر؟ ربّما من الأخبار التي أصبحت أسمعها هنا وهناك؟ ربّما مقتل العالم العراقيّ الذي أصبح على رأس كلّ لسان؟ لكنّي لم أكن شيئًا مهمًّا ولا عالمًا نوويًّا مثله. مجرّد مواطن بدون مواطنة. بقاؤه أو انتفاؤه لا يضرّ في شيء، ربّما يريح الكثيرين. ذهبت في أوهامي وهواجسي، إلى أكثر من حالة الشكّ. ضحكت من نفسي، حين تخيّلت قمرًا صناعيًّا أميركيًّا أو أوروبيًّا، أو إسرائيليًّا موجّهًا نحوي، يتتبّع كلّ حركاتي، كلّما فتحت المخطوطة. يقولون إنّهم أصبحوا اليوم قادرين على قراءة كلّ شيء من أمكنتهم التي يحتلّون فيها السماوات التي اقتحموها واختبروها، ثمّ عادوا منها ليحكوا لنا عن تفاصيل سعادتهم. ربّما كان وجه والدي هو السّبب في كلّ هذا الهوس، فقد غاب طويلًا ولم يعد إلّا ليذكّرني بأنّ العالم أصبح خطيرًا وأنّي لا ألتزم بالحذر الكافي. وأكثر من ذلك، لا أساعده على إيجاد الوريث الذكيّ الذي يأخذ مسألة الأجداد مأخذ الجدّ. لا يأتيني بلحمه ودمه، ولكنّه ينتابني في الحلم كالظلّ:

«ـ خاب ظنّي في كلّ أبنائي. لا أحد فيهم قادر على حمل حرقتي الداخليّة.

ـ يا بابا أنا أيضًا ابنك، وأسمع لك كما يجب. قل لي ما يملأ قلبك ويؤرّقك.

ـ إلى اللّحظة كنت مؤمنًا أنّ شخصًا سينزل على هذه المدينة ويذكّرني بواجبي نحوه. وأفهم من كلامه أنّه هو حامل الإشارة، فأسلّمه أسراري التي تحرقني.

ـ عاجز عن فهمك يا بابا. أصلًا من شدَّة انحنائك بحثًا عن المبهم في جروح الأرض، لا أتذكَّر أنِّي رأيت وجهك في حياتي!»

ينظر الظلّ طويلًا إلى وجهي قبل أن ينسحب نهائيًّا من المشهد، ويعود ليتمدَّد في حفرته الباردة، على الرَّغم من نداءاتي المتتالية وراءه بصوت مبحوح، مليء بالاعتذار. لم يلتفت نحوي أبدًا. ناديته طويلًا، فلم يعرني أيَّ انتباه. ثمَّ أقوم فجأة مذعورًا وأنا أعوِّذ، وأبسمل وأحوقل. متأكِّد من أنَّ مصدر ذلك كلّه هو اليوم الأصفر، من شدَّة الرياح الصحراويَّة، التي جلبت وراءها كلّ رمال الجنوب وأوقفت حتى حركة المطارات. كنت أغلي من شدَّة توبيخه لنفسه، وكأنَّه كان يحمل على ظهره كلّ جرائم الدُّنيا. رزمة من الأوراق الصفراء جعلت حياته مُرَّة إلى أقصى الحدود، أو على الأقل كنت أتصوَّر:

ـ أيُّ وريث يا بابا؟ ماذا تورثه؟ أوراقًا صفراء علتها الرُّطوبة وسوسة الورق؟

رأيته يومها ينسحب منكسر الرأس، حزينًا، لم يلتفت وراءه أبدًا. لا أعرف لماذا آلمني قلبي من حلم لم يكن إلَّا لحظة هروب أو تذكير خاصّ. ربَّما لأنَّ وصيَّته كانت ثقيلة، ولأنَّه كان عليَّ أن أجد لمن أورِّثها، مَنْ أثقله بشيءٍ كان في غنى عنه. هو يعرف أنَّ خياراته كانت أسهل. أولاد كثيرون يستطيع بسهولة أن يرى منهم الأكثر استجابة لحلمه المدفون ويكلِّفه بحمل الثقل على ظهره. لكن أنا؟ كانت خياراتي ضيِّقة. صفرًا. ليس لديَّ من ينشغل بالأوراق، وما تجلبه الرياح الصفراء من أسرار، وبالرَّماد والطوب، وحتى بي.

والدي، من فرط خوفه من نسيان المخطوطة مردومة، لم يمنحني الشيء الكثير سوى أنَّه كرَّر على مسمعي جملته الأثيرة، التي أصبحت

مع الزمن مثل الحبل الذي يوضع على العنق: **حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدمًا فيه أو عبيدًا.** عندما سألته من أين جاءته هذه الجملة الغريبة؟ هزَّ رأسه ولم يكلِّف نفسه حتى عناء الإجابة. منذ ذلك الزمن وأنا أشعر بثقل الجملة على قلبي. هناك من تخلقهم الأقدار خارج الانشغالات، وهناك من تضعهم على حوافها الجانبيَّة، تهيِّئهم لشيء يجهلونه، ثمَّ هناك من تورِّطهم في الشيء حتى الموت.

في اليوم السابق لموته، نام أبي مبكرًا على غير عادته. طلب منِّي أن أعطيه كأسًا من الماء. شربها بهدوء وكأنَّه يستلذّ ماء الجنَّة مع أنَّه كان ماء عاديًّا، بل أقلّ من العادي، لأنَّنا كنَّا نسحبه من البئر التي حفرها جدِّي قبل أكثر من أربعة قرون. قلت له لماذا لم تشرب دواءك المكوَّم على المائدة الصغيرة أمامه. تمتم:

ـ لم يعد مهمًّا يا حبيبي... لم يعد مهمًّا...

ـ مازلتَ بحاجة إلى الدواء يا بابا. صحَّتك هزيلة.

قلتها بدون قناعة كبيرة، وكأنَّ العادة تجبرنا على فعل أيّ شيء في لحظات اليأس. فقد رأيت يومها الموت مرتسمًا في عينيْ والدي، في هزَّات شفتيه اللَّاإراديَّة وهو يتكلَّم، وفي بُحَّة صوته الذي كان فيه شيء يشبه الغصَّة.

أنا لم أفعل شيئًا خارقًا في علاقتي بوالدي يجعله يؤمِّنني على المخطوطة؟ كنَّا سبعة ـ أربعة إخوة وثلاث بنات. كنت أضعفهم في السحنة، ولهذا كنت أكثرهم إصرارًا على مرافقته للصيد والجري وراء الأرانب على رأس جبل الملك كوكو، والتعلُّم، لأنَّه كما قال لي يومًا وهو في عزّ انكساره لسبب كنت أجهله: « اسمع يا مراد يا وليدي، أنت ما عندك حتى زهر إلَّا

العلم. أقبض عليه بديْك وسنِّيك، وإلَّا داك الوادي.» لم تكن لديَّ القوَّة لأكون لا بحَّارًا كما هو تقليد العائلة، ولا ذهَّابًا، لأنَّ الفقر أردى العائلة إلى أدنى الدرجات من القسوة، ولا حتى عطّارًا مثله قبل أن تأتي آلة الاستعمار وتمسح كلّ شيء من طريقها. إخوتي كلُّهم كبروا مفصولين عن هذا الحلم الذي ورَّطني فيه والدي. عاشوا في دار الخدم، التي سرعان ما غادروها نحو أمكنة مختلفة. الكبير مات في مظاهرات 8 مايو 1945 في ضواحي مدينة سطيف حيث عائلة زوجته، والصَّغير الذي حاول والدي أن يجعل منه وريثه الحقيقيّ، لم يفلح معه إلَّا في شيء، في توريث صرخة جدّه غاليليو على جبل الملك كوكو كلَّما تذكَّر موت لالة مارينا التي انتعلت البحر ولم تلتفت وراءها. والدي كان دائمًا يقول إنَّ جدِّي غاليليو كان كلَّما أحرقته غربة الأرض، وتذكَّر فقدان سلطانة التي سرقها منه الطاعون الأسود، لملم حوائجه اليوميَّة وصعد نحو الجبل، وتحمَّل آلام القحط والحجارة المسنَّنة ورعب السباع المترصِّدة بالناس. عندما يصل إلى الأعالي، يتأمَّل المدّ الأزرق. يترك نفسه يغرق بعينيه في البحر الذي كان يقوده حتى حواف غرناطة وثغور جبال البشرات، ثمَّ يصرخ بكلّ ما يملك من قوَّة: **لماذا فعلتَ بي كلّ هذا يا اللَّـه، لماذا تخلَّيت عنِّي عندما احتجتك؟ لماذا سرقت منِّي نظري وقلبي وروحي، وأمرتني بالعيش؟ هل تستلذّ لعذابي؟ إذا كان هذا شأنك، فأنت لا تختلف عن البشر!** وفي المساء، يعود إلى بيته البارد مرتاحًا، مفرغًا من الشجن القاسي. يستغفر اللَّـه من شرور البشر ثمَّ ينام. انتهى الأمر بأخي الصغير إلى الجنون حتى قبل أن يصعد إلى جبل كوكو للمرَّة الأخيرة، ورمى بنفسه من هناك. يقول الذين رأوه أنَّهم شاهدوه في البداية فاتحًا يديه بشكل صليبيّ في مواجهة البحر من الجهة الغربية. بقي مدَّة طويلة طويلة على هذه الحالة، مغمض العينين والرياح البحريَّة تلعب بشعره، وتمسح غبار وجهه المتعب. ثمَّ نزع لباسه وصرخ بأعلى صوته: **أنا قادم نحوك يا جدِّي**

فاحضنّي. لستَ وحدك. لن أتركهم يقتلوك... لن يقتلوك... ثمَّ مرَّ كلُّ شيء في لمح البصر، ولم يسمع العابرون والصيَّادون الذين رأوه، إلَّا ارتطام الجسد وهو يتمزَّق على حافَّة الصخور. من يومها، زاد تشبُّث والدي بي. ظلَّ يكرِّر بلا توقُّف: لم يبق لي إلَّا أنت. بعد زمن طويل، طويل جدًّا، فهمت مغزى كلامه الذي قاله وعيناه ممتلئتان بدموع اليأس والخوف: **لم يبق لي إلَّا أنت يا مراد، وليس من حقِّي أن أعود إلى التراب حاملًا سرّ جدّك معي.**

كم اشتهيت يومها، وهو يحدِّثني في لحظات صفائه الأخيرة، أن أرى وجهه فقط، أتأمَّل عينيه، أتعمَّق في ألوانهما، لأنِّي لا أعرف ممَّن أخذْنا أنا وإخوتي، لونهما الميَّال نحو الزرقة، وكلَّما شعَّت فيهما الشمس بقوَّة أصبحتا بين الخضرة وآلاف التدرُّجات التي يصعب عدُّها. عينا يمّا كانتا لوزيَّتين وبنِّيَّتين. ولكنِّي لم أكن قادرًا على تأمُّل ملامحه. كنت كلَّما واجهته، أحنيت عينيَّ كما أفعل عادة أمام رجل غريب.

«ـ سعيد فقط أنِّي سأموت في هذا البيت الذي مات فيه جدِّي. أدفنِّي في مقبرته.

ـ لكن يا بابا قبره انمحى منذ زمن بعيد!

ـ قلت لك أدفنِّي في مقبرته وليس بالقرب من قبره. يكفيني أنَّه ينام في مقبرة ميرامار المطلَّة على البحر. ليس مهمًّا. ظلَّ عاشقًا للبحر حتى موته، وقاوم سحر العودة حتى الموت.

ـ طول العمر يا بابا. لماذا تستعجل الموت؟

ـ لا أستعجل حقًّا، أعرف جيِّدًا أنَّه بدأ يزرع مساميره فيَّ.»

عندما رحل، نفَّذت كلّ ما طلبه منِّي، ولم أغادر البيت، حتى عندما أصبحت خادمًا فيه. لا أدري أيَّة قوَّة خارقة استمعت لنداءات جدِّي، ولكنَّها نفَّذت كلامه بدقَّة متناهية.

الفرنسيُّون لم يزعجونا عندما احتلُّوا البيت. قالوا ابقوا حيث أنتم. نحتاجكم. وتركوا العائلة في بيت الخدم. هو البيت الذي وُلدت فيه. والدي رفض عقود الشراء التي اقترحوها عليه. قال لهم: أنتم السادة الآن، وبإمكانكم أن تفعلوا ما تشاؤون، أن تأخذوا البيت، أن تكتروه، أن تستأجروه. لا قوَّة لي منذ قرون خلت لاسترجاع حقّنا. طلبوا منه أوراق الملكيَّة، لكنَّه لم يكن قادرًا على إعطاء إلَّا وثائق تركيَّة تثبِّت ملكيَّة البيت لجدِّي، وموثَّقة عند قاضي البحَّارة. قالوا له هذه انتهى مفعولها منذ أن حُطِّمت قلعة البحر وعشّ القراصنة.

«ـ عشّ القراصنة!؟ ليكن.»

هزّ رأسه بمرارة.

حاولت أن أقول له يومها لا تشغل بالك يا بابا، حياتك أهمّ من كلّ هذه الحجارة، ولكنَّه قاطعني وكأنَّه لم يكن يريدني أن أرى علامات الخوف التي ارتسمت على محيَّاه المتعب:

ـ آه يا مراد... مغادرة البيت تقطع الحبل السرِّيّ بيننا وبين حجارته وأنفاسه. كلُّ شيء كان ينزّ بمن كانوا هنا وملأوا المكان حياة وحبًّا. ظللت على الحافَّة، بحيث أرى كلّ شيء ولا يراني أحد. خدمت هذه الدار التي أشمّ فيها كلّ الروائح، من البارود، إلى البرتقال، مسك اللَّيل، زهر اللَّوز... حتى دم الذين قُتلوا في هذه الدار، أشمّ رائحة عرقهم وخوفهم وهي تصعد إلى أنفي. كانت في الزمن الماضي تورثني رغبة كبيرة في الانتقام، لكنْ مع الزمن تغيَّر كلّ شيء. ماتت تلك الرَّغبات ورفضتُ أن أورِّثها لأيّ من أقاربي. القتل جريمة، لا يوجد قتل حكيم. قلت لا يمكن لرجل تربَّى بين أحلام سلطانه وعطورها أن يتحوَّل إلى نازع للأرواح! أنت تعرف كلّ شيء في هذا البيت إلَّا هذا.

ثمَّ سحبني وراءه. وبعد أن فتح الباب السرِّيّ الفاصل بيننا وبين البيت، قال مدَّ يدك. مددتها نحو العمق. تحسَّست شيئًا حديديًّا رطبًا وباردًا. طمأنني: إنَّها الربيعة[1]. اسحب. سحبت بلا تردُّد. كان الكلّ عبارة عن علبة. عندما فتحناها، كان في داخلها شيء ملفوف في قطعة قماش من الحرير الأحمر. قال إفتح. ولكنِّي عندما هممت بتنفيذ أمره، قبض على يديَّ بقوَّة.

ـ عدني أوَّلًا بأنَّك لن تتخلَّى عنه.

لبستني حيرة غريبة، وكأنَّ أبي كان يستعدّ للموت وهو ما يزال يتحدَّث بعينين مفتوحتين. في الحقيقة لم أسمعه يومًا يشكو من أيّ شيء، ولا تأوَّه من كثرة العمل، إلَّا بعض الآلام المرتبطة بالسنّ التي كان يعالجها بالدواء. كان عندما يدفن رأسه في الحقل بعد أن هُدمت المعطّرة، لا يرفعه حتى ينتهي من عمله.

ـ عدني يا مراد. بأن تمنحه لمن تراه أجدر من أولادك؟

ـ إن شاء اللّـه يا بابا. اللّـه يحفظك. ما ليش أولاد!

ـ سيكون لك.

ثمَّ فتحت قفل المخطوطة. رائحة الورق ممزوجة برطوبة عالية، عطست بعدها.

كدت أسأله بحماقة لم أحسبها جيِّدًا:

هل قرأت المخطوطة يا بابا؟

(1) علبة فضِّيَّة أو نحاسيَّة متفاوتة الأحجام، توضع فيها عادة الصيغة من الذهب والفضّة. تُخبَّأ في مكان آمن ولا يتمّ إخراجها إلَّا في ولائم الأفراح والأعراس، أو عند الحاجة الماسة.

لكنِّي تراجعت في آخر لحظة. كأنَّه سمع انكسارات الكلمات في داخلي:

ـ لو كان لي حظّ التَّعلُّم ما تركت المخطوطة لحظة واحدة. لا تهتمّ حبيبي. ستكون أوَّل من يفعل ذلك! ألححت على أن تدرس الفرنسيَّة، وتتعلَّم لغة أمّك وأجدادك لكي لا يسرق منك حقّك في هذا الكتاب. حافظت عليه بكلّ ما أملك من قوَّة كما فعل الذين سبقوني، على الرَّغم من أنِّي لا أعرف ما كان يحويه. لكنِّي افترضت ضرورته مادام والدي قد أوصاني عليه بشدَّة، قلت لابدَّ أن يوجد فيه شيء مهمّ يحتاج إلى أن تُفكّ رموزه ذات يوم. مرَّة واحدة تجرَّأت وفتحته، فشممت فيه رائحة قاسية على الأنف، تشبه رائحة الحمَّامات النسائيَّة. أُصبت بدوار غريب نتجت عنه لحظة غياب كلّيّ، رأيت فيها جدِّي وهو يدخل في سفينة المنافي والترحيل القديمة، منكسرًا مكدودًا، وينام ولا يستيقظ إلَّا وهو على ساحل سيِّدنا يوشع بضواحي وهران. كان مرميًّا على الساحل هو وزوجته وأصدقاؤه وكلّ الذين رافقوه في رحلة الطرد الأندلسيّ. تمامًا كما حكى لي عنه والدي اللّـه يرحمه ويوسِّع عليه. وعندما استيقظ، صعد الهضبة محمَّلًا بالأشجار الصغيرة التي جاء بها معه. تقاسم الحقل هو وحنّة سلطانة، وبدأ كلّ واحد يغرس من جهته. حتى أصبحت حقول اللّوز والرّمَّان والبرتقال، والدالية، والزيتون، على مرمى البصر. نوَّر الجنان كلّه في أوَّل يوم من أيَّام الرَّبيع، في اليوم نفسه عندما رُشَّ عليه من ماء البئر التي حفرها، أزهر كلّ شيء. أنا الآن أسعد مخلوق في الدُّنيا. فقد أوصلت لك كتابًا أرَّقني وأرَّقني الجهل به، وأرَّقني أنِّي لا أستطيع أن أسلِّمه لأيّ أحد من جيراني أو أصدقائي. رأيت العلامة في أخيك الصغير، ولكنَّه لم يصبر وسبقني نحو جدّك. نفَّذت وعدًا لكي لا يموت ما كنت أحمله في قلبي. حمّلني والدي في وقت مبكر بهذا الثقل، ولكنَّه أوصاني أن لا أحمِّلك غيَّه وشططه إلَّا في أواخر عمري، ولم

يشرح لي السَّبب أبدًا. كان يقرأ الإمارة فيك، وكنت أقرأها في أخيك، اللّـه يرحمه ويوسع عليه!

عبثًا أكرِّر على مسمعه. كان ممتلئًا بميراثه الصعب.

ـ يا بابا لا تتعب نفسك بكلّ هذه الأمور. ستظلّ سيِّد هذا البيت في عيني، وستظلّ أطيب الخلق الذي فضَّل حرقة الجلد على ترك بيته وأرضه. هذا وحده يكفيني يا بابا.

لا أدري إذا كنت صادقًا في ما كنت أقوله، ولكن هذا ما حضرني لأخفِّف عليه ثقل الأيَّام الأخيرة التي بدت تنهك جسده المقهور.

ـ لا يهمّ يا مراد وليدي. أطلب من الفقيه أن يأتي، أحتاجه أن يرافقني قليلًا، أريد أن أحادثه. حبيبي ويفهمني جيِّدًا. أسدل الستائر وراءك، أريد أن أرتاح قليلًا.

لم يكن الفقيه بعيدًا. لكنَّ الثلوج التي تراكمت في الطرقات وفي بعض زوايا الحيّ، منعتني أن أفعل ذلك بسرعة. كانت خطواتي ثقيلة جدًّا وهي تندفن في صلب الثلوج الثقيلة. جئت به في الأخير. وجدته بداره جالسًا وقلقًا، كأنَّه كان ينتظرني. عندما رآني لملم مسبحته وجاء نحوي، وكأنَّه كان مستعدًّا. استغربت من الأمر عندما قال لي:

ـ والدك؟ أنا جاهز لمرافقته. حبيبي وعزيز عليَّ ولا يمكنني أن أرفض له طلبًا مثل هذا. باسم اللّـه. يا مولى الساعة، يا سيِّدي عبد القادر.

كان رشيقًا وكنت منهكًا ومندهشًا من هذه الحواس الحيَّة. وصلنا بسرعة.

عندما رآه والدي، ارتسمت في عينيه فرحة كبيرة لم أرها أبدًا على وجهه. كانت ملامحه صافية حتى في اللَّحظة الخاطفة التي رأيته فيها. وعلى

الرَّغم من الزغب الذي انتشر بشكل غير منظَّم هنا وهناك، لم يغيِّب النور الذي كان يملأ عينيه. ياه عيناه؟ الآن فقط رأيتهما! كانتا لوزيَّتين وميَّالتين إلى خضرة بدت واضحة تحت الشعاع الذي تسرَّب قويًّا من خلال الكوَّة الصغيرة، بعد أن اخترق أكداس الغيوم التي كانت تغطِّي كلّ شيء. شعرت بفرحة غريبة. لم أر وجهه، ولكنِّي رأيت عينيه ودقَّقت في لونيهما. تأكَّدت لحظتها من أنَّ أبي لن يموت كما تصوَّرت في ذلك الصباح، أو على الأقلّ هكذا بدا لي.

مدَّ أبي يده إلى الفقيه. شعرت براحة غريبة تنزل على كلّ ملامحه المتعبة. ثمَّ أمرني بعينيه الواضحتين أن أخرج، قبل أن أسمعه وأنا في صحن البيت:

- أنا بخير يا بابا، بإمكانك أن تذهب إلى عملك.

لم أكن حزينًا عندما خرجت، على العكس من الأيَّام الماضية. كلَّما أغلقت الباب ورائي وذهبت إلى العمل، في أعالي القصبة، تأكَّد لي أنِّي سأجده قد سافر نحو الأبديَّة، فينقبض قلبي مثل قماش قديم.

في المساء، عندما عدت، كان كلُّ شيء هادئًا. كانت الحمامات التي تعوَّدت عليها وهي تأكل من كفِّه، ضائعة بعيونها الصغيرة، تبحث عن شيء غاب فجأة. لم يتخلَّف والدي عنها يومًا واحدًا. حتى في عزّ إنهاكه وتعبه، يتدرَّج نحو الصحن الصغير، ويجلس على الكرسيّ القديم، ويجرّ باتِّجاهه صحن الماء وفتات الخبز اليابس الذي يفتِّته في عمق كفِّه، فيتحلَّق حوله الحمام بكثرة متزايدة. يعرف جيِّدًا الكريم منها والأنانيّ. كان يقول عن الزاوش ابن كلب، أنانيّ جدًّا. لابدّ أن يكون عانى جوعًا كبيرًا في بدايات تكوُّنه. لا يقتسم شيئًا، يأخذ القطعة ثمَّ يهرب بعيدًا ليأكلها. يقول عن السنونو مشغولة دائمًا وحذرة، ولا تأخذ خبزها إلَّا عندما تتيقَّن من أنَّ

لا أحد يراها أو يراقبها. ثمَّ تذهب بعيدًا، خارج الدار. ألذّ الطيور، الحمام المحنَّى الذي سكن الدار منذ أن فتحت عينيَّ فيها:

ـ شفت! هذه لالّهم. الأناقة وعزَّة النفس. لو لم تدعوها وتحسّ في كفِّك ببعض الحنان والاحترام والكثير من الأمان، لن تأتيك أبدًا. جرِّب وسترى. يكفي أن تثق فيك لتصبح جزءًا منها. حتى عندما تلمس رأسها لن تهرب منك.

حاول أن يعلِّمني. أتذكَّر أنِّي حاولت كثيرًا، ولكن بمجرَّد أن تقترب منِّي، وأقدِّم لها فتات الخبز، تطير ولا تعود أبدًا إلَّا بعد أيَّام.

فشلت في أن أكون وريثًا لوالدي.

رأيت القطَّة ماسة تدور في مكانها، متبوعة بأولادها الخمسة، وكأنَّها ضيَّعت مكانها. حاولت فتح الزاوية الدافئة التي تنام فيها عادة، ولكنَّها رفضت أن تدخل هي وأولادها. حتى عندما تقدَّم قط صغير بلون مخالف عن إخوته، يبدو أنَّه كان لامباليًا لأنَّه كان أكثرهم رغبة في اللَّعب، وقفت بيني وبينه ومنعته من التقدُّم.

الكلب جبَّار لم ينتبه إليَّ حتى خفت أن يكون قد أصيب بالعمى. هو كلب والدي، ولا يرتاح لغيره. عندما نخرج نحو جبل كوكو للصيد لا يفكِّر في غيره أبدًا. كان غريبًا. يرفع رأسه عاليًا، ثمَّ يعوي في مكانه مثل الذئب. وعندما لا يستجيب له أحد، يدور في مكانه، حول نفسه، محاولًا القبض على ذيله، مشكِّلًا دوائر عديدة أصبت بشيء شبيه بالدوار وأنا أراقبه. لم يكن يلعب. هذا هو الشيء الوحيد الذي تأكَّدت منه. لم تكن عادة جبَّار في اللَّعب.

بدت لي الدار فجأة مقفرة، وهجرها ناسها، واندثرت عادات حيواناتها. كأنِّي لم أكن أعرفها. أبدًا، لم يكن ذلك بسبب البرد القاسي. عندما دخلت

السقيفة، ثمَّ عبرت نحو عمق الدار، فهمت كلّ شيء. وجدت الفقيه ما يزال في مكانه الذي تعوَّد أن يجلس فيه كلَّما زار والدي، وكأنَّما ثُبِّت بمسامير قويَّة. كان يقبض على يده اليمنى بحنان كبير. اشتهيت مرَّة أخرى أن أرى عينيْ والدي مفتوحتين، ولكنَّه بدا كأنَّه نائم براحة كبيرة. اقتربت بحذر. قبَّلت جبهته. كانت دافئة. أردت أن أوقظه فقط لأرى عينيه تنفتحان أمامي شيئًا فشيئًا للمرَّة الثانية وأدقِّق في لونيهما، ولكنَّ الفقيه نبَّهني. قال وهو يمسح على لحيته البيضاء الناصعة، بينما ظلَّت يده الأخرى تحضن كفّ والدي.

ـ لا داعي يا ابني، فهو لا يسمعنا... لقد لقي مولاه.

ـ 2 ـ

ما تكاد الشمس تتخفَّى قليلًا من وراء البنايات العالية التي اخترقت الحيّ في السنوات الأخيرة، وما تبقَّى من أشجار السرو المقاومة للبرد، حتى تنقطع الحركة ويموت النهار قبل أوانه، مع أنَّها اللَّحظة النادرة التي يظهر فيها خط الأفق الفاصل بين السماء والبحر، الذي كان جدِّي غاليليو ينتظره أيَّامًا وليالي، بالخصوص في الفصول الباردة، حيث تصبح رؤيته صعبة، بعد أن يتماهى مع الغيوم، أو الضباب الصاعد من أعماق البحر. خطّ الأفق مثل خط قوس قزح تمامًا، سوى أنَّ العين لا تراه دائمًا، ولكنَّ القلب يدركه عندما يكون في ألقه العالي.

لم أخرج من شرودي إلَّا عندما سمعت توقُّف السيَّارة التي تحدث فراملها غزغزة خاصَّة، وتُسمع من بعيد، وصوته السخيّ الممزوج بالسخرية، ووشوشته التي تشبه تكسُّر مياه تأتي من بعيد، من نافورة لم تكن إلَّا بدماغي. عرفته من إيقاع صوته، إذ لم يغيِّر أبدًا من عاداته.

ـ جدّو... أنا يا جدّو؟؟؟ هل تعرف من؟ C’est moi le loup, grand Père[1]؟

ـ Si tous les loups te ressemblaient!، أدخل يا سليم وليدي! أدخل.

سمعت حتى دوران مفتاح الحديقة الذي يحدث صوتًا خاصًّا هو بدوره من قلَّة الزيت، وكثرة صمت المحيط. كنت وقتها أضع مسطرة حديديَّة على المخطوطة لكي لا أضيِّع الصفحة، ولا أتلفها. المسطرة تشبه ما كان يستعمله الطابعون قبل قرن على الأقل. لا أدري من أين جاءت ولماذا اخترتها؟

دخل سليم وهو يتصبَّب عرقًا من الأثقال التي كانت بين يديه. يحمل السكانير من جهة، ومن الجهة الثانية يحمل حاسوبه الصَّغير النقَّال الذي يتبعه في كلّ الأمكنة. يسمِّيه مكتبه المتنقِّل وعلاقته المختصرة بالعالم.

ـ جدّو... لا آخذ من وقتك الكثير، كانت لديَّ أعمال شاقة اليوم. الوزارة في حالة قريبة من الجنون. لقد سرقوا المجسَّم الصغير والوحيد لماسينيسا. وجدوه قبل سنوات قليلة، تحت الأتربة واحتفلوا به وطنيًّا بشكل مبالغ فيه، وكأنَّه زائر جديد حلَّ بالبلد. وضعوا له استقبالات كبيرة وهو المرفوض على مدار العشرات من السنين في وطنه. أصبح يزوره كلّ من دخل إلى البلد من ضيوف، وزراء ورؤساء العالم، فيُقدَّم على أنَّه مؤسِّس الدولة. تخيَّل يا جدِّي من SDF[2]، إلى مولى الدار وصاحب شأن البلاد وتاريخها؟!

(1) ـ أنا الذئب يا جدِّي!
ـ آه! لو كانت كلّ الذئاب تشبهك!

(2) مختصر كلمة Sans Domicile Fixe، أي بلا مأوى ثابت.

ـ إلى هذه الدرجة؟ ألم تقل لي إنَّهم اشتروا كاميرات جديدة ومتقدِّمة لمراقبة المتاحف بدقَّة وتحجيم السرقات التي تمارس في وضح النهار؟

ـ لا يهمّك يا جدِّي. قادرون أن نعمي كلّ شيء لحظة السرقة. شاطرون في هذه الأمور. الحالة مقلَّبة بين وزارة الثقافة والسياحة والداخليَّة. كلُّ واحد يتَّهم الآخر بالتقصير. لا تشغل بالك، سيصمتون بعد أيَّام وسينشغلون بقضية أهمّ!

ـ كيف حال يوسف؟ أصبحت أخاف عليه.

ـ ما تخافش على النمس، قادر على شقاه. وضعته في طريقي، في الديوان العقاريّ. هو في حالة غضب من كلّ شيء، حتى من نفسه. بدأ يشعر أنَّ المرض أعمق ممَّا كان يتصوَّر. لقد فضح كلّ شيء. حلقاته التي ينشرها في جريدة ***الشاهد*** عن مافيا العقار بدأت تشغل الرأي العام، وحتى المسؤولين والدولة أيضًا. استدعته وزارة الداخليَّة العديد من المرَّات وحذَّرته. التلفونات الغامضة التي تصله ليست من فعل شخص أبله. مدير الجريدة الجشع، أصبح هو نفسه يخاف. ينصح النمس بالتخفيف من حدَّة اللَّهجة. ربَّما يكون قد تلقى تهديدات أو أموالًا؟ مدرك بيقين مدهش أنَّ وراء العمليَّة شبكة أخطبوطيَّة تبيع وتشتري في كلّ شيء، حتى في الأجسام البشريَّة. تتحكَّم في كلّ الأسعار منذ أن فُتِحت السوق في وجه الشركات الأجنبيَّة.

ـ عليه أن يحذر، ويحذر كثيرًا. هؤلاء لا يلعبون.

ـ نحن كذلك يا جدِّي علينا أن نحذر. عمليَّة السرقة الغريبة التي تعرَّض لها البيت قبل فترة، يجب أن لا نستهين بها. يجب أن نحتاط إلى أقصى الحدود. واضح أنَّهم لم يكونوا يريدون الدراهم! ولا أيّ شيء آخر! في رأسهم شيء محدَّد يريدون الوصول إليه.

ـ في البداية، قلت ربَّما يكونون مجرَّد أطفال. يقفزون بسهولة من شِباك الحديقة، لكن فيما بعد انتابتني شكوك كبيرة لأنَّهم لم يأخذوا أيّ شيء، وكأنَّ الجاني لم يجد ما كان يبحث عنه. وقته كان قصيرًا. حتى اندهشت كيف ترقَّب خروجي وهو يعرف جدِّيًا أنِّي سأعود بعد لحظات؟ بل ويعرف جيِّدًا لحظات خروجي، ممَّا يعني أنَّه يراقبني أو لديه معلومات مسبقة.

ـ أنا متأكِّد من أنَّهم يريدون المخطوطة والوثائق الملحقة بها!

ـ أدرك ذلك جيِّدًا، ولكن.. في ماذا تهمّهم الوثائق؟ ألم يقولوا لي في البلديَّة إنَّ مفعولها القانوني صفر؟ يشمشمون على ماذا كالكلاب المسعورة؟

ـ ألم تفهم بعد يا جدِّي؟ يريدون تجريدك من أيّ سلاح دفاعيّ. يريدون البيت. البيت كاملًا. لأنَّهم لا يستطيعون بيع أرض واسعة فيها شخص ما يزال فيها، ويطالب بأحقيَّته ليس فقط في الجزء الذي يسكنه، ولكن في كلّ البيت. يريدون محو الأثر ليسهل عليهم الانقضاض. المخطوطة ليست فقط حكاية رجل أوجدته صدفة الأقدار في هذه الأرض، ولكنَّها تؤكِّد أنَّ الدار ملك لك ولذرِّيَّتك وذويك، مهما تخبَّأوا وراء القوانين. هناك قوانين دوليَّة تُركعهم. أنا والنمس بدأنا نفكِّر في هذه الإمكانيَّة.

ـ قالوا لي في البلديَّة إنَّها اشتُريت من طرف مرابٍ يهوديّ باعها بدوره للجيش الفرنسيّ.

ـ ليأتوا بالدَّليل. نملك وثيقة إعادة الملك لأصحابه لتسييره، شرط أن يبقى على وظيفته الأولى. ونحن لا نطالب بأكثر من ذلك. لتأخذها وتحوِّلها إلى دار للموسيقى أو لحفظ الآثار؟ لا أحد منَّا يعترض على ذلك. أستغرب أحيانًا لمعادين في الدم للسامية، أن يصبحوا فجأة مدافعين أشاوس عن حقوق مرابٍ يهوديّ؟ صباح الخير...

ـ وهل في ذهنك شيء محدَّد؟

ـ لدينا وسائل قانونيَّة سنستعملها في البلديَّة والولاية، والدِّيوان العقاريّ، في الصحافة أيضًا. النمس تحصَّل على معلومات ستضيِّق عليهم الخناق. بل إنَّه ذهب حتى الميناء واكتشف أنَّهم يقفون وراء أسواق فظيعة للإسمنت التركيّ الرَّخيص والمغشوش، ووراء إقفال العديد من المصانع الوطنيَّة بنيّة مبيَّتة لإضعاف المنافسة، وفتح الطريق أمام المستوردين، ودفع الشركات نحو الإفلاس. الحديد المدوَّر الذي كان ينتج محلّيًّا، أصبح يُستورد. ربطوا علاقات معقَّدة مع الشركات الصينيَّة واليابانيَّة التي تقوم بتشييد الطرقات! صاحبك الحاج إبراهيم صاحب البابيشا[1] والهامر؟ مليارات الدولارات يا جدِّي تمرّ عبر أسواقه التي لم يخسر ملِّيمًا واحدًا لبنائها. أحد أكبر أباطرة الرّمل كما سمَّاه النمس. لقد عرَّى كلّ السواحل الوطنيَّة، متسبِّبا في كارثة إيكولوجيَّة لا مثيل لها في تاريخ البلاد.

ـ صاحبك، يجب أن يحذر منهم. قَتَلة ولا يتردَّدون في ارتكاب أيَّة جريمة.

ـ من منَّا اليوم في مأمن يا جدِّي؟ أنا نفسي أخاف على النمس. ولكنَّها خيارات وسط هذا الجوّ المليء بالسوس الذي ينخر جسد التراب والبحر. على كلّ حال، جئتك بالسكانير والكومبيوتر لنحمي المخطوطة. ستكون مسرورًا. لن نأخذها إلى المتحف ولا إلى المكتبة الوطنيَّة لتصويرها كما سبق أن قلت لك. سأحتفظ بنسخة منها، ومن كلّ الوثائق التي معك، والتي تثبِّت أحقيَّة العائلة بالملكيَّة. عقد البحَّارة، وثائق الشراء وأحقيَّة التسيير الفرنسيَّة، كلُّها موجودة مع المخطوطة. سنحتفظ بالنُّسخ الأصليَّة في المتحف لحمايتها عندما تشاء يا جدِّي.

(1) تطلق على البنت الصغيرة، المراهقة، التي تمنح جسدها لمن يدفع أكثر، ولا يهمّها سنّه مطلقًا.

ـ سرقوا ماسينيسا بطوله وعرضه، تحيَّر لهم في سرقة مخطوطة؟ خلّيك عاقل يا وليدي. عندما أموت إفعل ما تشاء بها. تصويرها لا يؤذيني، بل فكرتك صائبة. قلت لك رأيي أمام سارة التي غابت نهائيًّا عن المكان! حتى البغل القبرصيّ غاب نهائيًّا. يقولون إنَّه باع البيت لغيره من المضاربين والمهرّبين.

ـ لا تاكل همّ يا جدِّي. سارة بخير. هي خائفة من البغل القبرصيّ، ولهذا هي متخفِّية. أنا نفسي لا أعرف بالضبط مكانها، لكنَّها في مأمن. متأكِّد من ذلك.

لم أكن بحاجة لتخيُّل مدى تمزُّقه وشجنه. سألته بخبث مقصود:

ـ لم لا تتزوَّجان وتخرجان من هذه الدائرة التي تعيشان فيها مثل هاربيْن؟ لو يعرف أنَّكما معًا، يمكن أن يرتكب جريمة في حقِّك، أو في حقِّها، فهي في النهاية زوجته بالفاتحة.

ـ فكَّت الفاتحة عند إمام مخلّص.

ـ طيِّب، هذا يسهِّل عليك المهمَّة أكثر.

أدرك أنَّه يعرف الشيء الكثير عنها، وأنَّه يخفي سرًّا كبيرًا لحمايتها. سليم ربَّيته على يدي، وأستطيع أن أقرأ السرّ الذي يتخفَّى وراء رمشات عينيه. لهذا لم أتفاجأ أنَّ مصيرها يهمُّه كثيرًا، وكثيرًا جدًّا. كانت تحبّه، ليس لأنَّه منقذها، لأنَّها كانت ترى فيه ملاذها النهائيّ. كنت أحتاج إلى زمن آخر أجالسه فيه، وأحكي له عن كلّ ما أعرفه، وأنصحه بأن يغمض عينيه عن كلّ شيء، ويذهب نحوها، فهي ليست سيِّئة. كنت أحسّ به أحيانًا في حالة انقسام وتمزُّق كبيرين، بين حبِّه الصادق لها، وكونها كانت مومسًا لرجل اشتراها بماله. لم تكن لديَّ الشجاعة الكافية لأقول له، أغمض عينيك ولا تندم. لا تفعل ما فعلته مع حسيبة رشدي التي ملأتني بروحها قبل أن تحتلّني بصوتها. كنت أدرك بحاسة شمِّي حالة ضياعه.

انغمس سليم طويلًا في تصوير المخطوطة بحماس كبير. كان دافئًا وحنونًا مع الأوراق التي كان يفصلها واحدة واحدة قبل أن يضعها على قطعة قماش بيضاء، تحضيرًا لتصويرها. كنت أرقبه حتى لا أزعجه. ولم يؤذ أيَّة ورقة. يلمسها بنعومة قبل أن يضعها في عمق السكانير الذي هو في الوقت نفسه طابعة. فتخرج من الجهة الأخرى في شكل صورة مشابهة للأصل، في كلّ شيء، في لونها، وفي كلّ تفاصيلها، حتى في ثقوبها. عندما انتهى، أعاد ترتيب المخطوطة كما كانت، ثمَّ وضعها داخل غلافها الكرتوتي وأغلقه بإحكام، قبل أن يلملمها في قطعة قماش الحرير الحمراء، ثمَّ داخل الربيعة. كانت الأوراق من الهشاشة بحيث تحتاج فعلًا إلى من يحافظ عليها. أعرف منجزات السكانير جيِّدًا، ولكنِّي عندما رأيت الصور المطبوعة، كنت سعيدًا أنَّ الذاكرة لن تموت، حتى ولو كُتِب لها أن تسرق أو تحرق. كانت الأوراق المصوَّرة، أحيانًا، أجمل من الأوراق الأصليَّة. عيبها الأكبر أنَّها كانت بلا ذاكرة ولا رائحة، وربَّما... بلا تاريخ ملموس، وبلا أغبرة محمَّلة بأنين من مضوا. بلا ملامس العابرين.

عندما انتهى، رأيت بريقًا قويًّا في عينيه، كان شبيهًا ببريق من انتصر على قدر ظالم.

ـ شفت يا جدِّي! لم نعد في حاجة إلى أيّ فريق عمل. كلُّ شيء أصبح سهلًا. لو كنَّا نستطيع أن نفعل الشيء نفسه مع القصبة، لثبَّتناها في السكانير حتى لا تموت. اتَّفقنا مع الإيطاليِّين وبعدها رميناهم في البحر. الإيطاليُّون يا جدِّي هم أفضل من يرمِّم. لقد أنقذوا قبل ذلك، مدينة أعقد من القصبة، البندقية ـ فينيسيا. كان عليهم أن يخرجوها من البحر لكي لا تغرق، وقاموا بالمستحيل ونجحوا. في مرَّة من المرَّات أخذنا وفدًا أميركيًّا لزيارة تيبازا وشرشال، ففوجئت بالدَّليل وهو يشرح لهم لوحات الموزاييك، الموجودة في الهواء الطلق منذ الفترة الاستعمارِيَّة، ويقول إنَّ العديد منها ما

يزال تحت التراب، وأنَّهم في المتحف، فضّلوا أن تبقى هناك حتى لا تضيع! كدت أُجنّ. هل البلاد عاجزة عن إخراج كنوزها ووضعها في المكان الذي يليق بها، بدل تركها عرضة للرياح والأمطار والعواصف والأتربة والمياه المدمِّرة؟

ـ ألم تفهم يا سليم؟ فاقد الشيء لا يعطيه يا ابني! من أين جاؤوا؟ ما هي ثقافتهم؟ ما هو انشغالهم الأساسي؟ لماذا يتصرَّفون هكذا؟ هم ضمن منطقهم الطبيعي. البلاد منذ البداية سلكت الطريق الغلط. لا تُبنى حضارة بناس غير حضاريِّين.

ـ خلِّ البئر بغطاه يا جدّو. إنَّها الحرب الصامتة التي لا نسمع بها أبدًا. كلُّ الناس على بالهم وكلُّهم ساكتون. المهمّ أنَّنا حمينا المخطوطة من التلف، هكذا لن نضطرّ إلى الذهاب إلى المتحف لتصويرها كما في المرَّة الماضية!

المرَّة الماضية...

جملته الأخيرة قذفت بي تجاه ذلك اليوم الحزين.

سحبني يومها وراءه إلى المتحف الوطنيّ فقط لأتأكَّد أنَّ الاهتمام بالمخطوطات كبير، وليقنعني في النهاية بتسليم المخطوطة للمتحف الوطنيّ. أراني وسائلهم للحفظ، وكيفيَّة الترميز. رأينا صورًا عديدة للكثير من المخطوطات، كيف كانت، ثمَّ كيف أصبحت بعد ذلك. طلبت منِّي الموظَّفة أن أسلِّمها جزءًا صغيرًا من رأس المخطوطة لتحديد تاريخها. قلت لها بعفويَّة طفل غيور على ما كان بين يديه، وبدون أدنى تفكير: أعرف تاريخه جيِّدًا. لكنَّها أصرَّت على أنَّ الوسائل الحديثة مساعدة، والكربون 14 لا يخطئ أبدًا. بملقط صغير انتزعت من زاوية مهملة مليمترات قليلة من الورق ثمَّ أدخلتها في محلول خاص، لنتأكَّد بعد أيَّام أنَّ تاريخ المخطوطة

يتراوح بين القرنين السادس عشر والسابع عشر. قلت لا، وركبت رأسي. هي من السادس عشر، الزمن الذي عاش فيه جدي. لم تناقشني الموظَّفة كثيرًا. قال سليم إنَّ الكربون 14 تقريبيّ يا جدِّي، ولكنَّه مفيد جدًّا. لكنَّه نبَّهني إلى أنَّ غاليليو بدأ في الكتابة في نهايات عمره، أي في بدايات القرن السابع عشر. ثمَّ أكَّدت التَّحليلات التي أجريت على الغلاف الكارتوني أنَّها من القرن التاسع عشر تقريبًا، أي بين نهايات الحقبة التركيَّة وبداية الاستعمار الفرنسيّ. ثمَّ إنَّ تجليده وطريقة خياطته أقرب إلى صناعة الكتاب التركيَّة. لم أناقشه، لأنَّه أوَّلًا كان على حقّ، ثمَّ إنَّ ذلك لم يكن يهمُّني إلَّا قليلًا. الغلاف، أيّ غلاف، ليس في النهاية إلَّا أداة حماية، لا أكثر ولا أقلّ.

خيَّبت ظنَّه يومها إذ شكرت له العمليّة كلَّها من بدايتها إلى نهايتها، ولكنِّي أكَّدت له أنَّ المعضلة لم تكن معضلة أدوات حماية، ولكن المشكل يتعلَّق ببساطة بالثقة.

ـ ليست لديَّ أيَّة ثقة فيهم، وإلَّا لمنحته مغمض العينين.

ـ هناك ناس يا جدِّي أوفياء لضمائرهم.

ـ متَّفق معك. إنَّهم يمضون كلّ حياتهم في الدوران لحلّ المعضلات اليوميَّة التي يُدخَلون فيها. وعندما يستيقظون يكون الآخرون قد فعلوا ما شاؤوا. القرار ليس في أيديهم يا ابني.

وكأنَّ كلّ الزمن الذي مضى لم يغيِّر فيَّ شيئًا. رسَّخ قناعاتي أكثر في البشر. كنت على يقين أنِّي إذا لم أكن صائبًا في الكلّ، فأنا لم أكن على خطأ أبدًا.

ـ النهار راح يا جدِّي.

كان سليم يجمع أدواته، ويضع السكانير في غلافه الجلديّ عندما رنَّ هاتفه النقَّال. بقي للحظات صامتًا بلا حراك، وعيناه تدوران في مكانيهما. ثمَّ أغمضهما وهو يتمتم:

ـ حالًا. انتظرني. Tout de suite, juste le temps de te rejoindre[1]

علت وجهه صفرة مفاجئة حتى أصبح كقشرة ليمون. اعتذر بسرعة وخرج. ولكنَّه عند الباب التفت نحوي وهو يحاول أن يستقيم في هيئته:

ـ أعتذر منك، جدّو... النمس يحتاجني.

ـ خير إن شاء اللّـه.

ـ خير يا جدّو، ولكن وضعه ليس على ما يرام. أنا نفسي لا أعرف التفاصيل. النمس في خطر، أخرجوه الآن من المخفر، أعرف أنَّه إذا بقي في الشارع في هذا الوقت، قد يُقتل. الذين يترصَّدونه كثر ويمسحونها بعد ذلك في بقايا الإرهاب.

أردت أن ألحق به وهو يغادر عتبة البيت بسرعة.

ـ خلّيك مرتاح، لا داعي لأن تتعب حالك.

ـ يوسف وليدي أيضًا. إن شاء اللّـه خير.

ـ خير يا جدّو... خير.

قالها وهو مرتبك.

ثمَّ خرج كالسهم. لم أره. كأنَّه لم يكن ولم يأت.

سمعت فقط باب الحديقة الحديديّ وهو ينغلق من ورائه بعنف، وتلك لم تكن عادته أبدًا. يغلقه دائمًا بهدوء وحذر كبيرين، كأنَّه يخاف أن يوقظ مريضًا من غفوته.

(1) بسرعة. مسافة الطريق.

سليم هو أقرب أحفادي وأكثرهم حساسيّة. الوحيد الذي يملك فضول كشف النقاب عن سيرة العائلة. بل منشغل بالحفاظ على البيت حتى ولو استلمته الدولة وحوَّلته إلى دار للموسيقى أو الفنون، المهمّ أن يظلّ واقفًا. فأنا مطمئنّ جدًّا لأفكاره إلَّا فكرة منحه المخطوطة للمتحف الوطنيّ. في هذه بالذات، كنت أكثر حذرًا منه. أنا أدرك جيِّدًا أنَّ الذين يبيعون الرمل والحديد والآثار، لن يضيرهم في شيء أن يبيعوا مخطوطة عمرها حوالى خمسة قرون. وربَّما بثمن بخس. لم تشغله أعماله اليوميَّة الكثيرة في المتحف، والتحرُّك الدائم مع وزير الثقافة عبر الوطن، في الحملة التي أُطلقت هذه السنة، مع وزارة التربية ، للحفاظ على التراث المادّيّ وغير المادّيّ للبلاد. لم يمنعه أيّ عائق على مواصلة الركض من وراء المؤسَّسات الوطنيَّة الكبرى لتحويل البيت الأندلسيّ إلى مكان أثريّ تُسيِّره الدولة.

لا يتأفَّف أبدًا على الرَّغم من جبل الأشغال الذي يجرّه وراءه دائمًا: الوزارة، المتحف، الوزير، سرقة الآثار التي أصبحت دارجة لدرجة أنَّها تحوَّلت إلى موضة! مطاردة المخطوطات في المدن، بالخصوص في الجنوب، ومحاولة إقناع الناس بجدوى وضعها في المتحف لحمايتها. لكنَّه، يجد دائمًا لحظة هاربة يخصِّصها *للبيت الأندلسي*، على الرَّغم من انهماكه اليوميّ بإنجاز رسالة الدكتوراه التي يعدّها، حول المخطوطات وحفظ الوثائق. لقد اختار دراسة ثلاث مخطوطات موريسكيَّة قديمة. **الأولى** نسخة نادرة من **ألف ليلة وليلة**، ركض وراءها حتى شيكاغو. هرَّبها قديمًا شخص أندلسيّ اسمه ابن لفقون، الذي كان يملك مكتبة عظيمة من المجلَّدات النادرة، تجاوزت الثلاثة آلاف مجلَّد قبل أن تتبعثر في سنة 1892 من طرف الورثاء، في مزاد بيع غير معلن. اشترى منها مخطوطة ألف ليلة وليلة، رئيس قسم المخطوطات والمكلَّف بالدِّراسات الشرقيَّة بجامعة الجزائر إدمون فانيون، ليضمَّها إلى نوادر المكتبة الوطنيَّة في 1893. يذكر فانيون الذي عَرفَ بسرّ

المخطوطة، أنَّ عائلة ابن لفقون جاءت بالمخطوطة من مدينة بلنسية حين هرب نحوها الآلاف من الغرناطيِّين قبل ترحيلهم من مناحي مالقة وألميريا. قبل أن يكتشف سليم فجأة أنَّ المخطوطة موجودة بشيكاغو بمركز الدِّراسات الشرقيَّة، وكان عليه تحريك العالم، والتنقُّل، للحصول على نسخة منها عن طريق الميكروفيلم. قام سليم بقراءتها، والتَّعليق على هوامشها، ومقارنتها بالنصّ الذي ظهر فيما بعد عن بولاق في طبعة حجريَّة أولى، ليكتشف أنَّ الطبعة الشاميّة التي أعدَّها غالان لم تكن إلَّا صناعة استشراقيَّة مركَّبة، تحتاج اليوم إلى ضرورة التوقُّف عندها بجدّيَّة وموضوعيَّة. **المخطوطة الثانية هي الوثائق الموريسكيَّة**، ومنها الوثيقة التاريخيَّة التي نملكها. قرأها واستقى منها المعلومات التي شاء، وفكَّك كلماتها المشفَّرة التي وضعها الموريسكيُّون دفاعًا عن تاريخهم وماضيهم عندما سافر إلى إسبانيا. إضافة إلى **القرآن الموريسكي** الذي خطّوه بالخيميادو ليتمكَّنوا من قراءته بعيدًا عن رقابة محاكم التَّفتيش المقدَّس. رحلته التكوينيَّة إلى إسبانيا سمحت له بتعميق لغته الإسبانيَّة، والاطِّلاع على وثائق موريسكيَّة كثيرة، منها ما شفّروه بأبجديَّتهم، ومنها ما حافظوا عليه وخبّأوه في بعض المغارات، وعُثر على بعضه، بعد قرون من خروجهم، أطلقوا عليه تسمية **مخطوطات الرصاص**. **المخطوطة الثالثة هي نفح الطيب للمقرِّي**. فقد اكتشف أنَّ هناك الكثير من التَّفصيلات سقطت من الطبعة المتداولة اليوم. أثبت أنَّها طبعة اختزاليَّة، الغرض منها تعليميّ لا أكثر. أمَّا الكتاب الأصليّ، الذي يحكي الأيَّام الأخيرة من الأندلس، فهو في ثلاثة أجزاء ضخمة ترصد سقوط غرناطة يومًا بيوم. وهو ما يريد إرجاعه إلى الواجهة.

خرج.

كنت أعرف أنَّ قلبه كان ممزَّقًا بين حواف كثيرة، أكثرها قلقًا، حافة سارة.

-3-

أستعيد اليوم التفاصيل كلَّها، لا لأنَّها حزينة فقط، ولكن لأنَّها أكَّدت إليَّ أنَّ قصَّة حلقة الضباع لم تكن مجرَّد استعارة، ولكنَّها كانت حقيقة دمويَّة. تخطُّوا مرحلة التَّعدِّي والسرقة، ووصلوا إلى القتل، أو محاولة القتل. الحالتان متشابهتان في كلّ شيء. سوى أنَّ الأولى فيها موت مؤكَّد، والثانية موت مؤجَّل. وحدها حلقة الضباع تعرف التواريخ بالضبط. الضباع لا تتخلَّى عن ضحيَّتها، بالخصوص إذا اكتشفت هشاشتها وضعفها.

ما حدث ليوسف النمس لم يكن غريبًا عن هذا كلّه. حالته معقَّدة وشبيهة بالقصص الغريب. أتساءل أحيانًا إذا كان بقاؤه على قيد الحياة هو مجرَّد صدفة، أم أنَّهم أرادوا ذلك، ولم يكونوا يريدون محوه نهائيًّا لحاجة في نفس الضباع. قتل صحفي مهمّ، يثير دائمًا شبهات كثيرة وأسئلة كبيرة قد تعقِّد الأوضاع. أعتقد أنَّ للقتلة قدرًا من المنطق والحيلة، يسمح لهم بتقليب الموضوع على جهاته الأربع، قبل أن ينتهوا إلى قرار. أحيانًا عندما يفشلون في الاتِّفاق، أتخيَّلهم يوكلون الأمر لغيرهم لينهي المهمَّة ويدفعون له غاليًا. كلُّ شيء بثمن.

عندما دخل النمس إلى مركز الدِّيوان العقاريِّ، في ذلك الصباح الشتويّ، وهو يخبِّئ رأسه تحت مظلَّة حمراء تظهر قامته الرَّقيقة مثل امرأة تهمها قضيّة النحافة ومتشدِّدة عليها. لم يكن يتصوَّر أنَّ الأمر مهمّ إلى هذا الحدّ، على الرَّغم من أنَّه يعرف جيِّدًا أنَّ المسألة بدأت تتعقَّد. فهو الذي سرَّب للصحافة كلّ المعلومات الخاصَّة بحركة بارونات الأسواق وأباطرة الرمل، وهو من كتب عن مشكلات العقار، وعن ***البيت الأندلسي*** الذي يقول إنَّه اختزال للحالة المزرية التي وصلت إليها البلاد. حُوِّل إلى مزبلة بسبب الإهمال، ثمَّ حوصر بالفراغ بعد أن تمَّ شراء كلّ البيوت المحيطة به وتهديمها، بغرض السطو عليه، لأنَّ شركة وطنيَّة أجنبيَّة مختلطة أرادت ذلك.

كان البرد قاسيًا والأمطار قوِّيَّة، عندما ودَّع سليم صديقه يوسف النمس في ساحة الساعات الأربع، ثمَّ واصل سيره، بينما انزلق الصحفيّ نحو مركز الدِّيوان العقاريّ حيث كان ينتظره نائب المدير. كان يوسف منشغلًا *بالبيت الأندلسي* حتى أصبح قضيَّته الأساسيَّة. آخر شيء كتبه وضع له عنوانًا مثيرًا واستفزازيًّا: «**تاريخ في الزبالة، وعصابة العقار تتقاتل على *البيت الأندلسي***»، كان يعرف جيِّدًا أنَّه كان يضع يده في سلَّة مليئة بالعقارب. كشف تاريخ البيت هو كشف لكلّ الانهيار الذي أحاط بالمدينة والبلد، والبشر، والتاريخ، والحجارة التي تخبِّئ تحتها أسرارًا لا أحد يريد الكشف عنها. كلَّما تعلَّق الأمر بالتاريخ في هذه البلاد، مال الناس إمَّا نحو الكذب أو الكتمان، لا يوجد شيء ثالث. الذي كان يخفِّف في مقالاته من الحدَّة هو انزلاقه إلى الحديث دائمًا عن فنّ العمارة الأندلسيَّة الحديثة في تماهيها بالعمارة الغربية، وكان مثاله الدائم هو البريد المركزيّ. فيها تمَّ التكامل العظيم، فأعطى بناية مدهشة ما تزال إلى اليوم أجمل صرح ثقافيّ

وحضاريّ نيوموريسكيّ حيّ. أحيانًا، أتساءل إذا لم يكن جونار[1] المعمِّر المثقَّف، أكثر غيرة على هذه البلاد من ورثاء الدم؟ كان يوسف يكرِّرها دائمًا في مقالاته. كنت أرى الكلمة كلمة قاسية جدًّا في حقّ الكثيرين، ولكنَّه لم يكن مخطئًا في جشع الورثاء الذين أعماهم الطمع عن كلّ شيء، ما عدا المصلحة الضيِّقة. طبيعيٌّ أن يفعل يوسف ذلك. تكوينه في الأصل لم يكن صحفيًّا، ولكنَّه في الهندسة المعماريَّة. لم يجد عملًا يعطيه الإحساس بالقيمة، فمال نحو الصحافة التي كان يحبُّها أيضًا. كانت جريدة ***الشاهد*** تنشر له كل ما كان يريد نشره. اهتمَّ بتاريخ المدن القديمة، تيبازا، شرشال، غرداية، القصبة، الفقارات المائيَّة في الصحراء، وبنياتها التحتيَّة المعقَّدة، ونظامها المائيّ القديم. قام بجرد لكلّ إنجازات لوكوربيزيي[2] الذي كانت تلومه أمّه دائمًا على أنَّه استطاع أن يغيِّر نظام العمارة في العالم، وينسى دائمًا أن يغيِّر لمبة بيته المحروقة.

عرف يوسف النمس كيف يدمج معرفته العمرانيَّة بالصحافة. في ظرف وجيز أصبح من أكثر الصحفيِّين مقروئيَّة. ينتظر آلاف القراء كلّ صباح السبت، والخميس، مقالاته. يسمُّونها: القنابل الموقوتة. حاول أعداؤه أن يلصقوا به تهمة أخلاقيَّة كادت أن تودي به إلى السجن، عندما انتحرت صديقته كاهنة التي كانت تدرس في قسم اللُّغات الأجنبيَّة في الجامعة المركزيَّة. رمت بنفسها في عمق الجامعة، من أعالي بناية المدخل الرئيسيّ، من الطابق الرابع، فماتت في المكان نفسه وفي اللَّحظة نفسها، وأمام دهشة

(1) هو Charles Celestin JONNART (1857- 1927) عيَّنه غامبيطا في 1881 حاكمًا للجزائر، ولم يبق إلَّا سنة واحدة. ثمَّ عيَّنه من جديد فالديك روسو في 1900، في المنصب نفسه مرَّة أخرى. كان محبًّا للثقافة العمرانيَّة الأندلسيَّة وكلّ ما له علاقة بالخصوصيَّة المحلِّيَّة. كان وراء بناء معالم حضاريَّة كبيرة، منها البريد المركزيّ والمدرسة الثعالبيَّة، في الجزائر العاصمة.

(2) Le corbusier.

الطلبة الواقفين. كانت تتهيَّأ للدخول في مكتب للترجمة الفورية بوزارة الخارجيَّة بعد أن نجحت في المسابقة. قيل في الإفادة إنَّها كانت حاملًا من يوسف النمس، وإنَّه كان يتفاداها لكي لا يتحمَّل تبعات الجنين. كتبت عنه جريدة **الوجه الجديد** الفضائحيَّة التي يديرها ظاهريًّا شخصيَّة وهميَّة اسمها حديدوان، ويتخفَّى وراءه بعض المهيمنين على العقار، وسادة الميناء، وسوق المخدِّرات. مهمَّتهم تشويه صورة كلّ من يقف ضدَّهم. حديدوان يسير دائمًا في ركب المجموعات الكبيرة، التي يبيِّن إنسانيَّتها وإسهاماتها في بناء الوطن، والمساجد، ومساعدتها جمعيَّات المعوّقين، وتقديم كبش العيد للمحتاجين، وغرفية رمضان لأهل السبيل، وبعث الحجَّاج المعوزين إلى العمرة أو الحجّ. تعجّ جريدة **الوجه الجديد**، بالإعلانات الخاصَّة بالشركات الدخانيَّة التي لا تُعد ولا تُحصى. بفضل حنكته، استطاع يوسف النمس أن يثبِّت للجميع أنَّ الطبّ الشرعيّ أكَّد على أنَّها لم تكن حاملًا، وأنَّه قبل ساعات من قتلها، لأنَّه يصرّ أنَّها قُتلت، كان برفقتها عند أهلها، يرسِّمون الزواج، وأنَّهما رأيا معًا فيلمًا في رياض الفتح، وأنَّها كانت سعيدة جدًّا. التحقيق الذي قامت به الشرطة من جهتها بإيعاز من قاضية التحقيق، وصور الكاميرات المسجَّلة في السينما، أظهرتهما وهما يسيران اليد في اليد، أثناء الدخول والخروج. حتى إنَّه قبَّلها وهو يركب سيَّارته في الكاراج الأرضي الكبير لرياض الفتح، ثمَّ ضمَّها إلى صدره طويلًا قبل أن يغادرا المكان. موقف أهلها، كان واضحًا، فقد أكَّد على كلّ ما أورده يوسف في إفادته يوم اقتيد إلى قسم الشرطة. عرف يوسف، بعد زمن قصير، أنَّ المسألة كلّها كانت مركَّبة بتواطؤات كثيرة، لكسره. مخدومة. قدَّم شكوى ضدّ الجامعة متَّهمًا إيَّاها بالتقصير، لأنَّ ما حدث كان جريمة قُيِّدت ضدّ مجهول، وتمَّ تعويضها بفكرة الانتحار، لأنَّها كانت أسهل وتخبِّئ عجزًا كبيرًا. يكرِّر دائمًا أمام أصدقائه وكلّ من يثق فيهم أنَّ كاهنة قُتلت. رُميت من الطابق الرابع في الجامعة، في قسم الترجمة، لإسكاته. الكثير

من الشهود أكَّدوا على أنَّ هناك شخصين كان يحدِّثانها، وكانا غريبين عن الجامعة قبل الحادث بقليل، وفجأة انطفأ من المكان.

أُدرك جيِّدًا لماذا كان سليم يخاف عليه أكثر من خوفه على نفسه. حتى وهو يحطّه بسيَّارته يومها، بالقرب من مركز الدِّيوان العقاريّ، لم ينس أن ينبِّهه:

ـ يوسف لا تركب رأسك. احذر. المكان الذي تلمسه: C'est un panier de crabe.

ـ كلُّه كلام. كيف تحذر؟ إمَّا أن تتواطأ أو تصرخ. فضَّلت الصراخ. أعرف أنَّهم قتلة. لن أصمت على دم كاهنة. المؤكَّد أنَّ هناك دمًا آخر في أكفِّهم الملطّخة. لن أصمت. يملكون آلة الموت، فليفعلوا ما يشاؤون. نعيش مرَّة واحدة وبعدها نمضي. لن أندم لا على حياتي، ولا على ما اخترته. حزين فقط على البريئة التي ذهبت بسببي.

ـ أنا لم أتحدَّث عن القتل فقط. يمكن أن يورِّطوك في أيَّة قضية.

عندما دخل إلى مركز الدِّيوان العقاريّ. عرفه الحارس فأشار له يوسف النمس برأسه يحيِّيه.

ـ صباح الخير عمِّي فورتو[1].

ـ صباح الخير يا النمس وليدي. تحبّ تشوف الشاوي؟

ـ نعم؟ مشغول؟

ـ الحالة ما تعجبش. يبدو أنَّ الأمور أصبحت معقَّدة هذه الأيَّام. جاء الوالي، ورئيس البلدية، ورئيس الديوان العقاريّ الذي لا نراه أبدًا لكثرة أسفاره وأشغاله خارج الدِّيوان، مدير أمن الدائرة، وعسكري برتبة عالية.. وها أنت تأتي أيضًا. ربِّي يعلم واش راح يكون!

---

(1) أصل الكلمة فرنسيّ Fourre-tout ولها مقابل مصريّ بتاع كلّه. أو يصلح لكلّ شيء.

ـ الخير... الخير يا عمّي فورتو.

ـ اسمح لي يا وليدي... شحال من مرّة تمنّيت أن أعزّيك في لالة كاهنة، ولكنّي خفت أن أوقظ جروحك. يفترض أن نترك الميّت يرتاح في هدوئه، ولكنَّ الموت حار...

ـ قلبك طيّب يا عمّي فورتو. وصلت تعزيتك. يكثّر خيرك ويرحم والديك.

ـ تفضَّل، السيّد نائب مدير الديوان العقاريّ يستنّاك.

كأنَّه سمعه. بمجرَّد أن خطا النمس خطواته الأولى في البهو، حتى طلَّ الشاوي برأسه الأصلع الذي لمع تحت أضواء السقف. عندما رأى النمس، ركض هو صوبه بوجه أصفر قبل أن يندفن معه في المكتب.

ـ يا خويا بزاف! بهدلتنا يا صاحبي! كلّ الأنظار هنا في البلاد أصبحت مصوَّبة نحوي.

ـ لم نفعل شيئًا، ولم نمسّ أيّ شخص بضرر.

ـ بعد كلّ فضائح العقار التي أثرتها! لقد مسستَ أناسًا كبارًا. قماقم. لا أعتقد أنَّ هؤلاء سيصمتون عليك.

ـ هذه مسؤوليَّتي ولا دخل لأحد فيها. أنا أسال الدِّيوان العقاريّ عن المعلومات كمواطن. لا توجد أسرار. ثمَّ ليس الدِّيوان العقاريّ مصدري الوحيد كما تعرف. فأنا أبحث عن المعلومة أينما كانت. البلدية، الولاية، مركز الأرشيف على بؤسه، الناس... خبرتي علَّمتني أن لا أترك أيّ منفذ للذي يريد أن يحاكمني.

ـ أنا خائف عليك يا النمس خويا.

ـ خائف عليَّ، وإلَّا على روحك؟

ـ في هذه أيضًا أخطأت في حقِّي.

ـ الأمر لا يهمّنا كأشخاص، هذه بسيطة. ويمكنني أن أعتذر منك الآن إذا ما كنت قد أسأت إليك. الأمر أكبر من هذا يا صديقي. إنَّنا نعيش وضعًا فيه عصابة تعد على رؤوس الأصابع، تتحكَّم في أنفاس الناس. سمِّها جماعة، مافيا، أو كما تشاء.

ـ أكتب على الأقلّ بشيء من الحذر. جريدة **الشاهد** ليست قرآنًا منزلًا.

ـ ولهذا أنا أشتغل بها. كلّ الأصدقاء يقولون الكلام نفسه. اللُّغة نفسها. الخوف نفسه. الصمت نفسه، وربَّما التواطؤ نفسه أيضًا. هل تريدني أن أزيِّف ما أراه وألمسه يوميًّا؟ أنت تعرف جيِّدًا أن التاريخ يكتبه المنتصرون. عرفت هذا في الجامعة عندما تحصَّلت على الليسانس، ثمَّ أدركته عندما حضَّرت شهادتي في كلِّيَّة الهندسة المعماريَّة لأجدني بطَّالًا ممتازًا. لا أظلم أحدًا. القانون موجود ويستطيعون أن يحاكموني بتهمة القذف. لماذا لم يفعلوا؟ العدالة ليست كلمة فجَّة. وظيفتي أن أكون صادقًا مع نفسي. أريد أن أعرف فقط لأوصل هذه المعرفة لغيري الذي ينتظرها منِّي بفارغ الصبر. قد تكون حقيقة جزئيَّة، ولكنَّها أحسن بكثير من الكذب المستشري في المدينة. **الشاهد** ليست هي الأحسن، ولكنَّها تجتهد أكثر من غيرها.

ـ أتظنّها مستقلَّة إلى هذا الحدّ؟

ردَّ يوسف بحركة آليَّة:

ـ لا. لكن بها حدّ أدنى يتماشى مع مشروعي. أنا لم أبحث عن شيء خارج القانون. تحقيقي حول ***البيت الأندلسي*** دعَّمته بكلّ ما تحصَّلت عليه من وثائق. تخيَّل! وزارة التربية ووزارة الثقافة ووزارة السياحة، أصدروا تعليمة مشتركة تقضي بتنظيم زيارات منظَّمة لأطفال المدارس، نحو هذه المعالم الحيَّة التي تربطهم بحاضرهم وماضيهم. ماذا فعلت أنا سوى أنِّي ذكَّرتهم بما

اتَّخذته الوزارات الثلاث من قرارات؟ أن لا يتركوا هذا المكان يموت كما فعلوا مع معالم أخرى. عرُّوا البيت الأندلسيّ من حدائقه وأشجاره، والآن يريدون هدمه لبناء أكبر برج في المغرب العربيّ وإفريقيا؟ نحن مولعون بهذا النوع من الخطاب... حتى وجدنا أنفسنا في المؤخّرة. رائحة العفن أصبحت لا تطاق.

كان الشاوي واضعًا رأسه بين يديه وهو يستمع ليوسف. كان نوع من القلق يصبغ كلّ حركاته التي لم تعد عفويَّة كما كانت. انطفأت نكاته المتواترة التي كثيرًا ما ختم بها أحاديثه، وعوَّضها ذعر كبير ارتسم في عينيه بقوَّة.

ـ كلامك كبير يا صاحبي. أعرف أنَّك ما زلت تبحث عن شيء آخر أكثر ثقلًا. اللِّي سمَّاك النمس لم يخطئ. لا يوجد لدينا شيء آخر سوى ما سلَّمناه لك في المرَّات الماضية.

ـ ما سلَّمتموه لي غير كاف، ويهمّ حقبة صغيرة. السي هواري الذي سبقكم جميعًا إلى رئاسة الدِّيوان العقاريّ، أكَّد لي على وجود تفاصيل كثيرة عن البيت من وقت فرنسا، وربَّما حتى الأتراك. ويصرّ على أنَّ هذه الدار بيعت للفرنسيِّين. وباعها مرابٍ يهودي كان قريبًا من العائلة. لابدَّ أن توجد هذه الوثائق لديكم!

ـ اسأل مراد باسطا، فهو يعرف الكثير من التفاصيل التي تخفى عنَّا جميعًا، حتى إنَّ هناك من يقول إنَّ له كتابًا نادرًا يتحدَّث عن تاريخ هذا البيت! أو اذهب لمركز الأرشيف، ربَّما وجدت شيئًا مهمًّا يمكن أن يفيدك في بحثك.

ـ الأرشيف خال من كلّ شيء. لا يوجد به إلَّا مديره السَّعيد بمكتبه الواسع. مراد باسطا لا يملك شيئًا. لو توافر له الكتاب لأخبرني عنه. قدَّم

لي الكثير من المعلومات، ولكنَّها غير كافية. أريد أن أخرج من الأساطير وأذهب مباشرة نحو الحقيقة. أفترض وجود هذه الحقيقة المغيَّبة.

ـ ربَّما كنت تضخِّم الأشياء؟ *البيت الأندلسي*، كغيره من قصور العاصمة التي تآكلت وحان وقت تدميرها وبناء بنايات حديثة مكانها. أنصحك كصديق أن توقف هذا العمل، لأنَّه بدأ يؤذيك ويؤذينا معك. اسمك أصبح على ألسنة الكبار والصغار. أنا استدعيتك بموجب الصداقة لا أكثر، لأنبِّهك فقط. الباقي عليك. درسنا مع بعض وبيننا خبز وملح.

ـ يكثِّر خيرك! هل فعلت ما يؤذي صداقتنا؟

ـ هذه الحملة. ما كتبتَه عن *البيت الأندلسي* وضع الكثير من الوجهاء والمسؤولين في الزاوية الضيِّقة؟ أنا لم أعد أفهم جيِّدًا. أرجوك حافظ على نفسك. حادث السيَّارة في المرَّة الماضية لم يكن صدفة؟ الرجل الذي قتله الإرهابيُّون عند قدميك ونظروا إلى وجهك، وقال لك أحدهم، شوف وجهي مليح، لم يكن لا ملثَّمًا ولا خائفًا؟ كلّ هذا ألّا يدعوك إلى التَّفكير جيِّدًا؟ كاهنة اللَّه يرحمها؟ أنت ابن شهيد، وأعتقد أنَّ هذا هو الذي منعهم من تصفيتك، لكنْ للصبر حدود.

شعر يوسف النمس ببرودة في ظهره عندما تذكَّر وجه الشاب البارد وهو يكرِّر على مسمعه، مشهرًا مسدَّسه في وجهه: شوف وجهي. أعقل عليَّ مليح. واحدة من اثنتين، يا تبلع فمك، يا نسكته لك.

التفت نحو الشاوي من جديد وهو في كلّ صفائه:

ـ تعرف، من أجل كاهنة فقط، ليس من حقِّي أن أتوقَّف الآن. أفهم من هذا أنَّه لم يعد لديك ما تمنحه لي، وأنَّ كلّ ما وعدتني به ليس إلَّا فالسو. كلام في كلام؟

ـ أنت تفهم جيِّدًا ما أقوله.

ـ أفهم أنَّهم ضغطوا عليك.

ثمَّ رفع رأسه قليلًا نحو الكاميرات الصغيرة المثبَّتة في أعالي زوايا المكتب. كلَّما نظر إلى السقف للتَّفكير فقط، رآها كعيون جهنَّميَّة لا تترقَّب الأفعال الإرهابيَّة لشلِّها، ولكنَّها تترصَّد كلّ حركاته. من حركة عينيه فهم النمس جيِّدًا ما كان نائب المدير، صديقه الشاوي، يريد قوله وتوصيله له.

ـ طيِّب. ما دام لا يوجد شيء يخصّني، سأتركك وسأبحث عن مصادر أخرى.

ـ هناك مشاريع أهمّ من كلّ هذا الكلام الراشي.

ـ لم أفهم. عن أيَّة مشاريع تتحدَّث؟

ـ هناك مشاريع كثيرة، لا تُحصى، نبحث فيها عن إمكانيَّة تسليمها لأصحابها القادرين عليها. لم تعد هناك أراض داخل المدينة. الوالي يفكِّر في تهديم بعض الأحياء القديمة وترحيل الناس على الأطراف حيث ظروف العيش أفضل. وتشييد أبراج مثل تلك التي نراها في دبي والرياض، وهونغ كونغ، وأندونيسيا وغيرها. حتى البيوت القديمة الذي أسالت الحبر والدم، لم تعد تنفع لأيّ شيء. تحتلّ مساحات مهمَّة من الأرض على الفاضي.

ـ تُرمَّم.

ـ لا أعتقد أنَّ الترميم أصبح مفيدًا لها. متهالكة إلى أقصى الحدود. كلّ الفحوصات التي أجرتها البلديَّة والمصالح الولائيَّة والدِّيوان العقاريّ أجمعت على ضرورة إزالتها وترحيل سكّانها. ترميمها لا يقدِّم شيئًا، مثل الذي يأكل في حمار جيفة! الاستثمارات القادمة كبيرة وستحلّ مشكلات الناس وتقرِّبهم من حاجاتهم وتخفِّف عليهم عناء الحياة.

هزّ النمس رأسه مرّة أخرى. تنهّد عميقًا، ولم تخرج من فمه الذي انسدّ على سيجارة احترقت على شفتيه إلّا كلمات منكسرة.

ـ البرج الأعظم. الأسواق العظيمة. كارفور، ماكدونالك، كويك، ليتل برايز...؟ هذه هي الاستثمارات العظيمة؟ شكرًا يا عزيزي. أعرف أنّك استقبلت اليوم أناسًا كثيرين، ولابدّ أن تكون متعبًا. سأحرّرك من ثقلي الزائد.

ثمّ خرج يوسف النمس، ولم يلتفت وراءه متوجّهًا مباشرة نحو جريدة **الشاهد** التي تصدر باللُّغات الثلاث: الفرنسيَّة والعربيَّة والأمازيغيَّة. النسخة الأمازيغيَّة رمزيَّة فقط لأنَّها لا توزّع كثيرًا، حتى الأمازيغيُّون يقرأونها بالفرنسيَّة. طباعتها تعتمد على الترجمة الآليَّة التي لا تحفظ إلَّا الكلمات خارج السياقات. المدير أراد توقيفها، لكن مالك الجريدة رفض. قال تبقى مع النسخة العربيَّة. مالك جريدة الشاهد هو مدير مصانع المواد الدهنيَّة والصابون والزبدة. قال: الخسارة والنيف. يجب أن تستمرّ. لا شيء يوازي ربح قلوب الناس، لأنَّ الشاهد هي الجريدة الوحيدة التي تصدر بهذه اللُّغة. ثمَّ أضاف: إنَّنا إذا لم نربح المال من ورائها، فنحن نربح قطاعات واسعة من الناس.

المدير لم يقتنع:

ـ هذا صحيح يا سيِّدي ولكنَّها مجرَّد أيديولوجيّا. المنطق الاقتصاديّ يقول: ما جدوى جريدة لا يقرأها الناس. المرتجعات فيها بلغت أكثر من 99%. الطاقم الصحفي الذي ينجزها، لا يقرأها. أنا أمازيغي أصلًا وفصلًا، لكنْ في مثل هذه الأمور أنا براغماتي.

ابتسم الشاوي، ثمَّ التفت نحو صديقه الصحفيّ وهما يقفان عند المدخل حيث لاحظ وجود الكاميرا هنا أيضًا، كانت تمسح كلّ البهو. مشى قليلًا حتى أصبحت الكاميرا وراءه.

ـ شوف يا يوسف، يلعن دينك. اسمع لي هذه المرَّة ولا تكن مجنونًا. على الرَّغم من كلّ ذكائك، أتخيَّلك أحيانًا بسيطًا ومحدود التَّفكير. هل تتخيَّل أنَّ صاحب جريدة **الشاهد** أو مالكها الأساسي خارج دوائر السياسة؟ هو مالك ومدير أكبر شركة لتسويق الموادّ الدهنيَّة؟ هل هو بعيد عن دائرة المصالح؟ لن يسلم فيها لأنَّ الديماغوجيَّة أيضًا هي جزء حيوي من النظام العام. فِقْ لراسك! إنَّك في وضع خطير. احم نفسك على الأقلّ يا أخي!

كان يعرف جيِّدًا لماذا انطلق لسان الشاوي فجأة، وأصبح كما كان يعرفه من قبل.

ـ قد يكون ذلك صحيحًا، ولكنْ إذا حاولوا تحجيمي، سأغادر الجريدة بلا رجعة.

ـ أستغرب كيف تركك الحاج في الجريدة، بعد عودتك إلى الكتابة عن الميناء؟ سيدفعونك إلى المغادرة بسرعة إذا لم يكونوا قد فعلوا... متأكِّد من ذلك.

صمت الشاوي فجأة، وكأنَّه قال ما لم يكن عليه قوله.

ـ اسمعني مليح. لن يتردَّدوا عن فصلك إذا واصلت في هذا الطريق. يملكون كلّ الوسائل لتطفيشك. لماذا أوقفوك قبل سنة عندما بدأت تشتغل في مشكلة الحاويات في الميناء؟ حول موت مدير الجمارك؟ قيل إنَّه انتحر. سبحان اللَّه! البلاد الوحيدة التي ينتحر فيها الناس بثلاث رصاصات وبكاتم صوت! كان المسكين جديدًا على المهنة، وكان مصمّمًا أن ينقّي الميناء، فتغذّوا به قبل أن يتعشَّى بهم. الكوارث التي اكتشفها، أفقدته عقله.

ـ هل تعرف السَّبب الحقيقيّ؟ طفّشوني، لأنَّ رئيس التحرير كان يغار منِّي، ولهذا أوقفني. المدير نفسه أسرَّ لي بذلك. الرجل معروف بنزعة الحسد!

ـ تعتقد أنَّ رئيس التَّحرير شاء ذلك من تلقاء نفسه؟ هو نفسه في غير مأمن.

ـ أعادوني إلى منصبي وبراتب أفضل، ودفعوا لي كلّ مستحقَّاتي.

ـ أرأيت يا صاحبي؟ نحتاج أحيانًا إلى بعض التنازل، لنستمرّ في العمل. هل بإمكانك اليوم أن تعود لموضوع الميناء وقصَّة الرجل المنتحر؟ لا أعتقد، ولن تقول لي العكس. أحذِّرك. السيَّارة التي أخطأتك في المرَّة الماضية، لن تخطئك هذه المرَّة. تعرف أنَّ ما بيننا كبير. استدعاؤك لهذا المكان هو تنفيذ لطلب جاءني من فوق لتنبيهك. الباقي يعود لك. بصدق، أنا خائف عليك جدًّا.

هزَّ يوسف رأسه.

ـ لا أشكّ أبدًا في أنَّ قلبك صادق، وأحاسيسك نبيلة.

ـ عليك يا عزيزي أن تشكّ حتى فيَّ. فأنا في مهبّ رياحهم، وأنت في خطر.

خرج يوسف النمس، وفي رأسه بياض غريب شعر به فجأة، إذ نسي حتى أن يردّ على تحيَّة البواب فورتو، الذي كان يريد أن يسأله عمَّا دار بينه وبين نائب مدير الدِّيوان العقاريّ، لكنَّ علامات وجهه لم تشجِّعه أبدًا، فأهمل الأمر وانغمس في وجوه الدّاخلين والخارجين.

في لحظة من اللَّحظات، برقت في ذهنه أشياء خطيرة: ماذا لو يكتب مقالة تفضح كلّ ما يعرفه وينشرها في لوموند، أو نيويورك تايمز، أو دير شبيغل؟ علاقاته واسعة، وله أصدقاء في كلّ بلدان العالم؟ هذه الخميرة لا يمكنها أن تزول بالإصلاح. لقد كبرت، فتفرَّعت، ثمَّ تحوَّلت إلى خلايا سرطانيَّة تتكاثر بلا انتظام، لتمسّ الجسد كلِّيًا بمرض الشلل والسرطان.

أغمض عينيه محاولًا أن ينسى وجع الرأس وما سمعه، دفعة واحدة. كان المطر في الخارج غزيرًا وباردًا. شعر بجسمه يتقلَّص، لا يدري إذا كان ذلك من شدَّة البرد القارس، أم من القشعريرة التي سرت في ظهره عندما تذكَّر وجه الشاب غير الملثّم، وهو ينظر إليه، شاهرًا مسدَّسه في وجهه:

«شوف وجهي. أعقل عليَّ مليح. واحدة من اثنتين، يا تبلع فمك، يا نسكته لك.»

- 4 -

ما حكاه المارّة لم يكن دقيقًا. بعضه حقيقيّ لأنّه مبنيّ على المشاهدة والصدفة التي وضعتهم في قلب النار، وبعضه الآخر، لا أصل له من الحقيقة. وحدها كانت رواية يوسف النمس الذي أخطأه الموت هذه المرّة أيضًا، هي الأصدق.

عندما خرج من مكتب الشاوي، كان رأسه ثقيلًا وموجوعًا. لسانه صمت وكأنّه فقد ليس فقط اللُّغة، ولكن أيضًا قدرته على الإحساس بها. قلبه كان مثل إسفنجة مسّتها أيّاد كثيرة. أحسَّ في لحظة من اللَّحظات وهو يسير ملتصقًا بالحائط بسبب الأمطار الباردة، أنَّ ما قاله الشاوي لم يكن فارغًا من المعنى. كان طيِّبًا ولم يتغيَّر، ولكنَّ الظروف التي من حوله هي التي تغيَّرت. كان الشاوي، فقط، يقوم بدور نائب مدير الدِّيوان العقاريّ، يثرثر ويقول أيَّ كلام في انتظار أن يخادع الكاميرات المنصوبة فوق رأسه. لهذا لم يتكلَّم إلَّا في العموميَّات، ولم يقل إلَّا ما يرضي القتلة الذين كانوا يتتبَّعون المشهد على المباشر.

كان يحاول أن يسترجع كلّ المشاهد لنسيان حدَّة البرد التي نزلت فجأة مع المطر.

لم يلحظ في البداية حتى سيَّارة الغولف السوداء التي اصطفَّت في الجهة اليمنى من أحد تفرُّعات شارع الحرِّيَّة، ذي الاتِّجاه الواحد، ليس بعيدًا عن مخرج الدِّيوان العقاريّ. لم ينتبه لها إلَّا عندما التفت إلى يساره، بالصدفة أو بحاسة شمِّه الذي تستيقظ لحظة الخطر. رآها تتحرَّك بهدوء. لكنَّه، من جديد، لم يعط للأمر أيَّة أهمِّيَّة على الرَّغم من أنَّ حركتها كانت مريبة، إذ كانت تسير بهدوء مقلق، شدَّ انتباهه قليلًا ولكنَّه لم يثره. الكثير من شباب السنوات الأخيرة يسيرون في الطرقات وكأنَّها امتداد لملكياتهم الخاصَّة ومزارعهم. يتسلَّون مع بعض بأن يسيروا بسيَّاراتهم جنبًا إلى جنب، يتحدَّثون ، يضحكون، ولا يعيرون أي انتباه للسيَّارات التي تصطفّ وراءهم في رتل طويل يشبه رتل الأعراس أو الجيش، قبل أن يتفرَّقوا، كلٌّ واحد في اتِّجاه، وكأنَّهم في سباق الرالي.

عاودته برودة الظهر. يعرف جيِّدًا السَّبب. عاوده من جديد وجه الشاب الذي واجهه بمسدَّس بارد، وانتظر أن يطلق النار عليه: «شوف وجهي. أعقل عليَّ مليح. واحدة من اثنتين، يا تبلع فمك، يا نسكته لك». أخذته فجأة بعض الريبة. استحضر كلام رئيس الديوان وحتى صديقه سليم. دار بحوالى ثلاثين درجة، لتسهل عليه مراقبة سيَّارة الغولف السوداء، بدون أن تنتبه لحركته، فرآها تسير بالحركة الأولى نفسها. وقف توقَّفت، واصل واصلت.

عند الزاوية، في مفرق الطرق المؤدي إلى جادة المعدومين، انعطف النمس قليلًا إلى اليسار قبل أن يدخل في شارع البحر الرئيسيّ الذي كانت حركته متوسِّطة في ذلك الوقت. لا يمتلئ مساء إلَّا في شهر رمضان، والأعياد الدِّينيَّة الكبيرة.

كانت سيَّارة الغولف وراءه تسير بالإيقاع نفسه، وكأنَّها كانت تحرسه. هذه المرَّة تأكَّد بأنَّه ليس هو المقصود، لأنَّ المكان يعجّ برجال الأمن الذين يراقبون كلّ شيء. مهما كانت شجاعة القتلة، فهم ليسوا مجانين ليرتكبوا جريمة موصوفة أمام جميع الخلق. هم كذلك يخافون على أنفسهم. ما يزال في رأسه انفعال صديقه الشاوي، وانشداده إلى الكاميرات التي وضعها الأمن لحماية الأمكنة من التفجيرات المحتملة. الحوار العنيف الذي دار بينه وبين مدير جريدة **الشاهد** الذي، بمجرَّد عودته من العمرة، أقاله، كان عنيفًا. لم يخبر النمس نائب مدير الديوان العقاريّ بالإقالة، لأنَّه كان يعرف سلفًا أنَّه لن يستقبله إذا عرف أنَّه أُقيل.

«لكن يبدو أنَّ الشاوي كان يعرف.»

التصق بالحائط أكثر بعد أن جمع حوله معطفه من جديد، من شدَّة البرد. تدحرجت اللَّحظات الهاربة الواحدة تلو الأخرى كأنَّها شريط سينمائيّ.

كانت يومها جريدة **الشاهد** في حالة طوارئ. كلُّ الناس كانوا يعرفون أنَّ المدير في غير يومه. وعندما يكون في هذه الحالة، كلّ من اقترب منه أو جاء في طريقه كما يقال، سيكون أوَّل ضحاياه. استدعى المدير رئيس التَّحرير والنمس معًا. يعرف جيِّدًا أنَّهما لا يحبَّان بعضهما بعضًا. عندما قابلاه كمتَّهمين ينتظران قرارهما النهائيّ، لم ينتق كلماته كما تعوَّد أن يفعل، حتى لا يقلق بقيَّة طاقم الجريدة:

ـ أنت من الآن احزم أمتعتك، ما نحبش نشوفك. أنت عاجز عن تسيير جريدة! رئيس التحرير هو كلّ شيء في غيابي. لستَ قادرًا على الحفاظ على خط الجريدة.

ـ لم أفهم قصد الخط؟

ردَّ رئيس التَّحرير بحيرة طفل غبيّ، في حالة إذلال.

ـ الخط؟ هو أن تفتح هذا الباب وما نزيدش نشوف وجهك.

لم يسأل رئيس التَّحرير عن الأسباب. ربَّما كان يعرفها. خرج ولم يلتفت وراءه، ولم يطلب أيّ تفسير آخر باستثناء ملاحظته الأولى التي أبداها بحيرة. ثمَّ التفت نحو يوسف. كانت صلعته قد تزيَّت عرقًا، وهذا كان يعني بالنِّسبة لمن تعوَّد عليه، أنَّه في أقصى درجات الغضب.

ـ خدعتني يا يوسف. خدعتني وأنا أمضيت العمر أدافع عنك قدام اللّي يسوى واللّي ما يسواش. بهدلتني قدّام الناس الكبار.

ـ لم أفهم يا سيِّدي؟

ـ أكره هذه البراءة المزيَّفة، وكأنَّك لا تعرف! لماذا كتبتَ عن حركة الميناء وقصَّة حاويات السجائر المهرَّبة؟ اتَّفقنا أن لا تعود إلى هذا الموضوع؟

ـ كنَّا متَّفقين أنَّنا نفعل ذلك للتمويه، ونتفرَّغ بشكل جدّيّ لمشكلة العقار. أنا لم أعمل إلَّا وفق الخطة التي رسمناها مع بعض. الذي يهمّني في الوقت الحالي مشكلة العقار. ثمَّ إنَّها الحقيقة. الدولة نفسها أفشت الكثير من الأسرار في جريدة ***الاستقلال***.

ـ لا تهمّني الدولة، هي قوِّيَّة وعندها من يحميها. تهمّني ردود أفعال الناس الكبار!

ـ البارونات؟ مافيا العقار؟ مُلاَّك الميناء؟ رجال الدولة؟ من تقصد بالكبار يا سيِّدي؟

بدا كأنَّه كان يعرف مصيره، ولهذا لجأ إلى نوع من السخريّة المدسوسة.

ـ أنت تعرف جيّدًا من أعني. وتعرف من يقف وراء هذه الصفقات الكبيرة. صحيح أنَّ الجريدة تبيع كثيرًا، ولكنْ أعرف أيضًا أنَّ رأسي سيطير

إذا تجاوزت الخط الأحمر. هل نسيتَ من يموِّل هذه الجريدة؟ أنا لم أنسَ. علينا أن نكون حذرين أيضًا حتى أن لا نكسر أضراسنا بأيدينا[1] Je ne peux pas cracher dans la soupe. أنت تعرف أنَّه في الوقت الحالي، ممنوع الحديث عن حركة الميناء، التهريب، المخدرات، الإسمنت التركيّ والحديد المدوَّر. On ne peut pas etre royaliste plus que le roi[2].

ـ تحدَّثت عن العقار وربطته بالفعل بسوق الإسمنت الدوليَّة! لم أفعل شيئًا أكثر من هذا! من يسيطر على الإسمنت المغشوش، والحديد المدوَّر الذي لا يتجاوب مع المقاييس الدوليَّة؟ من يبني بهذه الموادّ بنايات وطرقات كبيرة، وأنفاق، سيدفع الثمن في السنوات القليلة القادمة؟ الصينيُّون؟ اليابانيُّون؟ الفرنسيُّون؟ ستنتهي عقودهم ويعودون إلى ديارهم!

ـ رجعنا إلى الأسطوانة نفسها.

ـ أنا أقول لك ما كتبته. تعرفه جيِّدًا. حتى قضائيًّا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا، ولا يمكنهم أن يتَّهمونا بالقذف أو أيَّة تهمة أخرى.

ـ رأسي. قلت لك يهمّني رأسي. ما دخلي في القضاء؟ ورَّطتني، وثقتي فيك راحت. ولم أعد قادرًا على الثقة فيك.

ـ طيِّب. فهمت قصدك يا سيِّدي. أنا أيضًا لم أعد قادرًا على تحمُّل هذا الوضع. ما قيل عن جريدتنا حقيقة. شجاعتها مأمورة من فوق هي أيضًا. لا نختلف عن غيرنا!

ـ فوق... تحت... لا يهمّني. أوقف عليَّ رب الميناء. يبدو أنَّ هذا البيت الخرب الذي اسمه ***البيت الأندلسي***، سيأكل رؤوس الجميع بما في

(1) لا يمكنني أن أبصق في الصحن الذي آكل منه.

(2) لا يمكن أن نكون ملكيِّين أكثر من الملك.

ذلك جريدتنا. كلّ الناس يتكلّمون عليه، حتى إنَّ هناك من يقول إنَّ الدار مسكونة منذ قرون بجنِّيٍّ اسبنيولي من أصل يهوديّ، وأقسم أن لا يخرج منها. أكتب يا أخي عن هذه الموضوعات. الناس يحبُّون الكذب والخرافة. إملأْ أدمغتهم المحشوّة بالتفاهات. انسَ حكاية العقار. نوِّمها قليلًا على الأقلّ.

كان يعرف يوسف النمس جيِّدًا، وينتظر مثل هذا الجواب.

ـ أنت تعرفني جيِّدًا. أخطأتَ يا سيِّدي. الشخص الذي تريد منه أن يكتب عن الخرافات ليس أنا. ولا يشبهني في أيّ شيء. أخفِّف عليك مشقَّة القرار، وأكون أكثر وضوحًا منك. إذا لم أكن مخطئًا في تأويلي، تريدني أن أقدِّم لك استقالتي؟

ثمَّ صمت قليلًا وانتظر ردَّة فعل المدير، الذي لم يقل أيَّة كلمة. فهم كلّ شيء.

ـ سأقدِّم استقالتي، ولن أكلِّفك تعب البحث عن الأعذار التي لا تنفع أحدًا. جئت إلى جريدة **الشاهد** بإرادتي، وأغادرها بإرادتي أيضًا.

ـ على كلّ حال، أنت صحفيّ معروف وقدير ولا يُخاف عليك. كلّ الجرائد ترحِّب بك. لن تشكو من البطالة. الإنسان العاقل هو من يحسب للآتي. هناك من هو فوقي أنا أيضًا.

ـ اللَّـه غالب. مليح هكذا؟ اخسر وفارق.

ـ طيِّب. مرّ غدا عليَّ وستجد ملفَّك جاهزًا، وكلّ مستحقَّاتك تنتظرك.

خرج يومها وفي قلبه مرارة عالية، كان من الصعب عليه تحمُّلها من دون شرب كأس قهوة. واجه شارعًا واسعًا لأوَّل مرَّة يشعر بضيقه. مشى آليًّا نحو مقهى الصحفيِّين. شرب قهوة تركيَّة وكأس ماء. حين هم بالخروج، سأله مومو القهواجي:

ـ لستَ على ما يرام يا النمس وليدي؟ خفِّف على روحك. كلّ الناس يتحدَّثون عن شجاعتك وعن حربك. أخشى أن أقول لك إنَّ حربك صادقة ولكنَّها خاسرة. لقد أصبحت في الواجهة.

ـ لم أفعل شيئًا يا عمِّي مومو سوى أنَّني قمت بعملي كصحفيّ. أفهم اليوم جيِّدًا لماذا هجر أصدقائي هذه البلاد. لقد تعبوا كثيرًا. وأنا أيضًا تعبت، وأقف على الحافة، أيَّة هزة ريح يمكن أن ترميني في الفراغ. لا أدري يا عمِّي مومو، لكنِّي أحمل في ذاكرتي دمًّا ووجوهًا لأناس ماتوا وهم يقولون ما يشعرون أنَّه حقيقة فقط. لم يكن قصدهم الإيذاء. هم أصلًا أضعف من أن يؤذوا حتى أصغر حشرة.

ـ تقول إنَّ البيت ستأخذه شركة مقاولة التعمير والأبراج؟ ماذا سيفعلون به؟

ـ طبعًا سيهدمونه. من حقّ المشتري أن يفعل ما يشاء بملكه. إنَّها أرضه. يريدون أن يبنوا برجًا عاليًا فيه البيوت، والأسواق الحرَّة، ومكاتب الشركات العالميَّة والمحلِّيَّة التي دخلت ميدان الإيراد والاستيراد.اقترحنا على الدولة شراءه وإعادة تهييئه وإرجاعه إلى وضعه الثقافيّ القديم، ولكنَّها غير معنيَّة بذلك. لا صوت لمن تنادي!

كانت القهوة مُرَّة أكثر ممَّا تعوَّد أن يتحمَّل. شربها ثمَّ غادر المكان.

شعر يوسف النمس بثقل جسمه، ومع ذلك مشى ملتصقًا بالحائط درءًا للبرد والمطر.

غادر شارع *البحر* قبل أن ينغمس في اتِّجاه شارع *العطّارين* الذي لا يوجد به أيّ محلّ، ما عدا محطَّة بنزين خاصَّة يتمّ التَّحضير لإزالتها من المكان، لأنَّ مترو الأنفاق سيمرّ تحتها بالضبط، وأصبحت جدّ خطرة على المارَّة وسكَّان الحيّ. مشى قليلًا عندما انتبه هذه المرَّة أنَّ سيَّارة الغولف

كانت تسير في الاتِّجاه المعاكس، والمواجه له، وكأنَّها كانت تعرف مساره سلفًا. تعوَّد على هذا الطريق المؤدي في النهاية إلى الحديقة الوطنيَّة، ثمَّ إلى بيته في الحيّ الشعبيّ.

عندما وصل إلى محطة البنزين، حاذته الغولف قبل أن يرفع رأسه بزاوية عشر درجات فقط. وكأنَّ الحديد تقاطع مع الحديد، وقع فجأة وجهه على وجه الشاب الجميل الذي يتذكَّر جملته الباردة كرصاصة. نظر إليه بالنظرة نفسها وهو يرفع مسدَّسًا طويل الماسورة. كاتم صوت. في لحظة خاطفة، تساءل هل يهرب، أم يميل قليلًا لتفادي الرَّصاصة الأولى والركض بأقصى سرعة للتخفِّي وسط المحطَّة التي كانت بها بعض السيَّارات؟ رمى بمحفظته في وجه القاتل، فارتطمت الرصاصات الأولى بجسم المحفظة الخشن، المليء بالأوراق والصور. واحدة من الرصاصات، انحرفت نحو صدر عامل المحطة الذي ارتمى بين رجليه، قبل أن يزحف وراء المحطَّة. الشيء الوحيد الذي كان متأكِّدًا منه هو أن القاتل لن يطلق النار على محطة البنزين، لأنَّ ذلك سيؤدي إلى كارثة أكيدة، وإلى اشتعال المنطقة بكاملها. إحدى الطلقات مرَّت بالضبط فوق رأسه قبل أن تلتصق قي عمق الحائط الخلفي القديم، الذي ما تزال عليه آثار رصاصات انقلاب 1965 التي لم يردمها الزمن، في شكل حفر كثيرة ومتجاورة. تداخلت مع رصاصات مظاهرات 5 أكتوبر، ورصاص الجيش في 1994. نوع الرصاص ظاهر باتِّساع الثقوب التي تركها وراءه. الأولى، كانت صغيرة، يبدو أنَّها لكلاشينكوف، وأُطلقت بسرعة، ربَّما للتخويف لكي لا يخرج الناس من بيوتهم. النوعية الثانية كانت متفاوتة الأحجام، من رصاص مسدّسات، إلى رصاص أسلحة أوتوماتيكيَّة. الأخيرة استعملت فيها الأسلحة الثقيلة، لأنَّ الثقوب كانت كبيرة ، وقد خلَّفت وراءها فجوات واسعة، كان الحمام يلجأ لها كلّ مساء. لا أعتقد أنَّها للتخويف، ولكن للقتل. وربَّما تكون قد قتلت لأنَّها دخلت في صلب البناية.

خاف القاتل، ذو الوجه الحديديّ البارد، من صراخ أصحاب السيَّارات، ونساء الطوابق العليا، فانطلقت سيَّارة الغولف هذه المرَّة كالسَّهم الحارق في الاتِّجاه المعاكس نفسه، قبل أن تغيب في شارع *البحر*. وصلت سيَّارة الشرطة التي كانت على بعد خمسين مترًا متأخِّرة جدًّا. كانت الغولف السوداء قد غابت نهائيًّا.

عندما رفع الشاب الجريح رأسه، كان كلّ شيء مغلقًا وأسود. زاد تألُّمه. حاول يوسف أن يسعفه. كان يشخر بين يديه ويرتعد. كلماته تخرج من صدره في شكل حشرجات متقطِّعة.

ـ يا خو... يرحم والديك... أنا خاطيني... هزّني للمستشفى، ما نحبش نموت.

المارَّة القليلون الذي عبروا بالقرب منهما، لم يتوقَّفوا. زادوا في سرعة خطاهم. التفت وراءه من كلّ الجهات وهو يحاول أن يضغط على الجرح الذي اخترق صدر الشاب. لم ير أحدًا. انطفأ صاحب المحلّ نفسه، وكأنَّ المحطَّة كانت دائمًا مغلقة وخالية. انسحب بائع السجائر الذي كان متَّكئًا على الحائط، وهرب أصحاب السيَّارات مخلِّفين سيَّارتهم في أمكنتها. بدا له فجأة المكان مقفرًا والناس متواطئين مع الجريمة.

كان الشاب ما يزال يرتعش بين يديه. نزع يوسف النمس معطفه على الرَّغم من البرد والمطر. ثمَّ غطاه كلِّيًّا.

ـ يا خو... يرحم والديك... ما نحبش نموت.

ـ ولا أنا. ما تخافش، لن تموت. طلبت الإسعافات، لن يتأخَّروا في الوصول. لا تتحرَّك كثيرًا، أرجوك. أنا سأضغط على جرحك حتى لا يسيل الدم كثيرًا. أصبر فقط.

في لحظة من اللَّحظات، فكَّر في الهرب كغيره، ولكنَّ الشاب حجَّم من كلّ حركاته. الناس عرفوه، وأيّ هروب سيتلوه احتقاره لنفسه أوَّلًا، ثمَّ احتقار الناس الذين رأوه! ماذا سيقولون؟ أيُّ جبن؟ هرب وتركه ينزف حتى الموت؟...

لم يشعر بجسده إلَّا عندما ساعده أحد رجال الإطفاء على النهوض. كان صوت الرجل يصله متقطِّعًا وطيِّبًا.

ـ قم يا خويا... قم... أنت في مأمن، الحمد لله. لقد ذهب القتلة.

ـ مش أنا الجريح، ولكن هذا الشاب!

انتبه من جديد إلى المحيط. لم ير أحدًا إلَّا رجال الإطفاء الغارقين في أحذيتهم الطويلة. كان الجوّ مقفرًّا وكأنَّه الجوّ الذي يسبق القيامة. لا أحد أبدًا. حتى المرأة التي رمت البطَّانية الصوفيَّة من أعالي البناية، أغلقت النافذة. ثمَّ انسحبت نهائيًّا من المشهد:

ـ هل تشعر بالبرد؟

سأل يوسف الشاب وهو يلملمه أكثر في البطانيَّة ويستعيد معطفه.

ـ أحسن شوي. لا تتركني... اللّـه يسترك.

ـ اهدأ فقط. أنا معك... رجال الإطفاء سيساعدونك أحسن منِّي. لا تخف.

«كلانا في الموت، تمتم يوسف النمس في خاطره. وكلانا خائف منه، لكن كلّ واحد بطريقته. أنت الآن تحت رحمته مباشرة، وأنا من شدَّة معاشرته، نسيت وجوده. لا أتذكَّره إلَّا عندما يوقظني الرصاص من غفوتي.»

التفت يوسف نحو رجال الإطفاء الذين شكَّلوا حلقة حولهما:

ـ يا اللّـه عاونوني. الشاب ينزف كثيرًا.

زحلقوا محمل الإنقاذ المعدنيّ تحت جسم الشاب بحذر. ثمَّ حقنوه، بينما كان أحد رجال الإطفاء يقبض على كيس المصل حتى يسمح للدواء بالتدفُّق بشكل طبيعيّ. حاولوا أن يوقفوا النزيف، أو يخفِّفوا منه. ثمَّ حملوه في اتِّجاه المستشفى. عادت سيَّارة الإسعاف إلى عويلها، بينما كانت سيَّارة الشرطة قد وصلت في اللَّحظة نفسها. سأله أحدهم بشكل آليّ، يكاد يكون عدوانيًّا. يحمل في يديه كرّاسة صغيرة وقلم رصاص. كان وجهه باردًا كالموت.

ـ شكون أنت؟ وواش تخدم؟

لم يرد يوسف أو لم يسمع. كانت كلماته قد ماتت في حلقه.

ـ قلت لك شكون أنت؟ واش تخدم؟ كرَّر الشرطي.

مدَّ يوسف يده نحو بطاقته المهنيَّة المخبَّأة في جواربه. ثمَّ سلمها له. هزَّ الشرطي رأسه بعد أن اطّلع على البطاقة:

ـ صحفيّ؟ ما دمت تخاف على نفسك، وتخبِّئ هويَّتك المهنيَّة في جواربك، ماذا تفعل في هذا الحيّ المريض؟ كان يمكن أن تُقتَل.

ـ الصدفة بنت الكلب يا سيِّدي. الصدفة العمياء هي التي أتت بي إلى هنا.

ـ احذر من الصدفة، فهي أحيانًا قاتلة.

ـ معك حقّ، ولكنِّي لا أستطيع. لأنَّ بيتي ليس بعيدًا عن الحديقة الوطنيَّة.

ـ اللّـه يعينك. Une horde dehors la loi[1].

ـ أنا متعب يا سيِّدي. لم يلحقني أيّ أذى، أريد أن أذهب.

(1) زمرة من الخارجين عن القانون.

عندما أراد أن ينسحب، أوقفه ضابط الشرطة الذي ظلَّ يتأمَّل آثار الدم على صدره:

ـ اركب معنا. نريد أن نستمع إلى إفادتك. أنت الشاهد الوحيد في هذه الجريمة.

كان يوسف منهكًا وغير قادر على مواصلة الحديث، ولا حتى مناقشة صدفة وجوده في هذا المكان وفي هذا الوقت بالذات. استسلم لهم من دون أدنى مقاومة. عندما أراد أن يستعمل تلفونه النقَّال ليخبر ذويه وأصدقائه عن مكان تواجده وأسباب تأخُّره، أخذه منه الشرطيّ:

ـ ليس الآن. سنعيده لك بعد التحقيق.

ـ أريد أن أخبر أهلي وأصدقائي الذين ينتظرونني.

ـ بعد التحقيق. جريمة ارتكبت! وأنت الشاهد الوحيد فيها.

ـ لست الشاهد ولكنِّي الضحيَّة.

ـ الضحيَّة أخذها رجال الإسعاف. اركب.

قال الشرطيّ ذو الوجه البارد.

شعر بكلّ ما يحيط به ثقيلًا. جسده نفسه أصبح مثل كتلة رصاص. أخذوه. لم يمسّوه بأيّ ضرر، كما روى لسليم في تلك اللَّيلة. لم يهدِّدوه. ولكنَّهم سجَّلوا إفادته فيما يتعلَّق بكيفيَّة التَّعدِّي على الشاب العامل في محطَّة البنزين. وعندما أراد أن يقدِّم شكواه الخاصَّة، ظنُّوه مهبولًا. قالوا له عد إذًا عندما يصفو ذهنك ونسجِّل كلّ ما تريده. الآن، نحن أمام وضعيَّة إنسان هو الآن بين الحياة والموت. في النهاية اعتذر منه الشرطيُّ الشابّ الذي كان يقف في الخلفية بلا أيّ كلام. كان يعرفه جيِّدًا. عند الباب اعتذر منه:

ـ أعرفك جيِّدًا يا يوسف. عذرًا. نقوم فقط بواجبنا لا أكثر. وضع عام معقَّد، أتعبنا جميعًا وأخرجنا عن تعقُّلنا. أرجوك أن لا تخرج الآن. هل هناك من يأتي لأخذك؟

ـ يكثِّر خيركم. أنا أيضًا متعب. أنتظر وصول صديقي. كلَّمته ولم يتأخَّر.

جاءه الشرطي الشاب بكرسيّ أحسن من الكراسي الحديديَّة التي كانت تملأ قاعة الانتظار.

ـ ارتح قليلًا. أنت متعب.

أغمض يوسف عينيه قليلًا لكي لا يرى شيئًا، لا القاعة ولا الكراسي، ولا الشرطيّ الشاب، ولا السكارى الذين كان يؤتى بهم ليلًا، ولا صرخاتهم، ولا عواء الذئاب الذي كان يُسمع قريبًا، على سفح جبل الملك كوكو، ولا حتى صومعة الجامع التركيّ القديم التي كانت تقابله بشموخها من وراء النافذة المتآكلة من شدَّة الرطوبة، بأضوائها الخضراء والحمراء في أعاليها. حاول عبثًا أن يتخيَّل أنَّ كلّ ما حدث له لم يكن إلَّا كابوسًا طارئًا لا أكثر، ولكن رائحة الدَّم التي ملأت يديه ووجهه ولباسه ذكَّرته بالشاب الذي كان يصارع الموت، لا لشيء سوى أنَّ الرصاصة التي أخطأته وكان يفترض أن تقتله، أصابت شابًّا طيِّبًا لا علاقة له في هذا الخراب.

جاءه الشرطيّ الشاب ببطّانيَّة جديدة أخرجها أمامه من غمدها البلاستيكيّ، وكأنَّه في سفرة على متن طائرة في رحلة طويلة:

ـ الصالة باردة جدًّا يا السي يوسف.

فوجئ يوسف أنَّه ناداه باسمه. كأنَّ الشرطيّ قرأ ذلك في عينيه.

ـ أعرفك جيِّدًا وأتابعك. يعطيك الصحَّة. لو كان كلّ الصحفيِّين مثلك!

قالها بحسرة. ثمَّ غطَّاه بالبطَّانيَّة.

ـ تدفأْ قليلًا حتى يصل صاحبك. أعرف أنَّك متعب. ارتح، وعندما يصل سأخبرك.

ـ يكثِّر خيرك.

خرج. أطفأ النور. ثمَّ سحب الباب وراءه قليلًا.

لأوَّل مرَّة، طوال اليوم، يشعر يوسف النمس براحة. أغمض عينيه بتثاقل. حاول مرَّة أخرى أن ينسى كلَّ شيء. كلّ شيء بما في ذلك وجه الشاوي، مدير *الشاهد*، القاتل الذي كاد يلامس وجهه بكاتم الصوت، شاب محطَّة البنزين الذي ظلّ ملتصقًا بيده، يطلب نجدته. حاول أن يمحو كلّ صور اليوم، وأن لا يتذكَّر إلَّا وجه كاهنة المنزلق دومًا نحو فراغات البياض التي تغطِّيه حتى يتماهى فيها، كلَّما استحضرها وفكَّر فيها قليلًا.

فجأة، سكن كلّ شيء ولم يسمع إلَّا سيَّارات الإسعاف وهي تخترق شارع البحر الواسع، وهدير الموج الذي كان يتكسَّر عند قدميه هو وكاهنة في آخر مرَّة، وهي تسند رأسها على كتفه الأيسر القريب من نبض القلب، وتنظر إلى عينيه الشاردتين في الفراغ.

من أوراق سيدي أحمد بن خليل
المدعو «غاليليو» (3)
الورقة السابعة

حكاية دخول غاليليو إلى قصر الآغا حسن كمترجم، وخوفه.
قصَّته مع الرَّهينة، الرجل الأحمر، ميغيل سرفانتس،
وما جرى له ولأصدقائه في سجن مالكه دالي مامي من مصائب وأهوال.
سفر رودريغو للحصول على الفدية، ثمَّ عودته على متن سفن حربيَّة.
أسرار العلاقة بين حسن فينيزيانو وميغيل، وأحلام زريدة، طليقة الأمير الفاسي.

شتاء 1575

أغمضت عينيَّ لكي لا أرى شيئًا، وأصدِّق فقط أنَّ ما كان يحدث أمامي كان حقيقة، ولم يكن مجرَّد حلم عابر. لا أدري أيَّ قدر قادني نحو حسن فينيزيانو، ولكنَّني وجدت نفسي في قصره. لم يكن شتاء 1575 عاديًّا. كان باردًا وجافًّا. إضافة إلى أنَّ السنة كانت سنة فيضانات، سحبت

وراءها الكثير من الناس والبنايات في القصبة، وجعلت البحر يأكل جزءًا من سوق العبيد.

كلُّ شيء كان وليد الصدفة الغريبة. كنت أسمع بالآغا حسن فينيزيانو، وأعرف عنه الكثير. أسمع بودِّه، وأحيانًا بجبروته وبحبِّه للمال. في أحيان أخرى بجنون الحكم الذي كان ينتابه، فلا يفرِّق بين صديق وعدوّ. في العديد من المرَّات كانت تصلني أخبار كثيرة من الرايس حميد كروغلّي، عن لطفه ومحبَّته وطيب معاملته مع سجنائه ومن يثق فيهم. كان كلَّما ذكره، كأنَّه يتحدَّث عن عشيقة وليس عن رجل. حتى إنِّي شكَّكت في إمكانيَّة حدوث علاقة سرِّيَّة بينهما، خصوصًا أنَّ حسن فينيزيانو كان معروفًا بهذه الصفة. كان قريبًا من الانكشاريَّة لتفادي شرّهم، ولكنَّه لم يكن يحبّ جشعهم وغطرستهم وحتى جهلهم. كان يراهم مجرَّد سفينة حربيَّة مآلها في النهاية البحر وأسماك القرش. حذرًا جدًّا من تقلُّبات أمزجتهم التي كانت تصل إلى حدّ ارتكاب الجرائم لأسباب تافهة، وقتل من لا يروق لهم من الحكَّام. قبل شهور قليلة، كانت مجموعة منهم تعبر بالقرب من مسجد الإمام عثمان في دوريَّة عاديَّة، سقطت على رأس قائدهم قطعة صغيرة من قرميد مكسور، فأدمت رأسه قليلًا. نظر نحو الأعالي، فلم ير أحدًا إلَّا حمامات مذعورة، سرعان ما طارت رعبًا عندما التقى نظرها بنظرهم. أمر القائد باقتحام المسجد وتفتيشه. كان الناس يستعدُّون للصلاة. طلب من جنده أن يختاروا من كلّ صف من الصفوف السبعة للمصلِّين رجلًا. ثمَّ سأل المصلِّين عن الشخص الذي رماه بحجرة من أعلى المسجد، ثمَّ تخفَّى بين المصلِّين. لم يجبه أحد. سأل ثلاث مرَّات السؤال نفسه. في المرَّة الرابعة أمر بذبح أوَّل السبعة المختارين من الصفوف، على مرأى من الجميع. ثمَّ سأل مرَّة أخرى ثلاث مرَّات، فلم يرد أحد. ذبح الشخص الثاني ببرودة دم. فعل الشيء نفسه بعدها،

فلم يجبه أحد. ذبح الثالث. والرابع. في اللَّحظة التي كان يريد أن يذبح الشخص الخامس الذي تمرَّغ في الأرض وهو يصرخ أنَّه مظلوم، وأنَّ له خمسة أبناء وأمّ عمياء وزوجة زحّافة، خرج من آخر الصفوف، الصفّ السابع، شاب في مقتبل العمر. تأمَّل الجميع بعينين هاربتين، وقال منحنيًا عند رِجْلي قائد الانكشاريَّة: سيِّدي أنا من ألقى عليكم الحجرة.

«ـ قطعة قرميد مكسورة، يا حمار، وليست حجرة.

ـ عفوًا، قطعة القرميد المكسورة، الخوف عقد لساني يا سيِّدي.

استلَّ قائد الانكشاريَّة سيفه الثقيل، ثمَّ نزل على رأس الشاب، ففصله عن الجسد في لمحة البصر.

ـ شجاعتك كبيرة، ولكنَّك تأخَّرت كثيرًا.

التفت نحو المصلِّين المذعورين:

ـ هل تدرون لماذا قتلته؟

هزَّ المصلُّون المذعورون رؤوسهم أن لا.

ـ قتلته لأنَّه كذب عليَّ، وأنا لا أريد القوم الكاذبين.»

ثمَّ خرج متبوعًا بمجموعته وهم يجرُّون الأشخاص الثلاثة الذين اختارهم القائد لدفع الثمن. ذُبِحوا جميعًا عند عتبة المسجد. ثمَّ واصلوا تحرُّكهم داخل المدينة.

هذا المزاج كان يخيفني. أسوأ ما في هذا البلد هم الانكشاريَّة. كانوا إذا مرُّوا على مكان ولم يعجبهم، دمَّروه، أو رأوا امرأة أكلوها حيَّة بعد أن يغتصبوها بالدور، واحدًا واحدًا.

لهذا كانت عاطفتي تجاه حسن فينيزيانو طيِّبة لأنَّه يكرههم، كما فهمت من الرايس حميد كروغلّي.

كان الرايس كروغلّي برفقتي في دخولي الأوَّل على حسن فينيزيانو. شجَّعني، وكان سعيدًا أكثر منِّي. من حين لآخر يربِّت على كتفي مطمئنًّا:

ـ عارف أنَّك ستشرِّف نفسك وتشرِّفني معك. أخلاقك، ثقافتك العالية، لغاتك، تواضعك، كلّ هذا سيقرِّبك من فينيزيانو، لأنَّه يحبّ الناس الذين يشبهونك.

عندما قال هذه الجملة الأخيرة شعرت بتقزُّز غريب في داخلي. ومع ذلك افترضت أنَّ طيبته هي التي تحرِّكه. في أعماقي، لم أفصل ذلك عن عقليَّة القرصنة التي تكون سفن أعالي البحار قد خلَّفتها فيه.

ـ أنا لا أعرف يا سيِّدي ما هي وظيفتي بدقَّة، باستثناء الترجمة؟

ـ وهذه مهمَّة ليست سهلة. أنت تعرف أنَّ المترجمين يتحكَّمون أحيانًا في قرارات سادتهم! يمكنهم في جملة لم تترجم بشكل غير دقيق، أن يشعلوا حربًا كبيرة. ولهذا يجب عليك أن تكون حذرًا إلى أقصى قدر.

ـ من هذه الناحية لا مشكلة لديَّ.

ـ في الوقت الراهن، هذا هو المطلوب منك فقط. بعدها سنرى كيف تتطوَّر الأمور. شيء واحد في فينيزيانو، أنَّه لا يريد من يعانده ويركب رأسه. طلباته أوامر.

لا أدري كيف تلقَّيت الجملة الأخيرة أيضًا بخوف وبرودة غريبة. علقت بذهني بسرعة. حاولت أن أنساها، ولكنْ عبثًا، كانت في كلِّ مرَّة تعود وتقف أمامي كالثعبان الأسود.

كان قصر حسن فينيزيانو جميلًا. يقع وسط غابة من الصنوبر والأشجار ذات النوّار الملوَّن، البنفسجيّ، والبرتقاليّ، والورديّ، والأصفر، تغطِّي الأسقف والأسطح العالية. عندما تخطَّينا الفحص، ودخلنا في

عمق الصحن الذي كانت تتوسَّطه نافورة تقذف بالماء عاليًا، رأيت الناس يتحرَّكون في كلِّ الاتِّجاهات، أغلبهم نساء من الخدم، والجواري اللواتي يمررن بسرعة البرق منحنيات الرؤوس، لا يلتفتن شمالًا ولا يمينًا، ولكنَّهنَّ قادرات على رؤية كلّ التفاصيل التي تحصل في الصحن من دون أن يلمح نظرتهن الواسعة أحد.

جرَّني الرايس نحو رجل ضخم كان يتَّكئ على عصا خشنة من الزبوج، ونظرته قاسية. قال:

ـ هذا مولاي أرناؤوط مامي سيِّد البحار السبعة، وبجانبه ذراعه الأيمن: دالي مامي.

لم يثرني أرناؤوط مامي، المعلِّم الكبير، بقدر ما أثار انتباهي دالي مامي. قلت في خاطري وأنا أتنفَّس بصعوبة: «إذًا هذا هو الرجل القاسي الذي يخافه كلّ البحّارة! الكوخُّو[1] الذي أذلّ كلّ البحار!»

انحنيت وحيَّيتهما برأسي. حرَّك أرناؤوط مامي رأسه، ولم يحرِّك الكوخُّو حتى عصاه.

ـ هذا هو المترجم؟

قالها بنوع من التعالي وهو يتفرَّسني من أخمص قدميَّ حتى شعرة رأسي. أعتقد أنَّه لم يَر وجهي أبدًا، لأنِّي ظللت منكسر الرقبة، منحنيًا قليلًا.

ـ نعم. أنا متأكِّد من أنَّ سيِّدي سيحبّه.

ـ المهم أن يكون دقيقًا وإلّا اللّـه يرحمه.

---

(1) من الإسبانيَّة El cojo، وتعني الأعرج.

أخافني كلامه أكثر ممَّا أخافني هو. منذ أن دخلت البحر، تعوَّدت على هذه النوعية من البشر، وعرفتهم عن قرب. واستخلصت القاعدة الحيَّة: ضرورة الابتعاد عنهم، وتنفيذ أوامرهم من دون التظاهر بالذكاء. الذكاء كثيرًا ما يقلقهم ويزعجهم في راحتهم.

نادانا أحد الحرَّاس. كان أرناؤوط مامي قد غادر المكان. فدخلنا. تبعنا دالي مامي بعد لحظات قصيرة. هو أيضًا بدا صغيرًا عندما تخطَّى عتبة الصالة الواسعة جدًّا كرحبة خيَّالة. رأيت شبابًا كأنَّهم كانوا يخرجون من ماخور، مليئين بالمساحيق على الوجه، شفاههم جميلة محروقة من كثرة استعمال السواك. ثمَّ اصطفَّ الجميع في انتظار دخول حسن فينيزيانو. لم يأتِ، ولكن امرأة خرجت من أحد الأبواب وجاءت مباشرة في اتِّجاهي. طأطأت رأسها في عادة آسيويَّة قديمة. سألتني بلغة إسبانيَّة أنيقة:

ـ موريسكو.

ـ سي سنيوريتا. نعم. أنا من موريسكيّي غرناطة.

ـ سي. يو مريسكو دي سيفيا(1).

ثمَّ أمرتني بالدخول وراءها.

كان حسن فينيزيانو جالسًا على راحته. فاتحًا رجليه عن آخرهما. في كفِّه منشَّة لدرء الذباب. قبل حتى أن أنحني احترامًا لمقامه، سألني:

ـ أنت هو الموريسكي المترجم؟ تعرف لماذا جئنا بك؟

ـ ما يريده سيِّدي.

---

(1) ـ موريسكي؟
ـ نعم يا آنسة. أنا من موريسكيِّي غرناطة.
ـ أنا من موريسكيَّات أشبيليا.

ـ أريدك أن تكون ليس فقط مترجمًا عاديًّا، ولكن مرافقًا لهذا الإسبانيّ. رأسه يساوي نصف المحروسة، ولا أريده أن يتضايق فيفكِّر في الهرب.

ثمَّ كلَّم المرأة التي أخذتني باللُّغة الفينيسيَّة. فهمت جيِّدًا ما قاله لها.

ـ أريده أن يكون معه دومًا حتى يأتي من يستلمه. أنتِ المسؤولة عليهما.

ـ أمر سيِّدي.

ثمَّ التفت نحوي من جديد.

ـ أنت تعرف جيّدا ما يجب عليك فعله. رأسه يساوي خمسمائة دوقة ذهبيَّة، وأكثر. لا أريدها أن تضيع منِّي في الفراغ. اشتريته غاليًا من دالي مامي ذراع الرايس أرناؤوط مامي.

ـ دالي مامي هنا أيضًا. هل يريد سيِّدي أن أدخله؟

ـ لا أريده الآن. رأيت سيِّده قبل قليل، أرناؤوط مامي.

ثمَّ انسحبت المضيفة نحو الزاوية. من حين لآخر تتقاطع نظراتنا الضائعة في فراغ مبهم.

ـ يمكنك أن تقيم في القصر، فهو واسع يا...

ـ غاليليو... سيِّد أحمد بن خليل، إذا شئتم يا سيِّدي.

انتابتني رجفة داخليَّة، ولكنِّي قلت له ما كنت أفكِّر فيه. هذه ملاحظة كثيرًا ما وجَّهتها لي لالة سلطانة عندما تراني متحمِّسًا جدًّا «خفِّف من حماسك لمن تحبّ أو تكره، حتى تكون الخيبة واهتزاز يقينك أقلّ وقعًا».

ـ لي زوجة في أعالي القصبة. أنا قريب من هنا، ويمكنني أن أحضر متى طلبني سيِّدي، وفي الأوقات التي يحتاجني فيها. يمكنني أن أرافق الضيف أينما شاء مولاي. وإذا رأيتم غير ذلك، فأنا مستعدّ.

صمت قليلًا. حكَّ على رأسه الفرطاس، ثمَّ علَّق:

ـ ممكن. المهمّ أن لا يشكو ضيفنا من الوحدة. أحبّ الناس الذين لهم شخصيَّة وأكره القوم التابعين.

ثمَّ نادى على المضيفة التي كانت واقفة كتمثال من الشمع.

ـ زريدة، أدخلي الرهينتين.

دخلا. كانت نظراتهما ضائعة، يبحثان عن أيّ شيء يلتصقان فيه. وقفا بجانبي تمامًا. نظر إليَّ الرجل الأحمر. شعرت كأنِّي أعرفه وكأنَّه يعرفني. هزّ رأسه قليلًا. هززت رأسي قليلًا، بحيث لم يحسّ بحركتي إلَّا هو. كان نحيفًا وأصفر، ربَّما من شدَّة الخوف ومن حين لآخر يحكّ معصمه على سرواله. ذراعه اليسرى لا تتحرَّك، خمَّنت أنَّها مكسورة أو غير موجودة أصلًا.

التفت فينيزيانو نحوي وكأنِّي كنت المعنيَّ الوحيد بهذه الوضعيَّة.

ـ هذان محاربان إسبانيَّان، ولكنْ يبدو أنَّهما مهمَّان، خصوصًا الرجل الأحمر ميغيل سرفانتس، أو ثربانتس كما ينطقونها هم في إسبانيا. قوَّمتني زريدة كثيرًا. رودريغو أخوه سيعود إلى إسبانيا ليوصل شروطنا لإطلاق سراح الضيفين، وبقية الأسبان المحجوزين لدينا. نحن لا نؤمن بكلمة الرهينة، فليس لدينا رهائن. نحن نستضيفهم فقط، حتى يتذكَّرهم أهلهم، ويختبرون حبّ ذويهم لهم.

كنت أترجم بسرعة للإسبانيِّين وهما يهزَّان رأسيهما، ويشعران ببعض الراحة ممَّا كنت أقوله لهما، بلغة لم تكن غريبة عنهما. وكان عليَّ أن أكون دقيقًا، لأنِّي كنت متأكِّدًا من أنَّ فينيزيانو يعرف الإسبانيَّة والإيطاليَّة، وأنَّ المحيطين بنا من ريَّاس البحر، وخدم، فيهم من كان يتقن الإسبانيَّة أيضًا، بشكل دقيق.

شيئان بقيا من اليوم الأوَّل، الوجه الصبوح لزريدة التي تشتغل في القصر كمضيفة في خدمة حسن فينيزيانو، ثمَّ أعتقد أنِّي كسبت ثقته الكبيرة، لأنِّي لم أغرس في قلبه أيّ شك. وكنت سعيدًا. وجود الرايس حميد كروغلّي معي زاد من ثقتي. لا أدري كم ربح هو أيضًا من قطعة ذهبيَّة، من حسن فينيزيانو، على ظهري، لكنَّ ذلك لم يكن مهمًّا. لا شيء عند الريَّاس يتمّ من دون مقابل.

أكَّد لي الرايس كروغلّي مرَّة أخرى ما سمعته من فينيزيانو:

ـ تبقى معهما اليوم كلّه، ولا تغادرهما إلَّا عندما يريدون. رافقهما داخل القصر، وداخل الفحص أيضًا. لا أريدهما أن يحسّا بأيّ ملل حتى يأتي من يسترجعهما من مدينتنا. السجن أتعبهما كثيرًا. أنت تعرف أنَّهما لم يعرفا قيمتهما إلَّا عندما شكّ فيهما الرايس دالي مامي، فأخبر سيِّده أرناؤوط بأنَّه يريدهما، فتنازل له عنهما مقابل مبلغ زهيد، ورفض أن يبيعهما في السوق العاديَّة. احتفظ بهما في الحجز حتى يرى ما يمكن أن يفعله بهما، قبل أن يقنع حسن فينيزيانو بشرائهما.

ـ طلبات سيِّدي أوامر.

ـ المدينة في الوقت الحالي ممنوعة عليهما. ولكن ستُفتح أمامهما، إذا بدا أنَّهما لا يريدان الهرب.

ـ سأكون برفقتهما الدَّائمة.

وكما كان مخطَّطًا له، بعد أيَّام قلائل، غادر رودريغو ميناء الجزائر باتِّجاه وهران ثمَّ الجزر الجعفريَّة. الأمر تمَّ بشكل غريب. بعد خيبة لم يكن ينتظرها أخوه، الرجل الأحمر، ميغيل سيرفانتس، كان في قمَّة حزنه بعد زيارة رجال الدِّين الثلاثة المحروسة لإنقاذ الرهائن. الذي كسره وأدخله في غيمة سوداء، هو أنَّه عندما وصل رجال الدين الثلاثة، لم يسألوا لا عنه ولا عن وضعه. فراي جورج دي أوليفار(1)، فراي جورج دي أونغاي(2)، وفراي جيرونيمو أنتيش(3) نسوه تمامًا وهم يقدِّمون قوائم من يجب إنقاذهم. فقد وصل الثلاثة إلى المحروسة، محمَّلين بكمِّيَّات كبيرة من النقود والذهب والسلع. اتَّخذ دالي مامي قرارًا مهمًّا عندما عرف تواضع ما كانوا يحملونه معهم، احتفظ بقسطه الخاصّ، ونصحهم بدفع فدية أخ سرفانتس، رودريغو التي كانت 300 دوقة، والعودة به على الأقلّ إلى إسبانيا أحسن من لا شيء. وهو ما حصل بالفعل. لم يقبل ميغيل بهذا القرار، فقد شعر بمرارة الإهمال، ولكنَّه سرعان ما احتضن أخوه وهو يذكِّره:

ـ أرجو أن لا تنسيك حروب دون خوان النمساويّ أخاك. قلِّل من مغامراتك ويقينك، أرجوك.

ـ لا تهتمّ. سنخرجك من هنا. سأجمع الفدية وأعود إلى... هذه الأرض.

فهمته بسرعة. قرأت ما في قلبه. كان يريد أن يقول: عش القراصنة هذا، فغيِّرها بالأرض.

---

(1) Fray Jorge de Olivar.

(2) Fray Jorge de Ongay.

(3) Fray Géronimo Antich.

كان الرجل الأحمر، ميغيل سرفانتس، يسألني دائمًا أسئلة غريبة، ويريد أن يجرّني نحوه، بدون أن تغادر عيناه وجه زريدة الصبوح التي تأتي من حين لآخر لتبلغنا بآخر الأخبار. يسحبني باستمرار نحو الحديث عن الأندلس، ولا يتوانى عن نقد ريَّاس البحر ومحاكم التفتيش المقدَّس، وينتظر طويلًا أن يعرف رأيي. كنت دائمًا أذكِّره بأنِّي مجرَّد مترجم صغير ولست شيئًا آخر. كنت أرفض أن أزجّ نفسي في دائرته. حتى إنِّي في إحدى المرَّات، وكانت زريدة واقفة وقفتها الاعتياديَّة، التي لم تعد مريبة، إذ اختبرناها في العديد من المواقف، فاحتفظت بأسرار كانت صغيرة وغير مهمَّة، ولكنَّها احتفظت بها. هي التي أعطتنا صورة دقيقة عن طباع كلّ من كان في القصر وزوَّاره أيضًا.

عندما كثرت أسئلته الغريبة، قلت للرجل الأحمر، في حضرة زريدة:

ـ يا سيِّدي ميغيل سرفانتس...

ـ قل ميغيل أحسن من هذه السِّلسلة الطويلة، وأناديك غاليليو.

ـ طيِّب. سيِّد ميغيل، الماضي، لقد وضعت كلّ الماضي ورائي، وأنا أقوم بعمل أعرف حدودي فيه جيِّدًا. لي امرأة تركت كلّ شيء وراءها، وجاءت لتعيش معي، لا أريد أن أخذلها بموت مبكِّر.

ـ أنا لم أطلب منك ذلك...

أجاب بقلق وحيرة.

ـ كنت فقط أريد أن أعرف قليلًا عن مدينة أجهل كلّ شيء عنها. حتى عادات أهلها.

لا أدري ما الذي قادني نحو هذا الجفاف في تعاملي معه. أدركت جيِّدًا بحاسة غريبة فيَّ، أنَّه لم يكن صادقًا معي، وأنَّه كان يريد أن يجرَّني

لكي أخدع سيِّدي حسن آغا، وأساعده على الهرب. كلّ حركاته ورغباته في الوصول إلى أعمق نقطة فيَّ، لم تكن بريئة. كان مؤمنًا حدّ الموت بدون خوان النمساويّ، وقوَّته. كان نموذجه الكبير على الرَّغم من نقده اللَّاذع له. وكنت مؤمنًا في النهاية أنَّ هذه أرضي أيضًا، وإذا وجب أن أدافع عنها لن أتردَّد لحظة واحدة. كان يعجبني فيه بعض هبله الذي لم تكن له أيَّة حدود. نبَّهته في مرَّة من المرَّات وهو يحاور أحد المرتدِّين عن كيفيَّة الخروج والدُّخول من الفحص، والحرَّاس ومواقعهم في الداخل والخارج. وهل هناك أسبان يحتلُّون مناصب عليا في نظام الآغا حسن فينيزيانو. نبَّهته أنَّ كلّ ما يقوله لهم يوصلونه للخدم، الذين يوصلونه للعساكر، الذين يوصلونه لضبَّاطهم المباشرين، الذين يوصلونه للقادة، الذين يوصلونه لرئيس الفحص ومستشار الآغا، لينتهي في حِجْر فينيزيانو. النهاية هي الخازوق. وشرحت له ما معنى الخوزقة.

«ـ تبدو أمامها محارق محاكم توركيمادا، مجرَّد لعبة لطيفة؟

ـ لم أفهم جيِّدًا، قال مندهشًا.

ـ بسيطة. يوضع تحتك خازوق مثل الوتد، ثمَّ تُجلس عليه، ويأتي من يضغط على كتفيك بكلّ قوَّة، لتنزف في مكانك، لا تستطيع أن تقوم ولا أن تبقى جالسًا، حتى الموت.»

كنت بالفعل خائفًا عليه لسبب أنا نفسي إلى اليوم لا أعرفه. ربَّما خوفي أيضًا على نفسي. لكنْ ما كان يطمئنني هو أنَّ الآغا لن يضحِّي هكذا بخمسمائة دوقة ذهبيَّة.

ابتعد عنِّي قليلًا، ولكنَّه سرعان ما عاد إليَّ عندما ساعدته على وضع الأدوية والمراهم على ذراعه الأيسر، الذي كانت رائحته كلّ يوم تزداد تعفُّنًا. كانت المواد الكحوليَّة، وقشور اللَّيمون، ومراهم الصنوبر

البرّيّ، تؤذيه، ولكنَّه كان يتحمَّلها بشجاعة. ارتاح لزريدة التي ساعدتني في تغيير ضمَّادات القماش. وأنا أحكي معها باللُّغة الإسبانيَّة، عرفت أنَّ والدها كان يشتغل أيضًا عند الآغا، وأنَّه من أراغون، وأنَّها مطلَّقة أحد أمراء مدينة فاس العريقة. كان قلبها رقيقًا جدًّا. صوتها ناعم. صارحتنا أنَّها تنقل يوميًّا تقارير إلى سيِّدها، ولكنَّها طمأنتنا أنَّها لن تضرّنا أبدًا، فنحن من جلدها، كما قالت.

سألته زريدة عمَّا قاده إلى هذا المكان، وهي تحاول أن لا تخدش صمته. لكنَّه لم يخرج عن إجابته المعهودة التي أسمعها منه يوميًّا كلَّما سألته عن وضعه.

ـ قصَّة طويلة، ماض لا أريد تذكُّره الآن.

فتكتفي أن تهمهم ثمَّ تنسحب:

ـ اللَّـه يفرج كربتك يا سيِّد ميغيل.

ـ شكرًا.

لكنِّي لاحظت شيئًا غير طبيعيّ فيما سمعته منه ومن رودريغو قبل أن يسافر، يتعلق بدفع الفدية. شعرت بأنَّ هناك كذبة تتعلَّق بوضعهما. سألت رودريغو عن قدرة العائلة على دفع الفدية الكبيرة. قال بأنَّها ليست قضية كبيرة، مسألة وقت فقط. الوالد غنيّ ويستطيع أن يحلّ المعضلة. بينما ظلّ الرجل الأحمر والنحيف ميغيل منكمشًا على نفسه، وغير متيقِّن من قدرة أهله على دفع الفدية. الدَّهشة التي تراقصت في عينيه أبانت لي أنَّ المسالة أعقد ممَّا كان يتصوَّره حسن فينيزيانو؟ ربَّما فعلا ذلك للحفاظ على حياتيهما؟ عندما قلت لميغيل إنَّ روايته التي تقول بأنَّ أمِّه وأهله المقرَّبين، هم من سيتكفَّل بدفع الفدية، تختلف عن رواية أخيه الذي ركَّز أكثر على تدخُّل الوالد الغنيّ؟ ارتعشت فرائصه. وعلته ضبابة

من الخوف. طمأنته بأنِّي لم أسمع شيئًا ممَّا خرج من فمه، وسأكتفي بما قاله أخوه، ربَّما كان أفضل للمقايضة. زريدة أيضًا لن تقول شيئًا. فهي من اللُّطف بحيث لن تضرّنا أبدًا.

بدءًا من تلك اللَّحظة اجتاحتنا حالة من الغربة جعلت قرابتنا قوِّيَّة. ومن دون أن يسألني، حكيت له عن قصَّتي من نهاية حرب الرَّماد، حتى وجودي على هذه الأرض. قلتُ إنَّه كان عليَّ أن أقتنع بأنَّ هذه الأرض أرضي، وعليَّ أن أدافع عنها لأبقى فيها. فقد ظللت معلّقًا على حافَّة البحر حتى عادت سلطانة. لم تبق في ذهني إلَّا حروب الرّماد ورائحة عطر غريب، ربَّما كان مزيجًا من أشياء كثيرة لم أعثر عليها أبدًا في المحروسة.

كان سعيدًا مثل الطفل وهو يسمعني. طلب منِّي إذا كان بإمكانه أن يسجِّل بعض الملاحظات من ثرثرتي، فلم أمانع. كنت أعرف هذا الرّحَّالة، ولأوَّل مرَّة أراه عند الرهائن. قال لي إنَّه ينسى كثيرًا ويحتاج إلى تسجيل ما يراه مفيدًا لكي لا ينطفئ من ذاكرته. عندما حان وقت النوم، طلبت منه أن يذهب لفراشه ليرتاح قليلًا. قال جملًا هاربة عن وضعه ووضع أهله البائس، وخيانة الذين وقف إلى جانبهم في الحروب القاسية، وبعدها مدَّ رأسه على الفراش، رأيته مثل الطفل يشخر. غطَّيته بهدوء حتى لا أوقظه، وتركته ينام:

في الصباح، جاءني من جديد وهو يحاول أن يستعيد ما دار بيني وبينه ليلة البارحة.

ـ يا سيِّد حامت بن انخلي...

ـ اسمي... سيِّد أحمد بن خليل.

قاطعته للمرَّة الألف، وبعدها قبلت بنطقه السيِّئ لإسمي.

ـ غاليليو، أسهل وأفضل. أنا مندهش ليس فقط من قصَّتك وكرمك واستماتتك من أجل شيء تظنّه الأصدق والأصحّ، ولكن من طريقتك في حكيها. يبدو أنَّنا نتقاسم الملكة نفسها. كان يقال لي إنَّ الموريسكيِّين شطّار في قصّ الحكايات، وأشهد أنِّي رأيتهم في حيّ اليهود والمسلمين، في الكالا دي هناريس، وفي أسواق طليطلة، وكانت هذه الأخيرة قد سُلِّمت للملوك الكاثوليك، وأُعجبت بطريقتهم في توصيل الحكاية. ثمَّ ذهبت مرَّة إلى سوق بلنسية، فرأيت المشهد نفسه. يقبضون على أواصر الناس، ويجعلونهم يعيشون معهم بكلّ حواسّهم قصصهم، ولا يهمّ بعدها إذا ما كانت تلك القصص التي يروونها حقيقيَّة أم مختلقة. لم أر واحدًا من المستمعين يشكِّك فيما كانوا يقولونه ويروونه بحماس كبير. على العكس من ذلك، ينقلونها ويردِّدونها بين ذويهم بعد أن يحوِّروها قليلًا.

بدأت الثقة ترسخ بيننا. وبفضل تدخُّل زريدة، سُمِح له بالخروج من الفحص إلى المدينة، برفقتي وبرفقة مجموعة من العسكر في البداية، قبل أن يُسمح لنا بالتَّحرُّك بكلِّ حرِّيَّة في دروب وشوارع المحروسة. أحيانًا، كنت أفاجأ في جرأة رأيه في الآغا. مرَّة يصفه بالطاغوت. وفي أحيان أخرى يحوِّله إلى ملاك منزل. يحكي لي عن بعض تفاصيل سهراتهما، وخلوتهما مع بعض، لأنَّ حسن آغا كان يستلطفه كثيرًا ويستمتع بقصصه. رفضت أن أذهب بعيدًا في هذه العلاقة، وتوقّف هو عند حدود الطيبة.

كان يبدي قلقًا كبيرًا كلَّما هممت بالمغادرة. يسألني عن اليوم الموالي:

ـ هل ستأتي مبكرًا غدًا؟

ـ كما تريد. سأنتهي من مساعدة ميمون البلنسيّ، الطلبات تراكمت عليه كثيرًا بسبب غيابي، وأجيئك بلا تردُّد. لم يعد المسكين قادرًا، على

الرَّغم من جهوده المضاعفة، على الانتهاء منها. ضريبة النجاح. حتى عمره تآكل، فأصبح مثل الحطبة اليابسة، لكنَّه لم يفقد أيّ شيء من لياقته ورشاقة أصابعه. لقد انتهى حلمه بالعودة إلى ذويه في بلنسية. عرف كيف يقتل المنفى بكثرة العمل، لكي يستطيع أن يعيش، كما يقول.

في ليلة من اللَّيالي، طال فيها كلّ شيء، كان سرفانتس متعبًا، بعد أن عدنا من المدينة. كانت عيناه مركَّزتين على زريدة التي انتظرتنا طويلًا وانتابها خوف غريب. عندما رأتنا، ضحكت براحة ارتسمت في عينيها وعلى محيَّاها. قلت لها ممازحًا:

- خفتِ أن نهربَ يا لالة زريدة؟

- لا. خفت عليكما من قطَّاع الطرق والطمَّاعين. لا أريد أن يقع لكما أيّ مكروه.

اقتربَ الرجل الأحمر منِّي أكثر.

- هل رأيت يا غاليليو كم هي جميلة؟ يا إلهي ما أحلى وجهها الطفوليّ!

- لم أنتبه لها كثيرًا. ربَّما لأنِّي لست مثلك، ممتلئ بلالّة سلطانة.

- أريدك أن تبقى معي اللَّيلة، أشعر بوحدة غريبة.

- اللَّيلة، صعب، بالخصوص إذا لم تكن في حاجة إليَّ. ثمَّ، ألم تقل لك زريدة إنَّك مدعوٌّ لسهرة مع سيِّدي الآغا، حسن فينيزيانو؟ وإذن ستعود متأخِّرًا، وأنا لست مدعوًّا. هو إذن يحتاجك أنت، أنت وحدك. عندما تريدني أن أبقى برفقتك، أرجوك أن تخبرني ليلة من قبل لكي أتدبَّر أمري مع سلطانة.

- ليكن.

قالها بشيء من المرارة. رأيت حزنًا يرتسم في عينيه، حيث حام فوقهما شعاع هارب أعطى لونًا جميلًا لعينيه، وللحيته الحمراء التي غطَّت جزئيًّا وجهه. لم يكن سعيدًا، كما تعوَّد على ذلك، كلَّما دعاه فينيزيانو لسهراته التي تطول كثيرًا. كان قلقًا. سألته:

ـ يبدو أنَّ رودريغو لم يعد، ولهذا أنت قلق جدًّا. ربَّما وضعيَّة البحر هي التي أخَّرته؟ الجوّ ليس جيِّدًا. سمعت أنَّه بعث قبل أيَّام بإشارات من وهران، ممَّا يدلّ على أنَّه في طريقه إلى هنا؟ سيأتي بالفدية وستخرجون جميعًا من هنا، أنت وبقية أصدقائك. وستعودون إلى أرضكم.

ـ أعرفه جيِّدًا، ولهذا كنت يومها قلقًا جدًّا. رودريغو متهوِّر، ويفكِّر بعقليَّة عسكريّ لا أكثر. رهانه الوحيد هو القوَّة. أخشى أن يكون قد قام بحملة بحريَّة مجنونة لتحريرنا! فقد رأيت هذا الصباح، واللَّيلة السَّابقة، حسن فينيزيانو مكشِّرًا ولم يكلِّمني، بل لم يدعني إلى مجلسه. أتمنَّى أن تكون شكوكي مخطئة. زريدة نفسها لم تأت إلى مساعدتي لتغيير الضمَّادات. اكتفت بعمل الممرّضين.

ـ لا أظنّ. لو كان هناك شيء سيِّئ ما دعاك سيِّدي الأغا لمقاسمته سهرة هذا المساء. بالنِّسبة لأخيك رودريغو، الحياة وحدها ستعلِّمه أكثر. أنت لا تستطيع أن تغيِّر عقليَّة محارب بين يوم وليلة. الحرب مثل المرض، عندما يصاب المرء بها، يحتاج إلى زمن من الهدنة مع الذات لكي يستطيع أن يفكِّر بعقله.

ـ ليس شرطًا. أنت أيضًا كنت محاربًا في جبال البشرات، وتخلَّصت من دم الآخرين. لم تختر حربك، ولكنَّها فُرضت عليك. أعرف البلاد جيِّدًا وكنت على علاقة طيِّبة بالكثير من المارانيِّين والموريسكيِّين القادمين من طوليدو. كانت حربك الحرب الأخيرة، لأنَّك كنت تدافع

عن حلم مات منذ قرون، لكن بقايا المماليك لم يكونوا ليدركوا أنَّ كلَّ شيء كان قد تحوَّل إلى رماد. وأنا كنت أحارب وراء قائد كبير اسمه دون خوان النمساوي[1]، كنت أظنُّه قادرًا على تغيير كلّ الموازين، لكنِّي أدركت، بعد انهياراتنا، أنَّ الكثير من حروبنا لم تكن ضروريَّة! تغيَّرت أشياء كثيرة فيَّ عندما رأيت المدينة التي كنَّا نسمِّيها عش القراصنة الذي يجب أن يُدمّر، فاكتشفت أنَّ هناك حياة غير التي رسمها لنا القادة والمحاربون القدامى. كلانا فقد شيئًا ثمينًا، أنا خسرت جزءًا من جسدي في حرب ليپانت[2]، ذراعي، وأنت فقدت وطنًا. فلا الذراع ينبت ذاتيًّا، ولا الوطن الأوَّل يُزرع من جديد فينبت، ومع ذلك علينا أن نتعوَّد على الفقدان والعيش.

ـ تعجبني حكمتك. صِدَف الحياة هي التي تربط أحيانًا المصائر نهائيًّا. كنت أخرج دائمًا مع الرايس حميد كروغلّي الذي كان يعمل في الكثير من الأحيان لصالح سفن أرناؤوط مامي، وكان يمكن أن أكون أنا من يقبض عليك، ويتغيَّر مصيرك. أو أنا من يقتلك أو تقتلني دفاعًا عن النَّفس، أو ربَّما أنا من يحرِّرك ولن تكون حتى رهينة! الكثير ممَّن ألقينا القبض عليهم في أعالي البحار، أطلق الرايس كروغلّي سراحهم بعد أن جرَّدهم من أسلحتهم وأموالهم. فضَّلوا حياتهم على المقاومة اليائسة.

ـ الدُّنيا تخطّ مصائر البشر، ولكنَّهم قليلًا ما يتعلَّمون.

وقبل أن أغادره بلحظات، دخلت زريدة. كانت مثل دمية صينيَّة. قرأت في بشاشتها فرحًا خاصًّا.

ـ كيف حالك يا زريدة؟

---

(1) Juan d’Autriche.

(2) Lepante.

سألتها وأنا أحاول أن أتفادى عينيها الجميلتين.

ـ بخير يا غاليليو. يمكنك أن تقضي اللَّيلة في بيتك.

ـ جيِّد. اتَّفقت مع ميغيل على العودة غدًا صباحًا باكرًا. فهو مدعوّ للسهر مع سيِّدي الآغا.

ـ الآغا الآن مرتاح على غير وضعه في اليومين الماضيين. فقد سمع بأنَّ الإسبان الذين أُطلق سراحهم للإتيان بالفدية، يعدُّون حملة ضدَّه من مدينة وهران.

ـ قصدك رودريغو وجماعته؟

ـ ليس رودريغو وجماعته فقط، ولكن مجموعة من السفن الإسبانيَّة. سيِّدي الآن مرتاح بعدما أُبلغ من الريّاس وحرَّاس الميناء، أنَّ الرياح العاصفة التي هبَّت على البحر في اليومين الأخيرين دمَّرتهم، وأرجعتهم إلى الوراء نحو وهران والجزر الجعفريَّة بأميال وعقد عديدة، فأغنت سفن سيِّدي عن الدُّخول إلى البحر لخوض الحرب الدفاعيَّة.

ثمَّ التفتت نحو ميغيل وهي تتغنَّج:

ـ أعجبتك هكذا، بهذا اللِّباس الجميل؟

ـ لا أجد اللُّغة التي أصفك بها يا زريدة. أنت الآن أجمل من أيَّة لغة.

ـ أنت على علم أنَّ سيِّدي يريدك اللَّيلة؟

ـ طبعًا. أجهِّز حالي. أهذّب لحيتي، وبعدها سأكون رهن إشارتك.

ـ تريد أن أنتظرك هنا أم أخرج؟

ـ خروجك يترك وحشة كبيرة في الأمكنة.

أغمضت عينيها، ثمَّ انزوت على أريكة القطيفة. اتَّكأت على ظهرها وظلَّت تتأمَّله. كان عطرها يملأ المكان.

- أترككما. إلى الغد إن شاء اللّـه.

- إلى الغد.

تسرَّبت الكلمتان بنعومة من بين شفتيْ زريدة شبه المغلقتين.

خرجت.

رأيت وأنا أغادر المكان شيئًا ملتبسًا في عينيْ زريدة، شيئًا يشبه الحبّ، فيه طعم الطفولة والخيانة الجميلة، كان ممزوجًا بالدَّهشة، والرَّغبة والخوف.

الورقة الثامنة

وتتحدَّث عن الرهينة وهي تكتشف أسرار المحروسة وسوق العبيد.
الرجل الأحمر يغرق في تفاصيل حكايته وحروبه مع دون خوان النمساويّ.
مأساة سلسلة الحروب التي لا تنتهي، وانهيار المركيزة، في ميناء ليپانت،
وموت علي باشا، ومناورة انسحاب العلج من المعركة البحريَّة،
وتلقي ميغيل الضربة القاسية التي أفقدته ذراعه الأيسر.

دخلنا إلى فحص حسن فينيزيانو بعد أن عدنا من سوق العبيد، ورأينا كيف يشترى الناس ويباعون.

لم أكن سعيدًا للمنظر الذي رأيناه، ولكنِّي كنت فرحًا أنَّ سرفانتس لم يكن ضمن عداد السجناء كما كان في الأيَّام الأولى قبل أن يبيعه دالي مامي لحسن فينيزيانو. كانت أحاسيسه الدفينة شبيهة لأحاسيسي. زريدة كانت قد ملأت عليه بعض هذا الخواء. لا يتوقَّف أبدًا عن الحديث عنها.

ـ أحيانًا، لا أفهم هذا التناقض الغريب، على الرَّغم من جبروته، فحسن فينيزيانو لا يعتدي أبدًا على زريدة، ولم يأمرها بالانصياع له وهي جميلة ومدهشة. كدت أسأله في اللَّيلة الماضية عندما سهرت معه، عن سرّ ذلك، ولكنِّي خفت عليها. خفت أن أوجِّه انتباهه نحوها!

ـ لا تنس أنَّها في حماية والدها حاجي موراتو. على كلّ، حسنًا فعلت. في هذه البلاد شيء يلفُّه التناقض بين ما يأمره الدين وما تتحكَّم فيه العادات. يقف الدِّين قوَّة ردعيَّة ثانويَّة بالقياس لقوَّة التقاليد القوِّيَّة والمؤثِّرة في الناس وفي حياتهم. وهو يحكم بلادًا ليست فقط محكومة بقوَّة الدِّين ولكن أيضًا بهذا الخليط الذي تلتبس فيه الأدوار بين الدِّين، والمعتقدات البدائيَّة والقديمة. علينا أن نفهم هذه الازدواجيَّة القويَّة لنتمكَّن من فهم ناس هذه البلاد. هل تظنّ أنَّ فينيزيانو يحتاج إلى النساء أو إلى المال؟ له ما يمكن أن يعيش به أجيالًا متعاقبة، وقرونًا عديدة. هناك سلطة ضامرة أكبر من ذلك كلِّه. الرَّغبة في السلطان المطلق وتحسيس الناس به.

ـ غريب! تتحدَّث عن حسن فينيزيانو وكأنَّك تتحدَّث أيضًا عن دون خوان النمساوي، الذي جمع وراءه كلّ قوَّات الدُّنيا ليثبت أنَّه الأقوى والأعظم، ولكن أشياء كثيرة فلتت منه وخسر الكثير من حروبه التي لم تكن ضروريَّة. العواقب تقاس بنهاياتها؟ ماذا أعطت حروبنا؟ أنا ركضت وراءه عن قناعة كبيرة وهو بلا شك كان مقتنعًا بما كان يقوم به؟ لكن من حيث كان يريد أن يكون عظيمًا، كان يتضاءل كلّ يوم قليلًا. البشر في النهاية مخ واحد يشتغل في اتِّجاهات متعدِّدة، بحسب الرياح التي قد تكون شرقيَّة أو غربية.

ـ عبَّرت بدقَّة، أحسن منِّي.

- هل تدري يا غاليليو، أحلم كلّ ليلة أن أقول هذا كلّه في كتاب يسع الأهواء البشريَّة، وأطماعها الخفيَّة وطبائعها التي لا تقاوم، وخوفها من مبهم ملتصق بها، تسحبه وراءها أنَّى ذهبت. أن أقولها بما يكفل الوصول إلى العمق الخفيّ فيها عن طريق التهكم والسُّخريَّة. أقوى سلاحين وأذكاهما، أمام غباوة العصر والبشر. ليس الأمر سهلًا، ربَّما احتجت إلى زمن آخر أكثر تسامحًا مع هبلي وجنوني، وعمر غير هذا، وربَّما احتجت أيضًا إلى هواء آخر لكي أنجز هذه الحماقة، أتنفَّسه بحرِّيَّة كما تفعل طيور هذا الفحص الجميل، كلَّ صباح؟

- مازلتَ شابًّا وأمامك الدُّنيا باتِّساعها.

- ما أعيشه منذ مدة ليست بالقصيرة، في هذه المدينة، هو حياة قاسية وجميلة في الآن نفسه. ربَّما تكون جاذبية الأقدار وقوَّتها هي التي دفعت بالسَّفينة *المركيزة* إلى هذه المسارات العنيدة التي عليَّ أن أتخطَّاها كمحنة، لأصل إلى ما أريده جوهريًّا. أنظر مثلًا إلى صدفة زريدة؟ جميلة ومثيرة ومدهشة. أشعر بقرابة غريبة تجاهها. في البداية، ظننت أنَّ مسيحيَّتها المبطَّنة هي السَّبب الأوَّل، ولكن مع الوقت، شعرت أنَّ الحبَّ كان هو الجاذبية الوحيدة والأساسيَّة، وليس الدِّين إلَّا المسلك المختصر لذلك. الحبّ أيضًا فوق الأصول الأولى التي نفترضها دائمًا هي ما يقود حياتنا وأشواقنا. أرغب أحيانًا في أن أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن، فقط لأنسى للحظة أنِّي كنت سجينًا وأنَّ حرِّيَّتي قد نُهبت، وبعدها أعود بملء إرادتي. لكنِّي أعرف أنَّ جنون أخي لن يمنحني هذه الفرصة. سيدمّر، بنزعته العسكريَّة المتأصِّلة فيه، كلّ شيء.

- ليس في حاجة إلى حرب، اللَّهمَّ إلَّا أذا أراد تحريرك بالقوَّة. يملك وثيقة عبور عليها توقيع الآغا وختمه الخاصّ. حسن فينيزيانو له سلطان كبير على بحريَّة تونس وحواف مايوركا. يحبُّونه ويخافونه أيضًا. مرَّة

واحدة ووحيدة، اعتدوا على سفنه، فذهب إلى سواحل تونس وجرّ وراءه عشرات السفن، جاب البحار مستعرضًا قوّته، قبل أن يقوم بحرقها وسبْي ناسها. قال لو لم أفعل ذلك لاعتدوا ثانية على رجالي وسفني. الدرس الأوَّل في المعارك البحرية يُحفظ جيِّدًا، لهذا يجب أن يكون قاسيًا؛ ما عدا ذلك، مجرَّد تكرار. وإذا تغاضيتَ عنهم لمرَّة واحدة ويتيمة، فلن تقوم لك قائمة أبدًا. ولا يبقى لك أيّ خيار سوى أن تنتحر، لأنَّ رجالك سيكونون أوَّل من يحتقرك ويطمع في قوّتك، إذا لم يقتلوك قبل ذلك، أو تترك الحرفة والرِّياسة لمن هو أقدر منك. من يومها لم يمسسنا أحد. حتى عندما يصادفوننا في عرض البحار، ويتعرَّفون علينا جيِّدًا، بأعلامنا وإشاراتنا، ورموزنا، يحيُّوننا من بعيد ويبتعدون عن أمكنتنا، لأنَّهم يدركون سلفًا أنَّ وراء هذه السفن رجلًا فرض سلطانه وقانونه.

كان الرجل الأحمر يتأمَّلني بكلّ انتباه، ويتشرَّب كلماتي باستمتاع كبير، رأيت تجلِّيَّاته في عمق عينيه.

ـ البحر لا يجيش فقط بالحروب الهالكة يا غاليليو، ولكن بالحماقات أيضًا، التي يركضون وراءها حتى الموت، قبل أن يتفطَّنوا إلى ذلك متأخِّرين. إنَّ الثقة الزائدة واليقين الصارم مقتلان مدمِّران.

ـ هذا ما يحدث دائمًا.

ـ يصيبنا العمى أحيانًا، فلا نرى في غنى الدُّنيا بكاملها إلَّا ظلالنا الصغيرة. وجدتني ذات يوم من سنة 1070، ألتحق، أنا ورودريغو، بالعسكريَّة. سنة فقط بعد حصولنا على وثيقة الاعتراف بنقاء دمنا التي كان علينا استخراجها لنُقبل في العسكريَّة. كانت تحوم على أصولنا شكوك غريبة. وكان علينا أن نثبِّت بأنَّه لا يوجد في دمنا شيء من الموريسكيِّين والمارانيِّين.. تخيَّل! لنتمكَّن من لبس اللِّباس العسكريّ

الرسميّ المرقَّط وننضمّ إلى حملة دييكو. دخلت الغباوة مجبرًا، وأنا أتساءل في أعماقي: هل يتعلَّق الأمر بوثيقة فقط؟ كيف يمكنك أن تتحكَّم في دمك، وهم يعرفون جيِّدًا أنَّ الدم القادم من بعيد لا أحد يتحكَّم فيه؟ من يعلم اليوم، بعد ثمانية قرون من الزمن أو أكثر، أنَّ دمنا هو دمنا؟ ماذا كان يفعل المسلمون الذين اختلطوا بنا، في أرضنا؟ ماذا بقي منهم اليوم وماذا بقي منّا صافيًا، بعد كلّ هذا الزمن؟ دمهم فينا ودمنا فيهم. هل ننكر هذا كلَّه بورقة يمكن أن يمنحها لنا أيّ غبيّ برشوة؟ أيَّة عبقرية هذه التي يصغر فيها الإنسان ليصل إلى أدنى المستويات مباشرة بعد الحيوان؟

لم يكن الرَّجل الأحمر يبحث عن كلماته، كانت تأتي مسلسلة ومنتظمة في مخِّه، كأنَّه حضَّرها من قبل، ليقولها دفعة واحدة. لم يبد عليه أيّ تردُّد، وهو يتحدَّث عن نفسه، كما في البدايات. الشيء الوحيد الذي لم يغادر عينيه، هو تلك النظرة الهاربة نحو الفراغ. لست أدري ما الذي ذكَّرني بوالدي، ربَّما نظرته تلك! كلَّما تكلَّم، تفادى النظر إلى وجه محدِّثه، وهرب بعيدًا كأنَّه يحادث الجميع ولا أحد، في الوقت نفسه.

قلتُ له وأنا أحاول أن أدخل في عمق أسئلته.

ـ تتحدَّث عن الغباوة، متى كانت الحروب ذكاء؟ أخطرها الحروب التي يتخفَّى الدِّين أو شبيهه وراءها، وهي مجرَّد لعبة لا تتعدَّى عتبة من يحكم؟ من يسير؟ ومن يستفيد؟ كلّ حرب مهما كانت عادلة، يتبطَّن في عمقها قدرًا معيَّنًا من العجز عن التَّفكير.

ـ كلامك صحيح تمامًا. قلت لك ذلك ونحن في سوق العبيد، أهم اكتشافاتي في هذه الأرض هي أنِّي لست في مدينة قراصنة، ولكن في حاضرة بها ناس يفكِّرون، ويتأمَّلون هذه الدُّنيا، ويحاولون أن يجدوا

الحلول للمعضلات التي تحيط بهم. لم تكن معركة ليپانت[1] إلّا واحدة من سلسلة ما وصفته بعجز الفكر. هي التي خرّبت ذراعي الأيسر. دون خوان النمساويّ الذي كان نموذجي وقدوتي في التضحية والاستماتة، لم يكن أقلّ إصرارًا على هذه النقاوة الغريبة التي تقف وراءها كلّ حروبنا؟

ـ للأسف، نحتاج دومًا إلى انكسار عظيم لنعود إلى يقيننا الوحيد، الخسارة. حتى عندما نربح نظلّ في عمق خسارة لا ندركها إلّا لاحقًا، بعد زمن طويل.

ـ هذه هي حالة الحروب، لا نعرف دمارها إلّا عندما تنتهي، وتكون قد جرّت وراءها جيشًا من الناس نحو النهاية والإبادة، لا لشيء سوى لأنّ بشرًا أخطأوا في التّقييم أو انغلقوا على أنفسهم، وأدركوا بعد زمن أنّ بؤسهم الدائم كان أكبر. أيّة مشقّة في هذه الرّحلة من أجل انطفاء كلّيّ في النهاية؟! انطلقنا في 20 يوليو 1571 من إسبانيا لنصل إلى نابولي في 8 أوت من السنة نفسها. كان الدون خوان النمساوي على رأس أرمادة كبيرة مكوّنة من 208 سفينة حربيّة، و57 فرقاطة، وأكثر من 300 زورق حربيّ و26000 محارب. تخيّل! وكان على دون خوان النمساويّ أن يجمع بين كلّ هذه الفرق البحريّة المختلفة، الإيطاليّة والإسبانيّة، ويشكّل قوّة موحّدة لخوض الحرب المقدّسة الكبرى ضدّ الأتراك الذين كانوا قد احتلّوا البحر نهائيًّا وأصبحوا سادته.

ـ أعرف قليلًا عن هذه الحروب التي تركت علاماتها القاسية على أجسادنا. نخوضها أحيانًا، لأنّه ليست لنا أيّة بدائل أخرى أمام ظلم البشر حتى ولو أكلنا رؤوس أصابعنا ندمًا، فيما بعد. الغريب، أنت كنت في عزلة البحر، وأنا كنت في برّيّة الجبل القاسي، وأنت تتكلّم، كأنّك كنت

(1) Lepante.

تحكي عنِّي وأنا أقف وراء سيدي الدون فردناندو دي كردوبا (محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة)، وهو يحمل سلاحه ليسترجع شيئًا كان قد سقط منه وانتهى أمره، قبل أن ينطفئ هو نفسه في حرب البشرات. بعض هذه الحروب ليست حروبًا، ولكن مجرَّد طلقات أخيرة لإقناع النَّفس المنهكة أنها قاومت ولم تستسلم. المشكل في اللُّعبة الخطيرة، هو أنَّ البارود كان حقيقيًّا، والموت أيضًا لم يكن لعبة. لقد دفنت بيديَّ هاتين العديد من الناس الذين أغمضوا عيونهم واندفعوا نحو النار، وهم يعرفون أنَّها المرَّة الأخيرة التي يقفون فيها على أرجلهم، والمرَّة الأخيرة أيضًا التي يرون فيها الشمس التي تشرق باكرًا على رؤوس البشرات قبل أن تشرق على غرناطة.

فكَّر ميغيل قليلًا قبل أن يضيف.

ـ أنا لا أعرف إذا ما كنت سأموت على هذه الأرض أو على غيرها. مصائرنا كلُّها تكون أحيانًا معلَّقة على حواف الصدفة القاتلة. كنت على متن *المركيزة*[1]، وهي سفينة حربية سريعة جدًّا، وظيفتها اعتراض سفن الأعداء. طولها أكثر من أربعين مترًا، بينما عرضها لا يتجاوز الخمسة أمتار. يمكنها أن تحمل أكثر من 200 بحار محارب، و30 جذَّافًا. كنت عسكريًّا متخصِّصًا في المنجنيق المحمول[2]. في 6 أكتوبر استطاع دون خوان النمساويّ أن يدخل إلى خليج كورنثيا[3]، وبدأ يتوغَّل في مضيق ميناء ليپانت. بدأت المشاهد الطبيعيَّة والحربيَّة التي كنت قد صادفتها في قراءاتي للملاحم القديمة تتبدَّى أمامي. كنت أكتب واقرأ المشاهد بيديَّ وعينيَّ وبكلّ حواسي. لاحظت بنوع من الجزع، القوات الضخمة

---

(1) La Marquesa.

(2) Arquebusier.

(3) Le Golfe de Corinth.

المرابطة والمتخفِّيَّة في الميناء نفسه، التي كان يقودها علي باشا. في صباح يوم الأحد 7 أكتوبر، التقت القوَّتان في صدام عنيف وخرافيّ. كانتا تتقدَّمان نحو بعضهما بعضًا بهدوء تحت ضجيج الطبول ولمعان الأسلحة وفوضى البحر. القذائف الأولى للمدفعيَّة لم تكن إلَّا إيذانًا لبدء الحرب الكبرى. حاولت القوَّات العثمانيَّة أن تأخذ سفننا من الوراء، على حين غرَّة من الجهة اليسرى، لدفع بقية السفن نحو الانحسار والدخول في المضيق حيث يسهل حصارها وكسرها. تمَّ الاختراق الأوَّل على الرَّغم من المقاومة التي أظهرناها وكانت كبيرة، لكنَّها لم تكن كافية أمام حنكة ومهارة علي باشا، وبحَّارة العلج الذي لم تكن صورته طيِّبة بيننا. هجماتهم المتتالية أحدثت اختراقات كبيرة في قوات دون خوان وشتَّتت جزءًا كبيرًا منها. تلقَّى الطرف الأيسر من القوات الإسبانيَّة الإيطاليَّة ضربات موجعة أيضًا. كانت *المركيزة* من بينها. كنت محمومًا وخائفًا، ومع ذلك كان عليَّ أن لا استسلم. أنا لم أقل أبدًا إنِّي أفضِّل أن أموت كمحارب في سبيل اللَّـه وملكه، ولكنِّي قلت: أنا في حرب قاسية ومصيريَّة، ولا مكان للمرض فيها. البحَّارة الناجون من المعارك يحكون بطولات خرافيَّة، غير حقيقيَّة، لكنَّهم كانوا في حاجة إليها. كانت سفينتنا في الواجهة، إذ استفادت كثيرًا من دفع الرياح. بعد التراجع المؤقت بسبب التشتُّت، أعدنا بناء أنفسنا وهاجمنا من جديد. هذه المرَّة التصقت السفن، وتحوَّلت المعركة إلى معركة جسديَّة كبيرة تمزَّق فيها الطرفان. مجزرة حقيقيَّة، وضعتْ وجهًا لوجه، أكثر من ستين ألف محارب. معركة دمويَّة ومرعبة. البحر والنار أصبحا شيئًا واحدًا. ولم تنج السفينة التي كان بها دون خوان النمساويّ إلَّا بأعجوبة. وخسرت سفينة *المركيزة* أكثر من أربعين بحَّارًا محاربًا بمن فيهم قائدها الأساسيّ الذي أدار المعارك، وقرابة المائتي جريح. وأنا على حافَّة السفينة، تلقيت ضربة الصدفة كما نسمِّيها التي، إذا لم تقتل، فهي تشوِّه. الأولى كانت للصدر والثالثة خرَّبت ذراعي الأيسر. إنَّ موت علي باشا في

صلب المعركة، وانسحاب سفن العلج من الميدان، جعل المعركة تخفُّ حدَّتها لتتوقَّف عند انتصار ملتبس لدون خوان النمساوي، بعد أن خلَّف وراءه أكثر من 12000 قتيل.

ـ أنت شاهد حيّ، ولكن الذي أعرفه هو أنَّ خسارة الأتراك لم تكن أقل من ذلك: 110 سفينة مدمِّرة، وأكثر من ثلاثين ألف بين قتيل وجريح. الأقدار العظيمة هي التي شاءت أن يبقى البعض أحياء ليرووا ما حدث.

ـ تخيَّل! على الرَّغم من هذه المجازر، استُقبل دون خوان النمساويّ بحرارة، في 31 أكتوبر، عندما عاد من حروبه، في ميناء مسينا. كان الجميع في حاجة إلى بطل، فوجدوه في دون خوان النمساوي.

ـ عفوًا على المقاطعة، قلتَ إنَّك كنتَ جريحًا في ذراعك الأيسر، كيف نجوت من النزيف؟

ـ في اليوم نفسه، دخلت إلى المستشفى مع بقية الجرحى وأنا لا أعرف شيئًا عمَّا كان ينتظرني. لم يكن الجرح قاتلًا، ولكنَّه كان كافيًا لأن يقعدني في الفراش ويتسبَّب في شلل يدي اليسرى نهائيًّا. عندما غادرت المستشفى كنت برتبة الجندي المحظوظ[1] وبمرتَّب شهري بثلاث دوقات؛ وأصبحت تحت أوامر قائد آخر هو دون مانويل بونسي دو ليون[2] الذي دخلت معه في التحضير لحملة بحريَّة جديدة. موت پي الخامس[3]، وهو في السبعين من عمره وقوَّة تأثيره، ترك فينا فراغًا كبيرًا. حلَّ محلَّه غريغوار الثالث عشر[4] الذي لم يكن يملك المؤهّلات الدينيَّة المؤثِّرة نفسها. تردُّد الملك فيليب الثاني الذي بدأ يدخله الخوف

---

(1) Soldado aventajado.

(2) Don Manuel Puncé de Léon.

(3) Pie V.

(4) Grégoire XIII.

والشكّ في قوَّته، من الهجمات البحريَّة التي كان ينظِّمها الأتراك، غيَّر كلّ الموازين. ممَّا اضطرَّني إلى مغادرة مسينا، والتحقت من جديد بجيوش دون خوان النمساويّ.

كانت عينا ميغيل تبرقان ووجهه صافيًا كوجه شابَّة في مقتبل العمر، على الرَّغم من الزغب الأحمر الذي بدأ يزحف نحو خديه. لا أدري، ولكنِّي لم أشعر في أيَّة لحظة من اللَّحظات أنَّه كان يكذب أو يضخِّم في الأمور. كان صافيًا وعفويًّا وهادئًا، وهي صفات قلَّ ما كنت أراها فيه، إذ كان منشغلًا دائمًا، وبشكل شبه مجنون، بالفدية والخروج من المحروسة.

ـ كنت تحت قيادة ماركو أنطونيو كولونا[1]. كان هدف دون خوان النمساوي الدخول إلى خليج نفاران[2]، وغلق كلّ المعابر البحريَّة والأرضيَّة على الأتراك. لكنَّ العواصف القاسية هذه المرَّة أيضًا، أفسدت الحملة وأخرجتها عن سياقها، فعاد دون خوان إلى مسينا من جديد. من نتائج هذه الخيبة التي كسرت أشياء كثيرة منها الثقة في قوَّته، أنَّ البندقية وقَّعت اتِّفاقًا منفردًا للسلام مع السلطان، تخلَّت بموجبه عن قبرص لصالحه، وهو ما اعتبره بعض المؤرِّخين الأسبان خيانة. أمر مثل هذا أرضى إلى حدّ بعيد فيليب الثاني الذي ملَّ من مغامرات سفنه في أعماق البحار. ولكنَّ الهجوم الجديد غير المنتظر على سواحل إسبانيا، دفع به إلى تغيير رأيه والتَّفكير في ضرب القراصنة الأتراك في عشِّهم: الجزائر، تمامًا مثلما فعل سابقًا شارل كينت[3] الذي كادت سفنه هو أيضًا أن تغرق على واجهة بحر الجزائر. ونظرًا لصعوبة هذا البحر، فقد اختار دون خوان،

(1) Marco Antonio Colonna.

(2) Le Golfe de Navarin.

(3) Charles Quint.

الذي كان في حاجة إلى انتصار يعيد له الروح، تونس، متخفِّيًا وراء فكرة إعادة الحاكم مولاي احميدا الذي كان العلج علي قد عزله بالقوَّة من منصبه، قبل ثلاث سنوات، والاحتفاظ بلاغوليت[1] التي تمَّ الاستيلاء عليها منذ 1535. تمَّ تجنيد أكثر من 20000 مقاتل، و170 سفينة حربيَّة. في 8 أكتوبر 1573 كانت قوات دون خوان النمساويّ تحتلّ تونس بعد هرب سكانها، وتمَّ تعيين مولاي احميدا حاكمًا، سقطت بعدها بنزرت ومدن أخرى.

شعرت بنَفَسه يكاد ينقطع من شدَّة سرعته في قصِّ الوقائع والأحداث. توقَّف قليلًا. شرب كأس ماء، ثمَّ واصل حديثه، ولم تبد على وجهه أيَّة علامة من علامات التعب. لاحظت أنَّه لم ينس أيّ تفصيل في قصَّته. حركاته المتكرِّرة بيده اليمنى، وهزَّات رأسه، تعطي الانطباع كأنَّه لا يروي، ولكن يحارب بمرارة.

ـ الصدفة شاءت هذه المرَّة أن أنجو أيضًا، بوقت قليل، من النهاية الدمويَّة الانتقاميَّة على تونس. غادرت نحو سردينيا مع مجموعة من البحَّارة العساكر، بقيادة: دون لوبي دو فيغويروا[2] قبل أن ينتهي بي المطاف في نابولي. في 11 جويليه، بدأ أسطول مكوَّن من 240 سفينة حربيَّة و40000 عسكريّ أولى مناوراته عند بوابات تونس، بقيادة علي العلج وسنان باشا. وكانت هذه آخر حرب قويَّة يخوضها الباب العالي في المتوسط. في 13 سبتمبر كانت تونس قد استسلمت بكلّ قلاعها للأتراك. كان دون خوان النمساويّ وراء هذه الكارثة التي عصفت بكلّ يقينيَّاته. انكسر نهائيًّا. في عمقه، كان أقرب إلى نظرة الملك فيليب الثاني الذي ملَّ من الحروب البحريَّة غير المجدية. وبدأت أشعر بانهيار

---

(1) La Goulette.

(2) Don Lope de Figueroa.

ما كنت أظنُّه حائط المسيحيِّين الأخير. كثرة الحروب تولد الملل حتى بالنِّسبة للمنتصر، لأنَّ الانتصار والهزيمة كما ترى، كلُّها حالات مؤقتة.

توقَّف قليلًا عن سرده. تنفَّس طويلًا وكأنَّه كان بحاجة إلى هواء أكثر. قام من مكانه. فتح النافذة التي تسرَّب من خلالها عطر النرجس. لم ير شيئًا إلَّا امتداد خضرة الفحص، التي تلتصق مع غابة المرتفعات، وحركة الخدم التي لا تتوقَّف أبدًا. وقبل أن يواصل، سألته وأنا مشدود إلى بقيَّة القصَّة.

ـ وأين ذهبت بعد هذا الانهيار؟

ـ وربَّ ضارَّة نافعة. قضيت فترة طويلة بين مرافئ نابولي وباليرمو، أتقنت فيها اللُّغة الإيطاليَّة التي قرَّبتني من عبقرية كتَّابها العظام. أنا رجل مولع بالقراءة. ولو يمنح لي وقت كاف هنا، سأتعلَّم العربيَّة التي بدأت الكثير من كلماتها تخترق لساني. عذرًا، ولكن في الأدب، الترجمة عمل عبثيّ وقليل الفائدة. كأنَّنا ننظر إلى زرابي الفلاندر بالمقلوب، نلحظ جيِّدًا الأشكال الجميلة، ولكنَّها مليئة بالخيوط المنسدلة التي تشوِّهها، ولا تظهر وحدة اللَّون والموضوع. أتساءل أحيانًا هل كان لكلّ هذه الحروب جدوى غير هذا التعلُّم الذي تفرضه هوامش الحرب وليست الحرب؟

قبل أن يلتفت مرَّة أخرى نحو النافذة التي وقف عندها عصفور مرقَّط وصغير:

ـ ربَّما لو لم تكن حاجتي الماديَّة كبيرة ومرهقة لأهلي، لما وجدت نفسي أصلًا في هذه الدوَّامة.

ـ أنا سعيد أنَّك قرأت السرّ العميق الموجود داخل أيّ انتصار أو أيَّة هزيمة، ليست المسألتان إلَّا تقلُّبات طارئة لحالة واحدة هي انهيار الإنسان نفسه كقيمة منذ البداية. أتخيَّل أحيانًا أنَّه كان بإمكان البشريَّة أن تستبدل

مآسي الحروب بشيء آخر أجمل، هو نعمة العقل، لكنَّ المسلك الذي اختطته لنفسها منذ البداية يمنعها من ذلك، وسيقودها حتمًا إلى فنائها الأكيد. ما الذي يجعلنا نختلف في النهاية؟ أكاد أكون مثلك يا صديقي، عليَّ أن أتعلَّم كيف أحبّ أرضًا، لا أنا كبرت فيها ولا أهلي ولا حتى أجدادي. قبورنا هناك، وحيث تنبت القبور ينام شيء منَّا. عليَّ أن أتحمَّل هذه الغربة، وأنشئ مقبرتي الجديدة. ربَّما سأكون أولى أملاحها في هذا المنفى القاسي. ما معنى الأرض والمنفى في نهاية المطاف. من المنفي منَّا، ومن السجين؟ ومن الذي في أرضه، ومن خارجها؟ كلَّما سمعتك تحكي، تأكَّد لي أنَّ هذا الرجل يتكلَّم عنِّي أيضًا. العمى يقهر كلّ ذرة تبقى حيَّة في البشر. نقضي العمر في تفاديه، لكنَّه في كلّ هزيمة أو انتصار يشرئبُّ برقبته الطويلة ليؤكِّد لنا أنَّه ما يزال هنا، وأنَّه علينا أن نبذل جهدًا آخر لتفادي حرائقه.

قام ميغيل مرَّة أخرى، من مكانه. تأمَّل النافذة، ليس كما في المرَّات السابقة. رأى الغابة في البداية، ثمَّ مدَّ رقبته الطويلة إلى الخارج، ليرى البحر الذي كان على مسافة نظرة، ثمَّ لاشيء!

ـ لم تأت.

صمت ثمَّ عاود:

ـ تأخَّرتْ كثيرًا. لم تأتِ.

لم أسأله إذا ما كان يقصد السفينة أم زريدة؟ عندما نام، شعرت بعلامات غريبة من السعادة ترتسم على وجهه، وكأنَّه أخرج ثقلًا كان ينهكه من الداخل. لأوَّل مرَّة منذ زمن طويل، طويل جدًّا، أشعر وأنا أطفئ القناديل الزيتيَّة، بسعادة غامرة. لم أكن أمام رهينة منكسرة في العمق لا انشغال لها إلَّا التَّفكير في الهرب، ولكن برفقة شخص حيّ، انتصر على

حيرته، مليء في داخله بالأمواج التي كانت تأتي وتعود محمَّلة بالحنين والأشواق، وبِحَيْرة بدأت تتكشَّف له حوافُّها المظلِّلة.

الورقة التاسعة

سقوط سرفانتس بين أيدي القراصنة، ونجاة السفن الثلاث الأخرى، وقصَّة دخوله إلى المحروسة، وعرضه مقيَّدًا في سوق العبيد، وحكمته وتعلُّمه من قسوة تجربته الخاصَّة.

أشعر دائمًا بأنَّ خطًّا غريبًا كان يشقّ الرجل الأحمر في وسطه على اثنين. شقَّه مثلما يشقّ البرق كبد السماء المحروقة برماد الغيوم الثقيلة. قسم فخور بمنجزاته الصغيرة، يخبِّئ كلّ الخيبات المبطَّنة، وقسم مهموم ومنكسر، يتخفَّى لكي لا يُقرأ الانكسار بوضوح على الملامح وفي النظر. عندما كان يرفع رأسه نحو البحر يتأمَّل السفن الهاربة نحو الموانئ المليئة بالبشر والسلع، كانت أسئلته الحارقة تخترقه بقوَّة. هل سيهرب نحو أرضه، أم سيبقى في أرض لم تعد غريبة؟ الحبّ أحيانًا لا يمنح فقط السكينة الساحرة، ولكن أيضًا وهم الأرض المفقودة. أدرك جيِّدًا أنَّ قلبه هو الذي سيحدِّد يومًا ما عليه فعله. لقد قضى ميغيل، كما روى لي، أربع سنوات محاربًا شرسًا وكاد أن يموت، ونجا بأعجوبة، إذ كان يمكن أن ينتهي على بوابات وحصون لاغوليت

في تونس، حين تمَّ الاستيلاء عليها وعلى قلاعها. فقد سلَّم الأسبان أنفسهم للأتراك، والكثير منهم بقي كرهينة حتى تمَّ تحريره بفدية لاحقًا، لكنَّ غالبية كبيرة فقدت حياتها في الضربات الأولى على القلاع.

ـ أنا يا غاليليو، مؤمن بالأقدار حتى حينما تكون قاسية وضاغطة. لولاها لاحترق كلّ شيء ولن أكون معك على هذه الرَّبوة، نتأمَّل السفن الهاربة نحو أفق يبدو ملوَّنًا بالرَّماد. لم تعد الحرب تعنيني. طلبت من دون خوان النمساويّ أن يسمح لي بالعودة إلى أرضي. فقدتُ يقيني في كلّ شيء، حتى في وجودي؟ تحصَّلت من دون خوان على رسالة تؤكِّد على خدماتي لصالح ديني وملكي، وتشيد بجهدي الحربيّ. كنت في حاجة ماسة إليها لكي لا يذهب دمي وعرقي في الريح، وحتى لا أُتَّهم بالتقصير. في هذه الدُّنيا عليك أن تحتاط لكلّ شيء. استقلت في 6 سبتمبر من ميناء نابولي، سفينة إلصول[1] التي كان يقودها أحد أصدقائي كاسبار بيدرو دي فيِّينا[2]، وكان يفترض أن ترسو في برشلونة، هي وثلاث سفن أخرى التي كانت تشكِّل أسطولًا صغيرًا بقيادة دون سانشو دو لييفا[3] شاءت لها أقدار البحر أن تنفصل عن المجموعة. سحبتها الأمواج نحو مكان تمنَّيت وقتها أن أدخله فاتحًا وليس رهينة. في البداية، تحرَّكت السفن، وعلى متنها أنا وأخي رودريغو وبعض الأعيان والشَّخصيَّات المرموقة التي رأيت بعضها عندما زاروا الأغا حسن فينيزيانو وتنكَّروا لي. لم أكن سعيدًا، ولكنِّي كنت مقتنعًا بضرورة الخروج من نابولي. كان علينا تحمُّل تحوُّلات البحر ولسعات الحشرات والجرذان ومزاج البحَّارة المتحوِّل باستمرار. في يوم 18 سبتمبر، بينما كانت السفن تسير محاذية للسواحل الإيطاليَّة

---

(1) El Sol.

(2) Gaspar Pedro de Villena.

(3) Don Sancho de Lieva.

وبروفونس[1]، كما جرت العادة في كلّ خريف، هبَّت عاصفة هوجاء فرَّقت كلّ السفن عن بعضها بعضًا. استطاعت السفن الثلاث المصاحبة لنا أن تلتئم وتصل إلى الميناء، هذا ما وصلني وأنا هنا، بينما تاهت إلصول في عرض البحر. انحرفت في اتِّجاه كورسيكا، في خليج الأسد[2]، ولم ينتبه قائدها إلى مساراته إلَّا عندما نبَّهته أنا ورودريغو إلى السفن التركيَّة التي كانت تقترب منَّا بقوَّة. وفي 26 سبتمبر كان ريَّاس البحر يحيطون بنا من كلّ الجهات، قبل أن ينقضّوا على السفينة نهائيًّا في عرض السواحل الكتالينيَّة. قاومنا في حرب كنَّا نعرف منذ البداية أنَّنا سنموت فيها مجَّانًا وهي خاسرة. كنَّا نسمع فقط باسمه، ولكنِّي يومها رأيته، ورأيت قسوته، اليوناني المرتدّ، دالي مامي المسمَّى الكوخو. عندما تلتصق السفن المتحاربة، تموت الرحمة في قلوب الناس. مات الكثيرون من البحارة والضيوف، ومن ضمنهم قبطان السفينة نفسه، واضطررنا إلى الاستسلام. تمَّ اقتياد الجرحى مع الأحياء في اتجاه ميناء الجزائر كرهائن، مقيَّدين ومكبَّلين. عندما رأيت المدينة من عمق البحر لأوَّل مرَّة، بكيت في أعماقي، ليس خوفًا لأنِّي كنت أعتبر نفسي ميِّتًا أو مباعًا لمن يدفع أكثر، ولكنِّي اشتهيت لحظتها أن أفتح عينيَّ على بلنسيا، أو على أيَّة مدينة بحريَّة أخرى، مثل بقية رفقاء السفن الثلاث الأخرى. بعد ثلاثة أيَّام من مقاومة الأمواج الخريفيَّة العاتية، وصلت السفن إلى ميناء الجزائر المكتظّ. أُدخِلنا إلى سوق العبيد قبل أن يشترينا حسن فينيزيانو من الكوخو، لإعادة بيعنا إلى أهالينا. مصائرنا كانت معلَّقة على حافَّة الخوف والصدفة.

ـ أتساءل أحيانًا في ماذا يمكن أن يفكِّر شاب محارب لم يتجاوز عمره الثماني وعشرين سنة؟

Provence. (1)

Le Golfe du Lion. (2)

ـ في الحياة طبعًا! لكن عندما تدخل إلى مدينة تخاف منها، لا تعرفها جيِّدًا، أو تسمع عنها ما يرعبك في نومك وفي يقظتك، فأنت تفكِّر في أكثر من ذلك. أن تمنع من حقّ الحياة. وأنا أدخل إلى وهران، على ظهر سفينة مثقلة بالصراخ والخشب، والفئران، ووجوه الناس الحائرين، كان قلبي مليئًا بالخوف من أخوة الدم. كنت أعرف الكثير من القصص التي كانت تروى لنا من وراء البحر إبَّان الهجرة الأولى، بعد انكسار غرناطة، أنَّ الكثير من الموريسكيِّين قُتلوا فقط لأنَّه كان يبدو عليهم بعض الغنى، أو كانوا يحملون قليلًا من الذهب الذي سحبوه وراءهم ليعيشوا به في أرض لم يكونوا يعرفون منها إلَّا اسمها.

ـ الكثير ممَّا كنت أعرفه، كان خطأً وكذبًا. عندما دخلت السفينة إلى ميناء الجزائر من طريق الأميراليَّة، فوجئت بالمدينة التي تتسلَّق جبلًا في مواجهة الشمس ببياضها الناصع. كنت أنتظر أن أرى *عشًّا للقراصنة*. اكتشفت مدينة كبيرة يسكنها أكثر من مائة وخمسين ألف ساكن يشتغلون في مختلف الصناعات والمهن. أكثر كثافة من باليرمو، وليست أقلّ جمالًا من نابولي. بدأت أكتشف بنفسي ما لم أكن أعرفه من قبل. ميناء نشيط ومليء بالحركة والحياة، ومنارة كبيرة للسفن، ومخازن واسعة على حواف الميناء تحتوي على كلّ حاجيَّات المدينة وتجارتها. حركة لا تنتهي بين مختلف الأسواق، وشوارع تختبئ بين الأشجار، تتخفَّى فيها المساجد والحمَّامات والقصور والسواقي بمائها الصافي. خارج أسوار المدينة تنتشر أيضًا القصور والغابات الكثيرة التي تشرف على البحر. كلّ ما يوحي بحياة جميلة وحيوية اختزلتها نظرات الحروب الدِّينيَّة وسرنا في ركابها. كثيرًا ما كنت أقف في ميناء الجزائر على الأيدي القوِّيَّة التي كانت تصنع سفنًا، سرعتها فائقة وقوَّتها كبيرة في مقاومة البحر. رأيت أيضًا ما جرحني. قرابة المائة سفينة مليئة بالرهائن المسيحيِّين من إسبانيا وإيطاليا، كانت تقاد إلى

الميناء يوميًّا. الريَّاس والبحَّارة يأتون من أعالي البحار محمَّلين بالرهائن، وكان ذلك فرصة للاحتفالات والشرب والزهو. لم أكن في حاجة لأن أدخل في أدمغة الرهائن، فقد كنت أحسّ بما كانوا يشعرون به من غبن!

ـ ينسى الناس بسرعة بطشهم، وأنَّه يمكن أن يكونوا هم أيضًا ضحية للطاحونة التي صنعوها.

ـ أنت رأيتني في ظروف أحسن، عندما اشتراني الآغا، ولم ترني من قبل. لقد عايشت بأمّ عيني كيف يخسر الإنسان شرطه ويتحوَّل في لحظة من سلطان إلى لاشيء. اقتادونا إلى سوق العبيد، ورأينا كيف كان يتهافت المشترون علينا وعلى غيرنا ليقايضونا بمال أوفر. مرَّ برأسي وقتها الكثير من الأفكار الجهنَّميَّة. الهرب. قلت: لا شيء ينقذني إلَّا الهرب. كان المشترون يتفرَّسوننا كالحيوانات، ويلمسون أجسادنا المصفَّدة بالقيود إذا كانت قوِّيَّة. من هذه الناحية، لم أكن أصلح للشيء الكثير. بعدها يتمّ اقتيادنا مباشرة إلى السجون التركيَّة، حيث يتمّ حجز كلّ الرهائن المسيحيِّين البسطاء أو الشخصيَّات الرَّسميَّة والذين لا حامي لهم إلَّا التفاوض لدفع الفدية التي كانت رهانهم للحرِّيَّة. الكثير من المتاجرين في الرهائن كانوا يقودون «سلعتهم» إلى المخابئ والأنفاق، قبل بيعهم. وكان يُدفع ببعض الرهائن إلى كتابة الرسائل إلى ذويهم لطلب التدخُّل ودفع الفدية. وتمَّ تصنيفنا منذ البداية ضمن الشخصيَّات المهمَّة التي تجب المحافظة عليها ويطلب لإطلاق سراحها فدية كبيرة. لقد وضعوا في معصمي قيدًا كدليل على الشراء أكثر من كونه قيدًا للعبودية. كنت أقضي يومي كلَّه في السجن مع نخبة من الناس المرشَّحين للفدية. وعلى الرَّغم من الجوع الذي كان يعذِّبنا أحيانًا، لم يكن شيء يؤذيني مثل أن أكون شاهدًا على ممارسات معلّمي دالي مامي العنيفة التي كان يمارسها ضدّ المسيحيِّين. كلّ يوم كان يشنق واحدًا لتخويفنا، وتقطع أذني آخر بسبب أو بلا سبب.

ـ أعرف مثلك أنَّ سوق العبيد هو أقسى مكان يصيب الإنسان في صميمه، وأعرف أيضًا ما معنى أن يساق إنسان نحو حتفه المعنويّ. لا أذل للإنسان من أن يُجرّ مصفَّد اليدين والرجلين ويتحوَّل إلى فرجة للعابرين في الموانئ المكتظَّة بالبشر!

ـ عندما علموا برتبتي العسكريَّة، طلبوا منِّي كتابة رسالة لأهلي متعلِّقة بالفدية. وكان الناس البسطاء هم الأكثر تعرُّضًا لمثل هذه الممارسات، أو يُختارون للعمل في الموانئ أو في الحدائق والقصور، أو كجذَّافين في السفن الحربيَّة التي كانت تأكل من جهودهم الشيء الكثير. ربَّما كنت سأُختار جذَّافًا إلى أن تأتيني الفرصة للهرب. المحظوظون منَّا، كان يُسمح لهم بالتَّحرُّك داخل المدينة المغلقة. حتى النظام عرفته بدقَّة، إمَّا في الحبس أو في نقاشاتي مع الأغا. حول الباشا وهو مفوض السلطان الذي يشرف على الديوان، تعرَّفت على نظام الأوجاق، ما نسمِّيه نحن بالمليشيات الإنكشاريَّة، وعلى طائفة الريَّاس الذين نطلق عليهم اسم القراصنة، أي القوَّتين العظيمتين اللتين تتقاتلان على السلطان في الجزائر. تبدو التقسيمات الإداريَّة واضحة بأنماطها المختلفة: في أعلى الهرم، يوجد الأتراك الذين يشكِّلون الإطار الإداريّ والعسكريّ للجزائر العاصمة، يساعدهم على تأدية هذه المهام القراصنة القادمون من مختلف الأماكن من المتوسِّط؛ وفي قاعدة الهرم كتلة الرهائن الذين يقايضون بهم بواسطة الفديات، ويشكِّلون، بحسب ما عرفت من الأغا نفسه، قرابة الثلاثين ألفًا بدون حساب العبيد السود.

ـ يبدو أنَّك تعرف من تفاصيل هذا البلد أكثر ممَّا أعرف.

ـ كنت سأموت صمتًا لولا مجيئك. من ساعة دخولك إلى قصر حسن فينيزيانو، شعرت كأنَّ شيئًا تغيَّر تمامًا. أنا ممتنٌّ لك. جعلتني أحكي حرائقي القاسية، أنا الرجل الذي راهن على الحكاية قبل حياته. لقد أصبحت جزءًا منِّي ومن الباخية[1] الكبيرة.

(1) كلمة إسبانيَّة قديمة، تعني الحكاية.

- أن تكتشف مدينة لا يكفي، إذ يمكنك أن تنساها بسرعة عندما تعود لك مدينتك وتسترجع شوارعها، لكن أن تكتشف ناسًا يشبهونك فيها، فهذا أجمل ما يمكن أن يحدث من صدف، حتى ولو كانت حالاتنا قاسية ومؤلمة. مرتاح أنَّ قلبك انفتح على ابنة الحاج مراد، أو حاجي موراتو كما تسمِّيه. لالة زريدة نزلت من السَّماء على يديك وليس على يديَّ، لتمنحك فرصة أخرى للحياة.

- في لحظة جنون، مرَّت بي فكرة الزواج بها والاندفان في عمق هذه المدينة، وأقوم بما قمت به أنت. ولكنِّي تعقَّلت. لي هناك أناس آخرون، وليس من حقِّي أن أضيع وأمحو ذاكرتي من كلّ شيء. هم يتعبون من أجل إنقاذي. حتى ولو قُدِّر لي أن أخرج من هنا، سأعود حتمًا إلى هذه المدينة فقط لرؤيتها ورؤيتك أيضًا. لا شيء غير ذلك.

- زريدة تحبّك، فلا تخذلها. تغامر بمصيرها وربَّما بمصير والدها أيضًا، لأنَّه أحد الرجال الثقاة في دائرة فينيزيانو الضيِّقة.

- الحبّ هو أجمل رهان، وهذا ما يؤذيني. أعتقد أنَّ أهلي سيجنِّبونني قسوة النسيان. ولو أنَّ فدية الآغا كبيرة وفوق طاقتهم.

- كأنَّنا رجع مزدوج لصوت واحد. كلّ ما سمعته منك اليوم، يضعني أمام تاريخي وأنا أُجرُّ من جبال البشرات، ثمَّ في كنيسة الموت في غرناطة، ثمَّ على حواف المارية، أتمزَّق بيأس. كنت أنا وأهلي سنبيع كلّ شيء، أعمارنا وأموالنا، مقابل أن لا نُفصل عن تلك الأرض التي سُرقت من تحت أرجلنا. ربَّما لم تكن لنا، ولكنَّنا بالتأكيد كنَّا لها. لم تكن إلَّا هي، ولم نعرف غيرها أبدًا. نموت أحيانًا على تربة نظنّ أنفسنا أنَّنا عرفناها، ولكنَّنا نستيقظ في آخر العمر لنكتشف بأنَّنا لم نعرف شيئًا عنها، وأنَّها بقيت خارج الذات. كثيرًا ما تكون الصدمة قاتلة، والهلاك أكيد. تخيَّل شعبًا يُجرّ عن بكرة أبيه ويوضع على حوافّ الموانئ المتوسطيَّة،

لا ذنب له إلَّا أنَّه ولد في تلك الأرض! حتى إنِّي في لحظة من اللَّحظات شتمت كلّ الأديان، كلّ الأديان بلا استثناء. بها تُخاض الحروب، وتُراق دماء الأبرياء، وباسمها أيضًا توقف؛ وكأنَّ في ذلك سرّ لعبة قاتلة، يديرها كائن يشبه الشيطان في كلّ شيء، أكثر ممَّا يشبه اللَّـه.

ـ نبدو أنا وأنت في هذا الفراغ كذرَّتين ضائعتين في دنيا واسعة مليئة بالغبار الثقيل الذي لا يترك لنا أيَّة فرصة للقاء وللراحة. لا أستطيع أن أقول هذا أمام محاكم التفتيش المقدَّس، لكنَّ قانون الطرد والتَّهجير والتَّعذيب كان مشينًا وحاقدًا. هذا لن يولد في النهاية شيئًا آخر إلَّا المزيد من الكراهية والأحقاد. في الحروب والمقتلات القادمة لن نكون موجودين، ولكن سيوجد حتمًا من يزكِّيها، وستوجد أيضًا بذرة منَّا تحاول أن تطفئها، قد تنجح وقد تُقتل، لكنَّ فخرها أنَّها حاولت. من بين كلّ الذين اخترقوا حياتنا بالظلم أو بالحقّ، وجه واحد نتذكَّره، منحنا قلبه ولم يطلب أيّ مقابل لكلامه أو عطفه. وقد يوصله ذلك إلى المشنقة، لكنَّه يواجه موته بكبرياء عالية. الخير يُوَرَّث، ولكن المؤسف، هو أنَّ الأحقاد تورَّث أيضًا. لنا يا عزيزي سلاح السخريَّة والتَّهكُّم والحكاية. هذا لا يستطيعون تجاهه أيّ شيء.

لا أدري كيف افترقنا، في ذلك اليوم، ولا حتى كيف التقينا أوَّل مرَّة. لكنِّي أصبحت كلَّما سمعت ميغيل يتكلَّم على أحزانه وعلى شروخه، شعرت بأنَّ ما بيننا يمتدّ إلى سنوات، وربَّما إلى قرون خلت. كنت أشعر بقربه، بحزنه وبفرحه. تمنَّيته أن يبقى طويلًا في المحروسة، بيننا أشياء كثيرة لم نستطع قولها. ولكنِّي تمنَّيت أكثر أن يسترجع حرِّيَّته، وبعدها يختار مسلكه. أعرف أنَّ الأشياء لا تأتي هكذا بسهولة. مهما يكون، فقد كان ميغيل، أو الرجل الأحمر، يملك حظ الانتظار والحلم، وقسوة خيباتهما.

الورقة العاشرة

تعقُّد وضعية ميغيل سرفانتس بعد أن فشل أهله في تجميع الفدية.
ذكر الوقائع الكاملة التي حصلت مع هرب سرفانتس وأصدقائه وسجنهم.
مقتل الموريسكي خوان الذي ساعدهم على الهرب،
وقصَّة إنقاذ سرفانتس من سفينة الهجرة الثانية نحو القسطنطينيَّة.

الخبر الذي وصل لم يكن غريبًا. عندما سُئلت عنه في القصر، أكَّدت مرَّة أخرى أنِّي تركته بين الفحص والحديقة، ولا أعرف عنه شيئًا آخر. ربَّما يكون هائمًا في المدينة التي أحبَّها. لكنَّ رئيس الأوجاق، طالبني بمرافقته إلى كلّ الأماكن التي يفترض أن يكون قد زارها الرجل الأحمر، في المدينة، لأنَّ الآغا لو علم بهذا الاختفاء المفاجئ، سيقتل الجميع. زرنا كلّ زوايا الميناء ومخازنه الخفيَّة. سألنا الرايس حميد كروغلّي عنه، فنفى أن يكون قد رآه. وسعدت لموقفه لأنَّه لو قال الحقيقة لورَّطنا جميعًا، ولتعقَّد كلّ شيء. أكَّد أنَّه يعرفه جيِّدًا، وكثيرًا ما ساعده

على تشحيم السفن، قبل أن يتوه في عمق المحروسة، يجوب شوارعها، يتسلَّى في حدائقها ونسائها. سأل رئيس الأوجاق الرايس كروغلّي:

ـ هل يعرف امرأة محدَّدة يكون قد هرب معها؟

صبر سيِّدي لتبجُّح رئيس الأوجاق إذ كان بإمكانه أن يلجمه:

ـ لا أعتقد أنِّي دخلت إلى فراشه، ولكنَّ الرجل يبدو محبًّا للرجال أكثر من النساء.

هزَّ رئيس الأوجاق رأسه كأنَّه كان يعرف عنه شيئًا من هذا، أو تذكَّر خلواته مع الآغا.

تجوَّلنا داخل سوق الذهَّابين الذين أكَّدوا بالإجماع أنَّهم لم يروه منذ ليلة فقط. من عيونهم كنت مدركًا أنَّهم كانوا متعاطفين معي، فهم يعرفونني جيِّدًا وأصدقاء لميمون البلنسيّ، وأغلبهم من الموريسكيِّين أو المارانيِّين. كانوا خائفين عليَّ من رئيس الأوجاق الغبيّ الذي كان يجرّ وراءه جثَّة مثقلة بالهواء الساخن.

كنت أسحبه ورائي ولا أسمع إلَّا تنهّداته التي تشبه حالات الاختناقات المتكرِّرة. أفكِّر من حين لآخر كيف نمَتْ فيه فكرة الهرب مع أنَّه كان مرتاحًا لوضعه. مع ذلك، لم أتفاجأ أبدًا في احتمال هربه. كلّ ما فيه كان يدلّ على أنَّه سيحاول ذلك حتمًا في يوم من الأيَّام. كان مشبعًا بحرِّيَّته. شعرت بذلك عندما استقبلته في بيتي أنا ولالة سلطانة والرايس حميد كروغلّي وميمون البلنسيّ. كان وجهه شاحبًا ويبدو عليه تعب كبير. وعلى الرَّغم من السهرة الجميلة التي ملأتها لالة سلطانة وفرقة جاهاركا، كاسا أندلوسيا ولالة مريم، لم يكن سعيدًا. ربَّما تكون أغاني الحنين هي من أيقظت فيه رغبة العودة. كنَّا حول النافورة، أنا وهو وبقيَّة أفراد العائلة، والحاج مراد وابنته زريدة، والرايس حميد كروغلّي

وزوجته الموريسكيَّة لالة زهرة فلوريدا، التي هذَّبته كثيرًا في نومه وأكله وشربه وتعامله، الذي اقترح عليه العمل معه في السفينة إذا شاء بدل الانتظار حتى يأتي من ينقذه. وبدأت الفكرة تدور في رأسه بقوَّة. لم يكن شغل تشحيم المدافع وأسلحة الرمي الأخرى، وتنظيف السفن ثقيلًا على سحنته الخفيفة. لا أدري كيف استطاع الرايس كروغلّي إقناع حسن فينيزيانو بعد تلك اللَّيلة، بتركه يدخل سفنه ويعمل معه في أوقات فراغه، حتى لا يملّ ولا يفكِّر في الهرب قبل دفع الفدية. إحساسي برغبته في الهرب كانت كبيرة ليلتها، ولم يكن العمل في السفن إلَّا محطة طارئة يلهي بها من يراقبه من الحرس، ويعرف من خلالها أسرار حركة السفن.

قال لي ونحن نشرب نبيذًا صنعته بيديَّ، وعتَّقته كما اشتهيت:

ـ هل تدري يا غاليليو، أنَّ حنين لالة سلطانة وفرقة كاسا أندلسيا، وحاجي موراتو وزريدة، أيقظوا فيَّ كلُّهم رغبة الهرب من حيث لا يدرون؟ أنا أيضًا اشتهيت في لحظة من اللَّحظات أن يكون لي مرجع بيتي جميل مثل بيتك أعود له كلّ مساء. بل إنَّ بيتك ذكَّرني مرَّة أخرى بأنَّ أرضي هناك. أنت وجدت الحلّ بأن نقلتَ أشواقك معك، وأنا؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ ثمَّ، ما الذي يجعل زريدة ترغب في الخروج بعد كلّ هذا الزمن الذي قضته في هذه المدينة، وهي المسيحيَّة التي أسلمت؟

ـ هل تظنّ أنَّنا ندخل دينًا آخر بالقوَّة؟ لا، وحتى ولو تظاهرنا بعكس ذلك. الدين خيار عميق وغامض. نتخبَّأ وراء دين فُرض علينا خوفًا، وأوَّل ما تطلّ سفننا في الأفق ننسى كلّ شيء، ونهبُّ نحوها ويستيقظ ديننا الأوَّل فينا. لنترك الناس يؤمنون بما يشاؤون، ويذهبون نحو ما يشتهون من ديانات وقناعات، حتى المجنونة منها، ويجرِّبون ما يريدون، وسترى أنَّ الأديان ستكون بخير، ولن تولِّد أيَّة حرب. أنا أدرك

جيِّدًا أنَّه إذا امتلأ قلبك بالرَّغبة في الخروج ستفعل، ولن تستأذنني. وهران على مرمى حجر.

كنت أفهم جيِّدًا رغبته المحمومة ليس للهرب ولكن للحرِّيَّة. وقد يعود إلى هذه المدينة بخياره وقد يقيم فيها مع زريدة ما تبقَّى من عمره. عرفت أنَّه كان قد دبَّر خطة للخروج، وكأنِّي عندما ذكرت له وهران أيقظت فيه مسافة لم تكن بعيدة للدخول إلى إسبانيا. كانت أقرب نقطة إسبانيَّة. تفاصيل القصَّة التي خبَّأتها طويلًا عن رئيس الأوجاق الثقيل انكشفت فيما بعد بكلّ تفاصيلها أمام الآغا فينيزيانو. خرج في جانفييه 1576، مع مجموعة من أصدقائه بعد أن دبَّر طريقة للهرب. ألغى فكرة الذهاب عن طريق البحر، لأنَّ ذلك كان يبدو مستحيلًا في ظلّ الإمكانات المتاحة ووضعيَّة البحر في فترة الشتاء، حيث يكون المتوسِّط طعمًا للهول والموج المتقلِّب. يحتاج الإنسان إلى قدر كبير من اليأس والجنون لكي يستطيع فعل ما فعله. فقد صمَّم على قطع المسافة هربًا عبر البراري حتى مدينة وهران التي تبعد عن العاصمة مشية خمسة أيَّام ببردها وخوفها وشططها. لا أدري من وشى به. أعادوه بدون عناء كبير وهو على مشارف المدينة مع أصدقائه، وأودع السجن. بينما ميغيل وصديقاه كاستانييدا وأنطون ماركو[1] قد أُعفيا من هذه العقوبة، إذ إنَّه في شهر مارس من السنة نفسها استطاع كاستانييدا وماركو أن يعودا إلى إسبانيا بعد أن تمَّ تسديد الفدية، وهما من أقنع الأهل بضرورة الاتِّصال بالجزائر لإنقاذ سرفانتس من وضعيَّة صعبة. كان سرفانتس حزينًا، ولم يعد بتلك البشاشة والحكمة التي عرفته بها. قال لي إنَّ والده تعب كثيرًا. وعلى الرَّغم من محاولته الاستدانة، إلَّا أنَّ الأبواب كلَّها أُغلقت في وجهه.

(1) Castaneda et Anton Marco.

ـ كلّ الأبواب سُدَّت بإحكام. تعقيدات غريبة. والدي أُنهك حتى أصيب بحالة يأس مدمّرة. طلبوا منه في البداية وثيقة نقاء الدم قبل التَّفكير في السلفة، فقدَّمها. ثمَّ طلبها لتخليصي، ولكنَّهم رفضوها له. ليونور، أمِّي بدورها حاولت أن تفعل شيئًا. سمعت أنَّها تدخَّلت لدى مجلس الحروب الصليبيَّة لكونها فقدت ابنها في حرب دينيَّة، ولا أدري هل أفلحت أم أنَّها سيخيَّب ظنُّها. وأصبحت على شبه يقين أنَّها لن تتوصَّل إلى إقناعهم بجدوى إنقاذي من هذا المأزق.

ـ لقد دخلك اليأس أنت أيضًا يا صديقي.

ـ ليس يأسًا، ولكنَّه استحالة. أعرف أنَّ لا أحد يعطي ملِّيمًا لإنقاذ رأسي، من أكون بالنِّسبة لهم؟

بعد فترة وجيزة تغيَّر كلُّ شيء، وتحوَّل اليأس والخوف إلى فرحة عارمة فكَّكت الحزن الذي سكن فجأة ميغيل. في الصباح الباكر من ذلك اليوم البارد، أوصل لنا الخبر الجميل حسن فينيزيانو نفسه بأنَّ الأمور في طريقها إلى الحلّ، وأنَّ أهله بصدد الحصول على السلفة. قضى ميغيل ليلته تلك في قصر فينيزيانو. زريدة قضت ليلتها في فحص والدها، على الحافة الغربية من ميناء المحروسة.

كان مثل طفل استعاد كلّ ما سُرق منه فجأة بعد يأس كبير.

ـ الآن، يمكنني أن أحلم قليلًا وأرتاح. لقد نجحت محاولات ليونور اليائسة، ومُنحت في 16 ديسمبر سلفة بقيمة ستين دوقة من أجل تحريري. قد لا تكون كافية، ولكنَّها مهمَّة، على الأقلّ تضع حدًّا لحالة الانغلاق.

لكنْ ما حصل فيما بعد كان صعبًا. فقد تسرَّبت معلومات مفادها أن الجهات التي وعدت بتتمّة المبلغ تراجعت، لأنَّها تشكّ في أصول

سرفانتس وقناعاته الدينيَّة، وتتَّهمه بتهم منافية للدين والأخلاق. انهارت فجأة كلّ الفرحة التي ملأت وجهه وبرقت بقوَّة في عينيه الطيِّبتين.

ـ كنت أعرف ذلك، ولكنِّي كنت دائمًا أكذِّب نفسي. هناك من يرفض خروجي. وهو من يوصل الأخبار المغلوطة إلى رجال الدِّين في إسبانيا. خوان بلانكو دي باز، عضو محاكم التفتيش الموقوف، لا أحد غيره قادر على فعل ذلك.

لم أجد كلامًا أواسيه به. انفصل تمامًا عن زريدة، وعاد إلى البحريَّة في سفن الرايس كروغلّي بعد أن توسَّطت له من جديد. قال إنَّه يريد أن ينسى ما يحدث له من خيبات التي تكاثفت ضدّه. كنت أدرك في قرار نفسي أنَّه ليس العمل البحريّ هو ما كان يشغله. عرفت فيما بعد أنَّه اتَّصل بأحد البحَّارة المعروفين الذي يمكنه أن يغامر باتِّجاه أرض الجزائر، التي لم يكن من السهل التجذيف بالقرب من سواحلها نظرًا للحراسة التي كانت تحيط بها من كلّ جانب. بعد أربعة أسابيع من التَّحضيرات على حواف الميناء التي درسها بدقَّة، صار كلُّ شيء جاهزًا واستقرَّ به الأمر إلى ضرورة تنفيذ خطة الهرب. تمَّ تجهيز سفينة حربيَّة في مايورك كان يقودها قبطان اسمه فيانا[1]، وهو أحد الرهائن ممَّن تمت فديتهم. يتَّفق الجميع على يوم 28 سبتمبر للهرب. ولكن، في ذلك اليوم، تغيَّب المايوركي ومساعدوه لأسباب ظلَّت مجهولة ولم يحضروا في الموعد، إمَّا خافوا من مخاطر المغامرة غير المضمونة، أو أُلقي عليهم القبض في عرض البحار. كان سرفانتس قد هيَّأ نفسه من جهته كما اتَّفق واتَّصل بخادم في فحص حسن فينيزيانو، من نافاريا يسمَّى خوان، الذي نصحهم بمكان كان يعرفه جيِّدًا سبق أن حفره ووسَّعه أكثر ليتحمَّل أربع عشرة رهينة. كان قد سألني

(1) Viana.

قبل ذلك عن النافاري هل يمكن أن يثق فيه؟ نبَّهته إلى ضرورة الحذر. كنت أظنّ أنَّه كان يريده وسيطًا بينه وبين زريدة. استغل سرفانتس فرصة غياب الحرس وخروج أغلبية الريَّاس إلى عرض البحر، ليسحب وراءه أكثر من أربع عشرة رهينة اقتادهم خارج المدينة. واختبأ الجميع في أعالي المحروسة، في مغارة قريبة من حدائق الآغا، شرق المدينة. وظلَّ خوان النافاري قائمًا على صحَّة الهاربين وأكلهم وشربهم طوال مدَّة اختبائهم، في انتظار وصول سفينة الإنقاذ، لمدَّة خمسة أشهر. كنت أنا وقتها قد عدت إلى عملي مع ميمون البلنسيّ، أو في تشحيم سفن ومدافع الرايس كروغلّي الغائب عن المدينة. المساء الذي قضيناه معًا قبل إقدامه على مغامرة الهرب، كان جميلًا وحزينًا.

ـ الذي ينتظر أحسن من اليائس. أعرف جيِّدًا يا ميغيل ماذا يعني أن تقف على حافَّة الساحل الخالي، تنتظر سفينة تأتي ولا تأتي أبدًا. تطلّ في الأفق ولا تطلّ! أو تقف في الميناء نفسه، وتتمنَّى على العكس من ذلك، أن تغرق السفينة المكلَّفة بنقلك نحو أرض لم تتهيَّأ لها أبدًا.

ـ تظنّ أنَّ المسألة بسيطة؟ وضعي ليس أحسن ممَّا أنت فيه. حتى عندما تدفع الفدية أعرف سلفًا أنَّه عليّ، إذا قطعت البحر سالمًا، أن أثبِّت لهم هناك أنِّي لم أتواطأ مع الأتراك، وأنَّ لا شيء من اليهود ومن المسلمين في دمي. بقدر ما أسعد بخروجي من هذا الحجز، أنا خائف أيضًا ممَّا ينتظرني هناك!

ـ لو كنت تعرف العربيَّة أو تتقن لغتنا السرِّيَّة، الخيميادو، لسلَّمتك كتاب *نفح الطيب* الذي حدَّثتك عنه طويلًا، ومخطوطات أخرى، لتعرف ماذا فعلوا بنا هناك، وماذا كان ينتظرنا بين أهالينا، وتعرف أيضًا لماذا كنَّا نتمنَّى أن تغرق كلّ السفن المكلَّفة بنقلنا نحو العدوة الأخرى، بانتظار أن يغيِّر الملك أو أحد خلفائه قراراته القاسية بقرارات أكثر رحمة!

مرَّة أخرى، لم تكن المغارة بردًا وسلامًا على ميغيل سرفانتس. انتظر الجميع طويلًا ولم يأتهم أحد. وفي صباح 30 فوجئوا بحرس الآغا يقفون على مداخل المغارة ويطوِّقونها، ويقتادون الهاربين إلى السجن من جديد. ويبدو أنَّ إلدورادور، أحد المرتدِّين ممَّن كان يعرف القصَّة واختفاء سرفانتس وأصدقائه، هو من وشى بهم، وكان وراء إلقاء القبض عليهم.

هذه المرَّة، كنت حاضرًا عندما وقف سرفانتس بين يدي الآغا. وكنت أترجم الصغيرة والكبيرة. اعترف الرجل الأحمر بجريمته وتحمَّلها لوحده، وأنكر أيّ دور للمجموعة التي كانت بصحبته. عندما سأل الآغا عنِّي، قال إنِّي كنت يومها أدهن مدافع السفن التي كانت تتهيَّأ للخروج، وهو ما أكَّده أيضًا الرايس كروغلّي. كان فينيزيانو ينظر إليَّ بعينين حمراوين. خفت من أن يضعف سرفانتس ويلصق بظهري كلّ شيء. قتلي يشفي الغليل، ولا يغيِّر من المعادلة في شيء.

عندما شعرت بنوع من الارتياح في عيني الآغا من جهتي، أصبحت خائفًا على سرفانتس، وعلى الخادم خوان النافاري المسكين الذي لم يقل أيَّة كلمة، وظلّ مقيَّد اليدين والرجلين.

غابت صلتي بسرفانتس، وعدت إلى حقلي الذي كدت أنساه، وإلى عملي الأساسي مع ذهَّابي القصبة وميمون البلنسيّ، لإتمام الطلبات الكثيرة التي كانت تخف وتزيد بحسب الوضع الحياتي للناس وللقادة والبحّارة. حتى المنقذ فراي جورج دي أوليفار لم ينجُ من الزجّ به في السجن، لأنَّه سبق أن رهن نفسه مقابل إطلاق الدفعة الأولى من الرهائن. بقي سرفانتس، مدَّة خمسة شهور، في سجن الآغا الخاص بحيث شدَّد عليه الخناق. الوحيد الذي دفع الثمن غاليًا هو خوان، مساعدي والمشرف على الحديقة الذي تمَّ شنقه في 3 أكتوبر في ساحة القصر،

وعلى مرأى من الجميع، لمساعدته الرهائن على الهرب وتوفير المخبأ والأكل والشرب. حاولت أن أتدخَّل لكن لم تكن لديَّ أيَّة صفة لذلك. فقد مات خوان النافاري ولم يفش بتواطئي مع سرفانتس. تسامُحُ الآغا مع سرفانتس كان غريبًا، إذ ليس من عاداته أن يغفر جرمًا كبيرًا كهذا. ربَّما كان سببه حالة ضعف فينيزيانو، قرأت ذلك منذ الجلسة الأولى، في رمشة عينيه عندما وضع سرفانتس كلّ شيء على ظهره، ولم يورِّط أيَّ شخص آخر معه.

سكنته حمَّى الخروج واليأس بشكل لم يعهده في نفسه من قبل. أصبحت علاقتي به محدودة جدًّا. في مارس 1578، عندما حاول الهرب مرَّة أخرى، واتَّصل بالمركيز دون مارتن القرطبي[1] وبشخصيَّات أخرى من بين أصدقائه ليبعثوا له بصحبة الموريسكي مجموعة من الجواسيس مع رجال ثقاة لإخراجه من السجن هو وثلاث شخصيَّات مهمَّة كان الآغا قد حبسهم، باءت المحاولة بالفشل الذريع، وأُغلقت عليه أبواب الهرب أكثر، وضاقت عليه مساحات الحرّيَّة. فقد فضحته الرَّسائل التي كان يحملها، والتي أكدت على شبهة التواطؤ. حكم على سرفانتس بألفي جلدة. لكن تنفيذها لم يتمّ بتدخُّل من الآغا نفسه. تنفيذ ذلك كان يعني ببساطة الموت المؤكَّد. وخرج سرفانتس سالمًا من محنته، مرَّة أخرى. ربَّما كان لتدخُّلات دالي مامي، وحميد كروغلّي اللذين أصبحا من أهمّ ريَّاس البحر المقرَّبين من الآغا الدور الأكبر. ربَّما يرجع ذلك لتدخُّلات مستشاره المقرّب حاج مراد والد زريدة، أحد المرتدِّين من راغوزا[2] وأحد الأغنياء الكبار في المدينة. وكان في الأصل شاويشًا في قصر الآغا. حياته كلُّها رهنها لبنته زريدة وسعادتها. كان يعرف أنَّها تحبّ سرفانتس،

(1) Le Marquis Don Martin de Cordoba.

(2) Raguse.

وكانت مرعوبة لفكرة جلده. زريدة، تزوّجت في البداية من السلطان المغربيّ عبد الملك المنفيّ في الجزائر، الذي استعاد عرشه في المغرب سنة بعد إلقاء القبض على سرفانتس في أعالي البحار. استطاع هذا الملك أن يربح معركته ضدّ ملك البرتغال سيباستيان في موقعة القصر الكبير[1]، ولكنَّه قتل بعدها بسنتين في ظروف غامضة.

كانت حرِّيَّته هي رهانه، ولهذا لم يتعلَّم سرفانتس من أيّ درس. يحاول في سبتمبر 1579 الهرب مرَّة أخرى. ينظِّم خطة تتلخَّص في تجهيز سفينة والهرب بها إلى إسبانيا. شخصيَّتان اشتركتا في العمليَّة: التاجر الفالانسي المسمَّى أونوفري[2] مموِّل شراء السفينة، وعبد الرحمن الأندلسي الغرناطي الذي قام بشرائها. ولكن شيبان نبَّه حسن فينيزيانو، وقصّ عليه تفاصيل الخطة. تهم أكَّدها على مسمع الآغا، خوان بلانكو دي باث[3] الذي يبدو أنَّه تحرَّك بسبب الغيرة التي طحنته، لأنَّ سرفانتس لم يختره من بين الفارّين على متن السفينة. يُلقى عليه القبض مرَّة أخرى، ويُسحب مكبَّلًا إلى قصر الآغا الذي هدَّده هذه المرَّة بالشنق، ولكن لم ينفِّذ حكمه، وبقي سرفانتس محجوزًا داخل القصر. كان حسن فينيزيانو يريد أن يسترجع على الأقلّ 500 دوقة ذهبيَّة التي اشتراه بها من مامي دالي.

كانت أحداث تلك السنة قاسية جدًّا. فقد ماتت لالة سلطانة بسبب الطاعون الأسود الذي اجتاح جزءًا كبيرًا من المدينة، ولم تنج إلَّا الأجساد التي قاومت الموت المتربِّص في كلّ زوايا المدينة. تأتي الأمراض مصاحبة أحيانًا للكوارث، فقد ختمت المجاعة الأجساد المنهكة بختمها. أكل شتاء تلك السنة ما خلَّفته وراءها الأمراض، والطاعون والمجاعة.

---

(1) Alcazarquivir.

(2) Onofre.

(3) Juan Blanco de Paz.

كان الناس يُجَرُّون بالمئات، كل صباح، ويُدفنون جماعات جماعات. كان جسد لالة سلطانة هو أوَّل من دشَّن مقبرة خليج الغرباء التي اشتريت فيها مساحة لي ولعائلتي.

عدت إلى القصر لمرافقة سرفانتس بعد أن تأكَّد أنَّ عائلته على أبواب حلّ مشكلة الفدية.

كانت المدينة في عزّ رمادها عندما وصل في 29 ماي 1580 فراي خوان جيل إلى الجزائر بصحبة فراي أنطون دي لابلا[1]. وجدا مدينة تستيقظ بصعوبة من مأساة المجاعة التي أصابتها والتي حصدت أكثر من خمسة آلاف شخص في شتاء واحد. وبدأ رجلا الدِّين الحوار والاتِّصالات مع الآغا. لكن من دون جدوى، لأنَّ الحروب البحريَّة ضدّ السفن الغربية التي كانت تريد الدخول إلى الجزائر كانت طاحنة، وعادت من جديد لتحتلّ الواجهة. وبفضل صبرهما وحكمتهما، استطاع الرجلان أن يشتريا أكثر من مئة رهينة، ولكنَّ سرفانتس لم يكن من بينها. وكان الوقت ضيِّقًا، لأنَّ حسن فينيزيانو المتعاطف مع سرفانتس، والعارف لخبايا كلّ المفاوضات، كان يستعدّ للعودة إلى تركيا بعد انتهاء مهمَّته، وأخبر سرفانتس أنَّه إذا فشلت المفاوضات سيسحبه وراءه إلى تركيا.

كنت حاضرًا في كلّ المفاوضات الحسَّاسة. كان فينيزيانو يدفعني بعينيه إلى أن أغريهم بما كان يقوله. وكان في النهاية، عندما ينفصل الجميع، يحك دائمًا على رأسي وهو يردِّد: أنت سيِّدهم يا غاليليو. كنت سآخذك معي إلى القسطنطينيَّة لو لم تكن متزوِّجًا. في النهاية، اقترح اقتراحًا أخيرًا وقال: وقتي ضيِّق، بعدها لن أفاوض. سآخذ رهينتي معي.

---

(1) Fray Anton de la bella.

طلب استرجاع نقوده فقط التي اشترى بها سرفانتس، أي خمسمائة دوقة ذهبيَّة. وطلب ألف دوقة على جيرونيمو دي بالافوكس[1].

ـ قل لهم إنِّي لا أريد أكثر من ذلك، ولا أقلّ. إذا عجبهم الحال، مليح، وإذا لم يعجبهم، يطيروا من قدّامي.

تدخَّلت في شيء لم يكن من حقِّي، وكان يمكن أن يقود إلى طردي.

ـ ولكن يا سيِّدي يبدو أنَّهم لا يحملون كلّ هذا الكمّ من النقود. هذا ما عرفته منهم.

ـ لا تصدِّق. رجال دينهم أيضًا يكذبون مثل رجالنا. حاول معهم.

ونظرًا لعدم توافر السيولة الكافية، أقنعت فراي المتردِّد في جهده الإنسانيّ أن يشتري الأرخص على الأقلّ أحسن من أن يعود إلى إسبانيا بلا أحد، كما فعل أسلافه. استغرب الآغا من تدخُّلي، ومقترحي، ممَّا أكَّد لي للمرَّة الألف أن إتقانه للغة الإسبانيَّة كان كبيرًا. استكنت أكثر عندما رأيت ابتسامة ترتسم في عينيه. شجَّعتني على المضيّ بقوَّة وبلا تردُّد. كان كلامي مريحًا لفراي، بينما ظلَّ سرفانتس صامتًا وحائرًا في اجتهاداتي الأخيرة. طلب الآغا أن يستريح ويرى، بينما كانت سفنه تستعدّ إلى الرحيل.

قال قبل أن يخرج حينما قيل له:

ـ سيِّدي الآغا نحتاج إلى بعض الوقت.

ـ ليكن. معكم مفاوضي غاليليو، وتعرفون أين تجدونني. لا تؤخِّروني. أشرعتي جاهزة.

Jeronimo de Palafox. (1)

خرج يجرّ وراءه سرفانتس، محاطًا بعسسه. لم يكن لديَّ أيّ وقت لتضييعه. تأكَّدت من زريدة التي كانت قد استقرَّت في فحص والدها، بعدما استحال إقناع سرفانتس بالبقاء قليلًا، أنَّه سيسحبه وراءه إلى القسطنطينيَّة إذا لم يدفعوا الفدية. لم تخفْها عودته إلى أيبيريا مثل دفنه في تركيا.

ـ أعتقد أنَّ القسطنطينيَّة ستكون مقبرة لميغيل. حاولت مع والدي، ولكنِّي لم أفلح لسبب يتعلَّق بوضعه الإداري. قال إنَّه لا يعرف القادم الجديد بعد حسن فينيزيانو.

ـ في الحقيقة مجرَّد سلفة لا أكثر.

قرأت الانكسار الجديد في عينيها. لم يبق أمامي إلَّا الحلّ الأوحد الذي كان قد ارتسم في ذهني المتعب. ركضت على حصاني صوب السَّفارة الدانمركيَّة، لاستلام جزء مهمّ من مالي المتروك هناك ضمانًا لما يمكن أن يحدث لي أو لسلطانة، الذي لم آخذ منه إلَّا قسطًا صغيرًا لإتمام البيت؛ سألت عن السفير الذي كنت أحمل منه وثيقة خاصَّة تسمح لي برؤيته هو أو غيره، قيل لي إنَّه لم يعد بعدُ من سفره. حدَّثت المكلّف المالي الذي كان يعرفني جيِّدًا، وهو أحد الموقّعين الضامنين لمالي المودع من طرف الدون فريديريكو دي طوليدو لدى السفارة، فأكَّد لي أنَّه لا مانع لديه مبدئيًّا، ولكنَّه يحتاج إلى وثيقة يوقِّعها السفير الذي لن يعود قبل شهر على الأقل. ركضت بعدها نحو القصبة، وطلبت من ميمون البلنسيّ أن يعطيني تسبيقًا بمائة دوقة ذهبيَّة، سأعيدها له بعد شهر أو شهرين على أقصى تقدير. بعد تردُّد مؤقت خفيف، سألني:

ـ من أين لك بكلّ هذا المال لتسديد دينك؟

ـ قلت لك بعد شهرين على أقصى تقدير. هل خذلتك يومًا؟

ـ حاشا أن أصل إلى هذا الحدّ. المشكل أنَّ المال الذي نتحرَّك به هو جزئيًّا مال الرايس حميد كروغلّي.

ـ هو يعرف وضعيَّة الرجل الأحمر، ولكنَّنا سنطلب إذنه.

ـ ليكن. استأذن من الرايس، وما يكون إلَّا الخير.

بدت له الكمِّيَّة مهولة، لكنَّه عرف من أين يأتي بها. وفّرها لي بسرعة قياسيَّة، من المال المودع لديه، ومن عند أصدقائه من الذهَّابين. أصبحت الفدية كاملة، إذ كانت في حوزة فراي مائتا دوقة ذهبيَّة، أضاف عليها مائتين أخرى انتزعها من مخزون التثليثيِّين بعد استشارات معقَّدة معهم، قبل أن تأتي المائة التي تحصَّلت عليها لتكتمل الفدية نهائيًّا.

نزلنا جميعًا إلى الميناء.

أتذكَّر التاريخ، مثل اليوم، على الرَّغم من مرور السنين التي أنهكت الذاكرة والجسد. في 19 سبتمبر 1580 عندما كان الباشا يستعدّ لمغادرة المحروسة بصحبة أهمّ رهائنه الذين اشتراهم ليقايض بهم، الذين من شدَّة يأسهم، أخذوا أماكنهم داخل السفينة واستسلموا لقدر منفى آخر كان يلوح في الأفق. وصلنا في اللَّحظة التي بدأت السفن في الخروج من الميناء. وصلت برفقة فراي خوان جيل في آخر لحظة. لم نجد صعوبة في الدُّخول إلى عمق السفينة، فقد كان رئيس الأوجاق الشاب الذي عوَّض الرجل الثقيل والمنتفخ الذي أرهقته يومها في مرتفعات القصبة وأصبح يكره السير معي، يعرف كلّ شيء. فمهَّد لنا الطريق لنقتحم مقصورة حسن فينيزيانو الجميلة، الذي لم ييأس من مرورنا. وضعنا في حجره الخمسمائة دوقة ذهبيَّة، لملمها، استغربت أنَّه لم يحسبها. التفت نحو سرفانتس:

ـ أنت حرّ. عليك أن تشكر صبحًا ومساءً هذا الرجل الذي قام بالمستحيل لإنقاذك وليس بنو جلدتك.

خفت أن يكون عرف بنزولي وصعودي، وذهابي حتى السفارة الدانمركيَّة، وإلى ورشة ميمون البلنسيّ، وتواطؤ الرايس كروغلّي. لكنَّ حديثه أوضح لي أنَّ ردَّة فعله كانت مجرَّد انطباع.

قال وهو يربّت على كتفيْ سرفانتس وينظر إليَّ بعينين دافئتين، لأوَّل مرَّة أقرأ فيهما بعض الدفء.

ـ هو من عرف كيف يفاوض، رجال الدين كادوا أن يعودوا بلا شيء. لقد عرف كيف يختلي بهم ويسحبهم وراءه. لو لم أكن مغادرًا كنت رسَّمته في القصر، وكلَّفته بالعلاقات العامة. لكنِّي عرفت منذ اللَّحظة الأولى تعلُّقه بزوجته، فلم أكرهه على ذلك. لست وفيًّا لامرأة واحدة، ولكنِّي أحبّ العشّاق الأوفياء.

استقام سرفانتس بكلّ طوله ونحافته، ولحيته الحمراء التي ارتسمت على وجهه الذي نحل كثيرًا. لم يكن ليصدِّق ما كان يحدث له. تمتم بكلمات انكسرت بسرعة على شفتيه:

ـ أشكر سماحتك سيِّدي الآغا وعطفك ومحبَّتك. غيرك، كان قد أغلق الأبواب ولم يأبه لنداءات رهائنه.

ـ أتخلَّى عنك مرغمًا، وفي أعماقي كنت أتمنَّى أن يخفقوا في جمع الفدية. طبعًا لن أرغمك على الذهاب معي إلى القسطنطينيَّة، اللَّهم إلَّا إذا ارتأيت أن ترافقني، مستعدّ أن أرجع الفدية لأصحابها.

صمت سرفانتس قليلًا وهو ينظر يمينًا وشمالًا، قبل أن يشرد في البحر بنظراته الهاربة. خفت أن نكون قد رجعنا إلى نقطة البدء. ثمَّ أغمض عينيه، وكأنَّ شيئًا في داخله كان يتكلَّم.

ـ أنا أيضًا يا سيِّدي اشتهيت البقاء معكم. شكرًا لكرمكم.

ـ أقدِّر خيارك. أنا عند وعدي.

ثمَّ التفت نحوي وهو يحسب المائة دوقة. وضعها في عمق كفِّي.

ـ أرجعها لميمون البلنسيّ، لستَ في حاجة إلى ديون لن تتمكَّن أبدًا من دفعها.

لم تخرج منِّي ولا كلمة. لملمت الدوقات الذهبيَّة بسرعة، ولم أقلّ أيَّة كلمة خوفًا من تغيُّر مزاجه. وضعتها في صدري، وخرجت قبل الجميع وأنا أشكره:

ـ يكثِّر خيرك يا سيِّدي الكريم.

لم أسمع ردّه. عرفت بسرعة أنَّ عيونه المبثوثة في كلّ مكان تكون قد أخبرته عن كلّ شيء. كنت سعيدًا أنَّه لم يذكر لي لا اسم سيِّدي الرايس حميد كروغلّي، ولا السَّفارة الدانمركيَّة التي لا أحد يعلم بوجود مالي لديها باستثناء سلطانة.

انطلقت السفن الثقيلة بحركتها وضجيجها وحمولاتها. لأوَّل مرَّة، أرى دمعًا وفيرًا في عيني سرفانتس وهو ينزل من السفينة ويحتضنني بقوَّة. كان سعيدًا ومنكسرًا:

ـ هل تصدِّقني إذا قلت لك بأنِّي أجد الآن صعوبة كبيرة في الخروج من مدينة فيها أنت؟

ـ أصدِّقك. وأنا أيضًا يصعب عليَّ العيش في مدينة يغيب وجهك عنها.

ربتُّ على كتفه وأنا على يقين من أنَّه لم يكن لحظتها على الأقلّ يكذب:

ـ مدينتك وأهلك ينتظرونك.

قلتها من دون يقين كبير. كنت أعرف جيِّدًا ما ينتظره هناك من ديون ومصاعب عائليَّة.

قال وهو يبحث عن كلماته التي ارتبكت بين شفتيه:

ـ تنتظرني أيضًا مصاعب جمَّة، وتهم خوان بلانكو دي باث، مفوَّض محاكم التفتيش المقدَّس الذي بنى حولي تهمًا أخلاقيَّة، الواحدة فيها كفيلة بأن تقودني نحو المحرقة. كالتعاون مع الآغا، وتهمة الفراش مع زريدة ابنة حاجي موراتو، إضافة إلى التّهمة الجنسيَّة مع حسن فينيزيانو. أنا أحمل معي توقيع اثني عشر شاهدًا بحضور فراي خوان جيل، يؤكِّدون على حسن سلوكي وانضباطي وحبِّي لديني وملكي.

من الرجال الذين مرُّوا عليَّ وعلى هذه الأرض، قبل أن يموت الرايس حميد كروغلّي في عرض البحر، إذ يقال إنَّ خلافًا نشب بينه وبين دالي مامي الذي كان يريد سبي رهائن مجرَّدين من أيّ مال أو قتلهم، لا سلاح لهم إلَّا أجسادهم، بينما أطلق الرايس كروغلّي سراحهم ورافقهم حتى أخرجهم من منطقة الخطر. كانت الملاسنة كبيرة، تحوَّلت إلى صدام دمويّ بعد أن اتَّهمه أعوان دالي مامي بالتواطؤ مع السفن الإسبانيَّة الكافرة. من بين كلّ الرجال الذين حزنت عليهم، الرايس كروغلّي الذي ذكَّرني موته بموت سيِّدي وأميري الدون فردناندو دي كردوبا (محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة) الذي انتهى واقفًا كشجرة سرو عالية. سرفانتس أيضًا الذي سأتذكَّره طويلًا وأنا أودِّعه في ميناء المحروسة في صباح 24 أكتوبر عندما استقلّ سفينة مايز أنطون فرانسيس[1]، في اتِّجاه دينيا[2] وبلانسيا[3]. قال وهو يقبض على حبل السفينة، ربَّما كان ذلك للمرَّة الأخيرة، من ميناء المحروسة:

---

(1) Maes Anton Francès.

(2) Denia.

(3) Valence.

ـ وسيلتي لعدم نسيانك هو أن أضعك في قلب الحروف المقبلة يا سِدْ هَامِتْ بِنِنْخَلي.

ـ سيد أحمد بن خليل، أو غاليليو أسهل عليك وعلى من يسمعك.

قلتها ضاحكًا. أشرقت ابتسامة خجولة على ملامحه:

ـ لا. أنت لست غاليليو. أنا مصرّ أنَّك سِدْ هَامِتْ بِنِنْخَلي. ستكون سيِّد حروفي القادمة، ولهذا سأحتفظ باسمك كما أشتهيته أنا، لا كما تريده أنت، فهو منِّي وفيه من روحك.

ـ كما تشاء. أنت ترفض أن تصحِّح نطقك.

لم أفهم قصده أبدًا يومها، لقد كان كلامه مليئًا بالرُّموز والعلامات التي كان عليَّ فكّها في لحظات الراحة. ولكنِّي كنت على يقين أنَّه سيقصّ حكايتنا هناك، في أرض مشتركة، وسيرميها من الجهة الأخرى من وراء البحر الطيِّب والعنيف. وسيملأها بجنون الحرِّيَّة المسروقة الذي كان ينتابه من حين لآخر مثل المرض المزمن، فلا يستطيع مقاومته. كنت كلَّما حكيت له قصَّة من القصص، انفرجت عيناه مثل طفل صغير يكتشف لأوَّل مرَّة عالمًا مدهشًا. يصمت قليلًا، ثمَّ سرعان ما يدوِّنها في الكورديلُّو الذي ظلَّ برفقته طوال الوقت الذي سُجن فيه، ثمَّ نسيه، قبل أن يعود إليه بعد نجاته من عقاب حسن فينيزيانو.

لم أسأله، في أيّ يوم من الأيَّام، عن مدى صحة ما كان يدوِّنه. كنت سعيدًا أنَّه عاد إلى الكتابة.

يتمتم وهو يحاول أن ينفلت من اللَّحظة:

ـ مجرَّد قصَّة، قد لا تكون صحيحة.

ـ كلّ القصص حقيقيَّة عندما تأتي من القلب. وأنت لا تقول إلَّا ما يأتي من القلب.

كانت أجمل أيَّامه، عندما ينزل إلى سوق الجمعة، في منحدرات القصبة، ويقف من هناك متأمِّلًا البحر والسفن، ومستمعًا إلى رواة الحديث والقصص الغريبة. كان أصحاب الحلاقي يروون قصص طيورهم، والضحّاكون يسحبون الناس نحوهم بابتداع وسائل السخرية لتمرير حكاياتهم الغريبة.

سألني في إحدى المرَّات، ونحن نستمع للقوال في سوق الجمعة.

ـ هل تظنّ أنَّ هؤلاء الناس يشكُّون في القصص المرويّة؟ لو يَشكُّون لحظة واحدة، لن يبقى واحد منهم في هذا المكان يتتبَّع الباخية حتى نهايتها. يستمعون بيقين مطلق، وينسحبون من هذه الحلقة باليقين نفسه، في عقولهم وقلوبهم. هكذا المرويَّات يا صديقي. عندما نرويها لغيرنا بطرقنا الخاصَّة، علينا أن لا نفسدها بالعقل ونتركها كما هي. أحلم أن أكتب يومًا شيئًا شبيهًا بهذا، أقول فيه ما يربطني بهذا الوجود الذي يفسده البشر كلّ يوم قليلًا، وأصوغ ذلك كلّه داخل قهقهة ساخرة حادَّة تشبه ضحكة الشيطان وهو يكتشف أنَّ كلّ الذين كانوا يحيطون به لم يكونوا إلَّا مجرَّد حمقى صغار.

بعد كلّ هذا العمر المرتبك، لحظتان تبقيان معي حتى القبر، وجه خوان النافاري الهادئ والمستسلم لقدر كان أكبر منه، الذي فضَّل صمته والموت شنقًا على أن يخون يقيني وثقتي العمياء به؛ واللَّحظة التي التفت فيها ميغيل صوب الشمس الغاربة لكي لا يرى زريدة تقف على الحافة مع والدها الحاج مراد بهشاشة كانت وحدها تعلم كسوراتها القلقة. أعادتني تلك اللَّحظة، إلى حافة المارية وأنا أحلم بيأس أن تتوقَّف السفينة المثقلة بالظلم والضغينة، وأن لا تقلع أبدًا، أن ترتفع أمواج البحر السخيّ وتبتلعها بلا رحمة، وتنظِّف ميناء المارية من كلّ أوساخه، وروائح أسماكه العفنة، وأملاحه الحادَّة.

الفصل الرابع

بيت في مهبّ الرماد

ـ1ـ

المسافة التي كانت تفصل بيني وبين البيت الأندلسي هي مسافة الخوف فقط.

قمت من النوم مثقلًا برؤيا جعلتني أصمِّم على ارتكاب الحماقة، والدُّخول عبر المعبر السرِّيّ إلى بيت أجدادي الذي اشتقت إلى روائحه. إلى أدراجه الخشبيَّة الملتوية، إلى سقفه العالي، اشتقت أن أمشي في بهوه الطويل، أن أتنشَّق عطر حديقته التي بدأت تموت، أن أدخل المقصورة أو ما تبقَّى منها وأتخيَّل أنَّ الناظور ما يزال شغَّالًا، وأترك بصري يتمادى نحو الأفق، لأرى فقط الحدّ الفاصل بين الماء والسماء الذي هبَّل مارينا وأفقدها صبرها وصوابها. لم تكن قادرة على مقاومة الافتتان بعرس الألوان التي غمرتها فجأة.

كلُّ شيء يقودني نحو اقتحام هذه الحيطان التي، منذ أن خرج موح الكارتيل لم أمسسها إلَّا بنظرتي الزائغة الهاربة، في غفلة من كلّ شيء. أغمضت عينيَّ وتوكَّلت على جنوني فقط.

عندما صعدت إلى المقصورة العليا، بعد أن فتحت المعبر السرِّيّ عن آخره، حيث الناظور الذي تصدَّأ ولم يعد أحد يستعمله منذ زمن بعيد، في غياب صاحب حقيقيٍّ للدار، كنت أحكم على نفسي قانونيًّا بالتعدِّي على حرمة بيت كبير لم يعد ملكًا لا لي ولا لأجدادي. كنت مصمِّمًا على الدُّخول مهما كلَّفني الأمر، ولم تكن هناك أيَّة قوَّة قادرة على منعي، وكأنِّي شممت رائحة الموت، التي رأيتها في كابوس البارحة مجلَّلة بالسَّواد، تقترب منِّي، خفت أن تسحبني نحوها بدون أن أتمكَّن من رؤية ما اشتهيت رؤيته. كنت أريد أن ألمس البحر بعينيَّ من هناك، للمرَّة الأخيرة، وتوديع المكان نهائيًّا. ربَّما، دلَّني ذلك على مسالك مارينا السرِّيَّة قبل أن تغيب للمرَّة الأخيرة، في عرض البحر أو في خليج الغرباء، أو حتى في مكان ثالث لا أحد يعرفه.

كانت الأشجار العملاقة والبنايات العالية تتعالى وتتسامق، ولكنَّها كانت عاجزة عن غلق باب البحر كما كانت تسمِّيه مارينا وهي تتذكَّر كلّ شيء عاشته بقوَّة في داخلها.

على الرَّغم من علو الأشجار العملاقة، وتمادي البنايات التحتيَّة التي لم تُهَدَّم، إلَّا أنَّها لم تبتلع الساحل، ولم تغلق عليَّ فجوة باب البحر، من المقصورة. فقد بدا كلُّ شيء مرتَّبًا كما في بدء الخليقة، وكأنَّ الدار التي كنت فيها لم تنبت بعد على الواجهة العليا للبحر. لا أدري إذا كنت قد رأيت مارينا أم لا، إذ أصبت بدوخة غريبة وأنا أمسح البحر بعينيَّ المتعبتين، وبمنظار لم يبق منه إلَّا اسمه، ولكنِّي رأيت بالفعل جدِّي الروخو، سيِّد أحمد بن خليل، وهو يقاوم خوفًا غريبًا ارتسم في داخله لم يكن قادرًا على درئه. شعرت بكلّ شيء قريب منِّي بما في ذلك وجه اللَّـه الذي انتفى وجوده كليًّا في الأيَّام الأخيرة. مددت يدي نحو غيمة هاربة بين شجرتين، وتمنَّيت أن أسحبها نحوي بهدوء، وأدخلها إلى بيتي، وكلَّما اشتقت إلى

الأشياء الهاربة من كفِّي وعينيَّ، حرَّرتها وأطلقت سراحها مداها فقط، لأشعر أنَّ بعض الدُّنيا ما يزال بخير.

كنت أحلم بعينين مفتوحتين.

رأيت البحر الذي اشتهيت رؤيته منذ زمن بعيد، من هذا الموقع. كان هو هو، معاندًا في غيِّه وجبروته. السفن تأتي من بعيد، ثمَّ فجأة تنحرف باتِّجاه اليسار لتفادي الريح الغربية، قبل أن تستقرّ في الميناء الذي تغيَّر كثيرًا، لكنَّ حركة السفن العابرة بقيت على حركتها كما كانت دائمًا. فجأة، رأيت جدي غاليليو الروخو ينزل في الساحل الموحش بحقائبه الجائعة والحزينة، هو الذي ظلَّ يردِّد دائمًا، **الغريب ليس غريب الدار، ولكن غريب الوجه والحقائب.** يبحث عن مكانه في الفجوة الصغيرة، خليج الغرباء، حيث وطئت قدماه تربة المحروسة لأوَّل مرَّة، قبل أن يبدأ تسلُّقه نحو الهضبة التي بنى عليها بيته الأندلسيّ، وحدَّد مقبرته المحتملة، ليصبح بعدها ابن هذه الأرض، أو ليحسّ بذلك على الأقلّ.

تغيَّر كلُّ شيء، ولم تعد المدينة مدينة الروخو.

التَّخطيط الجديد الذي فرض على المدينة في وقت لاحق، من دخول المعمِّر الفرنسيّ، مسَّ جزءًا مهمًّا من خبايا بيوتاتها وطرقها، وعرَّى الكثير من أسرارها الداخليَّة. عندما تمَّ توسيع الطريق الرئيسيّ الذي مسَّ مرتفعات المدينة لفكّ عزلتها، وبناء ميناء الجزائر الجديد، وتغيير مسارات السكك الحديديَّة الجديدة، فتك بتاريخ البيوتات الصغيرة وحدائقها وفحوصها المخضرَّة دومًا. التَّخطيطات الأوليَّة للمدينة كانت ستمسح البيت الأندلسيّ من الوجود مثلما فعلت بالكثير من القصور والبيوت التي كان يسكنها وجهاء العاصمة. الطريق كان سيخترقه في منتصفه. لم يكن هناك أيّ حلّ إلَّا حلّ التَّدمير. لم يأبه المسؤولون العسكريُّون مطلقًا بما

يمكن أن يخلِّفه ذلك التخطيط الجديد من دمار مشين. وتمَّ الاتِّفاق على تهديمها لتسهيل توسيع الطريق وإعادة بناء المدينة الأوروبيَّة الجديدة على أسس حديثة. الصدفة شاءت أن يصل حاكم الجزائر الجديد جونار، بصحبة صديقه المقاول ليون ليسكا، المتخصِّص في المنجزات الكبرى، الذي أصيب بذعر كبير من مخطَّط تهديم البيوتات القديمة، ومنها البيت الأندلسيّ. رأى البيت عن قرب، وعاين حيطانه ومرتكزاته طويلًا، وكان قد حُوِّل إلى مستشفى للعابرين من جيوش البحريَّة. تذاكر مع جدِّي لوالدي، طويلًا، الذي أظهر له كل الوثائق الثبوتيَّة على الرَّغم من طرده إلى زاوية دار الخدم التي ظلَّ فيها حتى وفاته. وعده جونار وليون سيكا، بأن يتمّ الحفاظ على بيته، بالخصوص بعد أن مسُّوا محلّه للعطور، **عطور سلطانة**، الذي تمَّ تهديمه، لأنَّ المخطَّط الجديد مسحه من الوجود، ولم يُعطَ أي بديل. سعد كثيرًا أنَّهم لن يمسُّوا على الأقلّ البيت الأندلسيّ، إذ حُوِّل مسار الطريق باتِّجاه البحر أكثر. وأدخل البيت الأندلسيّ ضمن ممتلكات الدولة الفرنسيَّة التي تجب المحافظة عليها. الطريق أكل جزءًا من الفحص، لكنَّه لم يمسّ أيّ شيء في البيت. المعروف عن ليون ليسكا أنَّه كان متنفِّذًا في أروقة الإدارة، وعلى صداقة متينة مع جونار ونابليون الثالث. فقد حصل على إذن بناء ميناء الجزائر وطريق السكك الحديديَّة بين قسنطينة وسكيكدة، في 1865 ـ 1866. كان يرى في كلّ ما هو قديم ومقاوم للزمن إرثًا جميلًا، تجب المحافظة عليه بدل استسهال تدميره. وأعاد ترميم البيت الأندلسيّ بناء على الوثائق القديمة التي ظلَّ الأهل يحتفظون ببعضها. الترميمات التي مسَّته، دفعت بليون ليسكا إلى تغيير بعض ملامحه. فقد أضافت له بعض الأجنحة ليصبح في وقت وجيز بيتًا جميلًا. حتى إنَّه عندما عاد إلى أرضه بنى فيلا شبيهة به، مستوحيًا منه

روح مخطَّط بنائه. سمَّاها دار الجزائر[1]. وبقي بها حتى موته، قبل أن يبعثرها الورثاء ويقتلها الإهمال.

يقول دائمًا إنَّ أسعد يوم في حياته هو وصوله إلى تعطيل تنفيذ قرار التهديم في حقّ البيت الأندلسيّ. أدرك منذ الوهلة أنَّ البيت لم يصبه شيء سوى الإهمال ومرض النسيان. البيت كان صلبًا. بحث عن الورثاء وتحاور معهم لإصلاح البيت، لأنَّ الوضع القانونيّ له لم يكن واضحًا. فقد سكنه أحد المعمِّرين، ولكنَّه سرعان ما تركه عندما علم أنَّ سلفه الذي دخله بالقوَّة وبلا أيِّ قانون، قد وُجد مقتولًا هو وأفراد عائلته، شرَّ قتلة. ذُبحوا كلُّهم من كبيرهم لصغيرهم. البعض قال إن الدار مسكونة، وأنَّ الجنّ الذين حُرِّكت راحتهم هم السَّبب. فقد انتقموا منه شر انتقام. يبدو أنَّ القصَّة بدأت منذ تلك اللَّحظة. البعض الآخر يقولون إنَّ الصيادين الذين لم يكن مكانهم بعيدًا، وكانوا يأتون إلى البيت للشرب والسهر، إلى أن أخرجهم منه، انتقموا منه، لأنَّه منذ عمليَّة الاغتيال، لم يعودوا إلى المكان أبدًا. آخرون قالوا إنَّ الورثاء الغامضين هم من قام بذلك، لأنَّهم طالبوا البلدية التي استولت على البيت بتسوية وضعيَّته الإداريَّة للتمكُّن من إصلاحه، ولكن لا أحد سمع لهم أبدًا ولاحتجاجاتهم.

أعاد ليون ليسكا وحاكم الجزائر جونار تركيب أخشاب الدار المتهالكة، وبناء جوانبها المنهارة. كان جونار معجبًا حدَّ الجنون بالطراز الأندلسيّ، حتى الزيادات التي أضافها لم تبد نشازًا، فقد راعى النَّموذج

---

(1) Villa algerienne دار الجزائر، مكان معروف، وقد بُنيت وسط حديقة من 25 هكتارًا. اختار ليون ليسكا مكان إقامته فيه، عندما غادر الجزائر حتى وفاته عن سنّ يناهز الـ 88 سنة. بعد موت زوجته مارتا في 1941، أصبحت الدار خالية ، فلحقها الإهمال فتوحَّشت وتآكلت بعد أن حوَّلها الألمان إلى مقرّ إقامة لهم، قبل أن تُهمل من جديد حتى أصبح ترميمها صعبًا. يحاول الابن فرانتز ليسكا أن يبعث بها من جديد بتحويلها إلى مطعم، ولكنَّه يفلس فيبيعها. تُهدم وتُبنى مكانها بناية جديدة.

الأصليّ الذي بنيت على أساسه. أعاد ترميمها مثلما اشتهى، محافظًا على جوهرها، وجعل منها معلمًا ثقافيًّا جميلًا، ومزارًا للمثقفين الوافدين على المدينة. استفاد في بناء وترميم البيت الأندلسيّ من صديقه المهندس أوجين أورمييرِ[1] وساعده المقاول دوسمبر[2] الذي قال عنه مسيو جونار: **السيِّد أورمييرِ عرف جدِّيًا، وبطريقة جميلة، كيف يطبع النموذج العربيّ بالبصمة المسيحيَّة التي جمعت بين الصليب والهلال، واضعًا على رأسها علامة المجد للرب التي تروق للمسلم، كما تسعد الكاثوليكي**[3].

لقد انشغل جونار بكلّ ما هو أصيل وقديم. بفضله عاد البيت الأندلسيّ إلى أصله الأوَّل. لقد اشتغل مهندسوه ومقاولوه طويلًا على الأصول الأولى، والوثائق والصور القديمة التي حصلوا عليها، وآراء الأهل الذين أقاموا بالبيت طويلًا قبل أن يُرموا في زاوية الخدم.

الصعود إلى المقصورة، في أوقات الخلوة يريح النَّفس والقلب.

الناظور يمنح المكان قدرة تخطي كلّ الحواجز. تكفي قفزة واحدة بالنظر ليجد المرء نفسه في الجزر الجعفريَّة، أو شبه جزيرة أيبيريا، أو بلنسيا. بسرعة يمكننا أن نتخيَّل من الأعالي المطلَّة على البحر، المهجَّرين الأوائل الذين اضطرُّوا إلى تخطِّي الماء والأمواج العاتية. شدَّة اهتمام جونار بالتاريخ الأندلسيّ، دفع بالبعض إلى القول إنَّ أم مسيو جونار موريسكيَّة، أو ربَّما مارانيَّة، وإلَّا لما أحبَّ هذه الأمكنة بهذا الولع كلّه. فقد كان وراء برنامج إصلاحيّ كبير مسَّ المدينة بكاملها. ركض وراء فكرته التجديديَّة،

---

(1) Eugéne Ormières.

(2) Desombres.

(3) Monsieur Ormières a su d’une façon fort heureuse imprimer au style arabe un cachet chretien unissant la croix et le croissant, et mettant sur le temple l’inscription GLORIA DEO qui peut plaire aussi bien à un musulman qu’à un catholique.

ولم يهدأ له بال إلَّا عندما نفَّذها. مع أنَّ فترات حكمه لم تكن متواصلة إلَّا مرَّة واحدة. فقد حكم البلاد لمدَّة ثلاث فترات متقطِّعة، كانت زاخرة بالمنجزات ذات الطابع المحلِّيّ الجزائريّ الأصيل. قصَّته نفسها فيها الكثير من الغرابة. حالة شاذَّة في التاريخ الاستعماري؛ فقد أصيب، وهو الحقوقيّ الشاب، بولع الجزائر في وقت مبكِّر، حين زيارته الأولى لها. فقد عيَّنه قامبيطا[1] حاكمًا عامًا على الجزائر في عام 1881، تقلَّد بعدها مناصب عدَّة في السياسة والثقافة، والوزارة، ثمَّ عيَّنه روسّو[2] حاكمًا عامًا للمرَّة الثانية سنة 1900، وتنحَّى بعد عام لظروف صحيَّة، وأعيد تعيينه على رأس الجزائر حيث طال حكمه هذه المرَّة من 1903 إلى 1911، وهي الفترة التي شهدت فيها إنجازات معتبرة أعادت للجزائر جزءًا من مجدها المنسيّ الغابر. لاحظ جونار تدنِّي المستوى الثقافيّ والحضاريّ للجزائريِّين منذ استقرار الحملة الاستعماريَّة الفرنسيَّة، وتعرَّف عن قرب على الخراب الذي ترتَّب عن هذه الحملة التي كانت تدميريَّة لكلّ الخصوصيَّة التي صنعتها القرون الماضية. راح يخطِّط لبعث حياة جديدة في النفوس الجامدة بالتقرُّب من المثقَّفين التقليديِّين وتحفيزهم على الإنتاج الفكريّ. خطَّط بعناية لبناء البريد المركزيّ الذي شيَّده على الطراز الموريسكي الذي كان مولعًا به. وبنى أيضًا المدرسة الثعالبيَّة بجوار مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي سنة 1904، فكانت منارة للعلوم الإسلاميَّة. أُنجِزت بإتقان وفق نمط هندسيّ أندلسيّ جميل، ازدان بخطوط مغربيَّة لأشهر علماء الجزائر خلال القرن التاسع عشر. الذين عرفوه يتكلَّمون على فرادته. في عهده انتعشت حركة التدريس وتأليف الكتب التراثيَّة، فظهر بإيعاز وتشجيع منه، كتاب **تعريف الخلف برجال السلف** للشَّيخ أبي القاسم الحفناوي، في سنة 1907،

(1) Gambetta.

(2) Rousseau.

وكتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، للشريف التلمساني، الذي أعدَّه ابن أبي الشنب للطباعة في سنة 1908، كان وقتها مدرِّسًا لامعًا بالمدرسة الثعالبيَّة. حرص جونار على تنشيط الحركة الثقافيَّة في مجال الفنون بتأسيس دار الفنَّانين في مرتفعات المحروسة، التي استقبلت كبار الفنَّانين الكبار من كتَّاب وموسيقيِّين ورسَّامين تشكيليِّين. في هذا الجوّ الثقافيّ المنتعش، عاش الرسَّام نصر الدِّين دينيه، المولع بالصحراء، كما نبغ بعده محمد راسم بمنمنماته النادرة. يبدو ميشيل جونار حالة شاذَّة خالفت العرف الاستعماريّ في تعامله مع الأهالي من أبناء الأرض الأصليِّين، بحيث انقلبت السياسة الفرنسيَّة في الجزائر في عهده من سياسة التَّهجير والتقتيل ومحاربة الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة، إلى دعوة صريحة للجزائريِّين بالتميُّز ثقافةً ودينًا ولغة عبر الإبداع الثقافيّ والفنّيّ والعمرانيّ الخلَّاق. يعود له الفضل الكبير في الحفاظ على بعض معالم المدينة من الاندثار، أهمُّها *البيت الأندلسي* الذي حوَّله بسرعة إلى مكان جميل للفنون والموسيقى. ليس غريبًا أن يسمِّيه أصدقاؤه من العسكريِّين والمهندسين والفنّانين بـ: مسيو جونَّار لو نيو- موريسك[1]، أو الموريسكي الجديد. لقد عرف كيف يشمُّ سحر المدن القديمة، وكيف يعيدها إلى الحياة.

(1) Monsieur Jonnard le New-Morisque.

ـ 2 ـ

كان الرماد يملأ الدُّنيا، والعيون لا تبصر إلَّا قليلًا. لا أدري ما الذي قادني نحوها، كومة من النار والحجارة والكثير من التاريخ، لكنِّي أغمضت عينيَّ ولم أسال عن الباقي.

لم أعرف إلى أين كنت أتَّجه، ولكنِّي اتَّجهت بلا تردُّد نحو نداءاتي الداخليَّة التي كانت تسحبني بقوَّة، بعد أن شلَّت كلَّ إرادة فيَّ. كنت من حين لآخر أقاوم سطوتها الكبيرة، ولكنِّي لم أتمكَّن من توقيف اندفاعي الذي أعادني إلى شيءٍ كثيرًا ما هربت منه في أحاديثي مع والدي.

كانت الدُّنيا قاسية، وكلُّ شيء يلوح في الأفق بشكل مخيف. لم أكن أبحث عن حروب المجد، ولكنَّ حربي كانت فيَّ. في أعماقي. كيف أحافظ على ما تبقَّى من ذاكرة نصفها مسروق ونصفها الآخر مهزوم. لم يكن كارلوس لانارشيست صديقًا فوضويًّا فقط، لكنَّه كان حساسيتي الدافئة تجاه ما كان يعتمل في هذه الدُّنيا. سمَّاه المقرَّبون جدًّا كارلوس لانارشيست لانتسابه إلى تيَّار راديكاليّ، كان يرفض كلّ شيء ويدعو إلى تدمير كلّ ما

رسَّخته إدارة قاهرة تأسَّست على الظلم، وإعادة بنائه على أسس أكثر عدالة ورحمة. أحيانًا، كان يخيفني بأفكاره الخاصَّة بحرق المزارع والإدارات، بما فيها ممتلكات والده التي كان يقضي فيها وقته يشتغل جنبًا إلى جنب مع العمَّال الفقراء. كان يسرق ألبسته وألبسة أخوته، ويمنحها لهم طالبًا منهم التَّخلُّص من أسمالهم. كان كارلوس يحاول دائمًا أن يقنع والده أنَّ المعاملة الحسنة هي التي تضمن الاستقرار والمحبَّة. وكان والده، على الرَّغم من امتعاضه، يستشيره في كلّ شيء. كارلوس ما رأيك... كارلوس أنا أفكِّر في... وأريد أن أعرف رأيك... كارلوس أنا مأزوم ولا أعرف كيف أتصرَّف.... وهكذا. يرى أنَّ الأفكار لا قيمة لها إذا لم تجد لها متنفَّسًا في الحياة ـ مقولة لم ينسها حتى وهو في الجبهة الإسبانيَّة. عندما يجلس معي، في المساء، تحت شجرة اللَّوز القديمة، لا ينسى تكرارها:

ـ يا عزيزي مراد. الدُّنيا هكذا. على الأفكار أن تتحوَّل إلى بارود أو حديد، وإلَّا فهي مجرَّد فقاعات في الهواء، تعلو، تعلو، ثمَّ تنفجر وحدها.

ـ لا أدري، ولكنِّي أتصوَّر أنَّ للمفكِّر دوره في مجتمع ينتظر منه فكره أوَّلًا.

ـ كلام. الفكر لا يُطعم ولا يُلبس يا عزيزي.

ـ لا يُطعم، نعم. لكنَّه ينوِّر الناس ويخرجهم من القبور والظلمات.

ـ ويمكن أن يتحوَّل هو أيضًا إلى قبر ينام فيه الناس باطمئنان. الفكر عندما يطمئنّ لذاته يموت. يجب أن يتحوَّل إلى بارود، وإلَّا لن يؤثِّر في أيّ شيء.

كان حقل الكروم ملكًا لجدِّه ثمَّ لوالده. لم يكن يبعد كثيرًا عن البيت الأندلسيّ. لا حديث له في تلك الفترة إلَّا عن فوز الجبهة الوطنيَّة والجمهوريِّين الأسبان، وعن محاولة اغتصاب الجمهورية من

طرف جنرالات فرانكو وغوديد، اللذين يعتبران من جزّاري الأستوريس والجنرال مولا الذي عُيِّن حاكمًا بانبوليري بنفار. كان منشغلًا بكلّ ما كان يحدث على أرض، كانت جاذبيَّتها قويَّة ليس فقط بالنِّسبة له ولكن لي أيضًا. كلَّما رآني جالسًا تحت شجرة اللَّوز القديمة، قصدني موصلًا لي الأخبار أوَّلًا بأوَّل... هل علمت ما حدث اليوم؟؟؟ أين أنت؟ في قارة أخرى... فرانكو في البحر... فرانكو احتلَّ سبتة وتطوان... ألحق لاس بالماس وجزر الكناري لسلطته العسكريَّة... ميناء كورونا والمدن الأندلسيَّة بدأت تتأثَّر بالتحضيرات العسكريَّة للجنرالات... الجمهوريُّون يقاومون بقوَّة... الجمهوريُّون يُعدمون... كنت متألِّمًا بشكل عميق، لكنَّه عندما أخبرني بأنَّ غرناطة تتعرض لاعتداء سافر، ويمكن أن تسقط في أيَّة لحظة، شعرت فجأة بفجوة تشبه الفراغ الذي يحتلّ دواخلنا إثر صدمة قاسية. كأنِّي كنت معنيًّا بكلّ ما كان يحدث لغرناطة. شعرت بنداءات جدِّي الغريبة التي بدأت تصحبني حتى الفراش. فجأة، أصبحت كلّ إسبانيا على مرمى حجر. وغرناطة مثل وهران، أو المحروسة، تنام في عمق الكفّ والعين. صرت أنا من يقصد كارلوس لانارشيست إلى حقول الكرمة، فأغوص في أعماق الخطوط المستقيمة للكروم المصطفَّة بانضباط كبير، أجده غارقًا في عرقه، يعلّم عاملًا جديدًا كيف يقلِّم الكروم ويهيئها لاستقبال السنة الجديدة. التجربة علَّمته دقَّة الأشياء وعدم القبول بأنصاف الحلول.

أخبرني يومها بأنَّه يبحث مع أصدقائه عن سبل مساعدة الجمهوريِّين، والانتماء إلى الفيلق الدوليّ الذي كان يستعدّ للدخول إلى أسبانيا قبل أن يغلق العساكر موانئها الجنوبيَّة.

فجاءني ذات صباح وعلامات الانكسار الممزوجة بزهو غريب ترتسم على وجهه:

ـ هل تريد أن تذهب معنا؟ ننتظر وصول السفينة القادمة من مرسيليا. سترسو في ميناء الجزائر بعد أيَّام. هل يعني لك ذلك شيئًا؟

ـ لا أدري، ولكنِّي سأذهب.

ـ سيكون الأمر قاسيًا. ستحرقك نار غرناطة؟

ـ لا أدري، لكنِّي أشعر بالرَّغبة في مرافقتك.

ـ لقد اهتزَّ العالم بفضل حركة الفوضويِّين الذين رفضوا فكرة الأمر الواقع. بدأوا في تكوين فيلق مقاومة دوليَّة. سينطلقون من وهران. السفينة القادمة من مرسيليا، ستتوقَّف في الجزائر، ثمَّ في وهران لينضمّ لنا مقاومو تلك المدينة، وبعدها نسير نحو أحد الموانئ الإسبانيَّة التي لم يغلقها فرانكو وجماعته بعد. إنَّهم يطوِّقون كلَّ شيء، بين ألخسيراس وجزر الباليار بهدف غلقها هي بدورها.

ـ وإذا أُغلقت؟

ـ أفضِّل أن لا أفكِّر في هذا، لأنَّه وقتها ستكون حربنا الأولى بحريَّة. أعرف أنَّها ستكون خاسرة ولكنَّنا سنخوضها. أتمنَّى أن لا نضطرّ إلى ذلك.

لا أدري ماذا حدث معي. شيء ما حدث في داخلي جعلني أنسى كلّ المخاطر المحدقة بي. لم أفكِّر أبدًا في الموت. العائلة نفسها لم تتساءل كثيرًا. كانت أحاسيسي جدّ غامضة، ولم أبذل أيّ جهد للقبض عليها وفهمها. وافقت بلا أدنى تردُّد، وكأنِّي كنت ذاهبًا للدفاع عن قلعة من القلاع المسروقة. كنت في البداية أتصوَّر أنَّها مجرَّد تصفية حسابات طمعيَّة بين الأسبان أنفسهم، ولم أكن معنيًّا بها أبدًا. كنت أنصت لما كان يحدث على الضِّفة الأخرى، وأحيانًا أسعد لانتقام التاريخ من الأسبان؟ أمِّي كانت الوحيدة السعيدة بطريقتها وبفهمها الخاصّ لذهابي، أمَّا أبي، فقد

ظلّ مصاحبًا لصمته المعتاد. عندما سمعت بقراري، تمتمت كالعارف بكلّ التفاصيل:

ـ جدّك اللّـه يرحمه، وأبوك كانا على حقّ، وعلى دراية تامَّة عندما كانا يكرِّران على مسمع كلّ الضيوف الوافدين للبيت الأندلسيّ: مراد قلبه حار مثل الجمر. هو الوحيد الذي سيحفظ إرث الأجداد. كان يجب انتظار المهبول السبنيولي، كارلوس لانارشيست لكي تعود لك الحواس النائمة. رائحة الأجداد لها دائمًا جاذبية خاصَّة. احذر فقط من قطَّاع الطرق.

ـ أيّ قطَّاع طرق يا يمَّا؟ أنا رايح لغرناطة. غرناطة يا يمّا التي سحرت جدِّي وحلم بنقلها إلى المحروسة، فبنى بيته الأندلسيّ ليظلّ قريبًا منها.

ـ بلاد غريبة يا وليدي كيفما كان الحال.

لم تكن أمِّي منشغلة بحالة الجمهوريِّين. لم تكن تسمع بهم. ولا تفكِّر في جرائم فرانكو التي كان يرتكبها كلّ يوم. لم تكن تعرف الجغرافيا والجبال، ولكنَّها كانت تدرك جيِّدًا أنَّ غرناطة مدينة صعبة السقوط، وأنَّها محاطة بسلسلة جبلية لا تصدُّ عنها الرِّياح فقط، ولكن حتى الأعداء، وأنَّ بحر مالقة والمارية قريبان منها. كنت أقرأ سعادة ضامرة في عينيها. لا تتوقَّف عن تكرار كلامها الذي أصبح مثل اللَّازمة: ما تنساش يا مراد. صوِّر مليح دار جدودك الموريسكيِّين. أبي المنشغل بالأخبار العالميَّة في مذياعه القديم الذي لا يغادر أذنه، كان الوحيد في العائلة الذي غابت السعادة عن عينيه. أشعر به أحيانًا منكسرًا وهو مغيَّب بعيدًا. عندما أبلغته بفكرة كارلوس لانارشيست، لم يبدِ أيّ تعجُّب. ولكنَّه قال بصوت خافت يكاد لا يُسمع وهو يحاول أن يبعد المذياع عن أذنه:

ـ لو كان في العمر بقيَّة، ما تردَّدت لحظة واحدة. احذروا فقط أن تسقطوا بين أيدي فرانكو لقمة سائغة حتى قبل أن تدخلوا إلى إسبانيا، فهو

يحتلّ السواحل المغربيَّة كلّها تقريبًا، والسَّواحل الإسبانيَّة الجنوبيَّة. لا غرابة في ذلك. كان معروفًا بجرائمه. فهو الذي أغرق ثورة الأستوريس[1] في حمَّام من الدم قبل سنتين. انضمَّ لجماعة المتمرِّدين عندما سمع بمقتل كالفو سوتيلو[2]، ولم يغفر للجمهوريِّين جريمتهم التي لم يكونوا في حاجة إليها.

اندهش كارلوس لانارشيست الذي كان يقف بجانبي، من كلام والدي:

ـ كالفو سوتلو؟ ربَّما كان يستحقّ.

ـ اسمع يا كارلوس، لا أعتقد أنَّ الجمهوريِّين كانوا في حاجة إلى ذلك. هو الذي دفع بأغلبية الجنرالات لاختيار التمرُّد في وقت أنَّ أمر الجمهورية لم يستتبّ بعد. على كلٍّ أتمنَّى لكم حظًّا سعيدًا. في البحر، نحن أيضًا أصبحنا نخاف من مفاجآت فرانكو؟ كلَّما خرجنا للصيد مبكرًا نحو أعالي البحار المشارفة لبحر المغرب وإسبانيا، اتَّخذنا ألف احتياط. أصدقاؤنا البحَّارة الأسبان هم من يوصل لنا آخر الأخبار. العسكريُّون لا أصدقاء لهم وسط البحَّارة. لقد ساعدنا الكثيرين على الذهاب نحو الضِّفة الأخرى. لم نعد نتبادل الطونة والكرفيت والسردينة في أعماق البحار، ولكن المعلومات أيضًا.

لم يخفنا بالتفاصيل المفجعة التي ربَّما كانت تنتظرنا، ولكنِّي أعتقد جازمًا أنَّه كان يعرف أكثر ممَّا ذكر. ويدرك جيِّدًا ماذا كان ينتظرنا على الضفاف الأخرى من البحر.

عندما ودَّعته في المساء المبهم، شدَّني من كتفي، وقال بحيث لا تسمعه أمِّي:

ـ أعتقد يا ابني أنَّ مهمَّتك لن تكون سهلة!

---

(1) La révolte des Asturies (1934).

(2) Calvo Sotelo.

ـ يا بابا تتحدَّث وكأنّي ذاهب إلى موت أكيد.

ـ لن تدخل إلى غرناطة سائحًا. لقد احتلَّ فرانكو كلّ السواحل. لو كان عمري عمرك، ولم أخسر جزءًا منه في البحث عن أجمل عطر يمكن أن يهزّ امرأة عاشقة، ما تردَّدت لحظة واحدة. غرناطة ليست لنا، ولكنْ فيها شيء من أنفاس الحقّ الضائع والمسروق.

ـ أنا ذاهب ولا أعرف بالضبط لماذا؟ دافعٌ داخليّ قويّ، ربَّما كان كارلوس من ورائه.

السفينة القادمة من مارسيليا، والتي كان يفترض أن تنقلنا على الساعة الثانية بعد الزوال، كانت في وقتها، ولكن بيوم كامل تأخَّر بسبب الأوضاع الجويَّة، وبسبب وصول جزء من الفيلق الأميركيّ متأخِّرًا.

لم آخذ معي أيّ شيء، ولكنّي ملأت عينيَّ بالبيت وبكلّ التفاصيل التي كانت تحيط به.

عندما انطلقنا ليلًا، كان البحر مظلمًا. كان عدد القادمين من مرسيليا وأوروبا وأميركا، وبريطانيا، كبيرًا جدًّا. فجأة تحوَّلت السَّفينة وهي تزحف نحو مدينة وهران إلى فضاء متعدِّد اللُّغات. أوَّل ما كان يلفت الانتباه هي الأعلام التي كان الناس يحملونها، والأناشيد التي كانوا يقولونها. لم يكن كارلوس لانارشيست يجد صعوبة كبيرة في الانضمام إلى أيَّة مجموعة من المجموعات. كلُّهم كانوا مقتنعين بما كانوا يفعلون إلَّا أنا، فقد ظللت غارقًا في أسئلة كانت كلَّما حاولت فهمها اصطدمت برغبة لا تقاوم للنوم. أدخلني كارلوس في جوِّهم:

ـ يا اللَّـه يا رفيق، أنت حزين لمواجهة فرانكو؟ لا تخف، سندافع عنك باستماتة.

ـ لا لست حزينًا. لا أعرفه.

ـ لست في حاجة إلى أن تعرف خنزيرًا مثله.

كانت البيرة الرديئة تنضح من فم كارلوس.

أنشدت ما استطعت معهم بالفرنسيَّة، والإنجليزيَّة المكسورة، والإسبانيَّة، وحتى بالعربيَّة التي لم تكن تعرفها إلَّا قلَّة تعدّ على رؤوس أصابع اليد الواحدة. كنَّا كأنَّنا في حفل كبير، ولم نكن متوجِّهين نحو موت أكيد ينتظرنا في البحر والبر. كانت لديَّ مهمَّة أخرى ودوافع غير دوافعهم. في لحظة من اللَّحظات، بدأت أفكِّر في غرناطة بجدِّيَّة مثل سائح مأخوذ بمكان قرأ عنه في المطويَّات السياحيَّة، وينتظر بفارغ الصبر اللِّقاء الجميل مع مدينة الشهوة. رأيت من دون أدنى جهد حيّ البيازين. حياة جدِّي. الزوايا التي كان يقطعها يوميًّا. هضاب المدينة التي تطوِّقها. معابرها. المكان الذي مات فيه قائده الدون فردناندو دي كردوبا (محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة). البيت المذهل الذي اكتشفه بالصدفة مع لالة سلطانة وعشقه، قبل أن يعدها ببناء شبيه له في أرض اللَّـه الواسعة. كانت أرض اللَّـه الواسعة لا تتعدَّى شبه الجزيرة الأيبيريَّة. لم يكن يعرف أنَّ أرضه الواسعة ستضيق عليهما وتتحوَّل إلى أرض حارقة. تخيَّلت حتى الأمكنة التي قطعها. الموانئ التي ركب منها. المارية التي سحرته بوجودها، وظلَّت عالقة بذهنه كآخر مدينة رآها في تلك الأرض. لا أدري ماذا حدث لي، ولكنِّي تخيَّلت في لحظة من اللَّحظات أنِّي كنت أنفِّذ وصيَّته العالقة في حلقه، والتي لم يجد وقتًا كافيًا لكتابتها. بدون دراية منِّي، كنت أعود إلى أرض عشقها بقوَّة، ثمَّ أعادها إلى ذويها بعد قطيعة دمويَّة!

عندما بدأت السفينة تشارف على ميناء وهران، كان الفجر قد بدأ يلوح في الأفق من وراء جبال مرجاجو، وبدت سنتا كروث عالية وشامخة،

وجبال المدينة كما تحدَّث عنها جدِّي تمامًا، وهو يكتشفها في نزوله الأوَّل في أوَّل ميناء غريب. مخيف أحيانًا أن ترى مدينة وتكتشفها وأنت تدخلها عن طريق البحر والصدفة، سحر وجاذبية خاصَّة، حنان ودهشة، وخوف مضمر لا تعلم أبدًا مصدره.

في وقفة وهران انضمَّت إلينا مجموعة أخرى من الفرنسيِّين والأسبان وبعض العرب الذين استطاعوا أن يدخلوا إلى السفينة، ثمَّ واصلت رحلتها ليلًا مرَّة أخرى باتِّجاه ميناء والميريا الذي تأكَّدنا من أنَّه لم يسقط بين أيدي الفرانكويِّين.

وصلنا إلى والميريا بعد ليلة كاملة. كان الميناء تحت سيطرة الجمهوريِّين، ولم نقترب من سواحل مالقا، لأنَّها كانت تحت مدافع وزوارق الفرانكويِّين الذين سمُّوا أنفسهم بالوطنيِّين. نزلنا بسرِّية وبعزيمة غريبة في ساحة لم نكن ندري هل كانت لصديق أم لعدو، لا نحمل شيئًا سوى بنادق، جلُّنا لم يكن يعرف أكثر من الضغط على الزناد وكيفيَّة ملئها. بدأنا عمليَّة الصعود نحو غرناطة التي كانت تقاوم هجمات الفرانكويِّين الكثيرة، و كانت مهدَّدة بالسقوط في أيَّة لحظة. يقودنا فيلق محلِّي من العارفين بالمناطق لتفادي السقوط في كمين قاتل.

لم تطل مقاومة غرناطة، فقد استسلمت في 20 جويليه 1936، أي بعد أقلّ من شهرين من وصولنا. لكن في الشهرين قاومنا باستماتة كبيرة. تأكَّدنا من الهزيمة المبكرة، وعرفنا أنَّنا كنَّا نحارب طاحونة خاضت كلّ الحروب الحديثة ومتعوِّدة على القتل، ومع ذلك خضناها حتى النهاية وأجَّلنا سقوط غرناطة قدر ما استطعنا، ريثما تلتحق بنا دول كنَّا موعودين بها، وليس كتائب مدنيَّة، لكن ذلك لم يحدث أبدًا. هناك خيانات يسكت عنها التاريخ، لأنَّها تحرجه، وعندما يتذكَّرها يكون كلُّ شيء قد رُتِّب ولفَّته استحالة التغيير.

الأخبار الكثيرة التي كانت تصلنا من هنا وهناك ومن الجبهات المختلفة، كانت تدفع بنا إلى الاستماتة أكثر. حزنت كثيرًا عندما وصلنا خبر مقتل فريديريكو لوركا. لم أكن أعرفه، لكنَّ الجمهوريِّين علَّمونا أناشيده الخفيفة. أدركت قيمته الكبيرة لاحقًا عندما اكتشفت الكثير من قصائده. كنت أتساءل في أعماقي، لأنَّها كانت هي المساحة الحميمية الوحيدة المتبقّية، في أيّ شيء يمكن أن يؤذي شاعرٌ طاحونةً هيَّأت كلّ شيء للانقضاض على الجمهوريَّة الفتيَّة؟ هل كان لوركا يعلم أنَّ رجلًا مثلي، لا يعرفه أبدًا، بكاه مثلما نبكي حبيبًا قريبًا، وأكثر؟ كنَّا في صقيع خوفنا، ونار تيهنا، ننشد أشعاره التي كانت تمنحنا الكثير من الاستكانة.

بعد كلّ هذه السنوات التي انسحبت بسرعة برقيَّة، يعاودني وجهه الذي لم أره إلَّا في الصور، وذلك اليوم القائظ من 18 أوت الذي سقط فيه، قبل أن يُرمى في الحفرة الجماعيَّة التي ضمَّت صرخاته ونداءات رفاقه التي لم يسمعها أحد غيرنا. من الأخبار التي كانت تصلنا من قادتنا، أدركت أنَّ فرانكو وأصدقاءه كانوا يطبِّقون المنطق نفسه الذي طبَّقته الملكة الكاثوليكيَّة إيزابيلا، فقد ضربوا طوقًا خانقًا على المدن من فوق وتحت، وبدأوا زحفهم بعد أن وضعوها داخل كمَّاشة الموت، متوزِّعين مهام الإبادة. لاكورون وفرول في الشمال، ثمَّ جراما وسراقسطة وبداجوز، في الجزء الجنوبيّ. كان فرانكو قد احتلَّ مليليَّة، تطوان، طنجة، سبتة، معبر ألخسيراس، وكاديث، وإشبيلية وقرطبة وجزءًا من الباليار، قبل أن تلتحق غرناطة بباقي المدن المنهكة والمستسلمة.

كانت مقاومتنا عنيدة، وكان الموت حقيقة. شعرت في لحظة من اللَّحظات أنِّي لم أكن أدافع عن مدينة إسبانيَّة، ولكن عن مدينة، كلَّما عبرت شارعًا من شوارعها أحسست بجدِّي فيها، يملأ شوارعها الحيَّة بركضه بين مكتبته ومحلّ الذهب الذي كان يملكه أخواله. حتى الأحياء القديمة عبرتها

وفلَّيتها دربًا دربًا، كأنِّي كنت في مدينتي التي بقيتُ فيها زمنًا طويلًا. لم يبد حيّ البيازين غريبًا أبدًا بضيقه وعطوره ونسائه وحتى انقساماته الداخليَّة. ولا مرتفعات جبال البشرات التي كدت أموت فيها عندما انفجر لغم، لم نكن ندري من وضعه هناك، الفرنكاويُّون الذين لم يصلوه، أم أصدقاؤنا من الجمهوريِّين؟ قبل أن أجد نفسي وجهًا لوجه مع رجل مغربيّ. كانت مجموعتي قد انسحبت، وبدا لي أنِّي كنت وحيدًا في مكان ظننت للحظة أنَّه كان خاليًا. كان يرفع بندقيته، وكنت أرفع مسدَّسي بين عينيه. كان يمكن أن أصيبه بلا تردُّد. لكنَّ قوَّة ما خفيَّة ضغطت على يدي ومنعتني من ذلك. سألني وهو مصوِّب على وجهي، قرأت خوفه في عينيه، مثلما قرأ تردُّدي على ملامحي:

ـ من وين الراسا ديالك دابا[1]؟

ـ من الجزائر.

ـ مش اسبنيولي إذن؟

ـ لا. من أرض اسمها الجزائر.

ـ أعرفها. جدِّي جاء من بجّاية إلى جبال الريف. واش جابك لبلاد الناس؟

ـ وأنت واش جابك لبلاد الناس؟

ـ جابوني اسبنيول. فرانكو وجماعته. أنا من الطابور المغربيّ، من جماعة الريكولار[2]. أنا مع اللَّفيف الوطنيّ *تيرثيو دي بونديرا*. شعارنا الدائم *فيفا لاموريتي*[3]. قاتل أو مقتول.

(1) من أيّ جنس أنت؟

(2) النظاميُّون. أصل الكلمة إسبانيّ Régular.

(3) يحيا الموت.

لاحظت أنَّه بدأ يشعر بشيء من الراحة. عيناه اللتان دارتا طويلًا في محجريهما سرعان ما استقرَّتا. لكنَّه لم ينزل بندقيَّته. أبقيت مسدَّسي على وضعه الأوَّل.

تأمَّلني قليلًا، لا أدري ماذا مرَّ برأسه، ثمَّ سألني مثل الذي يتسلَّى بالأسئلة:

ـ مسلم.

تردَّدت قليلًا. أردت أن أقول أيّ كلام، ولكنِّي لم أستطع.

ـ تنطق بالشهادتين؟

ـ لا إله إلَّا اللَّـه، محمد رسول اللَّـه.

كأنَّ سحرًا غريبًا نزل على وجهه ويديه فشلَّه تمامًا. أنزلَ بندقيته لأوَّل مرَّة من دون أيّ خوف. أخفيت مسدَّسي في حزامي.

ـ القاتل والمقتول في النار. رح اللَّـه ينجيك من هذا الدَّمار. ما لنا ناقة ولا جمل فيما يحدث. أنا لا أبحث عنك، أبحث عنهم، الذين يريدون الشيوعيَّة لهذه البلاد.

لم أردَّ عليه، لأنِّي في أعماقي كنت مثله وليد الصدفة القاتلة. انتبهت إلى نزفه. كان مجروحًا في ساقه. مزَّقت جزءًا من لباسي وربطت رجله. فجأة خانته كلّ قواه. حطَّ بندقيته بجانبه واتَّكأ على الصخرة. قال:

ـ فشلت. لم أعد قادرًا على الوقوف. خلّيني هنا، سيأتي من يستلمني.

ـ يمكنني أن أساعدك قليلًا.

ـ لا. أنا مليح هكذا.

ثمَّ مدَّ رأسه على الحجرة. شعرت به مرتاحًا بشكل أفضل. ربطتُ ساقه المجروحة من جديد، وبقوَّة أكثر، حتى توقَّف النزيف نهائيًّا. فجأة،

بدأ كلّ جسده يرتعش. لم يكن لديَّ أيُّ خيار آخر. وضعت عليه معطفي الخشن الذي استلمته في الباخرة. لم أسمع إلَّا آخر كلماته التي ما تزال تطنّ في رأسي!

ـ ربِّي يحفظك يا خويا. سلِّم لي على أحبابنا في بجَّاية.

ـ يحفظنا جميعًا. رح ما عليَّ والو. وضْعي الآن أفضل. انسحبْ بسرعة، لأنِّي بعد قليل لن أستطيع حمايتك من جماعة *فيفا لاموريتي*.

لم أناقشه، لأنِّي رأيت ظلالًا بعيدة مثل السراب. كانت ظلال بشر.

تركته وأنا متأكِّد من أنَّ الآتين سينقذونه. قال لي إنَّهم أصدقاؤه، فقد عرفهم من سحناتهم، هم مثله كانوا ضائعين في خراب جبل البشرات.

ـ أرجوك، اذهب، فلن يفعلوا ما فعلته أنا معك. هذا الفيلق لا يعرف إلَّا الموت. اذهب ربَّما منحنا اللَّـه فرصة أخرى أفضل، الجبال وحدها لا تلتقي.

كنت مثله، في الوضعيَّة نفسها. المفروض أن لا أسال عن شيء آخر قبل إطلاق النار عليه. تعلَّمنا في قلب السفينة وفي الجبال المطلَّة على ساحل المارية، ومن الناس القدامى أنَّ أيّ تردُّد يمكن أن يقودنا إلى الهلاك الأكيد. تصفية العدو هي أوَّل فعل وجودي منقذ. لم أفعل، لسبب لم أعرفه، ولم أفكِّر فيه أبدًا. ودَّعته بعد أن وضعت أكلي وشربي الذي كان معي بجانبه. لم أسمع إلَّا كلماته المرتبكة التي خرجت بلكنة بربريَّة واضحة:

ـ يكثِّر خيرك. وربِّي يحفظك.

لم أجد الوقت للردّ عليه، فقد كانت ظلال الرجال تقترب. تسلَّلت بين الأحجار والصخور الباردة، ثمَّ جريت حتى التحقت بصعوبة بمؤخرة جماعتي. فجأة، سمعت طلقتين جافتين من سلاح خفيف لم يكن بعيدًا عنِّي. افترضت

أنَّ الوطنيِّين التحقوا بالريفي، وهم بصدد إبعاد المتأخِّرين منَّا وتخويفهم. ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك. فقد التحق بنا آخر المتأخِّرين من أصدقائنا: بيدرو المسمَّى إلبيرو[1] لحاسة شمِّه القويَّة، كاستيو لامورتي[2]، عيناه باردتان كعينيْ ميِّت، لا تتغيَّران حتى في أصعب الحالات؛ ومانويل الطيِّب جدًّا. عندما سألناهم عن أوضاعهم ضحكوا ملء أشداقهم باستثناء مانويل الذي كان يجد صعوبة كبيرة في مجاراة صديقيه. قال كاستيو وهو يضرب على ظهر إلبيرو:

ـ قلنا له ما الذي جاء بك إلى هذه الأرض، قال لنا بلا تردُّد ولا خوف: سيِّدكم فرانكو. ضحكنا من جهله لقوَّتنا.

ـ قلنا له ما دام سيِّدك فرانكو هو الذي بعثك، فقد حملت موتك برجليك. ثمَّ رأينا أنَّ لديه قنينة ماء مثل تلك التي نحملها، وإناء أكل شبيه لما أعطي لنا في قلب السفينة، حتى الغطاء الذي كان على ظهره، كان معطفًا من معاطفنا الخشنة. سألناه من أين وصلك هذا؟ تمتم قليلًا، ولكنَّنا حينما وضعنا المسدَّس في صدغه الأيسر أقر بالحقيقيَّة.

وماذا قال، سألت بشكل لاشعوريّ تمامًا:

ـ حتى لو لم يقلها، كنَّا نعرف الإجابة. إنَّه أخذها من أحد رجالنا المقتولين في الجبل.

ردَّ إلبيرو بانتشاء وانتصار.

ـ كان جريحًا، ولم نكن نريده أن يتعب أكثر. هو من الطابور المغربيّ. حتى هو لم يطلب شيئًا منَّا، ولا حتى أن نبقيه على قيد الحياة، وكأنَّه كان يعرف القاعدة جيِّدًا. رفع سبابته، وقرأ بعض الصلوات، لم نفهمها قبل أن يغمض عينيه نهائيًّا.

---

(1) من الكلمة الإسبانيَّة El perro، وتعني الكلب.

(2) من الكلمة الإسبانيَّة La muerte، وتعني الموت.

ـ هل قتلتم جريحًا مرميًّا على الأرض؟ أنتم ثوَّار أم قتلة.

قلتها من دون أن أتحكَّم في ردَّة فعلي.

ـ أهلًا بالعاشق الرومانسي. لو لم نفعل، كان هو فعل ذلك. أنا متأكِّد أنَّك لو كنت في مكاننا، كنت صفَّيته بدون أن تسأله أصلًا. وجهه لم يكن مريحًا، وفي عينيه الكثير من الحقد على الثوّار. ماذا تريد أن نفعل له غير إنهائه؟

ـ لست بكلّ هذه الوحشية لأقتل رجلًا جريحًا. كان يمكنكم أن تسجنوه.

ـ كان علينا أن نسرع قبل أن نُقتل نحن في مكانه. لأنَّ فلول فرانكو كانت وراءنا نحن أيضًا.

شعرت بجبن كبير يملأني ويشلّني، ويحوّل كلّ ما كنت أقوم به شيئًا بلا معنى. كان ريفيًّا طيِّبًا مخدوعًا، ربَّما مثلنا جميعًا. في لحظة من اللَّحظات فكَّرت في الهرب أصلًا من هذه المدن التي بدت لي مريضة، لأنِّي كنت أعرف في أعماقي أنَّ الصدفة الغريبة هي التي جاءت بهذا الرجل إلى هذه الجبال المقفرة والمليئة بالموت والنار. ربَّما كانت هي الصدفة نفسها التي رمتني بين هذه الصخور. كان حظّه مثل حظِّي، أو ربَّما أسوأ منِّي بقليل.

كارلوس لانارشيست الذي لعنته في لحظات عودتي إلى آلامي الداخليَّة، أحزنني كثيرًا خبر موته. فقد سمعت، بعدما خرجنا من مدينة غرناطة أنَّه مات في الصفوف الأولى التي كانت تدافع بشجاعة ويأس عن المدينة. المدفعيَّة والقصف لم يتركا له أيّ حظ.

على الرَّغم من الرَّماد الذي ظل يملأ حلقي وعينيَّ، شيء ملتبس كنت أشعر به، بين اكتشاف مدينة أجدادي والموت فيها؟ لم أكن أحمل

شيئًا سوى بعض الروائح والحكايات التي ظلَّت تملأني من حكايات الوالدة والجدَّة وأبي من حين لآخر.

لم يبق لي من ذلك الرماد الشيء الكثير سوى دفاعنا عن المدينة باستماتة قبل مغادرتها. كانت الفوضى كبيرة والتدريبات ناقصة، ولا دافع لنا نحو الموت سوى ذلك الشيء الحارّ والغامض، كلٌّ واحد كان يسمِّيه كما يحلو له. الغريب فيما حدث لنا، هو أنَّه حتى البناية التي التجأنا إليها قبل أن ننسحب نحو الجبال، كانت شبيهة بالبيت الأندلسيّ. في لحظات الهدنة، كنت أتجوَّل داخل البيت وأقول في خاطري، أو ربَّما كنت في حاجة للإيمان بذلك: لابدَّ أن تكون هذه هي الدار التي لمحها جدِّي وحنّة سلطانة، قبل أن يفكِّرا في تقليدها؟ كان عاشقًا للكتب وذهَّابًا، بإمكانه أن يمنح قارئته التي فاجأته في مكتبته، ببيت ينشئه بيديه، وليس فقط بأحلامه. عندما صعدت لآخر طابق، بدت لي سهول غرناطة شبيهة ببحر أخضر، يشبه حافَّة خليج الغرباء. الضربات الأولى التي أسقطت جزءًا منه، جعلتنا ننسحب، وأنسى في اللَّحظة نفسها، أنَّ عينيَّ المليئتين بالرَّماد، كانتا قبل قليل مليئتين بشوق مات في المدينة التي عشق فيها جدِّي، قبل أن تضعه محاكم التفتيش المقدَّس بين فكَّيْ آلتها الجهنميَّة.

ونحن في طريقنا، أنا ومانويلا وجماعة كبيرة من رفاقي، إلى الحدود الإسبانيَّة ـ الفرنسيَّة، للخروج من دائرة الحصار، لم أتذكَّر إلَّا وجه الرجل الرّيفيّ، ووجه جدِّي وهو يبني بيته الأندلسيّ بيقين مدهش. من حين لآخر، كان قلبي المنكسر يذكِّرني بأنَّ أندلسه التي انطفأت بين يديه، لم تكن شبيهة بأندلسي الممزَّقة التي رأيتها يومها وهي تنهار على رأسي، وسؤال مانويلا التي بقيت مدفونة معي تحت أنقاض القصف مدَّة أسبوع:

ـ ماذا ستفعل هناك؟

هناك؟ أيّ هناك يا مانويلا؟ هل يوجد وطن خاصّ للمهزومين؟ أفكِّر أحيانًا فيه. كان جدِّي الروخو يقول دائمًا ولا يتردَّد لحظة في ذلك: اللُّغة هي منفى المهزومين! لكنَّ اللُّغة غير كافية لملء قلب كان منكسرًا يا جدِّي. أردت أن أقول لها إنِّي سأعود إلى بيتي الأندلسيّ الذي اشتقت إليه كثيرًا، ولكنِّي عدلت عن الفكرة لأنِّي كنت سأكذب عليها. لم تكن لديَّ أيَّة فكرة عمَّا كان ينتظرني هناك. وهل البيت بيتي؟ لقد حُسم أمره وأصبح دارًا للموسيقى، كما كان الروخو يحلم دائمًا. أن يظلّ نشيد سلطانة وأصداؤها تملأه. ولكنِّي لم أقل لمانويلا أيّ شيء.

صمتُّ. صمتتْ وهي منكَّسة الرأس. لم تسألني مرَّة أخرى.

أذكر أنَّها هي من سمَّاني باسطا. سأجرّ ملمسها حتى القبر.

قصَّة مانويلا، جرح آخر.

-3-

بعد استقلال البلاد في 1962، لم يمت البيت الأندلسيّ كما توقَّع الجميع، عندما بدأت التصفيات والانقلابات تلوح في الأفق، وتوجَّه الأخوة الأعداء نحو صدور بعضهم بعضًا. لم يتغيَّر شيء فيه، فقد استمرَّ في أداء وظيفته كبيت للموسيقى الأندلسيَّة، كما شاء له جونار. لم يبق إلَّا والدي وارثًا شططه عن والده بضرورة عدم مغادرة البيت نهائيًّا، يقوم عليه ويخدمه ويخدم سكَّانه وزوَّاره. بقية الأهل باعوا حقوقهم منذ الفترة الاستعماريَّة الأولى. جدِّي من والدي رفض. قال: هذه أرضي، خذوها إذا شئتم، فأنتم تملكون القوَّة، ولكن اتركوني بها، أخدمها وأخدمكم. أخوالي لم يدخلوا أيّ حرب عائليَّة، فقد انسحبوا في وقت مبكّر. تحصَّل الكثير منهم على الجنسية الفرنسيَّة مستفيدين من قانون كريميو[1]. البعض منهم رفض، ولكن مع الحرب العالميَّة الثانية وبداية المطاردة، اقتنعوا كلُّهم بضرورة التجنُّس لحماية أنفسهم وحماية أولادهم، فغيَّروا أسماءهم، لتصبح أسماء اختلطت بسرعة مع أسماء الفرنسيِّين من المعمِّرين، والأقدام السود.

---

(1) Crémieu.

لم أعرف إلَّا فيما بعد لماذا كان جزء لا يستهان به من أخوالي، المنحدرين من جدَّتي سلطانة بلاثيوس، أو أولاد الدونة سلطانة، كما كانوا يسمُّون أنفسهم، يدفنون موتاهم ليلًا حتى لا يراهم أحد. لقد سافر الكثير منهم إلى فرنسا. اليوم، يبيعون ويشترون في باريس ومرسيليا وليون ومونبلييه. دكاكينهم مليئة بالقماش البلديّ الكثير الألوان، وأحسن زبائنهم هم من المغاربة والجزائريِّين والتونسيِّين.

لم تتحمَّل البلاد حرِّيَّتها أكثر من ثلاث سنوات. بالضبط في 1965، تكسَّر كلُّ شيء، وكأنَّ عاصفة جهنميَّة مرَّت على حين غفلة. أغلق البيت الأندلسيّ وشُمِّعت أبوابه، لسبب لم يكن أحد يعرفه إلَّا أصحاب القرار. ومنع أيّ شخص من الدخول له. فجأة، سكن كلّ شيء، قبل أن يحلّ الموت قبل الهدأة المفجعة. ولم تبق إلَّا أصداء ليلي مونتي، أليس فيتوسي، ومريم فكاي وشيختها المعلِّمة يامنة، الشيخة طيطما، فطوم البليدية، الشيخة زهية، سلطانة داود التي غيَّرت اسمها برينيت الوهرانيَّة، الزهرة الفاسيَّة، فضيلة مدني التي أصبحت فضيلة دزيريه، قبل أن يسرق منها حبس سركاجي جزءًا من عمرها، ولكنَّه لم يمنعها من شدوها الحوزيّ التلمسانيّ والعروبيّ العاصميّ. فرق نسائيَّة، تدين بالكثير لعشق لالة سلطانة ولفرقتها جاهاركا، كاسا أندلسيا، التي نشأت من غبار الوحدة وشطط العزلة وقسوة المنافي المبكرة.

في البداية، عندما غادر الفرنسيُّون البيت، طلبوا من والدي أن يستمرّ في الاهتمام به منفذين بذلك وصيَّة جونار التي تركها وراءه مكتوبة. بل إنَّهم منحونا ورقة تعترف بوجودنا كساكنين وكمحافظين على المكان. حتى عندما توفي والدي، استمررت في أداء مهامِّه. كنت أسكن في بيت الخدم، أنا أسهر على تسيير البيت بالكامل. قبل أن يغلق البيت ويُشمَّع نهائيًّا، كان ما يزال حيًّا. كلّ الترميمات التي أضيفت في عهد جونّار ظلَّت واقفة، وسمحت للبيت بالاستمرار أكثر في الحياة. الأعمدة والمقرنصات التي سقطت

أعادها، وأعاد ترميم مغارة سرفانتس بالمناسبة نفسها، ومسجد الثعالبي. جاء بأسبان من غرناطة نفسها، وكلَّفهم بعمليّات الترميم. كانوا يشتغلون بحيرة ودهشة غريبتين، إذ كيف تمكَّن رجل هارب من محاكم التَّفتيش المقدَّس أن يهرِّب عالمًا عمرانيًّا بكامله في رأسه فقط، ويشيِّده على أرض أخرى لم تكن طيِّبة معه دائمًا؟ فقد غيَّروا، باقتراح من جونار وأعوانه، الجهة المطلَّة على الحديقة. استبدلوا جزءًا من الحيطان بالزجاج الذي ينغلق وينفتح على واجهة البحر وحقول العنب. حتى السقف الذي كان يغطِّي المقصورة، نُزع قرميده القديم وعوَّضه بالزجاج المعشَّق بالألوان والمواد العاكسة للشمس. عندما تكون قويَّة، تسمح للشمس بالمرور بالشكل الذي يمنح كلّ المساحات دفئًا جميلًا ونورًا هادئًا، وتُعطِّل بأقواسها الخارجيَّة وظهرها المقبَّب عنف الرياح وسيول المطر. حتى قنوات تصريف المياه الصغيرة، التي كثيرًا ما كانت الأتربة المنزلقة من أعالي الجبل تغلقها، وُسِّعت أكثر، وأصبحت تتحمَّل بسهولة كلّ السيول التي كانت تمرّ من دون أدنى صعوبة، ولا تُغلق القنوات.

ظللت أسير البيت الأندلسيّ، إذ كنت الوحيد بعد المرحوم والدي من كان يعرف كلّ أسراره. كنت أدخله من بابه السرِّيّ الذي كان يفصل دار الخدم عن بقية البيت. فجأة، بدأ بعض الناس الغامضين يأتون ثمَّ يذهبون. نزعوا التشميع، وتأكَّدت من أنَّهم كانوا يحملون مفاتيح البيت ولم يكسروا أيّ شيء فيه. لا أدري إذا ما كان عليَّ أن أسعد أم أحزن! ولكنِّي شعرت في لحظة من اللَّحظات أنَّ شيئًا ما لم يكن على ما يرام. كانوا يأتون. يبقون جزءًا من اللَّيل في الصالون. يلعبون الكارطة[1]، ثمَّ يذهبون. لم أعرف في أيّ يوم من الأيَّام من هم، ولا من أين جاؤوا؟ سمعتهم في مرَّة من المرَّات

(1) لعبة الشدَّة. الأوراق.

وهم يتحدَّثون عن رفضهم للرئيس بن بيلا[1] ولجماعة وجدة. سمعت حتى أنَّ أحدهم صرخ بصوت عال يشبه العواء: واللّـه خميستي[2] ما يطوِّلش. لم أكن معنيًّا كثيرًا بما كانوا يبيّتون، ولا أعرف حتى لماذا اختاروا هذا المكان بالذات للحديث في هذه الموضوعات. في البداية، ظننتهم مجرَّد إداريِّين في البلدية، سكارى، يتسلّون بتمرير الزمن الثقيل، لكن مع الوقت، تأكَّد لي أنَّهم كان من حاشية زمرة انقلابيَّة كانت تهيِّئ لشيء غامض في البلاد، وفي هذا البيت الذي كان صدى للنور والموسيقى! بعد أيَّام قليلة، في 11 أبريل 1963، وكان اليوم ربيعيًّا، سمعت في الإذاعة الوطنيَّة أنَّ وزير الخارجيَّة محمد خميستي قد اغتيل وهو يغادر مقرّ المجلس الوطنيّ، عندما اغتاله شخص برصاصة في الرأس، قيل فيما بعد إنَّه مجنون، ثمَّ بعد سنوات قيل أيضًا إنَّه انتحر في السجن. قاوم خميستي الموت حتى 5 مايو قبل أن يستسلم نهائيًّا. لا أدري ما الذي قادني يوم دفنه إلى شوارع العاصمة لحضور مراسم الدفن، ولرؤية جمال عبد الناصر الذي كان وهمنا الجميل في تلك الأيَّام. نسيت الميِّت وفرحت أنِّي رأيت لأوَّل مرَّة جمال عبد الناصر، وكأنِّي رأيت فاتحًا عظيمًا. أتذكَّر أنِّي سمعت المجموعة الغامضة تهمهم باسمه في الصالون. لم يكن في نيَّتي أن أعرف كلّ تلك التفاصيل التي تعمَّقت مع الزمن. فقد كانوا خمسة، ثمَّ أصبحوا سبعة، ثمَّ أصبحوا عشرة ليلة اغتيال شعباني، حيث سمعتهم يقولون واللّـه ما يروح دم شعباني في التراب. مباشرة بعد مقتل شعباني الذي أُعدم في عمر لم يتجاوز الثلاثين سنة، في 3 سبتمبر 1964، حوكم وأُعدم بدون شهود قائد الولاية السادسة ـ الصحراء الكبرى، بتهمة التمرُّد والخيانة الوطنيَّة العظمى. قُتل لأنَّه كان يدعو إلى تطهير الجيش، ورفض التجارب النوويَّة الفرنسيَّة في الصحراء.

(1) أوَّل رئيس جمهورية بعد الاستقلال.

(2) محمد خميستي، أوَّل وزير خارجية بعد الاستقلال، اغتاله شخص معتوه (؟).

بعضهم سرَّب خبرًا مفاده أنَّه هو أيضًا كان وراء إعدام أكثر من 700 مصالي في شارف، بالجلفة، وأنَّ المسألة لا تعدو أن تكون حالة انتقاميَّة.

كانت الجزائر المستقلَّة، يومها، تدشِّن عصرًا جديدًا، عصر القتل الغامض، القتلة الصغار.

مع الزمن، تعوَّدوا على حضوري. عندما يصلون إلى البيت، ينادونني:

ـ عمِّي مراد رانا هنا.

ممَّا يعني أنَّهم وصلوا وينتظرون أن أسألهم:

ـ تحبّوا شاي ولَّا قهوة؟

ـ كما العادة، عمِّي مراد باسطا!

كما العادة، كانت تعني قهوة وشاي. وأنسحب نحو المطبخ الواسع. أشمّ رائحة الرطوبة. أسمع صرخاتهم ولا يسمعونني. أحيانًا، يبدو لي أنَّ الانقلاب ضد بن بيلا دُبِّر بالبيت نفسه. يختلفون، وقد يصل صراخهم إلى الأعالي، ولكنَّهم يتَّفقون دائمًا على الشيء نفسه. أسمعهم يكرِّرون كلامهم المتناقض، ولكن الذي يسير باتِّجاه واحد: دم شعباني ما يمشيش خسارة. أشعر بقهر في أعماقي. من يكونون؟ مسؤولين؟ حكامًا؟ عصابة من القتلة؟ مسكين خميستي! اللَّـه يرحمه ويوسع عليه. قتلوه ومشوا في جنازته، وبعدها أكَّدوا أنَّ بين القاتل والمقتول قصَّة قديمة تتعلق بعلاقة عاطفيَّة بين زوجة المجنيِّ عليه وخميستي. ثمَّ قالوا إنَّ القاتل مجنون. لكنْ من يصدق؟ كان يجب فعل ذلك، يقول أحد السبعة. لا يوجد في الدُّنيا أحسن من التُّهمة الأخلاقيَّة، الوحيدة التي يتمنَّى الكلّ سترها، بما في ذلك عائلة المجنيِّ عليه. الجريمة الوحيدة التي لا يطالب أحدٌ بدمها. يضرب على الطاولة، ثمَّ يواصل: أعطيناهم فرصة ليحلُّوا مشاكلهم. تتعالى الضحكات بقوَّة كبيرة

حتى تغيب وسط همهمات التعب، قبل أن ينسحبوا في آخر اللَّيل، فيخرج أوَّلًا الشابَّان اللذان يحملان سلاحًا، قبل أن يخرج البقية بالتتابع مشكِّلين رتلًا صغيرًا يسير بنوع التخفِّي، كأنَّه في مهمَّة خاصَّة.

مباشرة بعد انقلاب 1965، جاءنا ضابط كهل. وجه مغلق، وثقافة جبليَّة جافَّة. كان البيت في الداخل قد بدأ يتآكل من كثرة الإهمال. منذ اليوم الأوَّل، وضَّح لي ما يجب فعله في الحديقة، ومنعني من الدخول كلِّيًّا إلى البيت. وظلَّ يمارس الشيء نفسه، يخرج باكرًا، ويدخل متأخِّرًا ليلًا. ظللت أشتغل بالحديقة كما أمرني، ولم أتدخَّل في أيِّ شيء آخر. كنت كلّ يوم آخذ منه برنامج اليوم الموالي. عندما استقرَّ به الحال، طلب أن يتحدَّث مع صاحب البيت. قلت له تفضَّل. رفع صوته أكثر:

ـ أريد أن أتحدَّث مع الصاحب الفعليّ للبيت؟

ـ خادمكم سيِّدي. أنا هو الصاحب الفعليّ لهذا البيت.

ـ أنت فرنسيّ؟

ـ لست فرنسيًّا. هذا بيت أجدادي قبل الفرنسيِّين وحتى قبل الأتراك. بناه جدِّي سيدي سيِّد أحمد بن خليل، الروخو، لزوجته لالة سلطانة بلاثيوس.

ـ شوف نحن لا نعرف بعضنا. اسمي قدّور جاب الخير، ما نحبش اللي يستغبيني. اسأل السطايفيَّة يحكون لك عنِّي. صحيح أنِّي جبليّ، ولست حضريًّا، لكن هذا لا يمنعني من القول إنَّ هذا البيت كان دارًا للهوى في زمن الاستعمار، ولم يكن سكنًا؟

ـ لا يا سيِّدي. كان بيتًا للموسيقى الأندلسيَّة.

ـ كيف كيف؟ أين الاختلاف. كان يفترض أن يغلق بعد الاستقلال، لأنَّه كان مكانًا للدعارة.

ـ لم يكن كذلك يا سيِّدي. قلت كان مكانًا حفظ الموسيقى الأندلسيَّة من التلف الأكيد. هنا صدحت كبريات الفرق الموسيقيَّة التي جعلت من الأندلس حبّها ومرجعها.

ـ أنا لا أفهم مثل هذا الكلام. لكن ما يجب أن يسقط، عليه أن يوقف في وقته وإلَّا سيتحوَّل إلى آفة تصعب مراقبتها.

ـ لماذا يا سيِّدي، هو بيت كبقيَّة البيوت العربيَّة الطيِّبة؟

ـ ما سَمِعتُه عن البيت لا يشرِّف أحدًا، ولا يشرِّف الثورة.

بعد أيَّام جاءت مجموعة تقول إنَّها اشترت مفتاح البيت الأندلسيّ من صاحبه المجاهد قدّور جاب الخير. المجموعة نفسها كانت مصحوبة بعسكري من خنشلة، من قدماء المجاهدين، حوَّلت البيت إلى كباريه البوريفاج[1]. أعيد تبليط الأرضيَّة، ونزع جزء كبير من رخام الأرضيَّة التي يقال إنَّ سيدي حامد بن خليل جاء برخامها من فينيسيا عندما سافر لطلب الزجاج المعشَّق بالألوان، الذي كان يملأ البيت، من هناك. وعُوِّضت الأرضيَّة بالإسمنت الأزرق الذي يبس بسرعة، قبل أن توضع عليه الزرابي الصحراويَّة والتلمسانيَّة الرشيقة التي خبَّأت الإسمنت البارد. وحوَّلت الغرف العليا، حيث مقصورة جدَّتي مارينا التي كانت ترى من خلالها أحلامها ونجومها وبحرها الهارب، إلى غرف للراحة وللراقصات. وأُدمجت غرفتان في غرفة واحدة، أصبحت كبيرة وواسعة، خُصِّصت لاستقبال الزبائن الخواص الذين يريدون قضاء اللَّيلة، مع كلّ وسائل الراحة. هناك غرفة ملوكيَّة اسمها غرفة الأمراء[2] جُهِّزت بكلّ وسائل الراحة، من أفرشة شبيهة بأفرشة ألف ليلة وليلة، وإضاءات تقوِّي بألوانها الجميلة كلّ الشهوات

(1) من الكلمة الفرنسيَّة Beaux rivages، وتعني الضفاف الجميلة.

(2) Suite des princes.

الخبيئة، وبساحة مقابلة يجلس فيها المغنُّون والمغنّيات والراقصات. حتى الحمَّامات الجديدة التي حلَّت محلّ الحمَّامات القديمة، مستوردة من إيطاليا برخامها وألوانها الزاهية. لم ينس أصحاب الاستثمار أن يضيفوا لها مكبِّر الصوت للغناء، وبيانو قديم وُضع على سجاد إيراني قديم في الزاوية. ديزاين الأمكنة كان مختلفًا تمامًا. حتى غرفة الراحة الجميلة التي تحتاج إلى ألوان هادئة، اخترقتها التدرُّجات الحمراء الحادَّة والبنفسجيَّة الغميقة التي كانت تظلّل الزوايا الأربع، حتى بدت كأنَّها غرفة لاستقبال المومسات والعاهرات اللَّيليَّات، وليس المغنِّيَّات. الفرق كبير بين الديزاين الجديد واليد التي صنعتها قديمًا. فقد ترك الروخو لمسته على كلّ شيء، حتى وإن كان للمهندس المالطيّ اليد الطولى في كلّ شيء. غاليليو لم يتركه يؤثِّث ذوقه كما يشاء، ولكنَّه كان دائمًا يقف على رأسه. كلّ الوثائق التي تركها وراءه هي علامات على وجوده الحيّ. لقد خطَّط لكلِّ شيء بشكل هادئ وجميل.

قبو البيت أعيد تشكيله، وحُوِّل إلى بار تحت ـ أرضي، ورُبط مع الطابق الأرضي حيث الحديقة التي أصبح جزء كبير منها مطعمًا، بإمكانه أن يستقبل أكثر من مائة شخص براحة تامَّة. أصبحت الأنوار المستفزَّة الصارخة تملأ جوانبه مثل امرأة أغرقتها فتنة الألوان حتى غابت كلِّيًّا عن نظرات العشّاق. وكان الزوَّار يأتون من كلّ جهات الوطن. بوريفاج أصبحت على كلّ لسان. وكانت الصفقات السرِّيَّة الكبرى تعقد في هذا المكان، في الزاوية المسمَّاة VIP، يأتي إليها الضيوف والمسيِّرون وأصحاب المصالح الغامضة، ووجهاء المدينة، ويختمون مشوار الأمور العالقة على عشاء جميل وراحة خاصَّة في الطابق العلويّ من البيت، في غرفة الأمراء. كلّ الزوَّار كانوا مدنيِّين. واحد فقط كان يأتي، من حين لآخر، بلباسه العسكريّ، سمعت فيما بعد أنَّه كان شريكًا في الكباريه.

لم أسمع أبدًا بأيّ خلل في نظام المكان الذي كان مراقبًا أمنيًّا بصرامة. مرَّة واحدة، وقع حادث خطير انتهى بوفاة إحدى أجمل الراقصات: سبيلا. نبهت هذه الجريمة المالكين إلى ضرورة السهر أكثر على راحة الزوَّار. كان الشاب الذي اشتهى مكانًا له في غرفة الأمراء يريد سبيلا بالقوَّة. السكر، انتزع من الشاب ميزانه العقليّ، فأخرج مسدسه ووضعه على رأسها. كانت المسكينة ترتجف. من شدَّة سكره ذهب العيار بسرعة، وسقطت على إثره سبيلا كحجرة باردة. الحادث غطَّته الصحافة الوطنيَّة، الخاصَّة والعامَّة بهذه الصيغة التي بدت غريبة بعض الشيء، لأنَّ زبائن البوريفاج يُنتقون بدقَّة، والحجز يتمّ قبل فترة. لأوَّل مرَّة تجعل الصحافة من حدث عاديّ، في شكله على الأقلّ، يتكرَّر يوميًّا العشرات من المرَّات، كبيرًا واستثنائيًّا. أصبح الناس يتحدَّثون عنه في كلّ الأماكن العامَّة، ساحات المدينة، مقاهيها، سوق السيَّارات، الحمَّامات وغيرها، بالخصوص بعد تغطية باري ماتش[1] الحدث بشكل تفصيليّ إذ تحصَّلت على الكثير من الصور والمعلومات، حتى غرفة الأمراء التي كان يُمنع فيها التصوير، وقيل إنَّ السكّير لم يكن شخصًا عاديًّا. هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك كلّه في ذكر التفاصيل. كلُّ شيء نشب حول غرفة الأمراء. أراد الضابط الشاب أن يقضي فيها ليلته مع سبيلا بمناسبة عيد ميلاد أمِّه، ولكن مسيِّر الحفلات الخاصَّة، أخبره بأنَّ سبيلا محجوزة لغيره. ردَّة فعل الشاب كانت سريعة: مَنْ هذا التيس الذي يأخذ مكاني. ردّ عليه المسيّر: هو برتبة عسكريَّة أعلى من رتبتك، الأحسن لك أن تعود مرَّة أخرى. على الرَّغم من سكره، ارتبك الشاب قبل أن يتماسك ويسأل الرجل عن اسم العسكريّ الكبير، فرفض المسيِّر أن يعطيه أيَّة معلومة، واكتفى بالقول بأنَّها معلومات شخصيَّة ليس من حقِّه تسريبها. شتمه قبل أن ينزل عليه ضربًا وتهديدًا. الصدفة شاءت أنَّ العسكريّ الكبير

(1) Paris Match مجلَّة فرنسيَّة مصوّرة معروفة.

كان في مطعم الطابق الأرضي، بالقرب من النافورة، فسمعه. قبض عليه عسسه من خناقه، جرَّدوه من لباسه ومن مسدسه. بعدها اقترب منه الضابط الكبير وهو يغلي مثل قِدر كبير مليء بالأحجار والمياه الساخنة:

ـ يا عطاي، عندما تريد أن تسترجل وتستقوي على أسيادك، افعل ذلك خارج هذا المكان. في المرَّة القادمة لن أتردَّد أبدًا في قتلك كأيّ جرو.

أقيل الشاب العسكريّ من منصبه، وأُدخل إلى السجن بتهمة الرشوة، والاعتداء والجريمة الموصوفة. سُجن من دون أيَّة محاكمة، ثمَّ أخرج بكفالة ماليَّة عالية، لأنَّ القتل اعتبر غير عمديّ. يقال إنَّه هو من أفشى كلّ شيء لمجلَّة باري ماتش، التي غطَّت الحدث بكلّ التفاصيل. بعدها غاب نهائيًّا، ولم يعد يسمع به أحد. هناك من يقول إنَّه اختُطف ولا أحد يعرف مآله. قيل الكثير عن الحادثة. إنَّها مجرَّد عمليَّة مدبَّرة من أعداء البو ريفاج لكسر المشروع الترفيهيّ الكبير الذي كانت البلاد في حاجة إليه، بعد رماد السبع سنوات حرب. الراقصة سبيلا التي قُتلت، كانت من العائلات التلمسانيَّة القديمة التي خرجت في وقت مبكر، واستقرَّت في البليدة في الأيَّام الصعبة. قيل إنَّها يهوديَّة من سيفيلا Sevilla واسمها الحقيقيّ بنيشو، أي بن إشوا، أي ابن جوزيف لأن يشوا Yechoua تعني يوسف بالعبريَّة، من أصل إسبانيّ. كانت تأتي ثلاث مرَّات في الأسبوع لترقص وتغنّي وتقضي اللَّيلة في غرفة الأمراء. كان عشَّاقها كثيرين، بخصوص الزعيم، وهو الاسم الذي كان يطلق على الضابط الكبير الذي كان يوقِّت مجيئه بسهرات سبيلا. قبل أن ينام في غرفة الأمراء مع سبيلا، يستمتع في خلوته برقصها، حتى أصبحت من مقرَّبيه القليلين. بفضله تحصَّلت على فيلا في مرتفعات الأبيار[1]، ومحلّ حلاقة في وسط العاصمة، شغَّلت فيه إحدى قريباتها، وهي

---

(1) حيّ من أحياء العاصمة.

التي تهتمّ بمكياجها وتسريحات شعرها. يوم قُتلت سبيلا، بقيت مدَّة طويلة في براد المستشفى حتى نُسيت تمامًا، قبل أن يطلبها ذووها. استلموها ليلًا، ودُفنت أيضًا ليلًا في مقبرة اليهود. لقد حُفِر قبرُها أيَّامًا من قبل. الناس يفاجأون دائمًا بقبر جديد في مقبرة قديمة لم يعد أحد يدفن فيها. لا يعرفون مصدره، فيدخلون في كلّ التخمينات والافتراضات: هناك شيء ما؟ ما معنى أن لا تدفن ميِّتك في وضح النهار وأمام الجميع؟ وتبكي كما يبكي جميع الخلق، وتجد على الأقلّ من يربت على كتفك، فالناس يتساوون أمام الموت على الأقل؟ ثمَّ ينسون الحادثة، إذ إنَّ أجمل نعمة أصاب بها اللَّـه هذا الشعب هي النسيان السريع.

كلّ الفنانات الكبيرات والشيخات المعروفات مررن عليَّ على كباريه البوريفاج، من شيخات سيدي بلعباس وفيلاج اللفت، والبتي لاك[1] ومستغانم، وسعيدة البعيدة. حتى الشاب عبد القادر الذي سمَّى نفسه ديدو مرَّ من هذا المكان. كان جميلًا بجسد مصقول مثل المعشوقة، وصوت به الكثير من الرقَّة والأنوثة وطول النَّفس مثل صوت سوبرانو. كان يشبه الكاسترا الإيطاليِّين، المخنَّثين. كانت له خانة، ودائمًا حينما يُسأل عنها يضحك، ويقول إنَّ له واحدة أخرى أجمل على إليته اليسرى، لمن أراد أن يراها عليه أن يدفع الثمن غاليًا، أو يطلب إذْن الزعيم، فهي ملكه. من هنا تأكَّد ظنّ نومه مع الزعيم عندما يكون هذا الأخير في حالة غضب ضدّ سبيلا التي هبلته بدلعها وطلباتها الكثيرة. كثيرًا ما تساءل زوَّار البوريفاج عن معنى أن يبقى ديدو في غرفة الضابط الكبير؟ ما معنى أن لا يحدث ذلك إلَّا أثناء غياب عشيقته الراقصة سبيلا؟ كلَّما انسحبا نحو غرفة الأمراء في آخر اللَّيل، تُطفأ الأضواء الحمراء أو تخفّف، ولا يُسمع إلَّا صوت الشَّيخات مسجَّلًا؟ الشَّيخة القصبية التي تأتي من وهران، ويقال إنَّ أصولها تمتدّ حتى المارية،

(1) حيّ من أحياء الجزائر العاصمة.

لأنَّ كلمة القصبي كانت تطلق على ساكن ألميريا. ثمَّ يرتفع صوت ديدو مخترقًا سكينة اللَّيل مليئًا بالحنان والنشيج، الذي يقال إنَّه كان يهزّ حتى الكائنات الميِّتة والحجارة المحروقة. في الصباح، لا يتحدَّث ديدو إلَّا عن قوَّة الزعيم وتفانيه في خدمة وطنه. حتى عندما انتقل الزعيم في مهمَّة خاصَّة إلى وهران، كان ديدو من أوَّل مستقبليه. زار به كلّ البيوتات الفخمة التي كان يعرفها عن ظهر قلب، أو كما كان يقول إنَّ أحبابه كثر في وهران أكثر من العاصمة، ولا يغلقون في وجهه أيّ باب. حتى عندما هُدِّدَ من طرف أناس غامضين اتَّهموه بنشر الفاحشة والرذيلة واللُّوطيَّة في المدينة، كان الزعيم هو من جاء به إلى العاصمة، واشترى له سكنًا جميلًا في أعالي بوزريعة[1]. حياته كانت في خطر. نفذ بجلده بصعوبة من كمين كاد أن يكون قاتلًا. فقد اعترضه ثلاثة شباب عند مدخل بيته في بيتي ـ لاك الشعبيّ. كان عائدًا في وقت مبكِّر من عرس كان قد نشط ليلته من أوَّلها لآخرها. لم يسألوه عن اسمه كما هي حالة الاعتداءات، ولكنَّهم وضعوا السكّينة في عنقه:

ـ أخرج واش عندك يا طحَّان.

ـ ما عندي والو. واللَّـه لا أملك أيّ شيء. تعالوا معي إلى البيت وأعطيكم كلّ ما تريدونه.

ـ سترى ما ينتظرك يا عطاي المرفّهين.

ـ هذِّب كلامك!

ـ كلام نُمِّي. راح نوري لك يا قحبة العسكر على واش راني قادر.

لم يكن ديدو كبش فداء. اللكمة الأولى التي وجَّهها للشاب القريب منه، أخافت البقية وأربكتهم، إذ لم يكونوا ينتظرون ردَّة فعل رجل يبدو أنَّه

Petit Lac. (1)

لا يعرف كيف يدافع عن نفسه. ديدو تعلّم رياضة الجيدو الدفاعيّة بنصيحة أحد أصدقائه. ظلَّ يكرِّر عليه ضرورة الانتساب إلى أيّ نادٍ في العاصمة حتى أقنعه بجدوى ذلك. بينما كانوا ما يزالون في دهشتهم، هرب في عمق الحيّ. غاب داخل الدروب الضيِّقة، ثمَّ اختبأ في حوش لالة خناثة، القديم والمظلم. سمعهم يبحثون عنه ويقسمون بكلّ الأنبياء أنَّهم لو عثروا عليه، سيسلخونه كالجرو ويتشاتمون فيما بينهم، لأنَّهم لم يحصلوا على أيّ شيء منه. كانت تباشير الفجر قد ملأت المكان ضوءًا ومحت الظلمة القاسية. مشى نحو مركز الشرطة ليسجِّل شكواه ضدّ مجهول، لكنَّه عندما وصل إلى بوَّابة محافظة الشرطة تراجع، إذ عرفه أحد رجال الأمن، الشباب:

ـ واش ديدو؟ كانش جديد؟

ـ لا جديد يا خويا زكي. كنت مارًّا من هنا، قلت أقول للكوميسار صباح الخير، هو حبيبي.

ابتسم الشرطي وهو يحاول أن يحسِّس ديدو بمعرفته بغرض الزيارة.

ـ عنده ضيوف، ولكن في إمكانك انتظاره قليلًا إذا شئت، ريثما أخبره.

ـ ما عليهش سأعود له بعد الظهر.

ـ تعرف يا ديدو خويا، أغنيتك الأخيرة ***خلوني نبكي على رايي***، أبكتني حقيقة، وأعادتني إلى زمن قديم مات وانتهى، وحلّ محلَّه زمن بلا فاتشا[1].

ـ مين اللِّي بقات له فاتشا في هذه البلاد يا خويا زكي؟ خلِّيها على ربِّي. يومك سعيد.

---

(1) تعني بلا وجه.

قالها بانكسار بدا واضحًا على وجهه المتعب.

ـ يومك أسعد حبيبي.

وتخلّى نهائيًّا عن فكرة الشكوى ضدّهم. مجرّد كمشة أغبياء ومجرمين صغار، تمتم بلا خوف، ثمّ واصل طريقه نحو بيت أحد الأصدقاء القريبين من مقرّ الشرطة، لينام قليلًا، لحظة واحدة، من دون أن يفكّر في أمنه وحياته، وفي الأغبياء الذين حوّلوا المدينة الجميلة، حتى أصبحت تشبههم في كلّ شيء، في وجوههم وبؤسهم وتخلّفهم.

كان منهكًا، إذ لم يتوقّف طوال ليلة العرس، ولم يجلس من كثرة طلبات الأغاني.

- 4 -

لم تمرَّ حادثة قتل سبيلا بسلام على البيت الأندلسيّ. فقد ضخَّمها الإسلاميُّون الذين كانوا يستعدُّون للانتخابات أكثر لإظهار فساد النظام. أصبحت مثالًا للخراب الذي لحق بالأخلاق والمؤسَّسات، لا يغادر ألسنتهم.

كما في كلّ المرَّات السابقة، لا نعرف من باع ومن اشترى! كلّ الصفقات تتمّ في دوائر مغلقة. شُمِّع البيت من جديد، وأُغلِقت كلّ أبوابه. لم تكن مصالح البلدية هذه المرَّة هي من قام بعملية الغلق، ولكن الشرطة وكلّ أسلاك الأمن، كانت ممثَّلة يوم الغلق، إضافة إلى المُحْضِر القضائيّ. ومُنع أيّ شخص من الدخول إليه. يقال إنَّ محافظة الشرطة والحزب حاولا الاستيلاء عليه لتحويله إلى أحد مراكزهما الأساسيَّة في قلب العاصمة القديم، كما فعلا مع الكثير من الكباريهات والمقرَّات الضائعة بعد الاستقلال، ولكنَّ السُّلطات المحلِّيَّة، البلدية والولائيَّة وحتى بعض مصالح وزارة الداخليَّة، رفضت ذلك بحجَّة أنَّ المكان غير مرخَّص له من الدولة لمثل هذه النشاطات، فقد ارتبط بالذاكرة الجمعيَّة بالتسلية،

الثقافة، الغناء والرَّقص. لم يكلِّف أحد نفسه أن يعرف سرّ البيت وحالة الاغتصاب التي تعرَّض لها في وقت مبكِّر. حتى الذين كانوا يعرفون الحقيقة فضَّلوا الصمت درءًا لأيّ شرّ ممكن. كانت وزارة الثقافة تريد أن تحافظ عليه كمكان للموسيقى، بالخصوص بعد أن جفَّت البلاد من أيّ نسغ ثقافيّ بعد الاستيلاء على قاعات العروض السينمائيَّة، وبعض المسارح الصغيرة كمسرح الأطفال، وحتى بعض قاعات المحاضرات الموجودة في عمق المدينة كالكابري، وبناية الترجمة، والمقاهي التقليديَّة المعروفة مثل اللوتيس، والمقاهي الغنائيَّة، التي حُوِّلت إلى بيتزيريات، أو محلَّات لبيع الألبسة الصينيَّة والتايوانيَّة المقلَّدة، التي اكتسحت كلّ الأسواق ولم ينفذ من هذا الإرث إلَّا مقهى المسرح، ***طونطوفيل***، يقاوم رياح النهب، قبل أن يستسلم هو أيضًا، يومًا ما، لعاصفة الغلق ثمَّ الترميم، ثمَّ التَّحويل الجذريّ للواجهة والوظيفة، ويتمّ محو التاريخ الكلِّيّ للمكان.

فجأة، تغيَّر كلُّ شيء في البيت الأندلسيّ. من بوريفاج سماه مالكوه الجدد **ملهى الأندلس**، محافظين على نشاطه الأوَّل، أو الذي فُرض عليه بعد الاستقلال. كلُّ شيء بدأ عندما شُمِّع، وبدأت تحلّ عليه وجوه غريبة يسمِّيها سكان العاصمة: البقارين[1]. سمَّاهم الناس كذلك، لأنَّهم يعومون في الأموال بلا أيّ مخ. بدأت الحياة تدبُّ بصعوبة كبيرة في شرايين البيت. خاب ظنّ الفنَّانين الشعبيِّين الذين كانوا يعتقدون أنَّ البيت سيعود لهم، وأنَّه سيعيد بعث العلاقة التي انقطعت معهم. في البداية، ارتبط نشاط البيت أكثر بالفنَّانين المقيمين خارج الوطن. المناجير، أو المسيِّر، الذي جيء به

(1) كلمة أطلقت على أصحاب المال الجدد الذين يملكون الأموال ولا يملكون أيّ عقل للتسيير والاستثمار. أصل الكلمة منحوت من بائعي ومشتري البقر في الأسواق الشعبيَّة الذين لا يعرفون التعامل مع البنوك، إذ إنَّ كلّ صفقاتهم تتمّ بالدفع المباشر، لأنَّهم يحملون أموالهم في أكياس محمولة.

من فرنسا لإعادة تنشيط الكباريه، كان يصطدم دومًا برفض مصالح الأمن التي كان يستشيرها قبل أيّة دعوة. البڤارين نبَّهوه أنَّهم لا يريدون أيّة مشاكل مع الدولة، وعليه أن يحتاط لكي لا يسقط في مصيدة الأعداء. كلَّما حاول أن يأتي بفنَّان معروف، رُفِض بحجَّة أنَّه تعامل مع المعمّرين، ونظَّم سهرات في ملاهيهم! لا... لا... لا يصلح، لقد أكل مع قتلة أبنائنا في الماعون نفسه وشرب الأنخاب بصحبتهم. وعندما يقترح غيره، مع سيرة ثقيلة عن حياته الموسيقيَّة، يهتزّ الأشخاص أنفسهم على كراسيهم: وين راك عايش يا السي محمد؟ الرجل ممنوع من الدخول. يهوديّ. بمجرَّد أن أصبح وراء البحر شتم الجزائر، ومسخها أمام الأعداء المحلِّيِّين والخارجيِّين. حتى كاد، في مرَّة من المرَّات أن يرمي بكلّ شيء أمام المالكين، ويعود من حيث أتى. حتى شهرزاد، راقصة ملهى **ليالي الجزائر** بباريس، بشارع لاهوشيت، التي كان المناجير يعرفها جيِّدًا، والتي قبلوا بها، وبدأ يقوم بالاحتياطات للإتيان بها والمكوث شهرًا كاملًا في ملهى الأندلس. قيل له في النهاية إنَّ مصالحهم اكتشفت أنَّها تزوَّجت ضابطًا فرنسيًّا، هربت معه في عزّ الثورة، على الرَّغم من أنَّ الجميع كان يعرف جيِّدًا أنَّ شهرزاد ساندت الثورة لمدَّة ستّ سنوات هي وزوجها الفرنسيّ الذي أسلم من أجل الزواج بها. كانت تدفع أقساطها التضامنيَّة لمصلحة الثورة حتى خروجها السرّيّ من الجزائر. عندما حاول المناجير أن يدافع عنها أمام مدير الأمن الذي استقبله، ردّ عليه: لا. شهرزاد... هاذيك؟ حركيَّة. لو تأتي بها ستُقتل وسُتقتل أنت أيضًا. الجرح ما يزال حيًّا ولا نملك أدوات حمايتكما. عفك من ربِّها. وبضغط من البڤارين، استسلم المناجير في الأخير لكلّ ما هو وطنيّ ورخيص. فالتفت نحو الشَّيخات اللواتي كنَّ ينتظرن هذه الفرصة. شيخات وهران اللواتي بدأن يعجزن، وسيدي بلعباس وسعيدة، وشيخات المغرب الشرقيّ، فقد كنَّ أقلّ جلبًا للصداع، وأقلّ تكلفةً من الأسماء المعروفة.

الوحيد من الأهل الذي كان يملك حقّ البقاء في البيت الأندلسيّ، في جهة الخدم، هو أنا. لم يجد المالكون الجدد، ولا رئيس الديوان العقاريّ، أيَّة صيغة قانونيَّة لطردي وإلَّا لأضافوا هذا الجزء المفصول إلى باقي البيت ووسَّعوا في تجارتهم. كانوا يسمُّونني الضرس المسوّسة، مزعج بقاؤها ومؤلم نزعها. تحمُّل وجودها أفضل بقليل. الجميع يعرف علاقتي التاريخيَّة بالمكان. لكنَّ البيت من الناحية القانونيَّة، في البداية على الأقلّ، ظلَّ تابعًا للبيانفاكا[1]. هذا الوضع القلق لم يضعني في مأمن، لا أنا ولا محيطي القريب. بعد الاستقلال مباشرة، وصلتني دعوة من الأمن تؤكِّد لي على ضرورة إخلاء البيت، لأنَّه من أملاك الدولة الشاغرة التي خلَّفها الاستعمار، وعادت بقوَّة القانون إلى الدولة. على مدار العقود المتتالية، حاولت أن أقنعهم في البلدية وفي غيرها، بأنَّ أمرًا مثل هذا لا ينطبق على البيت الأندلسيّ، لأنَّ أهله ظلُّوا به ولو جزئيًّا ولم يغادروه أبدًا، ولكن عبثًا. بعد الوثائق التي استظهرتها أمامهم، سمحوا لي بالبقاء في الجانب الخلفيّ الذي كنت فيه دائمًا، أي دار الخدم الذي فتحت عينيَّ فيه. أما باقي البيت، فقد ظلَّ يتأرجح بين الشمع الأحمر والأيدي الغامضة.

البقارين أفلسوا بسرعة. شعروا فجأة بأنَّ المال الذي ظنُّوا بأنَّه سيمطر عليهم بسرعة، تأخَّر كثيرًا. المناجير كلَّفهم غاليًا، وزمن الشيخات كان قد ولَّى، وشباب أراضي الغربة يكلّفون كثيرًا. والدولة بدل أن تسهِّل، أصبحت طرفًا معرقلًا، وكأنَّ المسألة كانت مقصودة، أو أنَّ هناك قوَّة خفِّيَّة كانت تدفع بهم نحو الإفلاس. عندما شمَّعوه للمرَّة الأخيرة، كان البيت قد تبهدل وأصبح مكانًا موحشًا بسرعة. بعد أقلّ من سنة، كان كلُّ شيء قد جفَّ. النباتات الصغيرة احترقت. الورود ماتت. الخضرة تحوَّلت إمَّا إلى صفرة أو إلى كومة رماد. بعض حيطانه الخارجيَّة انتفخت بسبب الشتاء القاسي،

(1) من الكلمة الفرنسيَّة: Les biens vacants، أي أملاك الدَّولة الشاغرة.

وبدأت تنفجر من الداخل، وتنزل قطعًا قطعًا. إهمال كبير لم أكن أملك حياله أيَّة قوَّة. تمنَّيت في أعماقي أن يأتي أيّ معتوه، ويعيد له الحياة بدل تركه يموت هكذا. طلبت من البلدية السماح لي بالدخول ساعة في اليوم، لسقي الأشجار وتنظيف الحديقة والنافورة التي انسدَّت وأصبحت مليئة بالنفايات والأوساخ، ولكنَّهم لم يسمحوا لي أبدًا، بل هدَّدوني بالسجن إن أنا تخطَّيت عتبة بيتي.

كان البيت يقاوم، بعريه وعزلته، فصول البرد القاسية.

سكن كلُّ شيء، وكأنَّ الموت كان يتهيَّأ لاحتفاليَّة كبيرة ونهائيَّة.

نُسي البيت نهائيًّا، وأصبح كلَّما رأيته صباحًا، أحسست بطعم غريب في فمي، عرفت بعد سنوات أنَّه كان طعم النسيان. العابرون الذين تعوَّدوا على الوقوف على واجهته، كلَّما مروا من هناك نسوه نهائيًّا، لم يعد يعني لهم الشيء الكثير. في أعماقي، كنت أعرف السَّبب. هناك سياسة غريبة وعمليَّة، لا أعرف من أين جاؤوا بها؟ كلَّما أرادوا السطو على مكان بضجيج أقل وبدون إثارة أيّ انتباه، خلقوا حوله ضجَّة، ثمَّ شمّعوه. يعزلونه بعدها عن محيطه، ويغطُّون جوانبه بالزِنك حتى ينسى الجميع وجوده وشكله الخارجيّ. وعندما ينزعون الحواجز والأغطية الخارجيَّة والزنك الصدئ، والأخشاب المحيطة به، يكون كلُّ شيء قد تغيَّر، بما في ذلك واجهة المكان.

ما حدث للبيت الأندلسيّ لم يكن غريبًا عن هذا إلَّا قليلًا.

كان زمن موح الكارتيل قد بدأ. لكنَّه لم يدم طويلًا. انتهى بسرعة بعد أن غادرته سارة باتِّجاه مجهول، وحده حفيدي سليم كان يعلم سرّه.

جاء زمن باربي سمينة، أو مدام لوبيز، أو الفينكَا، ليصبح البيت الأندلسيّ تحت إمرتها.

كلُّ شيء بدأ ذات فجر بارد، عندما قمت على ضجيج الآلات الصغيرة وهي تحفر وتعيد تبليط البيت. لم أكن أعرف ماذا كانوا يفعلون. لم تفكّ الحواجز التي سيّجوا بها المكان إلّا بعد ثلاثة أشهر. كلُّ شيء كان يتمّ في الداخل. عندما حرّروا البيت الذي نزعوا بعض أشجاره في الحديقة، من زوائده، رأيت بيتًا آخر غير الذي كنت أعرفه من قبل. أكثر سوءًا من الملهى الأندلسيّ. كان الطلاء صارخًا جدًّا. قيل إنّه جيء به من المغرب، بلون نيليّ حامض، يُرى من بعيد وهو يتلألأ في بعض مواقعه كلّما لامسته أشعة الشمس النادرة. حتى إنَّ البعض سمّاه بيت الدمية باربي. بسرعة سُمِّيت صاحبة البيت الجديدة التي حطَّت الرِّحال في المكان بعد الانتهاء من التصليحات، مدام باربي لوبيز[1]، قبل أن يُختصر الاسم ليصبح مدام لوبيز. كانت تستلذّ لذلك، لأنَّ إيقاع الاسم إسبانيّ ويعجبها كثيرًا. أصبحت كأيّ مالك جديد للبيت، تعطي الأوامر في كلّ لحظة. رأيتها صباحًا وهي تصرخ، وتلتفت في كلّ الاتِّجاهات، منادية على العمال الذين كانوا يخرجون العفش القديم لتتمكَّن من إدخال خزائنها الجديدة. حتى البيانو رُمي في الحديقة التي سُرق جزء كبير من أشجارها وترابها وحُوِّل إلى إسمنت بارد. كنت أظنُّ أنَّها تفعل ذلك في انتظار إعادة ترتيب البيت وفق ذوقها، لكنَّ الأمر كان أكثر تعقيدًا، إذ لم ينتبه له حتى الذين كانوا يطلون الحيطان الخارجيَّة، ويتركون سوائل الطلاء تنزل عليه، من حين لآخر. شيئًا فشيئًا انمحت الألوان القديمة التي كانت تعطي للبيت خصوصيَّة متميِّزة، ورائحة أقرب إلى الزمن الماضي. حتى الثقوب الصَّغيرة التي أحدثتها الأمطار على واجهة الحيطان لم تكن شيئًا سيِّئًا، إذ نشمّ فيها رائحة زمن مضى بقسوته وبلحظاته الجميلة. زال نهائيًّا لون البيت الأساسيّ، المائل

---

(1) من الكلمة الفرنسيَّة: Barbie l’obèse، أي باربي السمينة. لكن نطق كلمة : L’obèse، حُرِّف في نطقه قليلًا ليصبح Lopeze، وهو اسم علم أيبيري.

إلى الزرقة الخفيفة، وحلَّت محلَّه الألوان الصارخة. الطلاء نفسه طليت به بعض الغرف. وعُوّضت اللَّوحات التي كانت تزيِّن الحيطان بلوحات كتبت عليها البسملة والحوقلة، وآية الكرسي، وقل ما يصيبنا إلَّا ما كتب اللَّـه لنا، واللَّـه أكبر، ولا إله إلَّا اللَّـه، محمد رسول اللَّـه.. باللَّون الأخضر والأسود والأبيض. مدام لوبيز لا تتوقَّف عن الكلام، مثل الطاحونة. تقول وهي تعلِّق لوحاتها على الحيطان بمساعدة عمالها: يا اللَّـه، إذا ما ربحناش الدنيا نربح الآخرة على الأقل. لا أدري لماذا طلبت منها مساعدتها على تنظيف الحديقة. كان واضحًا أنَّها كانت هي الناهي الآمر في المكان. شرحتُ لها بأنِّي هنا منذ أكثر من نصف قرن، خادمًا لسكّان البيت. لا أدري إذا ما كانت قد رأفت على حالي، أو أنَّها تلقَّت أمرًا بذلك من البلدية والدِّيوان العقاري بعدم طردي. وضعتني في الحديقة التي حاولت أن أعيد لها بعض الحياة، بعد أن بدأت تموت، أو قُتِلَ جزء منها.

نظرت إليَّ طويلًا كمن يكتشف كائنًا خرافيًّا غريبًا:

ـ اسمع يا واش اسمك! حدَّك الحديقة، سمعت؟ ما نحبّش اللي يدخل أنفه في حياتي؟

ـ اسمي مراد يا سيِّدتي. القريبون ينادونني عمِّي باسطا. ما يكون إلَّا خاطرك مدام لوبيز.

عندما ناديتها مدام لوبيز، شعرتُ بانتشاء يرتسم في عينيها المنتفختين.

ـ يبدو أنَّك إنسان محترم، ولست مثل أولاد اليوم؟

ـ يكثِّر خيرك مدام لوبيز.

التفتُّ نحو البيانو الذي كان في وسط الحديقة، بعد أن اعتلاه الغبار ولطخات الصبغة. فكَّرت أن أطلبه منها، ولكنِّي شعرت كأنِّي لو فعلتُ ذلك،

ستحرمني منه نهائيًّا، فقط لأنّي طلبته. أعرف جيِّدًا هذه العقليَّة، وأعرف نظامها، ومع ذلك تجرَّأت وسألتها بشيء من الحيلة.

ـ مدام لوبيز، هل تريدين أن أطلب لك سيَّارة البلديَّة لتخليصك من هذه الزبالة؟

ـ في الحديقة، دير واش يقول لك رأسك. نحب نشوف الحديقة نقيَّة، على الأقلّ أجد مكانًا أشرب فيه قهوة مع العشية، عندما ينزل المغرب. هذه الأوساخ تقنط. يبدو أنَّ سيَّارة الزبالة والتنظيفات نسيتني.

ـ هم لا يأتون يا سيِّدتي إلَّا بالطلب المسبق، مرَّة واحدة في الأسبوع. أعرفهم جيِّدًا، ويمكنني أن أقنعهم بالمجيء السريع ليخلِّصوك من هذه الأثقال، نحو محرقة النفايات.

ـ يا لطيف، مدينة وسخة مثلها مثل سكَّانها!

عندما رأيت ليونتها سألتها عن البيانو:

ـ هل يمكنني أن آخذ هذه الخزانة، ما عنديش وين نحط أغراضي؟

انطلقت بضحكة عاصفة، ارتعشت لها كلّ فرائصها الممتلئة:

ـ يا السي مراد باسطا، خمسون سنة في هذا البيت، ولم تتعلَّم أنَّ الذي أمام عينيك ليس خزانة للعفش والأغراض، ولكن ميانوُ. مياااااانو.

كتمت ضحكة ارتسم بعضها على حافَّة شفتي. حاولت أن أتأكَّد من أنَّها ليست زلة لسان:

ـ نيامو؟؟؟ منيانو؟؟؟ لم أفهم يا سيِّدتي!

اهتزَّت مرَّة أخرى بكلّ شحمها ولحمها حتى إنِّي، في أعماقي، خفت عليها من الانفجار من شدَّة الضحك الذي استمرّ للحظات طويلة.

ـ المخ مغلق، اللَّـه غالب. قلت لك ميانو... مياااااانووو.

ومدَّدت الحروف الأخيرة طويلًا حتى التصق غباؤها بذهني نهائيًّا.

ـ ميانو. ميااااانووووو. الحمد للّه، لأوَّل مرَّة أنطق بالكلمة صحيحة وبدون أيّ خطأ.

صفَّقت بيديها السمينتين الصغيرتين والممتلئتين، كَيَديْ قزم:

ـ أخيرًا، نطقتها صح. الحمد للّه.

ـ هل آخذ خزانة الميانو.

ـ تغنِّي يا مراد باسطا؟

ثمَّ ضحكت ضحكة متقعِّرة، تشبه ضحكات المومسات المحترفات.

ـ لا، أملأ به البيت الفارغ والبارد. وأحطّ فوقه بعض الأواني القديمة التي ورثتها عن المرحوميْن والدتي ووالدي.

صمتت قليلًا، ثمَّ قالت:

ـ في الوقت الحالي خلِّصني من رؤيته، أدفع به نحو الزاوية، وشوف مع الزبَّالين.

ـ أمرك مدام لوبيز.

عندما وصل عمَّال التنظيف، لم ينتظروا طويلًا، كانوا يعرفون ما عليهم فعله. أخرجوا البيانو الثقيل، فقد تعاون عليه أربعة أشخاص ودفعوا به بعيدًا عن النافورة التي تصدَّأت عيونها الصغيرة ومرشَّاتها، حتى الباب الخارجيّ، بعدها أخذوه باتِّجاه دار الخدم. أدخلناه بصعوبة كبيرة، ولكنِّي كنت سعيدًا أنَّنا وجدنا له مكانًا حيًّا. كانوا يحرِّكونه كمن يدفع بكيس خيش مليء بعلف الحيوانات. عندما سألت عبد الحق الذي كان يشرف على تنقية ساحة البيت بأمر من الدِّيوان العقاريّ ومصالح التنظيف البلدية، لم أكن قادرًا على كتم غيظي:

ـ شفت يا وليدي عبد الحق! بيانو من القرون الماضية في مزبلة؟ أي وضع نحن فيه، وأيَّة حالة هذه؟

ـ حسنًا فعلت أنَّك طلبته منها. كانت ستأكله نار المحرقة بلا شك. سأحوِّل لك من البيت ما تشاء. أأمرني عمِّي مراد، أنا رهن إشارتك. أعرف جيِّدًا الجرح الذي فيك.

فتَّشنا كثيرًا في عمق أكياس الزبالة المهيَّأة للرمي، وجدنا أشياء كثيرة من بينها لوحة صغيرة نادرة، كدت أنساها. كنت دائمًا أراها على الحائط حتى أصبحت ملتصقة به وجزءًا منه. أعتقد أنَّها من نهاية القرن التاسع عشر، أو بداية القرن العشرين. أُنجزت في فترة حكم جونار. امرأة بلباس عربي أبيض، وشفَّاف، على حافَّة البحر، المكان يشبه كثيرًا خليج الغرباء. تحت إبطها الجميل والمغري، كومة من الأوراق التي كانت تضغط عليها خوفًا من تسرّبها. كان وجهها جميلًا وناعمًا كوجه طفل وهي تذرف دمعات متتالية في حضرة قبر انغرس عميقًا في التربة. كانت تواجه بحرًا غامضًا تظهر في أفقه سفينة في شكل نقطة بيضاء، لا نعرف إذا ما كانت قادمة أو ذاهبة. افترضت، عندما عرفت قصَّة جدَّتي مارينا أن تكون الصورة لها. ما أكَّد لي ذلك، هو ما كُتب في الجزء التحتيّ من إطارها القديم، بماء الذهب الذي امّحى في الكثير من جوانبه، ولكنَّه ما يزال مقروءًا: مأساة مارينا La tragédie de Marina. ربَّما لم يكن ذلك صحيحًا، وأنِّي كنت فقط في حاجة إلى تصديق ذلك. فما حدث لمارينا كان شبيهًا تمامًا لما في الصورة.

ـ مارينا. جدَّتي. سبحان اللَّـه كأنِّي أعرفها وعشت في حضنها!

أدخلنا كلّ الأشياء التي رأيت أنَّها يمكن أن تصلح لدار الخدم، ولم أستأذن هذه المرَّة باربي سمينة أبدًا. كانت تريد ساحة نظيفة، فكان لها ذلك.

كنت سعيدًا بالبيانو واللَّوحة كطفل. نكّت عبد الحقّ بسخريَّته وطيبته المعهودة:

ـ عمِّي مراد؟ دخلتك دودة الفنَّانين؟ هل تريد أن تصبح عازفًا أو رسَّامًا؟

ـ من يدري! لو تحبّ لالة باربي سمينة سأفعل ذلك؟

ـ باربي سمينة؟ يا ويلك لو تسمعك مادام لوبيز!؟ عليك أن تقنعها بعزفك لتقبل بك.

ـ سأجرِّب. ربَّما يكون لي بعض الحظّ معها!

ضحك جميع العمَّال المحيطين بعبد الحق. ضحكت معهم، لأخفِّف من ثقل ما كان يملأ قلبي.

وعندما تعالت الضحكات، طلَّت من النافذة. سألتها:

ـ مدام لوبيز، تحتاجين إلى شيء؟

ـ كمَّلتوا وإلَّا مازلتوا؟ واش راكو ديروا؟

ـ أخرجنا كلَّ شيء، ولم يبق لنا إلَّا تنظيف البيت والحديقة.

ـ يا اللَّـه بسرعة. مراد باسطا قل للعمَّال ما يجب فعله.

ـ أمرك مدام لوبيز.

أطلقت حنفية الماء. لأوَّل مرَّة أشعر بالرَّاحة تملأ صدري، وبرائحة الأشجار التي بقيت تقاوم، والتربة، تملأ صدري. أعدت تنظيف النافورة التي كان اللَّحَّام قد غيَّر كلّ مواسيرها الأرضيَّة الصدئة. أتعبته كثيرًا، ولكنَّه استطاع أن يعيد لها الحياة.

كنت سعيدًا أنَّ بعض الرُّوح رجعت للبيت. حتى باربي سمينة كانت سعيدة بالمنظر الحيّ للحديقة. شكرتني كثيرًا. عندما جاء زوجها الفينكَا،

الرجل صاحب الوجه البارد والنَّحيف لدرجة بروز عظام الفكَّين التحتيّين، حكت له عن كلّ شيء. كان سعيدًا بالمنظر الجميل. كنت دائمًا أنسحب من الحديقة قبل وصوله، أي بعد الظهر. طلب أن يراني، وكان ذلك للمرَّة الأولى. قلبي كان يحدِّثني عن شيء خطير كان يرتسم في الأفق. لم أرتح لوجهه. بدا لي موح الكارتيل أمامه نبيًّا جميلًا.

قال مصطنعًا ضحكة بدت لي أثقل من الرصاص.

ـ أهلًا بمراد باسطا! اسم على مسمًّى. المفروض أن تبسط الناس يا باسطا؟

ارتبكت، لأنِّي لم أهيِّئ نفسي لذلك.

ـ ولماذا سمُّوك باسطا؟

ـ أنت سيِّد العارفين. أصل الكلمة إسبانيّ، وتعني يكفي. خلاص، بلغتنا.

ضغطت بعنف شديد على كلمة: خلاص.

ـ لماذا؟ مللت من الحياة؟ ألم يجد لك والداك تسمية أحلى.

ـ مجرَّد نعت. كنت في إسبانيا....

ـ هاه؟ ماذا كنت تفعل في إسبانيا... حراق؟ في هذا العمر؟

ثمَّ دخل في هستيريا ضحكة استمرَّت طويلًا ظهرت فيها أسنانه التي خرب جزء منها، والبريدج الأبيض، وكتل الرصاص، ولهاه المجوَّفة مثل مغارة، ورائحة فمه الكريهة التي امتزجت فيها رائحة الثوم بالبصل الأخضر والبيرة، ورطوبة الحمَّامات.

صمت. كنت أريد أن أبصق على وجهه الذي نحف وجفَّ، حتى أصبح يشبه وجه ميِّت.

ـ طيِّب. لم أدعك لهذا. اسمي الفينكَا. ستعرف يومًا ما سرّ التَّسمية. الثورة هي التي شرَّفتني به. على كلّ حال، طلبتك للتَّعرُّف عليك أوَّلًا. ولأعلمك ثانيًا أنَّ هذا البيت يدخل ضمن أملاك الدولة. وأنا استلمته، ودفعت ثمنه غاليًا.

كنت أعرف أنَّه كان يكذب. لقد حكت لي ذات مرَّة باربي سمينة، أنَّهم اشتروه بالدِّينار الرمزيّ، كما فعل الكثير من المجاهدين الذين استفادوا من أملاك الدولة الشاغرة، أو التي أخلوها بالقوَّة من فوق رؤوس ساكنيها. كانت شبكة علاقاته معقَّدة.

ـ قيل لي في البلدية إنَّهم طلبوا منك الخروج، ولكنَّك عصيت أوامر الدولة. لولا تاريخك وتاريخ عائلتك الطيِّب لرموك في السجن، ولردموك في حفرة من الحفر حتى الموت، ولن يسمع بك أحد حتى تلتصق عظامك بتربة الأرض وتتحوَّل إلى غبار!!

كان كلامه عنيفًا ومليئًا بالضغينة.

ـ لم أعص أحدًا يا سيِّدي، وقد سبق أن قلت هذا لسيِّدتي مدام لوبيز، عندما فاتحتني في الموضوع لأوَّل مرَّة...

ـ اسمها ليس مدام لوبيز، ولكن خيرة. لالة خيرة إذا شئت. من يحدِّثك الآن هو أنا. وأنا أنوي تغيير البيت رأسًا على عقب. سأعيده إلى مجده الأوَّل. يستقبل كريمة المجتمع وليس كلّ من والى.

ـ يمكنك أن تفعل بالبيت ما تشاء. القانون أعطاني وأهلي، الحقّ في دار الخدم.

ـ أنت لم تخرج إلَّا من جزء من البيت، وهذا هو المشكل. أنا أتحدَّث عن البيت بكامله. لقد سألت في البلدية، وفي مصالح الديوان العقاريّ، وقيل لي بأنَّ الجزء الذي أنت فيه كان تابعًا للبيت إلى فترة قصيرة!؟

ـ منذ متى؟ ربَّما قبل أربعة قرون، قبل أن يقبلوا على تدميره وطرد سكّانه. لا يا سيِّدي. بيت الخدم كان دائمًا مفصولًا عن البقية، كلّ عائلتي مرَّت عليه. لي أوراق ثبوتيَّة من وقت فرنسا.

ـ فرنسا خرجت من زمان، والفينكَا هي اللِّي يحكم اليوم. البلاد مستقلَّة!

ـ لم أفهم يا سيِّدي؟

ـ أنا لا أريد إخراجك في الوقت الحالي يا مراد باسطا. المطلوب منك فقط أن تعتبر نفسك في بيت الخدم مؤقتًا، يمكنني أن أخرجك متى احتجت إلى دار الخدم؟ خليك ضيفْ خفيفْ. على كلّ حال، بإمكانك أن تبقى، وأن تقوم بما كنت تقوم به من خدمات بيتيَّة ورعاية الحديقة. سيِّدتك لالة خيرة، تحبّ عملك. وهذا تسامح منِّي.

ـ يكثِّر خيرك يا سيِّدي. ولو أنَّ دار الخدم، أمرها محسوم قانونيًّا يا سيِّدي.

ـ ليس الأمر مهمًّا في الوقت الحالي. كنت أريد أن آتي بأمِّي لتسكن في هذه الدَّار الصغيرة التي أنت فيها، ولكنَّها رفضت. أنت تعرف جيِّدًا أنَّ اللَّـه أوصى بالوالدين إحسانًا.

ـ أعرف يا سيِّدي، ولكنَّه أوصى أيضًا بالحقّ.

لم يرد عليَّ، كان قد انسحب في عمق البيت.

عندما وصلت الشاحنة الكبيرة، طلبت منِّي مدام لوبيز أن أساعد العمال لإنزال العفش الجديد. كانت بالسيَّارة أشياء غريبة. سلالم بالية. طاولات خشنة. أحذية لا تُعد ولا تُحصى. حقائب وألبسة جديدة ورثَّة. لأوَّل مرَّة أرى بنات باربي سمينة الثلاث. كن يشبهنها في كلّ شيء، في

سمنتها، حركاتها، وعُصابها، وحتى في صراخها الذي لا يتوقَّف طوال اليوم. عرفت لاحقًا أنَّهن كنَّ كلَّهنَّ مريضات بالتهابات دماغية حادَّة، تدفع بهنَّ إلى عدم القدرة في التَّحكُّم بنوبات الغضب المتتالية، فيشفين غليلهنَّ في تكسير كلّ ما يصادفنه في طريقهنَّ.

كنت أظنّ أنَّ باربي سمينة نست البيانو نهائيًّا، ولكنَّها أسبوعًا قبل عيد الأضحى، تذكَّرته. سألتني عنه: أما زلتَ تحتفظ بالميانو؟ فكَّرت أن أكذب عليها، ولكن المسألة بدت لي عبثيَّة وبلا معنى. قلت لها إنَّه في البيت وعليه بعض أغراض جدِّي، وبإمكانها أن تستردّه متى شاءت. قالت إنَّها تحتاجه حالًا.

«ـ أولاد خويا جايين عندي. نُعيِّد مع بعض، ويحتاجون إلى أن يلعبوا.

ـ يعزفون على البيانو؟

ـ يتعلَّمون.»

اضطررنا إلى سحبه أنا وبعض العمَّال نحو الجانب المبلَّط من الحديقة، كما أمرت.

بقي المدَّة التي سبقت عيد الأضحى في ساحة الحديقة، تحت الرياح والأمطار. حوَّله أبناء أخيها السبعة إلى لعبة. بعد مدَّة قصيرة، نزعوا أجزاء من ملامسه، وأخرجوا بعض أحشائه. وبدأ البيانو العتيق يخسر شيئًا فشيئًا من ألقه، حتى أصبح كالهيكل العظميّ، ولم تبق إلَّا أخشابه وقطعه المعدنيَّة تقاوم الأيادي.

في صباح العيد، سحب أخوها الأضحية وذبحها في قصعة النافورة. سال دمها قويًّا ملطِّخًا الأشجار والنباتات وألوان الرخام. وبدأت احتفاليَّة شيِّ اللَّحم بجانب النافورة التي امتلأت مرَّة أخرى بالرماد. لم يجدوا فحمًا

كافيًا وكانت كلّ المحلّات مغلقة، فكسَّرت باربي سمينة جزءًا مهمًّا من خشب البيانو ووضعته في النار. ظلَّت تنزع قطعه، إلى أن نفدت كلُّها، ولم يبق إلَّا أسلاكه وهياكله المعدنيَّة والبلاستيكيَّة. كلّ ما كان يمكن أن يُحرق أُحرق. في المساء عندما نظَّفتُ الساحة، أنا والخدَّامة لالة مولاتي التي جاءت بها باربي سمينة من قريتها، كنت أبكي في داخلي. كان البيانو أو بقاياه قد تحوَّل إلى هيكل، كأنَّ حيوانًا خرافيًّا مزَّقه قبل أن يلتهم لحمه. شيء من الغضب كان يعتريني. فكَّرت أن أقدِّم شكوى ضدّها، هذه المرَّة أيضًا، لم أر أيّ جدوى لذلك. كلُّ شيء في البيانو، لم يعد إلَّا علامات صغيرة على زمن مات واندثر.

سألتني لالة مولاتي.

ـ هذا البيانو لك؟

ـ لا. لا أعرف بالتَّحديد لمن؟ لكنِّي على يقين أنَّ جزءًا من تاريخ هذا البيت أكلته النار والأيادي الخشنة. بحسب مدوَّنة جدِّي، هو هدية للالة سيما، ابنة الآغا حسن فينيزيانو، إذا صحَّت تقديرات حفيدي سليم. أهداه لها عشيقها الألماني الذي هرب معها إلى القسطنطينية، لأنَّ والدها رفض تزويجهما. تعرَّف عليها عندما كان رهينة في الجزائر، قبل أن يأتي أهله ويخلِّصوه بدفع الفدية. الثمن كان أن يعلِّمها البيانو. علَّمها حتى أصبحت تتقنه وتدمنه. فيه تاريخ البلاد ورائحتها، وبكاء لالة سيما، التي كانت تعشق الموسيقى. لا أحد يعرف كيف انتقل إلى البيت الأندلسيّ. المؤكَّد أنَّها هربت مع صديقها للقسطنطينيَّة، وانطفأت أخبارهما هناك.

لم تفهم لالة مولاتي الشيء الكثير ممَّا كنت أقوله. لكنَّها كانت طيِّبة. ربَّما الحادثة لم تكن مهمَّة بالنِّسبة لها، ولكنَّها قرأت بشكل صحيح الحزن الذي ملأ وجهي.

باربي سمينة لم تكن معنيَّة بحواسي الدفينة، بل لم تعرف حتى أنَّها ارتكبت جريمة ليس في حقِّي فقط، ولكن في حقّ ذاكرة كانت كلّ يوم تموت قليلًا. أصبحت فجأة منشغلة بعملي كثيرًا. كلَّما غاب زوجها طويلًا، أو غابت في زياراتها المتكرِّرة عند أهلها، نادتني وسألتني مباشرة بعد عودتها:

ـ ألم تر سيِّدك؟

ـ لا يا مدام لوبيز.

تنتشي. تواصل أسئلتها.

ـ ألم تر أيَّة امرأة في غيابي؟ في الحديقة مثلًا؟

ـ شفت يا لالة.

تنفتح عيناها عن آخرهما. وقبل أن تدخل في حالات غليانها.

ـ لالة مولاتي. ساعدتني كثيرًا في تنظيف الحديقة والنافورة والبيت.

ـ لم أسألك عنها. غبيّ.

بالكاد أسمعها.

أكاد أقول لها إنِّي رأيته يدخل البيت مع شابة صغيرة، ولم يغادرا المكان إلَّا في الصباح الباكر. صادفتهما فجرًا منحدرين كظلَّين هاربين نحو سيَّارة La DS التي كان يعشقها. ولكنِّي عدلت عن رأيي. باربي سمينة ولا أريد أن أتحمَّل حالات غضبها.

أتدخَّل لأخترق صمتها ونظراتها الضائعة:

ـ وهل يجد أحلى من مدام لوبيز؟ لالة النساء.

يسبقها لسانها:

ـ قلبك طيِّب.

ـ كلَّما مرَّ وحيدًا، أوصاني أن أهتمّ بالحديقة حتى لا تموت الأزهار والنوّار.

ـ متأكِّد؟

ـ متأكِّد يا مدام لوبيز.

ـ ربَّما دخل مع امرأة من الباب الخلفيّ؟

ـ وين الباب الخلفيّ؟ لا يوجد يا سيِّدتي.

ـ باب الحديقة اللي وراء..

كانت تتحدَّث عن باب ثانٍ، خلف الحديقة. حينما حاولنا فتحه وجدناه مغلقًا وصدئًا. من شدَّة الإهمال. التصق الباب الحديديّ بإطاره. صدَّقت.. بعد أن هزَّت الباب هزَّات عنيفة، ولاحظت أنَّ كلّ شيء كان ملتصقًا بإحكام.

ـ وقيل هذا الباب لم يُفتح من عهد سيِّدنا نوح.

ـ إذا أرادا الدخول من هنا، عليهما أن يقفزا من الأعلى.. وهذا مستحيل يا مدام لوبيز.

ـ غريب! مع أنِّي شممت رائحة امرأة أخرى!

ـ الشوارع الملتصقة بالبيت ممتلئة بهنّ وبعطورهنّ المتنوِّعة.

ـ لا، في الفراش، وفي بيت النوم.

عندما عادت إلى البيت، سمعت تكسُّر الأواني، فأدركت أنَّها في أقاصي درجات نوباتها المزمنة. لم أسمع إلَّا تكسُّر الزجاج وقطع الأجسام الغريبة التي كانت تتلاقى في مهرجان تدميريّ، كنت أتخيَّل قوَّته وعنفه، عندما ترمي بالكلّ من نافذة غرفة النوم، وتطلب منِّي ومن لالة مولاتي تنظيف المكان قبل وصول زوجها.

-5-

مع مدام لوبيز، تغيَّر كلُّ شيء. حتى زوجها الفينكَا الغامض، كان يقضي كل يومه خارج البيت ولا يعود إلَّا مساء، أو بعد يوم أو يومين. العلامة الوحيدة لمجيئه هو محرِّك سيَّارته La DS، سيترووين[1] السوداء، التي يقول عنها إنَّها سيَّارة الأبّهة، وسيَّارة العظماء في زمنها.

كثرة غيابهما عن البيت منعتني من الدخول إلى الحديقة. ماتت اللَّيمونة التي قاومت في السنوات التي مضت بكلّ قوَّة وصبر، ولكنَّها لم تتحمَّل الجفاف صيفًا، والجليد شتاء. احترقت كلّ أغصانها وكأنَّ نارًا سُلِّطت عليها. لم يعد من حقِّي الدخول إلَّا بإشارة منهما، أو في حضرة أحدهما. استفحلت حالة باربي سمينة، فزادت عدوانيَّتها على كل ما يحيط بها، بما في ذلك محيطها الضيِّق، بناتها وزوجها. شجرة الياسمين التي نقلناها حتى لا تموت عندما رُدم جزء من الحديقة ووُسِّع ليصبح مساحة إسمنتيَّة واسعة، استسلمت بدورها للنهاية المفجعة. سوَّست أشجار البرتقال التي يقال إنَّ

(1) La DS Citroen.

بعضها جاء من هضاب غرناطة التي ندب عليها محمد الصغير حظّه وهو يتأمَّل المدينة من تحته. وانتفت أو كادت مساحة الكروم في الجنان، أو ما تبقى منه. الباقي تقزَّم، من شحّ المياه وقلَّة الاهتمام، وأصبح في شكل نباتات برِّيَّة، فوضويَّة. تمدَّد الإسمنت أكثر نحو الخارج بتبليط مساحة أخرى لغسل السيَّارات، بحيث كانت المياه المستعملة المليئة بمواد التنظيف، تنتهي في الحديقة، فأحرقت الكثير من الزهور والنباتات النادرة، وحتى بعض الأشجار الهشَّة. كانت باربي سمينة تجد لذَّة كبيرة في غسل جلود الخرفان التي كان يذبحها زوجها تكريمًا لأصدقائه الذين يعملون معه في الاستيراد.

ـ هذه مش دار، مسكن خنازير!

قالت لالة مولاتي وهي تتنفَّس بصعوبة، بعد أن نظَّفت الأرضيَّة الإسمنتيَّة، ومدخل البيت المنبعج في الوسط، ورمت ماء الجافيل على الأرضيَّة، فتسرَّب بسرعة من بين حيطان وشقوق البيت، ثمَّ وضعت على رأس الجفاف قطعة قماش كانت قد مسحت بها الحيطان والأبواب، وبدأت تحكّ من الخارج زجاج النوافذ الهش. تعبتُ من المنظر. كدت أُجن. هل يعقل أن يمسح هذا الزجاج الحسَّاس الذي جيء به في زمانه من إحدى جزر مدينة فينيسيا المشهورة بزجاجها، بهذه القطعة المتَّسخة؟ بعض مربَّعات النوافذ اندثرت وعُوِّضت بزجاج خشن أو قطع بلاستيكيَّة.

ـ نبّهت مسؤولي البلدية إلى أنَّ هذا المكان يحتاج إلى شيء آخر، إلى ترميم وتعويض الكسورات وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. لكنَّهم تعوَّدوا على الاكتفاء بالطلاء الخارجيّ في كلّ مناسبة وطنيَّة، حتى يبدو البيت نظيفًا. عندما زار رئيس الجمهورية قبل سنوات، المنطقة المنكوبة بسبب السيول، جاؤوا به إلى هذا المكان بعد أن نظَّفوه جيِّدًا، وحوَّطوا البناية بأشجار الصنوبر الحلبيّ المقاومة للانزلاق والمحافظة على التربة، التي غرسوها في اليوم

نفسه. كان يمشي مندهشًا بين الأشجار التي كبرت بسرعة، بصحبة الوالي. فجأة، سأل هذا الأخير:

ـ أستغرب كيف انزلقت التربة بهذه الأشجار الجميلة؟ منذ متى غرستموها؟

ـ كما ترى سيِّدي الرَّئيس، كبرت بسرعة!

ـ منذ متى؟ كم عمر هذا الصنوبر الحلبيّ؟

ارتعش الوالي. نادى لأحد أعوانه.

ـ كم عمر هذه الأشجار؟

ـ ما لا يقل عن أربع أو خمس سنوات.

نظر الرئيس طويلًا إلى وجه الأعوان، فالوالي.. ثمَّ اتَّجه نحو الأشجار ومدَّ يده إلى الصنوبرة الأولى، فأمالها ، لم تقاوم، فمالت. ثمَّ هزَّها وسحبها من الأرض. مشى قليلًا، ثمَّ جرب الشجرة الثانية، فانحنت ثمَّ انسحبت من دون أيّ جهد. مشى قليلًا، فجرب بعنف هذه المرَّة، الشجرة الثالثة التي كان يتدلَّى منها البرتقال، فانتُزعت. لم يكن لأيَّة شجرة من الأشجار المنزوعة أيّ جذر. في اليوم نفسه أقيل الوالي ورئيس الديوان وكلّ معاونيه، لكنَّ البيت ظلَّ على حاله. لم ينتبه أحد لموته البطيء.

كنت أغضب على الحالة التي آل إليها البيت، لكنِّي كثيرًا ما كنت أقول أيضًا، بيت واقف أحسن من بيت خال وميت. باربي سمينة وزوجها وبناتها، منعوه على الأقلّ من الاندثار. قيل الكثير قبل مجيء مدام لوبيز وحاشيتها، إنَّ الدولة ستستعيده لتعيد بعث أمجاده الأولى، كمكان للموسيقى والسهرات الخاصَّة بعد ترميمه. قيل أيضًا إنَّ مهندسًا إسبانيًّا من أصول موريسكيَّة، فرديريكو دي لوسيا، اقترح على وزارة الثقافة إعادة ترميمه

بمساعدة السفارة الإسبانيَّة، وهذا ما أكَّده لي أيضًا مرارًا سليم الذي كان يركض عبثًا بين الجهات المختلفة. قالوا له في الوزارة: عملك أن تعمل في المتحف وتنسى الباقي. ليس اختصاصك. لا تمسّ الأشياء التي يمكن أن تحرقك. قال هذا بيت أجدادي، وهو إرث إنسانيّ عظيم. لن تخسر الدولة ملّيمًا واحدًا للترميم. السِّفارة الإسبانيَّة تلقَّت إشارة من مدريد لتبني المشروع، لترميم بعض الأمكنة الإسبانيَّة، منها البيت الأندلسيّ ومغارة سرفانتس. ردُّوا عليه بحدَّة لم تترك أمامه أيّ مجال للمناورة: بلادنا قويَّة ومالها وفير، ولا تحتاج إلى صدقات الغير. وبقي المشروع معلَّقًا. حتى إنَّ فرديريكو دي لوسيا، المعروف جدًّا في أوروبا، أكَّد أنَّه يملك الخطط القديمة الشبيهة التي تعيد البيت إلى نضارته الأولى. زارنا العديد من المرَّات برفقة مستشارين من وزارتي الثقافة والسياحة. وكان سعيدًا أنَّ البيت يمكن إنقاذه. بيت عنيد، ويرتكز على أرضيَّة صلبة على الرَّغم من انزلاق التربة في محيطه، والتي يمكن تدعيمها بسهولة. دار مدَّة شهر في الفراغ، ثمَّ عاد إلى وطنه، ولم نعد نسمع به.

كنت سعيدًا في أعماقي أنَّ البيت أصبح مأهولًا من جديد، ولو من رجل لا يختلف كثيرًا عن الرايس مامي دالي. كان منشغلًا بشيء آخر، ولم يكن البيت إلَّا مخبأً وهميًّا له.

قبل أن تُجنَّ المسكينة باربي عجينة، مدام لوبيز، تسرَّبت إشاعات كثيرة، كانت لالة مولاتي تنقلها لي أوَّلًا بأوَّل. مصيبتها أنَّها تزوَّجت برجل مجنون. الفينكَا، لا يذكر في أحلامه إلَّا الذبح، والدم والسكاكين، حتى قيل إنَّ البيت أصبح مسكونًا، وأنَّ أصواتًا غريبة كانت تملأ الغرف في اللَّيل، وأنَّها هي التي هبلت المرأة السَّمينة، مدام لوبيز، ثمَّ ألحقت بها بناتها الثلاث اللواتي كن يشبهنها في كلّ شيء. فقد أدخل الجميع إلى مستشفى الأمراض العصبيَّة بالبليدة. حزنت لهم كثيرًا، زرتهم أنا ولالة

مولاتي مرَّتين. البنت الصغيرة عرفتني قليلًا. دارت بالقرب منِّي. شمَّتني مثل حيوان يكتشف فريسته المستسلمة قبل أن ينقضَّ عليها، ثمَّ ذهبت داخل صمتها. كانت طيِّبة. مدام لوبيز، عندما رأتني، اصفرَّ وجهها وتغيَّرت ملامحها، ثمَّ هربت وهي تؤشِّر باتِّجاهي، وتصرخ بأعلى صوتها:

ـ يا ناس... هو اللي عاون الجنِّيّ اليهوديّ اللي جاء من أسبانيا، باش يخنقني. كلُّ الناس يعرفونه. هو صاحب الجنّيّ اليهوديّ الذي أقسم أن ينتقم من المسلمين، لأنَّهم طردوا سلالته ولا يستحقُّون إلَّا الموت! كان الجنِّيُّ مسالمًا في البداية ومصاحبًا لأهل البيت. يقولون إنَّ سيِّدة البيت الأولى لالة سلطانة التي كانت في عنق رجل، صاحبت هذا الجنِّيّ. ولهذا بمجرَّد موتها تغيَّر كلُّ شيء. انقلبت طيبته إلى عدوانيَّة غريبة.

سمعت حتى من يقول بأنَّ الجنِّيَّ الذي جاء من إسبانيا، هو نفسه الجنِّيُّ القريب من محاكم التفتيش المقدَّس، الذي سكن الملكة الكاثوليكيَّة إيزابيلا القشتاليَّة، حينما تنازلت للمسلمين عن أشياء كثيرة، ولم تنتقم منهم في اللَّحظة التي اعتلت فيها السلطة هي وزوجها، وبدأت تبحث لهم عن أعذار لإبقائهم في شبه جزيرة أيبيريا. جنِّيٌّ واحد عاد من أغوار جهنَّم، ليعيد عقارب الساعة إلى اللَّحظة التي صمتت فيها الملكة الكاثوليكيَّة أمام المسلمين، ولينتقم منها على تواطئها، وينتقم منهم شرّ انتقام. ينتقم أيضًا من نابليون بونابرت الذي كان وراء تحطيم شوكة محاكم التفتيش المقدَّس. الهزيمة التي مُنيت بها إسبانيا أمام نابليون كانت من غضبه. قصَّة الهزيمة طويلة. بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا، وأصدر مرسومًا سنة 1808م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانيَّة. تفاصيل القصَّة رواها الكولونيل ليموتسكي، أحد ضبَّاط الحملة الفرنسيَّة الذي دخل إلى إسبانيا: «كنت سنة 1809 ملحقًا بالجيش الفرنسيّ الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتلّ مدريد،

العاصمة، وكان الأمبراطور نابيلون أصدر مرسومًا سنة 1808 بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانيَّة؛ غير أنَّ هذا الأمر أُهمل العمل به لحالة الاضطرابات السياسيَّة التي سادت وقتئذ. وصمَّم الرهبان الجزويتيُّون، أصحاب الدِّيوان الملغى، على قتل وتعذيب كلّ فرنسيّ يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاءً الرُّعب في قلوب الفرنسيِّين حتى يضطرُّوا إلى الإخلاء. بينما كنت، في إحدى اللَّيالي، أجتاز شارعًا يقلُّ المرور فيه من شوارع مدريد، إذ بمسلَّحيْن قد هجما عليّ يبغيان قتلي، فدافعت عن حياتي دفاعًا شديدًا. لم ينجِّني من القتل إلَّا قدوم سريَّة من جيشنا، كوكبة من الفرسان حاملة المصابيح، كانت مكلَّفة بالمراقبة في المدينة وحفظ النظام. ما إن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب. وتبيَّن من ملابسهما أنَّهما من جنود ديوان التَّفتيش. أسرعت إلى المارشال سولت، الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ، فقال: لا شكَّ بأنَّ من يُقتل من جنودنا كلَّ ليلة إنَّما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بدَّ من معاقبتهم وتنفيذ قرار الأمبراطور بحلّ ديوانهم. خذ معك ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة... أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا، وعلى جنودهم الحرَّاس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكريّ».

حُكي الكثير، من القصص الشعبيّ الساذج، وحيكت أيضًا الكثير من المغامرات الخرافيَّة المبرمجة، تجاه البيت. لكنَّها كانت كلُّها تلحّ على أنَّ المكان مسكون، ويجب أن تتَّخذ الدولة قرار تدميره، وطمره، وتعويضه ببناية أجمل، تخترقها المنتزهات والألعاب والأسواق والمحلَّات الجميلة. ثمَّ قيل بأنَّ الحيّ في حاجة ماسَّة إلى برج كبير يستوعب حاجة سكَّان الحيّ، والشركات ورجال الأعمال.

***

الفينكَا ليس رجلًا عاديًّا. على وجهه علامات مخيفة، تشعر وهو ينظر إليك كأنَّه يحمل لك حقدًا بغيضًا. يقال إنَّ مهمَّته في حرب التَّحرير تركت آثارًا مدمِّرة على علاقاته، وامتدَّت حتى فراشه الذي أصبح مساحة للرُّعب بدل أن يكون للراحة. كانت باربي سمينة تحكي في لحظات الخلوة للالة مولاتي عن قسوة الزمن على الفينكَا، وكيف يقضي اللَّيل كلَّه في حالة من الشخير والصراخ والاختناقات المتكرِّرة، كأنَّ شرًّا ما يتبعه في كلّ الأمكنة. عندما توقظه باربي سمينة، يلعن الشيطان الرجيم ويسترجع أنفاسه المقطوعة بصعوبة.

كان الفينكَا، مثل أغلبية جيله من الوطنيِّين، مسبَّلًا في ثورة أكلت كلّ شبابه، قبل أن تُحدِّد له وظيفة تبعته حتى أواخر أيَّام الحرب. كان مكلَّفًا بذبح المتعاملين مع الاستعمار والحركة، والخونة. تعلَّم كيف يذبح بلا رحمة، وكيف يتلذَّذ بلمس الأعناق الناعمة والخشنة على حدّ سواء، قبل أن يُجهز عليها. في المرَّات الأولى، كانت حالات الخوف تنتابه كلَّما وقف وجهًا لوجه أمام الشخص الذي ينتظر دوره ككبش العيد بعد أن يحفر قبره. مع الزَّمن، أصبح يجد لذَّة كبيرة في حزّ الأعناق. بل كثيرًا ما أصيب بحالة هستيريا عندما يؤتى له بمجموعة أعناقها مهيَّأة للذبح السهل، بعد أن تُقصّ لحاها وشعرها. فخره الكبير، لم يذبح أبدًا شخصًا واحدًا لم يمرّ عن طريق محاكمة يتحمَّل فيها قاضي الثورة مسؤوليَّة. كان المتَّهمون، بعد أن يصدر عليهم حكم الإعدام، يُطلب منهم أن يحفروا قبورهم. يسألهم الفينكَا عن إرادتهم الأخيرة، عن طلباتهم الحميمة، وعن رسائل، لا تصل أبدًا، يريدون تبليغها لذويهم. بمجرَّد ما يذبح الأوَّل على مرأى من أصدقائه تبدأ حالة الارتجاف تتملَّك الفينكَا، ويكثر الزبد على طرفيْ شفتيه، فيطلب المزيد، من الأعناق، ثمَّ المزيد. بينه وبين الدم حالة غريبة من التماهي. عندما ينتهي من عمليَّات الذبح، يصاب بإغماءة تستمرّ قليلًا قبل أن يُصبّ على وجهه دلو من الماء،

يستفيق بعدها ويعود إلى حياته الطبيعيَّة، وكأنَّ شيئًا لم يحدث. كلَّما سئل اليوم عن شعوره العميق عمَّا فعله، يضحك طويلًا قبل أن يقول: لم أفعل شيئًا سوى القيام بواجبي الوطنيّ. لا أشعر بأيّ ذنب ولا أدنى حالات الندم. لم أكن قاضيًا ولم أحكم باطلًا على أيِّ شخص. ذاكرتي وإلى اليوم تحتضن أسماءهم جميعًا. لا يمكنني أن أخطئ في تفاصيل أيّ واحد منهم، ولا حتى في العلامات المميَّزة لوجوههم وأجسادهم. خانة على الصدر، حفرة على الجبهة، جرح في النحر، بشرة ناعمة مثل بشرة امرأة، شلطة في العين التي تنظر إليَّ للمرَّة الأخيرة قبل أن تستسلم لشفرة السكينة الحادَّة، سنّ مذهَّبة، أنف معقوف، جسد مصقول ولا شعرة فيه. بل حتى كيف واجهوا الموت ونهاياتهم! من الهشّ كوردة، إلى الصلب كصخرة. ويؤكِّد لمحيطه القريب أنَّه طوال حياته لم يثره أيّ مشهد ذبح، بل كان يجد لذَّة كبيرة في ذلك، إلَّا مرَّة واحدة عندما ذبح شابًّا مغتربًا لم يعرف كيف يتشهَّد، لأنَّه لم يكن يعرف اللُّغة العربيَّة، فتشهَّد بالفرنسيَّة. التحق بالثورة، متطوِّعًا، وكان على ما يبدو، يجهل أنَّ علاقة خاصَّة بين رجل وامرأة يمكن أن تؤدي بصاحبها إلى الذبح. حاكمه المسؤول الكبير، الذي كان شخصًا ورعًا، بنفسه. قيل لي إنَّ البنت التي كانت معه هربت، لا أدري إلى اليوم كيف ومتى وأين؟ ثمَّ جيء به مقيَّدًا مع مجموعة كان ينتظرها المصير نفسه. سألته، يقول الفينكَا:

ـ ماذا تريد؟ ماذا تشتهي قبل الموت. هذا حقُّك نطبِّقه على المحكوم عليه، كما يُطبَّق دوليًّا؟

استدركت عندما عرفت أنَّ لغته العربيَّة كانت قليلة وضعيفة، وأنَّه لم يفهم جملتي. طلبت من أحد الجنود الحاضرين، أن يترجم له كلامي. أجابني بفرنسيَّة واضحة:

ـ Je ne comprends rien de ce que vous dites. Je n'ai fait aucun mal. Je n'ai meme touché Zora. Elle m'était très chère. C'est

le responsable qui la voulait pour lui. Je lui ai juste demandé de la laisser tranquille. Certes, je me suis laissé emporter en lui disant ce que j'avais sur le coeur: ce n'est pas parce que vous etes responsable que vous avez le droit de tout faire. Je me suis excusé, j'étais juste vexé, mais le frère n'a voulu rien entendre et m'a emprisonné en me privant, je ne sais pour combien de temps, d'aider mes frères. Je suis là pour voir le haut responsable pour lui présenter ma version des faits. (1)

ـ تريد أن ترى المسؤول الكبير؟ طيِّب.

فوجئت من أنَّ المسكين لم يكن يعرف حتى سبب وجوده في هذا المكان. في لحظة من اللَّحظات فكَّرت أن أكلِّم المسؤول المباشر، ولكنِّي تداركت بسرعة أنَّ قرارات الثورة لا تُناقش. كان يرغي مثل الطفل وهو يرى مرافقيه يُذبحون الواحد تلو الآخر. السكين اندفنت في رقبته الطَّريَّة والرَّقيقة بسهولة، وكأنَّها كانت تدخل في كتلة من السمن. لطَّخ دمه الفيَّاض وجهي. عندما فتحت عينيَّ، وعلى الرَّغم من أنِّي كنت متأكِّدًا من أنِّي ذبحته بالكامل، رأيته يمشي بين أشجار الزيتون والكريش والزبوج والصنوبر البرّيّ، لحظات امتدَّت طويلًا. التفت نحوي، نظر إليَّ طويلًا، لدرجة أنِّي أحنيت عينيَّ كي لا أراه، بعدها سقط تحت قهقهات من كانوا بجانبي. انتابني في كوابيسي زمنًا طويلًا قبل أن ينطفئ فجأة وهو يقسم بأنَّه سيعود لي ذات يوم. طبعًا نسيته ولم أره بعدها. في السنوات الأخيرة، أصبح يزورني يوميًّا بوجهه الطفوليّ. المشهد نفسه، فقط الأدوار هي التي اختلفت. كنت أنا المذبوح، وكان هو الذابح.

(1) أنا لا أفهم شيئًا ممَّا تقولون. لم أرتكب أيّ جرم. لم ألمس زهراء أبدًا. كانت غالية جدًّا عليَّ. المسؤول هو الذي كان يريدها له. طلبت منه أن يتركها وشأنها. صحيح أنِّي، في نوبة غضب، قلت له ما كان في قلبي: مسؤوليَّتكم لا تعطيكم الحقّ في فعل ما تريدون. كنت غاضبًا فقط، ولهذا اعتذرت منه بعدها، ولكن الأخ لم يسمع لي أبدًا، فسجنني، وحرمني بذلك من مساعدة إخوتي. وأنا هنا لملاقاة المسؤول الكبير لأقدِّم له وجهة نظري فيما وقع.

منذ أن دخلت باربي سمينة وبناتها مستشفى الأمراض العقليَّة، أصبح الفينكَا أكثر حرِّيَّة. بدأت ملامح مشروعه تتَّضح شيئًا فشيئًا. فقد غطَّى كلّ الواجهات الزجاجيَّة للبيت الأندلسيّ بالإسمنت. وتحوَّلت المقصورة العالية، إلى امتداد لحيطان الدار. من الخارج يكاد لا يُرى أيُّ ملمح من ملامح البيت القديمة. حفر الحائط الرّومانيّ القديم، وبقايا الولي سيدي قارة بلال، ووسَّع أكثر من مساحة القبو حتى يتمكَّن من ربح بعض الأمتار الإضافيَّة لتخزين السلع. قال: انزعوها، هذه الحيطان لا فائدة لها... متر زيادة خير من وجه الرُّومان وسيدي قارة بلال. حتى القبَّة التي أضافها جونار للبيت لتبدو من بعيد كأنَّها رأس كنيسة أو مئذنة، نزعها، ليتمكَّن من إضافة طوابق أخرى. شيَّد مرتكزات داخليَّة جديدة، تصعد من أعماق القبو حتى السطح، ثمَّ أضاف غرفًا جديدة تحمَّلتها أعالي البناية القديمة. كان يريد تحويل كلّ القبو والطابق الأرضي إلى مكان للتخزين، ولا يحتفظ إلَّا بمكتب واحد وصالة لاستقبال الضيوف. وغرفة جانبيَّة انتزعها من اتِّساع الصالون، خصَّصها للخلوة مع بعض أصدقائه لشرب كأس نبيذ معهم، أو كأس شاي منعنع. انتفت بسرعة الصالة التحتيَّة الواسعة التي كان جونار قد حوَّلها إلى مكان للاحتفالات والتَّدريبات الموسيقيَّة تحضيرًا للسهرات الفنِّيَّة الموسميَّة. فقد ارتسمت على جدرانها خرائط غريبة بسبب الرطوبة وتسرُّب المياه، حتى الطِّلاء الخارجيّ الذي قام به عمال الفينكَا لم يخبِّئها أبدًا. نزع كلِّيًّا مراكز التدفئة المركزيَّة التي وضعها جونار في زوايا البيت لتدفئته وتسخينه، والتي تحوَّلت إلى قطع حديديَّة ضخمة بلا وظيفة. ربَّما الشيء الوحيد الذي أصاب فيه الفينكَا هو رغبته في ربح أيّ شبر زائد. كان الفينكَا في حاجة إلى رطوبة المكان وبعض اتِّساعه، لحفظ النبيذ والمشروبات الكحوليَّة النادرة التي كان يأتي بها مباشرة من الميناء، ويعيد تسويقها. تخلَّص حتى من المخابئ الصغيرة التي أُنشئت في الحقبة

الاستعماريَّة، وكانت تُحفظ فيها براميل النبيذ الأبيض والأحمر، الخشبيَّة، المتأتي من مزارع الكرمة المحيطة. أصبح المكان واسعًا ومناسبًا لحفظ آلاف الليترات من المشروبات الكحوليَّة الغالية، وإن احتوى المكان على بعض كراتين النبيذ المتأتي من مزارع البليدة ومعسكر وتلمسان، وهي مخصَّصة للأحبَّة فقط، لأنَّ تجارة النبيذ وحده، ليست مربحة كثيرًا بعد أن تكاثر مزاولوها الشرعيُّون والسرِّيُّون. يضحك الفينكَا دائمًا في قرار نفسه كلَّما سمع مسؤولينا يتحدَّثون عن الإيمان، أو وهم يشربون على مرأى الكاميرات، في الأمسيات الرسميَّة، العصائر المختلفة والشاي والقهوة. منافقون! يقولها مشفوعة بتنهيدة عميقة. يعربدون في خلواتهم، وأمام الإعلام يتحوَّلون بقدرة قادرة إلى أئمة ميامين، وأسوأ كذبة أصبح يتقنها الجميع مع أنَّهم في بداية الاستقلال لم يكونوا على هذا القدر من النفاق. يريدون إقناع من؟ الشعب؟ هو يعرف كلّ شيء. المتديِّنون، نماذجهم في بشاور وأفغانستان وبريطانيا! أدرك الفينكَا في وقت مبكر أنَّ الويسكي أفضل له من أيَّة تجارة أخرى. لا يخسر شيئًا أبدًا. مربح ولا يكلِّفه أيّ جهد. المورِّدون واضحون، وهم من يغامر بكلّ شيء في الموانئ، ثمَّ يأتي هو ويستلم بضاعته جاهزة، بعد أن يتمّ تحويل جزء منها إلى مخازن أخرى مبثوثة في المدينة وفي أحوازها. لقد أنشأ مصنعًا صغيرًا بسيدي موسى يتمّ فيه إعادة تهيئة الويسكي، إذ يضيف لها موادّ خاصَّة شبيهة في اللَّون، لا تضرُّ أبدًا ولا تنفع، ثمَّ يعاود تعليبها كلَّها من جديد. من القنّينة الواحدة يستخرج ثلاث قنان أخرى من الويسكي المعالَج. المكان الوحيد الذي يحتفظ فيه بكراتين الويسكي الإيكوسي الصافي، هي البيت، لأنَّه لا يثق أبدًا في ما يمكن أن يحدث. ثمَّ، يجب أن تكون طلبات المسؤولين غير مغشوشة، فهم محترفون ويعرفون جيِّدًا الصحيح من المغشوش. بلَّط جزءًا مهمًّا من مدخل البيت بالزفت والإسمنت المسلَّح، لكي يسمح لأكثر من سيَّارة من التوقُّف عند الباب

لتحطّ سلعتها بكلّ راحة، بعد أن قضم جزءًا آخر من الجهة الجنوبيَّة للحديقة التي كانت عبارة عن نباتات بيتيَّة كالزهور ونباتات الصنوبر الحلبيّ وبعض أشجار الزيتون والبرتقال. يقول إنَّه يعرف الزراعة جيِّدًا عندما كان مع والده في مدينة صبرا، بنواحي تلمسان، قبل أربعة عقود، ويساعده في الفلاحة. علَّمه أنَّ الشجرة التي يريد تبديلها، عليه أن ينتزعها من جذورها قبل أن تدمِّر البيت كلّه في سرِّيَّة تامَّة. جذور الأشجار خادعة، إذ يمكنها أن تهلك كلّ شيء في تناميها الخلويّ. ولهذا لم يجد أفضل من آلة تبليط الطرقات التي تردم كلّ شيء وتقتله في الأعماق. فجأة، أصبح الجزء الجنوبيّ من البيت عاريًا من كلّ شيء.

أصبح متخصِّصًا فيه وفي كلّ أنواعه. لكنَّ الفينكَا كان يريد أن يصل إلى تجارة أعلى وأنبل. يحتاج فقط إلى سند أكبر من أصدقاء البارحة واليوم. المخدّرات. يحسب كلّ شيء قبل أن يتَّخذ قراره النهائيّ. السوق تعاني من فوضى، وكانت في حاجة إلى تنظيم حقيقيّ، بإدخال الصغار، والفوضويِّين، الموزَّعين بين الأحياء والمدارس في نظام موحَّد. الغريب أنَّ النصيحة الأولى جاءته من أحد أصدقائه من الإسلاميِّين المتعاملين معه، أبو إلياس. عندما سأله الفينكَا مستغربًا:

ـ غريب أن تأتي النصيحة منك يا أبو إلياس!

ردَّ أبو إلياس وهو يمسِّد على لحيته الكثَّة، القاتمة السواد، بلا أدنى تردُّد:

ـ أعرف جيِّدًا تعرُّجات السوق، يا سيِّدي. إنَّها طريقتنا لتدمير النظام من داخله. هذا الجيل مخدوع ومريض، ويجب أن ينقرض بسرعة، في انتظار جيل جديد أكثر إيمانًا واحتسابًا. نحن لا نقوم بأيّ شيء سوى بتسريع عجلة الإفناء في انتظار من سيخلف.

ـ من قال لك إنَّ الخلفة ستكون أصلح من هذه؟

ـ من هنا لذاك الوقت، ربِّي حنيِّن. هو يعرف جيِّدًا خفايا النوايا.

قبل أحداث التسعينيَّات، من القرن الماضي، كان الإسلاميُّون قد وضعوا المنطقة كلَّها تحت وصايتهم بعد أن قسَّموها إلى مناطق هيمنة؛ وعلى رأس كلّ منطقة عيَّنوا أميرًا يشرف على كلّ شيء، بما في ذلك أسواق المخدّرات الفوضويَّة التي كانوا يعتبرونها حيويَّة بالنِّسبة لهم للاستمرار. كانت هناك تراتبيَّة غريبة: الأمير أبو إلياس كان هو المتعامل المباشر مع الموزّعين، ويعرفهم واحدًا واحدًا، ويعرف مصادرهم أيضًا. لم يبذل الفينكَا جهدًا كبيرًا لاحتلال السوق، فقد دخل شريكًا مع أحد أصدقائه الذي كان يعرف جيِّدًا عالم الغبرة.

أصبح أبو إلياس هو المورِّد الطبيعيّ للمتعاملين الصغار الذين يسيطرون على أسواق باب الوادي، وجزء مهمّ من القصبة. هو الذي كان يوصلها إلى الثانويَّات وبعض مراكز التكوين المهنيّ، والمحتاجين الذين يعرف عناوينهم واحدًا واحدًا. كان الأمير أبو إلياس يطمئنه يوميًّا بأنَّ الإسلاميِّين لن يلمسوا ولا شعرة من رأسه، لأنَّه بعمله كان يخدمهم. كلَّما سُجن أحدهم، كان الفينكَا هو من يخرجه بواسطة تدخُّلاته لدى الأصدقاء. شبكة علاقاته كانت كل يوم تتَّسع أكثر. في أقلّ من سنة، أصبح يفاوض المعنيِّين مباشرة بدون المرور على الوسطاء، أو كما كان يقول: ضربة بالفأس خير من عشرة بالقدّوم.

لم يكن في منأى من عين الأعداء والحسَّاد والغيورين من نجاح تجارته. في لحظات غفوته التي كثيرًا ما تنتابه وهو وراء مكتبه، يكرِّر في خفوت:

«صاحب هذه التجارة عليه أن يكون مثل العسكريّ، في حالة استنفار دائم.»

أصبح على تماس مباشر مع سيدي الكبير الذي لا أحد يعرفه مباشرة، إلَّا من صوته، وهو على يقين أنَّه سيصل إليه يومًا ويرى وجهه ويقبِّل يديه على قوَّة نظامه واستماعه لكلّ المقترحات التي تصله. لا يعرف عمره، ولكنَّه على يقين أنَّه صاحب خبرة كبيرة. صوته ينبئ أنَّه ستِّينيّ، وهو عمر العقل والتبصُّر.

ذات ليلة، بعد أن وصلته بعض الأخبار الغامضة عبر رموز استطاع أن يفكّ شفرتها، أخرج كلّ ما بداخل مخزن البيت. أكياس كثيرة، وكراتين لا تُعد. ساعات بعد أن انتهى من كلِّ شيء، وأطفئت الأضواء التي لم تبق منها إلَّا إنارة المكتب، كان فيلق النينجا[1] يزيل الباب الخارجي بطريقة غريبة، ويدخلون في سلسلة واحدة كثعبان طويل يزحف بصمت نحو صيده. لم يجدوا أيَّة صعوبة في فتح باب الدار بشكل مباغت، وانزلقوا نحو مكتبه. كان منهمكًا في تنظيم فواتيره الخاصَّة ببيع النبيذ الوطنيّ. طلبوا الأوراق والسِّجلّ التجاري. كان كلُّ شيء مطابقًا تمام التطابق لما أرادوه. فتَّشوا المكان. فلُّوه. لم يجدوا شيئًا. اعتذر منه ضابط المجموعة، وهو يقدِّم له وثيقة المداهمة.

ـ هذه المرَّة نفذتَ بجلدك.

ـ سأطالبكم بتعويض الباب المكسور. القانون لم يمنحكم حقّ كسر الأبواب على ذويها؟

ضحك بسخرية، ثمَّ صعد إلى غرفة نومه، بينما خرجت مجموعة النينجا بنظام مثلما دخلت.

هدأ بعض الأيَّام، قلَّت فيها حركته، ونسي مهنته كما أوصاه سيِّدي الكبير: في صنعة الغبرة، عليك أن تنام من حين لآخر وكأنَّك ميِّت، مثلما

(1) قوَّات المداهمة الأمنيَّة. تسمية أطلقت عليهم شعبيًّا للباسهم الأسود وتخفِّيهم وراء أقنعة.

تفعل الخنفساء عندما يداهمها الخطر. تتصلَّب، ثمَّ ترفع رجليها ولا تتحرَّك أبدًا إلَّا بعد أن ينتفي الخطر كلِّيًا.

عندما تأكَّد من سلامة حركته، وتلقَّى الضوء الأخضر من سيِّدي الكبير، عاد من جديد إلى تجارته. كان لا يجد وقتًا يرتاح فيه، حتى إنِّي كنت أشكّ في أنَّه يستحمّ، لأنَّ رائحة الخمائر كانت تملأ المكان، بما في ذلك جسده، كلَّما همَّ بالخروج. ذات مساء حدث ما كنت أتوقَّعه دائمًا وأنا أرى الفوضى البشريَّة التي كانت تدخل وتخرج. في المساء، عندما كان يوقف سيَّارته DS، عند مدخل الحديقة، رأيت شابَّين ملثَّمين يتقدَّمان باتِّجاهه. سأله الأوَّل:

ـ أنت هو الفينكَا؟

كان الفينكَا خشنًا، ويثق بنفسه كثيرًا. كلَّما أخافه أصدقاء الأمس، قال بلا تردُّد: أتَّكئ على حائط، أقوى من حائط برلين، ربّي ما يحرِّكوش.

اقترب الشاب منه أكثر حتى كاد أن يلامس وجهه.

ـ اسمع ما تخنشن راسك إذا أردت أن تبقى حيًّا. أوقف ربّ الغبرة، وإلَّا ما تزيدش تشوف الشمس. نساعدك على تغيير الحرفة إذا كانت نيَّتك طيِّبة. تخرج كلّ الغبرة اللِّي في الدار، والشراب والويسكي اللِّي في المخزن، وسيأتي فريق منَّا ليأخذها من أجل حرقها في زوبية وادي السمّار، وإلَّا ذنبك على جنبك يا خو.

ـ منْ اللِّي بعثكم؟

ـ اللَّـه سبحانه عزّ وجل، وملائكته المطهَّرون.

ـ لم أفهم.

كان يريد أن يحطِّم الأوَّل بضربة رأسية كما تعوَّد أن يفعل في شبابه، ويدفع بالثاني نحو الفراغ، قبل أن ينزع له خصيتيه ويضعهما في فمه، ويبعث

به عند قائده الذي أمره بالتوقُّف عن مهنته، لكن برودة البيريتا التي أحسّ بها في عنقه، جعلته يتردَّد كثيرًا.

ـ كلمة واحدة وقص. احبس عند هذا الحدّ، وما تطولش لسانك بزاف. لو كان أعطانا أمير المؤمنين الإذن ببعثك إلى جهنَّم، ما تردَّدنا ثانية واحدة. كان رحيمًا بك، لأنَّه لم ينس خيرك السابق في إخراجه من السجن.

ـ طيِّب. سأرى كيف أتخلَّص من هذه البليَّة.

ـ نصيحة في سبيل اللَّـه. ما تلعبش معنا كاش كاش.

فكَّر في الاتِّصال بسيدي الكبير، ولكنَّه لم يستطع، لأنَّ هذا الأخير، هو من يتَّصل عندما يشاء على رقم سرِّيّ، رقم أعمى، كما يسمِّيه، لإعطاء الأوامر والتعليمات. حاول أن يسأل عن الأمير أبو إلياس ليعرف فقط هوية قطَّاع الطرق الذين ادَّعوا أنَّهم قادمون من طرف الأمير؟ ولم يقولوا أيّ أمير؟ ولكنَّه لم يفلح. في اليوم السابع، ومن دون انتظار، زاره الأمير أبو إلياس متخفِّيًا ومتنكِّرًا في هيئة غريبة، إذ كان محلوق الوجه، وعاري الرأس.

بمجرَّد أن جلس قبالته، واجهه بالحقيقة المرَّة:

ـ أنت تعرف أنَّ الظروف تغيَّرت. وتغيَّرت معها موازين القوَّة أيضًا. وجلّ عملنا أصبح سرِّيًا. بدأ الكثير منَّا يتَّجه نحو التجارة، بقيّة الممنوعات نمارسها بطرق أقل ضررًا علينا وعلى الأمَّة. هذا هو خيارنا الاستراتيجيّ.

ـ لم أفهم.

ـ سنتحوَّل نحو مرحلة أقوى من مجرَّد المخدِّرات.

ـ حتى الآن لم أفهم.

ـ بالعربيّ الفصيح، نحلِّل تجارتنا ونخرجها من دائرة الضرر والحرام. نستثمر في الألبسة، تحديدًا في الحجاب. فهو مطلوب وتجارته أصبحت رائجة.

ـ قصدك.

ـ قصدي واضح. أتحدَّث عن محلَّين في موقعين استراتيجيِّين بالعصمة. محلّ شارع محمد الخامس، وبار ديدوش مراد ـ المحاذي لسينما الجزائر، المغلق منذ مدَّة طويلة. نحوِّلهم إلى محلات لبيع ما يستر المسلمات. تجارة مربحة في الدُّنيا وفي الآخرة.

ـ أنا بصدد التفكير بتنويع التجارة.

ـ ما أقترحه عليك التنويع. سأتكفَّل أنا شخصيًّا بتسييرها، ولك أن تواصل في الغبرة كما تشاء، مع الحذر من أن يراك شخص غيرنا. مقابل ذلك، أطلب منك أن تملِّكني خمسين بالمائة من المحلّين، لتكون استماتتي كبيرة ولا أشعر بنفسي موظَّفًا عند غيري. فأنا موظَّف عند اللّـه وحده لا شريك له.

ثمَّ أخرج أبو إلياس رزمة من الأوراق وطلب منه التوقيع عليها. كان يعرف ما ينتظره لو رفض. فكَّر أن يطلب مهلة، ولكنَّ ذلك بدا له خطرًا جدًّا. حتى سيدي الكبير لا يتَّصل، كان على الأقلّ أخبره وعرف رأيه. أغمض عينيه، ثمَّ وقَّع على الأوراق. شعر بشيء يسدّ حلقه مثل الحامض الحادّ.

تمتم.

ـ يا اللّـه. ربَّما غفر لنا اللّـه بعضًا من ذنوبنا.

ـ يغفرها ما دامت النِّيَّة طيِّبة.

في اللَّيلة التي اتَّصل فيها سيدي الكبير، كان كلُّ شيء قد استقرّ. عندما أخبره بما حدث، قال له: شغلك إذا أردت أن توسِّع من تجارتك. لا تهمُّني سوق الأقمشة. لكنَّ الغبرة... صمت قليلًا قبل أن يواصل: الغبرة تحرق كلّ من يمسُّها بلا قانون.

المحلَّان أصبحا يحملان بين يوم وليلة علامة *المستورة*، وهو الاسم الذي اختاره الأمير أبو إلياس لمحلات بيع الأقمشة والحجب النسائيَّة. تجارة رائجة ولا تكلِّف شيئًا كبيرًا. في ظرف وجيز أصبحت محلَّات *المستورة* لا تفرغ أبدًا من النساء. كان يسمِّيها بينه وبين أصدقائه الحميمين الذين واصل الشرب معهم في خلواته المتكرِّرة، عندما يسألونه: أين كنتَ؟ فيجيب بزهو كبير: في سوق النساء، حيث لا شيء إلَّا الأجساد المغرية، والعطور النادرة، وألبسة الساري الهنديَّة التي تلتصق باللَّحم، فتعمِّق الانثناءات التي تزيد شهوة الناظر من فرط شفافيَّتها. اكتشف فجأة أنَّ سوق الحجاب لم تكن أقلّ قيمة من سوق الغبرة. انتشرت محلَّات *المستورة* في الكثير من المدن الكبرى كالنار في الهشيم، فقسَّمت البلاد إلى شطرين: مدن تستقبل الحجاب بسهولة وتستطيع مؤسَّسة *المستورة* أن تجد طريقها بدون عناء، وهي: الجزء الشرقيّ من الجزائر العاصمة، تلمسان، قسنطينة، البليدة، الشلف، بعض مدن الجنوب الصحراويّ، بسكرة، المنيعة والوادي. ومدن وجدت فيها *المستورة* صعوبة في الاستقرار، ربَّما احتاج الأمر إلى وقت أكثر، وهي: الجزء الغربيّ من الجزائر العاصمة، تيبازا المدينة، شرشال، وهران، عنَّابة، تيزي وزو، بجَّاية، تمنغاست، غرداية. الأمير أبو إلياس مقتنع أنَّها في النهاية، مسألة وقت لا أكثر.

استمرَّت تجارة الغبرة كما كانت، ولم يعترضه أيّ تهديد لا من سيدي الكبير، ولا من الإسلاميِّين. فقد غيَّر إستراتيجيَّة التعامل بتنويع المتعاملين الذين كانوا يعدُّون على رؤوس الأصابع، ولكنَّهم كانوا يقومون بما يمكن أن يقوم به جيش بكامله. رواتبهم كانت عالية، وكانت حياتهم تهمُّهم مثلما كانت تهمُّه حياته.

في مساء اليوم الثالث من عيد الفطر، دخل عليه أشخاص غرباء مصحوبين باثنين من أهم متعامليه الثقاة. كانت وجوههم باردة. لكنَّه كان

يعرف أنَّ الأمر لا يتعدَّى أن يكون مقترحًا جديدًا، أو رغبة في الانضمام للكارتيل الخفيّ الذي يشرف عليه سيدي الكبير، أو توزّع نقاط البيع بعدل أكبر. لكن خزراتهم الحادَّة، لم تكن مريحة.

قال صاحب الوجه الطيِّب والصلعة البرَّاقة.

ـ ضيف ربِّي يا خويا الفينكَا؟

شعر بالبرودة تدخل إلى جسده كمدية حادَّة الشفرة. كانت الكلمة وحدها كافية لأن تربكه داخليًّا. لا يدري ما هي العلاقة، ولكنَّها ذكَّرته بأيَّام الثورة التحريريَّة حينما كانوا يدخلون بيتًا، يؤمِّنون صاحبه أوَّلًا بالكلمات نفسها، قبل أن يسحبوا وراءهم الشخص المعنيّ بزيارتهم، الذي يكون قد حوكم غيابيًّا. من عينيه، كانوا يدركون أنَّه عرف المصير الذي ينتظره. بعضهم يعتذر عن خطئه، لكن أغلبهم كانوا يستسلمون لنظرات الزوَّار المدجَّجين بالأسلحة، فيتبعونهم مطأطئي الرؤوس نحو الحفرة التي تكون قد جُهِّزت خصِّيصًا لهم.

ـ مرحبًا. تفضَّلوا. خير إن شاء اللَّـه!

ـ شوف يا الفينكَا، قصدناك في مهمَّة تبليغيَّة. أنت حرّ في القبول أو الرَّفض. نعرف مثلك، ومثل سيدي الكبير، أنَّ سوق الغبرة بدأت تضيق مع كثرة الأسواق المتوحِّشة، بينما أنت بخبرتك وسلطتك الواسعة، تحتاج إلى سوق حقيقيَّة، مفتوحة على الحياة. وهي سيِّدة عالم اليوم. نريد خبرتك الكبيرة.

ـ عذرًا، ولكنِّي لم أفهم جيِّدًا.

كانوا مباشرين معه. حدَّثوه عن تجارة الأسلحة. في البداية انقبض، ولكنَّه سرعان ما ارتاح لهم، لأنَّهم كانوا يتكلَّمون بدون تشنُّج، وبثقة كبيرة.

أقنعوه بأنَّ مهمَّته لا تتجاوز الإشراف والتنسيق، ما عدا ذلك، فهناك من يقوم بالمهمَّة أحسن من الجميع. يمكنه أن يسافر عبر العالم في الدرجة الأولى. فهم لا يحتاجونه إلَّا في الصفقات السرِّيَّة الآتية من أوروبا وآسيا. توصيل الأسلحة إلى الحدود، لا علاقة له به. هناك مجموعات متخصِّصة في ذلك. المجموعة الروسيَّة، المجموعة التشيكيَّة، الرومانيَّة، الصينيَّة، المغاربيَّة، وغيرها.

لا يدري كيف سارت الأمور بشكل سريع، ولكنَّه فوجئ في قدراته ومواهبه على التسيير. جرَّب السفرات الأولى، فاستلذّ لها كثيرًا. سافر إلى بولونيا ورومانيا، قبل أن يسافر إلى إسبانيا وفرنسا، ثمَّ إلى الجمهوريات الإسلاميَّة التي تفاوض معها على توريد القنابل والمتفجِّرات والبارود. في تركيا اكتفى بعقد صفقات سرِّيَّة كان طريقها للبلقان. كان معفًى من مشكلة التخزين التي تفضح صاحبها. الزبائن كانوا مضمونين، بل كثيرًا ما رفض بعضهم عندما ينبِّهه مستشاره الشاب ذو العينين الزرقاوين. المتفجِّرات، الرشَّاشات من نوع الكلاشات والبريتا، والمسدَّسات، ومدافع الإربجي، كلُّها كانت تتنقَّل من دون أيّ إشكال عبر سفن الصيد والسيَّارات الكبيرة المتواطئة في أغلب الأوقات مع جزء من حرس الحدود. أصبح لا يدفع إلَّا عندما يتأكَّد من أنَّ البضاعة وصلت إلى مكانها الأكيد. تشتشينيا، الصحراء الإفريقيَّة، وكان يجتهد ليدخل إلى سوق أفغانستان، ولكنَّها بدت مغلقة ومسدودة. حتى لغته ورموزه تغيَّرت. الأسماء الاعتياديَّة لم يعد في حاجة إليها. كيلو مسمار، الرَّقيق، المتوسط، الغليظ، كان يعني قنطارًا من الرصاص من كلّ الأنواع المتَّفق عليها في المفاوضات والجلسات السرِّيَّة. حقل الرمَّان معناه ألف قنبلة يدويَّة، الرَّعد معناه الإربيجي، المطر معناه سلاح الكلاش أو البيريتا. الخيار 15 أو 30 معناه المسدَّس من مختلف العيارات. من يتتبع مكالماته سيجد صعوبة كبيرة في وضع يده عليه، وينتهي إلى الرجل خضار يريد أن يهيمن على أسواق الخضر.

في الظاهر، كلُّ الناس كانوا يعرفون جيِّدًا أنَّه كان سيِّد سوق الويسكي. المسؤولون أنفسهم كانوا يبعثون له بطلباتهم المختلفة مع سوّاقهم الخاصّين، ولم يكن أحد غير المجموعة التي كانت معه أوَّل مرَّة، من يعرف قصة تهريب الأسلحة. بعد سنة، سلَّم في سوق المخدِّرات التي استلمتها جماعة أبو إلياس، الذي التقى به في آخر مرَّة، ليوضِّح معه كلّ شيء.

ـ أنا توقَّفت عن كلّ شيء. تبت. الحمد لله.

ـ جميعنا نشكرك على إيمانك. كانوا سيؤذونك لولا تدخُّلي. قلت لهم إنَّ اللَّـه سيهديه، مثلما هداه في فتح محلّات *المستورة* التي غزت كلّ المدن الجزائريَّة.

ـ لقد تبت عن الغبرة، ولم أعد معنيًّا بها.

ـ للغبرة أصحابها، هل وجدت بديلًا عنها؟

ـ لا. أحضِّر نفسي للذهاب إلى الحجّ في نهاية هذه السنة.

ـ دع *المستورة* تكرّمك بهذه الزيارة.

ـ الأفضل أن أذهب بمالي الخاصّ، أنت تعرف الفرائض.

ـ طيِّب. حماك اللَّـه من أيّ مكروه.

« ابن الكلب! أكل كلّ شيء وما يزال يشمشم عن جيفة أخرى يُدخل فيها أنفه. »

قالها وهو يغلق الباب من ورائه، هو وجماعته التي لا يتحرَّك إلَّا بها.

بعد أقلّ من ثلاث سنوات، تغيَّر وجهه وأصبح دائريًّا، وحواجبه صغرت، وأصبحت أكثر أناقة بعد أن زالت عنها كلّ الزوائد. بطنه زاد سمنة قليلًا، لكنَّ طوله كان يخفي وزنه. كثيرًا ما يكون مسافرًا، وعندما يعود، لا

يدخل إلى البيت إلّا وهو يجرّ وراءه، كالسارق، امرأة جميلة. في ليلة من اللّيالي، رأيت الوجوه نفسها تدخل إلى المكان. لم يحدِّثوني، ممّا كان يعني في لغتهم الخاصَّة: لا تقترب عندنا عمل خاصّ. فلم أقترب.

عدت إلى قلعتي لأغرق في أوراقي. في الصباح، استيقظت على النار التي كانت تشتعل بقوَّة في المداخل الخشبيَّة. الظاهر أنَّها قنبلة مولوتوف، لأنَّها نشبت بسرعة، و في أمكنة متعدِّدة، في الوقت نفسه. استغربت الصمت الذي لفّ المكان فجأة. تجرَّأت، ودخلت إلى البيت الأندلسيّ، عن طريق المعبر السرِّيّ. فتَّشت في كلّ الأمكنة حتى الحمَّام. فجأة، وجدته مرميًا في المغسلة، بينما هي، كأنَّها كانت تحاول الهرب، على جسدها بعض من بياض الصابون، وخيط من الدم عند شفتها السفلى. كانت شابة وجميلة. جسدها، رغم الرصاصة الوحيدة التي اخترقت ثديها وشوَّهته قليلًا، ظلَّ حيًّا وكأنَّها كانت نائمة فقط. أحزنني المشهد. كلُّ شيء تمَّ بكاتم الصوت. لم أفعل شيئًا سوى أنّي كلَّمت رجال الأمن، وأخبرتهم بما حدث.

في كلِّ مشهد الدم والموت العنيف الذي رأيته يومها، بقي أمام عينيَّ، الوجه الطفوليّ للشابة المقتولة التي لم أعرف أبدًا لا اسمها، ولا بلدها، ولا حتى لغتها التي كانت تتحدَّث بها قبل موتها، وجسدها الناعم الذي كدت أن ألمسه من شدَّة شفقتي عليه، فاكتفيت بأن غطَّيته بما وجدته أمامي. أحزنني موتها المبكّر.

شُمِّع البيت من جديد.

مات الفينكَا في ظروف غامضة، قيل الكثير عنها، من تصفية حسابات قديمة، إلى ضربة من الإسلاميِّين، إلى انتقام من تجَّار الأسلحة الذين لم يدفع لهم، إلى المجموعة الروسيَّة الأكثر عنفًا، مجموعة الساحل الصحراويّ، لكن من بين كلّ هذه الروايات، واحدة ظلَّت تشغلني، صداقته

الغريبة والسريعة بالكثير من المسؤولين، وبسيدي الكبير الذي لم يعرف لا وجهه ولا مكانه. رأيت في المقبرة، خلال صلاة الجنازة، التي أدارها الأمير أبو إلياس الذي سبق أن لمحت وجهه في العديد من المرَّات وهو ينزلق نحو البيت، في زيارات خاطفة إلى الفينكَا. كان مصحوبًا بشاب تأكَّد لي بما لا يدع مجالًا لأيّ شكّ، من أنَّه الشابّ الذي بدا وجهه الملثَّم واضحًا تحت اللَّمبة عندما تمَّ اقتحام البيت. القامة نفسها، العينان السوداوان والحاجبان المقرونان نفسهما، يجرّ رجله اليمنى بصعوبة. لا يمكن أن يكون غيره. صاحبه القصير كان يقف وراءه، يغطِّي ظهر الأمير، ويدور بعينيه الحادَّتين في كلِّ الاتِّجاهات. لم أفهم الشيء الكثير، ولكنِّي تأكَّدت من هويتهما على الرَّغم من اللِّثام الذي غطَّى الوجهين ليلتها، ولم يغطِّ تفاصيل العينين وبروز الجبهة، والحاجبين المقرونين. رأيت أيضًا بعض المسؤولين الكبار، الذين كانوا يأكلون ويشربون في بيته، ويشرب عندهم، يرفعون الأكفَّ ترحُّمًا على الفينْكَا.

من أوراق مارينا بلاثيوس بن خليل [1]

الورقة الحادية عشرة

(1) هذه الأوراق متفرِّدة قليلًا. لم يكتبها سيدي غاليليو، سيدي حامد بن خليل، لأنَّه كان قد مات. لم تكتبها زوجته سلطانة، لأنَّها أيضًا كانت قد ماتت بالطاعون الأسود. ولكن كتبتها حفيدته. حاولتُ أن أجد لها مكانًا من بين مجموع الوثائق التي تركها غاليليو. فقد بدت لي معزولة عن السِّياق العام. وجدتها مرفقة في نسخة باريس، بينما غابت عن مخطوطة عمِّي مراد باسطا. عندما حدَّثته، لم يتحمَّس لها. قال إنَّه يشكّ فيها. لأنَّه كان على يقين أنَّ ما كتبته سيلينا الحفيدة لم يكن إلَّا افتراضات قد لا تكون صحيحة. هو على يقين أنَّ مارينا أخذت معها مخطوطها ودفنته في مكان ما، قد يكون قبر غاليليو، أو سافرت به نحو إسبانيا، إذا كانت قد سافرت فعلًا، وهذا احتمال ضعيف. عمِّي مراد باسطا، مع فكرة أنَّ لالة مارينا انتحرت غرقًا، وأنَّ المخطوطة التي دوَّنت فيها سيرتها وزمنها كما وعدت والدها، تكون قد دفنتها بجانب شجرة ، ليس بعيدًا عن البيت الأندلسي، أو في مقبرة خليج الغرباء. سيظلّ السرّ دفينًا وسيأتي حتمًا من يملأ هذه البياضات بحقيقة أخرى غير تلك التي نملكها. الورقة هذه ، هي في الأصل من أوراق سيلينا، ولكنِّي عنونتها من أوراق مارينا لأنَّها بالأساس تتحدَّث عن مارينا. على العكس من عمِّي مراد، أنا مقتنعة أنَّها بالفعل لابنتها وليست مزوَّرة. إخضاع أجزاء من أوراقها لمادة الكاربون 14، دليل قاطع على ذلك. (ماسيكا).

تحكي عن مشاهدات سيلينا في طفولتها المسروقة وعن أمّها، وتفاصيل سرقة البيت الأندلسي وكيف آل إلى المرتدّ دالي مامي.

مقاومة نديم، زوج مارينا، صانع الرّخام للقتلة، وخصيُه أمام عائلته؛

وتيه مارينا باتِّجاه المجهول، بعد اغتصابها.

ـ 1 ـ

اجتهدت كثيرًا لكي لا أظلّ صامتة.

لست مارينا ولكنِّي ابنتها، سيلينا. شريكتان في السرّ والخوف والسعادة المخفيَّة. أنا أيضًا من السلالة، ولهذا فأنا أعمل بنصيحة جدِّي الأوَّل غاليليو، التي تخطَّت كلّ الأزمنة والأمكنة. أن لا أغادر البيت حتى ولو أصبحت فيه خادمة. أليس هو صاحب الحكمة القاسية؟ مغادرة البيت تقطع الحبل السرِّيّ بيننا وبين حجارته وأنفاسه؟ جدِّي خدم الأتراك بعد أن سرقوا منه داره. كان الأغا حسن فينيزيانو يحميه من الكبار والطمَّاعين، والرايس حميد كروغلّي كان يحميه من الإنكشاريَّة. لكن بعد موته، كلُّ شيء تغيَّر، وأحرقت كلّ الوعود المقطوعة. سرقوا منه داره، وضيَّعوا ذرَّيَّته ورموها في عمق التيه. لا أدري إلى اليوم كيف جمعت الأقدار القاسية هذه المزق، ومنحتها كرسيًّا متحرِّكًا، في عمق العواصف والرياح.

الوثيقة التي أتحدَّث عنها، وجدتها مكتوبة بخطّ يد أمِّي مارينا بلاثيوس بن خليل، بحروف لم أقرأها إلَّا بصعوبة، إذ تأكَّد لي فيما بعد، أنَّها كانت مزيجًا من العلامات العبريَّة والعربيَّة، معشَّقة بكلمات إسبانيَّة قريبة من الخيميادو التي كان جدِّي غاليليو يتقنها بتفوُّق لأنَّها كانت منجاته وسرّه. كانت تعرف الأسرار العميقة التي أورثتها لها أمّها

لالة سلطانة قبل أن تموت بسبب الطاعون الأسود الذي اجتاح المدينة بكاملها وأجزاء كثيرة من إسبانيا ـ ربَّما كانت السفن الإسبانيَّة هي التي جاءت به مع بحارتها وتجّارها المتخفِّين. المشكلة التي لم أفهمها حتى اليوم، هي أنَّ جزءًا كبيرًا من الأوراق التي دوَّنتها مارينا، أخذتها معها في رحلتها الغامضة التي لم تكن رحلة عاديَّة أبدًا. لقد اقتفت آثار والدها حتى اللَّحظة الأخيرة.

ـ 2 ـ

وصلني[1] اليوم الكتاب الذي أصدره صديق والدي الرجل الأحمر، ميغيل، أو ميغيل سرفانتس دي سافيدرا. جاءني به بحَّار بلنسي حِرفته اختصار البحار، وفهم أسرار موجِها؛ كنت قد أوصيته أن يأتيني به، لأنِّي سمعت عن قصصه الكثير، ثمَّ إنَّ والدي عرفه عن قرب. بعد أن هدأت العواصف بيننا وبين الأسبان، جاءني به. كان الرجل تاجرًا في كلّ شي. اشتريته منه بسعادة غامرة، لأنَّني كنت أبحث عن غاليليو، والدي الذي مات وكفّه في يدي وعيناه في عمق عينيَّ. بادلته ذهبًا وقلّادات قال عندما رآها، إنَّها من بلور مسِّينا وفينيسيا. لا أدري ما صحَّة ذلك، وما السَّبب! ولكن منذ أن ماتت والدتي السيِّدة الأنيقة والجميلة التي ورَّثتني عقلها، ووالدي الذي ورَّثني جنونه وكلّ حماقاته الدَّفينة وابتسامته الخفيَّة، احتلَّت الوحدة كلّ شيء فيَّ، وشعرتُ فجأة بنفسي مجرَّد شجرة مقطوعة الجذور. بدأ كابوس العودة ينتابني في كلّ اللَّحظات، بالخصوص عندما أغفو وأنا أتأمَّل السفن، من وراء الناظور، من عمق البيت الأندلسيّ الذي مازالت رائحة والدي وأمِّي سلطانة ملتصقة به. لم أفهم في البداية لماذا

(1) الجزئيَّة الوحيدة التي كانت بخط مارينا، وبصوتها الخاصّ. الباقي كلّه مرويّ على لسانها (ماسيكا).

زوَّجني والدي من صانع رخام طيِّب، ولكنِّي أدركت لاحقًا أنَّه فعل ذلك من أجل حمايتي، بعد أن خسر حماية الرايس حميد كروغلّي الذي غرق أو قُتِل في أعالي بحر مايوركا.

غادر حسن فينيزيانو البلاد في السنة التي سلَّم فيها رهينته النادرة ـ سرفانتس، للأسبان، في سنة 1780، وتسلّط الريّاس من جديد على الناس. وبدأت المدينة تتحوَّل إلى غابة، والشوارع إلى مسالك للخوف. الكلّ مرعوب من الكلّ. الريَّاس تسلَّطوا على كلّ شيء. هم من يضع الحاكم، وفي اليوم الموالي، كانوا هم أوَّل من يأكل رأسه بلا تردُّد. استفحل الطمع في المال والبيوت والنساء. ربحوا المعركة نهائيًّا، فبدلًا من أن يحوِّلوا مساجينهم إلى خدم، حوَّلوا سكان المدينة إلى عبيد.

– 3 –

كان هذا هو النصّ الوحيد الذي سقط من مارينا، أمِّي.

يمرّ الناس اليوم بالقرب من حائط مارينا وهم لا يعرفون مطلقًا أنَّ لهذا الحائط قصَّة حزينة. والدي الذي كان يشتغل في الرخام، هو الذي بناه تكريمًا لأمِّي. حائط مارينا تحوَّل مع الزمن إلى ساحل مارينا، وهو خليج صغير يقع وراء الميناء الكبير، اسمه خليج الغرباء أيضًا. ربَّما لأنَّ الكثير من المهجَّرين الأندلسيِّين نزلوا فيه لأوَّل مرَّة عراة من وطنهم. عندما أغمضت أمِّي عينيها للمرَّة الأخيرة، وغابت نهائيًّا، نزل والدي إلى الساحل، وجاء برخامة عزيزة عليه، وصلته من صقلية، وعشَّقها بزجاج فينيسيا الجميل. قطعة الأرض البحريَّة اشتراها جدِّي غاليليو للعائلة، كانت نقطته للدخول وللعبور عبر الحلم نحو أرضه الأولى. هي نفسها النّقطة التي اختارها غاليليو ليُدفن فيها إذا باغته الموت على هذه الأرض، بعد أن كانت حنّة سلطانة هي أوَّل من توسّد تربتها واستمع إلى أنين موجها

الخفيّ. اشتراها من ماله الخاصّ، فأصبحت تسمَّى مقبرة الأندلسيِّين التي انتفى فيها العنصر الدينيّ. استقبلت الموريسكيِّين كما استقبلت المارانيِّين وبعض المسيحيِّين الذين هُجِّروا معهم على الرَّغم من قبولهم المسيحيَّة تحت ضغط محاكم التَّفتيش المقدَّس. ربَّما كان المنفى أهمّ جامع لهم قبل أيّ شيء آخر. اختار والدي، النقطة التي افترض أنَّ أمِّي سلكتها وغرس حائطه الرخاميّ. لقد قضى والدي أيَّامًا طويلة وهو ينحت حائطه الرّخاميّ في وجه رياح البحر الغربية الصعبة. وكلَّما تعالى الحائط، زادت حدَّة رأسه كحربة محارب. لم يسأله أحد عن الرمزيَّة، ولم يقل ما كان في قلبه وهو ينحت حائطه. من بعيد، عندما نراه، يُخَيَّلُ إلينا أنَّه بناية بيضاء ناصعة، تصعد بالطول فقط، وعندما نقترب منه، يلمع الرّخام في أعيننا تحت انكسار أشعَّة الشَّمس الصباحيَّة. في المساء واللَّيل، كلَّما مسَّته أضواء السفن اللَّيليَّة ارتدَّت نحوها، فتعرف أنَّها قريبة من اليابسة. لم يكن منارة، ولكنَّه كان يشبهها في الوظيفة. كان نورًا هاربًا مثل وجه مارينا.

– 4 –

وفاة جدِّي غاليليو تركت في يمَّا مارينا خدوشًا كبيرة، فقد عرَّانا موته من أيَّة وسيلة دفاعيَّة. أدركت أمِّي كم أنَّ الدُّنيا كانت موحشة في غيابه. كانت مرتبطة به إلى درجة قصوى. حتى والدي المنشغل برخامه كان شيئًا ثانويًّا في حياتها. كان جدِّي مدركًا للمخاطر التي كانت تلوح في الأفق، ويخاف عليها من الأتراك. ولهذا زوَّجها من صانع الرّخام، لأنَّه كان يحبّها ولم تكن ترفضه، وإن ظلَّ مثلها الأعلى والدها. امرأة متزوِّجة أقلّ عرضة لمخاطر السلب من عذراء. كلمة عذراء تثير الغرائز الخفيَّة للإنسان للاعتداء الجسديّ. كانت هي التي وقفت بجانبه في أيَّامه الأخيرة عندما انطفأت الدُّنيا في عينيه. مات جدِّي حاضنًا كفَّها مثل

طفل، وعيناه مليئتان بالبحر. كانت مارينا تحكي عن السفن الراسية، والناس الذين يحملون أثقالهم وهم يستعدُّون للرحيل. كانت، مثله، مليئة بالقصص الكثيرة حتى انتهت ضحيَّة في عمق الحكاية. اختلطت عليها حدود الحقيقة بالخيال الذي كانت تعيش فيه. المسافة بينهما تكاد لا تُرى ولا تُسمع أبدًا. موت جدِّي غاليليو خلَّف فيها فجوة كبيرة أعادتها إلى البحر، وإلى ضجيج خفيّ يشبه ضجيج الحروب الذي كان يأتي من وراء البحر والأمواج المتقاتلة.

سار بعدها كلّ شيء بسرعة لم نكن قادرين على الرَّكض وراءها. لم تدم سعادتنا طويلًا، إذ بعد مقتل الرايس كروغلّي، تغيَّر كلّ شيء، وأصبحنا في مهبّ الرِّيح كورقة خريفيَّة معزولة. فكَّرتْ أمِّي حتى في فكرة أن نعود إلى إسبانيا التي كانت الأوضاع فيها قد تغيَّرت قليلًا، وتحسَّنت بعض الشيء، على الرَّغم من سياسة الطرد الجماعيّ التي كانت ما تزال في أذهان الناس، السياسة التي مارسها فيليب الثالث الذي افتتح زمانه، بعد وفاة والده فيليب الثاني، بجنون كبير لم يُسبق به، في 9 أبريل 1609، حيث وقَّع قرار الترحيل النِّهائيّ والجماعي للموريسكيِّين رجالًا ونساءً وأطفالًا.

فجأة، وجدنا أنفسنا من دون حائط يسندنا ونعطيه ظهرنا بلا خوف. كان دالي مامي حقودًا بعد أن جمع حوله ثروة كبيرة، وأقنع مساعديه من البحَّارة بأن يقفوا بجانبه في حربه التي كان يخوضها بصمت ضدّ حميد كروغلّي. كنَّا مرتاحين في البيت. مارينا كانت تكتب يوميًّا، وكنت أساعدها في تقريب الضوء من أوراقها، وأهيِّئ لها مدادها. والدي كان منشغلًا بعمله في محترفه الرّخاميّ. كان نحَّاتًا رائعًا على طريقته، يعطي للحجر حياة غريبة بلمسة سحريَّة. عندما يُسأل عن سرّ عمله، كان يجيب بتواضع كبير: لم أفعل شيئًا سوى أنِّي نزعت الزوائد عن الشّكل المدفون

في الرّخامة. تعلَّم في فينيسيا الصنعة على أيدي معلّمين كبار. بدأ يفكِّر في تغيير الكثير من عناصر البيت الأندلسيّ. أضاف له ملامس كثيرة جعلته أكثر إشراقًا وشبابًا. قرَّبه أكثر من التصاميم العمرانيَّة الموجودة في القسطنطينية، وفينيسيا التي كان معجبًا بها أيَّما إعجاب، بعد أن زارها في العديد من المرَّات، وتعرَّف على طريقة هندسة بناياتها. بلمسته تغيَّرت فجأة واجهة البيت الأندلسيّ، حتى بدت كأنَّها من تصميم عمرانيّ خليط بين العثمانيّ والفينيسيّ. في مدخل البيت، أضاف سقيفة جميلة لا تُرى من بعيد إلَّا كجزء من الكلّ. وضع بها حنفية للاغتسال، من الرّخام الأحمر لكي تتحمَّل الأتربة والغبار والرطوبة الخارجيَّة. ثمَّ أضاف ممرًّا طويلًا ذا سقف مقبَّب وسميك، على جوانبه أقواس جداريَّة مجوَّفة ومحمولة على أعمدة رخاميَّة. كلّ عمود نُحت بشكل حلزوني مخالف للآخر. كلّ التزيين الرُّخاميّ والأقواس الخارجيَّة كانت إضافات زائدة جمَّلتْ البيت، وأعطته روحًا جديدة. بدأ والدي في هذا العمل في حياة جدِّي، ولهذا أحبّه وأحبّ صنعته. ثمَّ رأى أيضًا أن يقوِّي البيت أكثر، بالخصوص أنَّه بُني على أرض ترابيَّة انزلاقيَّة، تأكلها الرطوبة من تحت، أنقص الزلزال الأخير، الذي دمّر الكثير من بنايات سوق الجمعة، من قدرتها على التَّحمُّل. قال إنَّ الأعمدة الرُّخاميَّة الموغلة في عمق الأرض ليست تجميليَّة فقط، ولكنَّها تحافظ على مقاومة البيت وتعطيه عمرًا جديدًا. اخترق العمود القديم في وسطه، وأنشأ منه عمودًا يصعد عاليًا، يخترق كلّ البيت بطابقه الأرضي والعلويّ، ليصعد عاليًا ويتحوَّل في النهاية إلى مرتكز صغير لمقصورة كانت تحوي الناظور. كانت مارينا تريدها. لم يغيِّر شيئًا في الناظور إلَّا زجاجته المكبّرة التي كانت مخدوشة قليلًا وتشوِّه الأشكال البحريَّة، مثلما فعل جدِّي غاليليو أوَّل مرَّة. يبدو البحر من أعالي المقصورة رائعًا وجميلًا، يعطي الانطباع لمن يراه من هناك، أنَّه أصبح قريبًا، في قبضة عينيه ويديه. أجمل أوقات مارينا كانت تقضيها معلَّقة على الناظور. تنام هناك جزءًا كبيرًا من

النهار، لحظة يكون الجوّ جميلًا، وينتابها حزن عميق عندما تلتبس السماء والبحر بالمطر والغيم والضباب الذي كانت تعتبره أكبر مرض يصيب الطبيعة والبحر. كانت مولعة بقصَّة لالة زريدة التي قصَّها والدها لها، وذكرها سرفانتس في كتابه الضَّخم الذي جاءها به تاجر الكتب. كانت كلّ يوم تقرأ أكبر جزء منه، خوفًا من أن يباغتها الموت وهي لم تنهه. تقرأه، ثمَّ تنساه قليلًا وتحاول أن ترى صورة غاليليو وهو معتكف على سجاد إيرانيّ أو تركيّ، في قصر حسن فينيزيانو، يروي أسرار الدُّنيا القاسية، ويمنح الرهينة الإسبانيَّة فرصة أخرى للحياة. فتَّشت كلّ تفاصيل الكتاب كلمةً كلمةً، جملةً جملةً، نَفَسًا نَفَسًا، رعشةً رعشةً، فعرفت بسهولة أنَّ الرجل الذي كان يروي في دون كيخوته، لم يكن في النهاية إلَّا والدها. أيَّة مسافة في التسمية بين سيد حامد بن أنخلي، وبين سيدي أحمد بن خليل؟ لا مسافة إلَّا مسافة النطق الإسبانيّ الذي غيَّر من أصل التسمية. متأكِّدة من أنَّ الرجل الذي روى المغامرات في دون كيخوته لم يكن إلَّا والدها، وأنَّ قصصه التي رواها الكتاب، سبق أن سمعتها من غاليليو. صديق والدها تجاوز مخاطر محاكم التَّفتيش المقدَّس التي كانت تتَّهدده في حياته، قبل مماته، ممَّا كان يمنحها بعض السعادة، لأنَّ والدها كان لا يتوقَّف عن إثارة خوفه عليه وعلى حياته.

– 5 –

ذات يوم، عندما رجع والدي من محترفه، لم يجد مارينا. سأل عنها كلّ الذين كان يعرفهم والعابرين نحو البحر. بحث طويلًا، بلا أيّ جدوى. كلّ الناس أجمعوا على أنَّهم رأوها في الساحل تسير على الرمل وحيدة. ثمَّ في الميناء. ثمَّ غابت. حتى إنَّ هناك من يجزم أنَّها ركبت في أحدى سفن الرهائن العائدة إلى إسبانيا ولا يعرفون ماذا حدث بعدها! رأوها ترفع

القسم الأمامي من لباس زهريّ طويل، وتصعد سلالم السفينة الثقيلة كأيَّة سائحة على باخرة كبيرة. لم تكن تحمل شيئًا، ولا حتى رزمة الأوراق التي خرجت بها من البيت آخر مرَّة. إشارتها الوحيدة هي ورقتها الصغيرة التي تركتها في مقصورة الناظور: *كنت أريد أن آخذ معي كتاب والدي، ولكنِّي خفت من أن يسرقه الماء منِّي*، والقتلة. البحر حبيب الغريب حتى يتحوَّل كلاهما إلى ملح، الأوَّل للفراغات العميقة، والثاني للتربة المنزلقة من بين الأكفّ. هو ذا مخطوط جدّك يا سيلينا، الذي عاش غريبًا ومات غريبًا كسابقيه من الناس الطيِّبين. هو لكِ، احفظيه في عينيك. ضعيه في عمق قلبك. إن وجدت ما تكتبينه، أكتبي عنِّي، وعن أهلي، وعن كلّ مآسينا، وكيف سرقوا منَّا حلمًا كان لنا، وكيف بهدلوه وحوَّلوه إلى اللَّاشيء. كوني سخيَّة، وامنحي ورثتك بعضًا من هذا. قوليه فقط، وسيأتي حتمًا من يحفظه. عندما تعب والدي من البحث في كلّ مكان عنها، بكيناها وسلَّمنا بأمر موتها. من هنا نشأت فكرة الرّخامة التي كتب عليها آخر جملها: *كنت أريد أن آخذ معي كتاب والدي، ولكنِّي خفت من أن يسرقه الماء منِّي*. ثمَّ نصب الشاهدة الرخاميَّة التي نحتها على مدار شهور عديدة عند واجهة البحر. خليج مارينا. الفكرة الأصليَّة من عند جدِّي غاليليو: عندما نخلق مقبرة تبدأ حواسنا بالتربة والأرض تتأصَّل بقوَّة، ونشعر فجأة أنَّنا أصبحنا من هذه الأرض أو تلك. من دون مقابر تظلّ الأراضي التي نسكنها بعيدة عنَّا.

لم تكتب مارينا كثيرًا في كرَّاسة والدها. قبل أن يُسرق منَّا البيت والقلعة البحريَّة أو الصومعة كما كانت تسمِّي مقصورة الناظور. حتى عندما انزوت في بيت الخدم، قبلت بذلك لأنَّها شعرت في لحظة يأس أنَّها كانت تنفِّذ وصيَّة قديمة لوالدها. سألتني يومًا وهي تتأمَّل البحر، من وراء الناظور:

ـ شوفي يا سيلينا، شوفي، هل ترين شيئًا؟

ـ لا يا يمّا، لا شيء سوى البحر!

ـ ألا ترين السفينة البيضاء هناك في عمق البحر! ألا ترين الناس الذين يرفعون الأعلام البيضاء ويستعدُّون للدُّخول لا كفاتحين ولكن كطالبي محبَّة؟ هناك على حافة الميناء، ناحية خليج الغرباء؟ لابدَّ أن يكون شيء ما قد سرق نور عينيك. أغسلي وجهك وتعالي.

وعندما تلتفت وراءها، ترى ظلَّ والدي الذي ظلّ يسكنها منذ انكساره الجسديّ، دفاعًا عنها وعنَّا. تسأله فيأتيها صوته الشجيّ والجميل والمليء بالصمت. تطرح السُّؤال نفسه عليه: ألا ترى شيئًا! هناك في الزاوية الفاصلة بين البحر والأفق؟ تسمع نداءه من بعيد: نعم عمري، أرى كلّ ما ترين. ياه يا مارينا! يا اللّـه ما هذه الدَّهشة العالية؟ إنَّهم يرفعون الأعلام البيضاء، ربَّما كانت بقية العائلة تستعدّ للمجيء نحونا بعد كلّ هذا الغياب القاسي!

لم يكن والدي هناك بجانبها، ولكنَّه كان فيها.

أكاد أقول لها إنَّ والدي فقد لغته منذ أن انتزعوا منه حياته. أهمس في أذنها:

ـ ارتاحي يا يمَّا قليلًا، لقد تعبتِ كثيرًا.

تستسلم لي مثل طفل، وتضع مخطوطة غاليليو، والدها، على وجهها، ثمَّ تنام قبل أن تستيقظ مذعورة من شيء غريب. تتذكَّر اللَّحظات القاسية التي عشناها مع قتلة دالي مامي، واحدة واحدة، عندما احترق كلّ شيء فجأة، وأصبحنا خدمًا بلا حياة، في بيت سُرق منَّا جزؤه الأجمل، في عزّ النهار.

ـ 6 ـ

الأحداث مرَّت علينا بشكل عنيف وسريع، لم يُتح لنا حتى بعض الوقت لفهمها. فقد أربكتنا جميعًا، ولكنَّها دمَّرت من كان أكثرنا هشاشة: مارينا.

كلُّ شيء بدأ عندما زارنا فيلق من الانكشاريَّة، مدجَّجين بالبواريد والسُّيوف. رموا كلّ أثاثنا في الخارج بلا رحمة، وقالوا: بدءًا من اليوم لا تدخلوا هذه الدار. دخولكم يعرِّضكم للمهانة والموت، لقد أصبحت ملكًا لسيِّد البحر دالي مامي. لم يقل والدي شيئًا. كان رجلًا مسالمًا وطيِّبًا، وهادئًا مثل عاصفة ثقيلة. جهده كلُّه تركَّز في سعادة عائلته ورخامه وتربته البيضاء التي يعجن بها أجمل الأشياء. لم يحمل سلاحًا في حياته إلَّا للصيد، عندما يريد أن يتسلَّى وينسى أسبوعًا من المتاعب المتراكمة. لم يتحمَّل التهديدات المتوالية والإهانات. فاشترى سلاحًا ناريًّا، فردًا صغيرًا ولكنَّه قويّ، من مهرِّب إيطاليّ أسلم في اليوم الأوَّل الذي أُلقي القبض عليه ليحفظ تجارته وحياته. رابط والدي في البيت لأيَّام عديدة، ولكنَّهم تأخَّروا حتى ظنَّ أنَّهم نسوْنا من جديد. لكن رأيناهم ذات مساء وهم يصعدون المنحدر الذي يقود نحو فجوة خليج الغرباء. أطلق النار عليهم من بعيد ليخيفهم أوَّلًا. تفرَّقوا، ثمَّ هربوا ولم يعودوا. لكن بعد يوم واحد، عادوا أكثر تصميمًا بعددهم وعِدَّتهم. جمع والدي كلّ الأشياء الثمينة، وذهب حنّة سلطانة الكثير، والوثائق ومخطوطة جدّي غاليليو، ووضع الكلّ في صندوق خشبيّ. أراني أنا وأمِّي وأخي المكان، ثمَّ ردمه في حفرة عميقة تحت شجرة السّرو الوحيدة في الجنان، وغطَّى الكلّ بالتربة القديمة والحشائش.

كانوا أكثر من عشرة عندما باغتونا من كلّ الجهات. لم يترك الانكشاريَّة هذه المرَّة لنا أيَّة فرصة. كانت مارينا في مقصورتها، غائبة

في تأمُّلاتها وقراءاتها وكتاباتها التي لم تتوقَّف أبدًا، في أيّ يوم من الأيَّام.
وجوههم كانت باردة كقطع معدنيَّة حادَّة. أذرعهم ضخمة، وصدورهم مشعَّرة ونصف عراة. لم يكن واحد فيهم يصلح لأن يكون إنسانًا. والدي، عندما رآهم من بعيد يصعدون العقبة، التحق بسرعة بالدار. كانت يداه ما تزالان مليئتان بغبار الرخام الذي كان يقصُّه ويطحن بعضه. نزع الغطاء من على أنفه. لم يسألهم، ولكنَّه عندما رأى في عيونهم شرًّا، قال برباطة جأش:

ـ أريد الحديث إلى كبيركم. تابعين لمن؟

ضحك أحدهم حتى بانت أسنانه وأضراسه التي خرَّمها السوس.

ـ حاكمنا. لا تخف، سيتشرَّف بمعرفتك. سيلتحق بنا بعد قليل. جئنا نخرجك من الدار بالتي هي أحسن.

ـ عن أيَّة دار تتحدَّثون. هذه دار أهلي وأجدادي.

ثمَّ تقدَّمت أمِّي وكأنَّها كانت تريد أن تذكِّرهم:

ـ دار والدي، ولنا كلّ الوثائق التي تثبِّت بأنَّها لنا.

ـ هذه الأرض هي أرض الريَّاس. وهي أرض وقف.

ـ والدي اشتراها قبل سنوات طويلة من الرايس حميد كروغلّي اللّـه يرحمه، ووثَّقها عند قاضي البحَّارة. والوثيقة موجودة، ويمكنكم أن تطَّلعوا عليها عند الموثِّق.

ـ أنت امرأة، ونحن جئنا نتحدَّث مع سيِّد البيت، أللَّهم إذا كان سيِّد البيت امرأة أيضًا!

تضاحك بقيَّة الإنكشاريَّة، ثمَّ صمتوا فجأة. وصل مامي دالي في اللَّحظة نفسها.

ـ هذه الدار لي يا لالة مارينا. يجب أن تنسي نهائيًّا أنَّكِ مالكها. طبعًا إذا أردتِ أن تشتريها منّي، سأبيعها لكِ، لكِ الأولويَّة قبل غيركِ. قانون البحّارة واضح. قتلتُ الكروغلّي، فكلّ أملاكه أصبحت لي، حتى أنتم.

صعد والدي للطابق الأوَّل. سأله مامي دالي:

ـ ماذا تفعل؟

ـ آتيكم بالأوراق الموقَّعة من قاضي البحَّارة التي تثبِّت بأنَّ سيدي غاليليو اشتراها.

ـ قد لا تنفعك كثيرًا، ولكن لا بأس! آتني بها لأتأكَّد ممَّا تقوله زوجتك.

تمتم مامي دالي وهو يتفحَّص بعينيه الذئبيَّتين كلّ ما كان بالبيت من أدوات وتحف، وكلّ ما خاطته أمِّي، والعيدان الثلاثة التي كانت تعزف بها حنّة سلطانة مع فرقتها جاهاركا، لاكاسا أندلسيا. استطعنا أن نخبِّئ واحدًا في الصندوق الخشبيّ. لم تكن مارينا موهوبة وقويَّة الشخصيَّة مثل أمّها، ولكنَّ هشاشتها جعلتها أكثر حساسيَّة من أيّ واحد منَّا في البيت. كانت تكتب كثيرًا. وأعتقد أنَّ أمِّي كانت كاتبة كبيرة، ولكنَّها سحبت وراءها كلّ ما كتبته، ولم تترك لنا إلَّا قصصها المنكسرة. نظرت مارينا إلى كلّ ما كان يحيط بها كمن يودِّع للمرَّة الأخيرة مكانًا عزيزًا. كان والدي يعرف جيِّدًا أنَّ نيَّتهم لم تكن طيِّبة، وأنَّ في عيونهم دمًا كثيرًا وشرًّا واضحًا. عندما أراد أحد الإنكشاريَّة أن يلمس مارينا، وكان اسمه قورصو، عرفت اسمه عندما ناداه دالي مامي ضاحكًا:

ـ ورِّينا يا قورصو شطارتك، ومتِّعنا بقدراتك العظيمة.

كان والدي قد نزل من الطابق الأعلى، فرده في يده. امتلأت عينه بالدم. أطلق النار على قورصو، فأرداه قتيلًا. ثمَّ اختبأ وراء الحائط الركيزة، وعندما أراد الرجل الثاني أن يطلّ برأسه ليبحث عنه، أطلق النار

عليه فأصابه. تمرَّغ قليلًا في مكانه، قبل أن يسكن جسده للمرَّة الأخيرة. كنَّا مختبئين كيفا اتَّفق. لكنَّ أحدهم كان قد خرج وصعد من وراء الحائط الخارجيّ وكأنَّه كان يعرف الدار جيِّدًا، ونزل من الأعلى. نظر والدي باتِّجاه مامي الذي طلب من رجاله أن ينهوا المهزلة. في اللَّحظة التي صوَّب فيها والدي فرده باتِّجاه رأس مامي دالي، فاجأه الرجل من الوراء بعيار مليء بالأحقاد والرَّغبة الدمويَّة في القتل. ثمَّ جرّه بكلّ قواه، مجروحًا في ساقه. ركض أخي الصغير بكلّ قواه تجاه والدي الذي كان يتمرَّغ في دمه، ولكن أحد الإنكشاريَّة اختطفه من ظهره كفرخ حمام بين فكَّيْ ذئب. قال مكشِّرًا عن أسنان صفراء: حتى أنت أيُّها الفرخ، تريد أن تشبه أباك؟ تعال. ستكون من حصة سيِّدنا. ثمَّ قدَّمه لمامي دالي.

ـ هل نتعشَّى به أم نهديه لمامي أرناؤوط، فهو يحبّ اللَّحم الطريّ.

ـ أفضِّل أن نتعشى به.

أخرجونا جميعًا باتِّجاه الحديقة. رفع مامي دالي رأس والدي قليلًا. ثمَّ ضحك:

ـ هذا هو خليفتك إذن؟

ـ أرجوك ارحمه. ملائكة.

تمتم والدي مختنقًا. قبل أن يتمّ كلامه، كان مامي دالي قد قطع رأسه بضربة سيف خاطفة. لم يصرخ أخي أبدًا. كنت محترقة، ولكنِّي كنت سعيدة أنَّ أخي لم يتألَّم. ثمَّ توجَّه نحو والدي من جديد وهو يضحك مع بحّارته. كان أحد الإنكشاريَّة القساة يضغط بحذائه الثقيل على رقبة والدي لكي يمنعه من الحركة، على طرف النافورة. في لحظة خاطفة، رأيت عينيْ أبي تبرقان للمرَّة الأخيرة. كانتا تخفتان كقنديل زيتيّ في لحظاته الأخيرة قبل الانطفاء. تحرَّك مامي دالي بصعوبة وهو يجرّ وراءه

رِجله الخشبيَّة، وجثَّته الثقيلة. اقترب من والدي. جرَّنا كلَّنا نحوه وهو يردِّد:

ـ انظروا ماذا يقع لمن يعصى سيِّده. قتلت الكروغلّي، لأنَّه ظنَّ نفسه أنَّه تحرَّر منِّي، واليوم أخصي عبده. لن أقتله لأنَّه يحتاج إلى أن يعيش عمرًا آخر بلا رجولة، امرأة. وهذه أقسى قتلة نخصِّصها في عرفنا، لمن نحبّ فقط. كروغلّي قتلته في عمق البحار، وعبده، أخصيه في أرضه.

ـ يا سيِّدي... أقتلني أرجوووووك.

ترجَّاه والدي، ولكن لا أحد كان مستعدًّا للسماع لنداءاته التي اختلطت، بصرخته الحادَّة، وقهقهات الإنكشاريَّة المحيطين بدالي مامي، ولمعان السكِّينة الحادَّة التي لوّحت في الهواء، فانكسرت عليها أشعَّة شمس حمراء كانت تنحدر نحو خليج الغرباء للمرَّة الأخيرة.

– 7 –

سحبوا أمِّي نحو عمق البيت، في الداخل. في لحظة غفلة من الإنكشاريَّة، هربتُ نحو الجنان وصعدت إلى شجرة السّرو العملاقة واختبأت بين أغصانها. لم يبحث عنِّي أحد. كانوا كلُّهم مع أمِّي، وكنت أسمع صرخاتها المتتالية، ثمَّ سكنتْ نهائيًّا. بعد لحظات دامت قرنًا من الزمن، كانوا يخرجون الواحد تلو الآخر، وهم يشدُّون على أحزمتهم الصوفيَّة. ثمَّ انسحبوا جميعًا مخلَّفين روائحهم التي كانت مزيجًا من الجيفة والخمائر القديمة. إلى اليوم، ما تزال تملأ أنفي كلَّما تذكَّرت ما حصل لمارينا. ثمَّ رأيت ثلاثتهم يخرجون ويرمون بأمي في بيت الخدم، ويلحقون بأصدقائهم الذين كانوا ينحدرون باتِّجاه الخليج. نزلت من الشجرة وتوجَّهت نحو أمِّي وأبي. كانا يعومان في الدم. أخبرت كلّ من

استطعت. نصحوا مارينا بمغادرة البيت، ولكنَّها رفضت. نسيت بسرعة جرحها، ثمَّ أخذت والدي وأدخلته لدار الخدم، وحاولت أن توقف نزيفه الحادّ. كان حيًّا، ولكن غائبًا كليًّا عن الوعي.

نجا والدي من الموت، ولكنَّه كان أسهل عليه لو قُتِل.

بين يوم وليلة، تحوَّلنا إلى خدم في بيت كان لنا.

رفضت أمِّي أن تغادر المكان. قالت أموت ولا أخرج، هذه وصيَّة والدي. لم يعد لديَّ ما أخسره. بينما كان دالي مامي قد وضع عائلة هناك تحرسه. وبقينا نحن في جهة الخدم لا حقّ لنا في أيّ شيء، إلى أن اشتراه حسن باشا الخزناجي لابنته خداوج، وكانت له معرفة طيِّبة بغاليليو، فقد قاما معًا بحملات بحريَّة كثيرة. بقينا دائمًا في بيت الخدم، ولكن كان لنا الحقّ في الخروج إلى الجنان، والدخول حتى إلى البيت الكبير. لم تكن مارينا الهشَّة تريد شيئًا في لحظات خلوتها سوى السماح لها بالصعود قليلًا إلى المقصورة، أو تجلس تحت اللَّوزة التي كانت كلَّما جاء الرَّبيع، تلبس الأنوار البيضاء والبنفسجيَّة. تسألني:

ـ هل تدرين أنَّ هذا اللَّوز بالذات يشبه لوز غرناطة؟

ـ نعم يا أمِّي. أحكِ لي عنها.

ـ كان جدّك غاليليو الروخو، أو كما سمَّاه أهله سرِّيًّا سيدي أحمد بن خليل...

ثمَّ تغرق في كلّ التفاصيل الحكائيَّة التي كانت تتقنها جيِّدًا، حتى كيف نزعها وهي نبتة صغيرة من حقل في مرتفع زفرة الموريسكي الأخيرة، ولا تتوقَّف حتى تنتهي من نسج كلّ تفاصيلها. كنت أعرف أنَّها كانت تحكي بلغة جدِّي غاليليو، فهي لم تعرف في حياتها المدينة التي كانت تتحدَّث عنها ـ غرناطة. تغرق في التفاصيل وكأنَّها هناك بالضبط.

أحاول أن أنبِّهها: أمِّي غرناطة بعيدة ولم نسافر إليها بعد! ولكنَّها تواصل وصفها الدَّقيق. تتحدَّث عن حقل البرتقال، وكيف قصَّت بيديها الناعمتين جذعًا صغيرًا من شجرة حيّ البيازين، وجاءت به عندما اضطرَّت إلى مغادرة الأندلس. أنبِّهها مرَّة أخرى بحزن:

ـ يمَّا... أرجوك! أنا سيلينا ابنتك وقد ولدنا على هذه الأرض الطيِّبة والقاسية في الآن نفسه! أنتِ ولدتِ هنا وليس في مكان آخر، وهذه أرضنا الأولى والأخيرة، ووالدك مدفون هنا، على حافَّة البحر، ووالدتك الطيِّبة والأنيقة، أيضًا. الأندلس أصبحت بعيدة يا أمِّي، علينا أن ننساها نهائيًّا.

تصمت قليلًا. تنظر إلى السماء، تبدو لها وكأنَّها فارغة وهادئة، ثمَّ إلى البحر فتلتصق نظراتها به.

ثمَّ تقول بصوت خافت يكاد ينتفي مع هسهسة الرِّياح في الخارج:

ـ هل تدرين؟ اشتقت إلى البحر. أصبح اليوم بعيدًا. هل يمكن أن نطلب من خداوج ومن حفيديها اللذين يرافقانها، السماح لنا بالصعود إلى المقصورة ولو قليلًا؟ خداوج طيِّبة.

ـ سأفعل يا أمِّي.

تسألني:

ـ متى يكفّ والدك عن صنعة الرّخام، أكلته حتى أصبحنا نشتاق له؟

ـ سافر يا أمِّي. تعرفين أنَّه يحبّ جَنَوة وفينيسيا ومسّينا، لأنَّ رخامهم جيِّد، وزجاجهم لا شبيه له.

ـ ليست هذه المدن بعيدة بالشكل الذي يبقى فيه كلّ هذه المدَّة؟

ـ مسافة بحريَّة ليست هيِّنة يا أمِّي. يأتي بالرّخام من مسينا وجَنَوة، وعليه أن يأتي بزجاج التعشيق من فينيسيا، وهذا وحده سيكفيه شهورًا كثيرة.

أبكي في أعماقي. يهرب منِّي يقيني. والدي كان يهرب دائمًا من خزراتنا أنا وأمي.

بالنِّسبة لأمِّي، لا شيء تغيَّر منذ وفاة والدها الذي ظلَّ يدلِّعها ويعتبرها عمارة الدار كما كان يقول لها.

«ـ لالة مارينا هي عمارة الدار في غياب لالة سلطانة.»

فجأة، توقَّفت أمِّي عن الكتابة والقراءة. حتى القسم الثاني من كتاب سرفانتس، الذي انتظرته طويلًا وجاءها مع تاجر للكتب والمخطوطات والنوادر، واشترته بما خبَّأته من ذهبها عن عيون القتلة، انتفى نهائيًّا من ذاكرتها. وكلّما تذكَّرته وغاصت فيه قليلًا، بكت ثمَّ أغلقته. نوبات البكاء أصبحت تتكرَّر كثيرًا وتستمرّ طويلًا. تسألني وأنا أقرأ ضياعًا وتيهًا قاسيًا في عينيها:

ـ سيلينا حبيبتي، أشعر بالغربة. الغربة الكبيرة. لم أتعوَّد على هذا الجوّ وهؤلاء الناس. لا أستطيع أن أصفو أبدًا. لا أتحمَّل هذه القسوة. أريد أن أعود إلى غرناطة حيث بقيَّة أهلي وأصدقائي، وحاراتي وجبالي ومدافن أجدادي. لتفعل بي محاكم التَّفتيش المقدَّس ما تشاء، لم تعد الحياة تهمّني، بقدر ما يهمّني ترابي وموتي.

ـ يا يمّا. اللّـه يهديك. هذه أيضًا أرضك. هل تتركين زوجك الغائب؟ غاليليو وسلطانة وحيدين هنا في مواجهة بحر ظلّوا غرباء عنه، ووجوه لم تكن تحبّهم دائمًا؟

أحكُّ على رأسها. تنحني قليلًا على صدري. وقبل أن أدخل يدي في عمق شعرها الأحمر:

ـ أريد أن ننزل إلى مقبرة خليج الغرباء. أريد رؤيتهما.

عندما نزور قبريهما على حافَّة البحر وتقرأ اسميهما المطرَّزين على الرّخام، تعود مرتاحة القلب وتنسى ضيقها، وتصبح عاديَّة. تؤكِّد لي أنَّها تنتظر مجموعة من الكتب تأتيها من فلورنسا بلنسيا قريبًا. القراءة مثل النوبات، عندما تنتابها، تنام فيها زمنًا طويلًا ولا ترفع رأسها أبدًا، تضحك وتبكي، تأكل وتشرب، ترقص وتتألَّم، ثمَّ تظلّل عينيها بالكتاب فتغفو، ثمَّ تنام.

عندما نعود نحو البيت، نتفادى النَّظر إلى البحر.

لا أعرف ماذا حدث لها بالضبط، أو ربَّما لا أتذكَّر. فقد أصيبت بحالة اكتئاب كبيرة. وغرقت في الكتابة، بعد أن وضعت كلّ الكتب التي اشترتها في حقيبتها، ثمَّ خبَّأتها في مكان لم أعد أتذكَّره على الرَّغم من الجهود التي بذلتها، ولكنِّي لم أفلح. كنت أريد أن أقرأ جرحها بمعزل عنها. لا تأكل ولا تشرب إلَّا بالقدر الذي يسمح لها بالعيش. ثمَّ تعود إلى الكتابة. من حين لآخر، تطلب منِّي أن أهيِّئ حبرها وريشتها، ثمَّ تنكفئ على نفسها حتى اعوجّ ظهرها. عبثًا، رجوتها أن ترتاح. كنت أعرف أنَّها كانت هناك، ولم تكن هنا أبدًا.

ـ يمَّا حبيبتي، هل تعرفين أنِّي أحبّك.

ابتسمت. يا اللَّـه، لم أكتم صرختي.. كم كانت مشرقة وجميلة! في ابتسامتها سحر طفوليٌّ هو الوحيد الذي ظلّ يقاوم عواصف المرض. في عينيها الخضراوين المائلتين نحو صفرة هاربة، تشبه صفرة بعض الزهور البرِّيَّة، نور لا يخفت إلَّا ليعود ثانية. اندهشت منِّي وأنا أتلمَّس وجهها:

ـ واش بكِ يا بنت؟ أنا أمّك مارينا، وأنت حبيبتي سيلينا؟ وكأنَّك تكتشفينني للمرَّة الأولى.

كانت في لحظة صفاء نادرة.

ـ أمِّي، هل يمكنني أن أقرأ ما تكتبين.

ـ خطِّي رديء. أقرأ لك إذا كنت تصرِّين.

ـ يا اللّـه يا يمَّا.

ـ تسمعينني؟

ـ أسمعك يا أمِّي بروحي، وقلبي، وكلّ شيء حيّ فيَّ.

ثمَّ تنغمس في القراءة:

« يا اللّـه! أكاد أصرخ بأعلى صوتي: لماذا فعلت كلّ هذا بي؟ كنت أحبّك وأبحث في تفاصيلك المبهمة عن شيء منك تخفَّى بصدفة الأقدار فيَّ. لماذا غابت شموسك بسرعة؟ لماذا آويتني في قلبك، ثمَّ نسيتني هناك، ثمَّ محوتني؟ ألم من يكن من الأفضل أن تضعني بالقرب منك، وتحضنني في وقت الخوف، وتحكَّ على رأسي كما يفعل الكبار بالصغار، وتغنِّي لي أجمل أناشيدك السِّحريَّة كما فعلتَ مع أنبيائك ملائكتك الطيِّبين؟ لم يكونوا أحزن منِّي، ولم تكن جروحهم مفتوحة أكثر من جرحي. ولأنَّك انطفأت من بين يديَّ، الشمس تغيب أيضًا على غرناطة. لا شيء في قلبي إلاَّك، حبيبًا وعشيقًا وأبًا وروحًا قدسًا. سيدي الجليل أحمد بن خليل، حبيبي غاليليو! كان يمكن أن تخبرني قبل أن تحمل حقائبك وتعود إلى أرضك الأولى، كنت استسلمت لعينيك ويديك ونداءات العودة معك. وربَّما ما كنت منعتك ورجوتك أن تبقى فقط لنرى معًا شروق الشمس وغيابها على حوافّ ضفاف خليج الغرباء. أعرف أنَّ الرَّغبة في العودة مثل الطوفان، عندما تستيقظ لا قوَّة في الدُّنيا تمنعها، تفشل أمامها كلّ الإرادات والنوايا الحسنة. لكنَّك لو انتظرتني، كنت على الأقلّ ضممتك إلى صدري وقبَّلتك بقوَّة ونسيت للحظة أنَّك إلهي، والدي، ولا أتذكَّر سوى أنَّك حبيبي. أشمّ رائحتك. عطرك. عرقك الزكيّ الذي يشبه عرق الآلهة والأنبياء والأبطال، في حروبهم

العادلة. ألمس وجهك. أرى في عينيك البحر قبل أن يغيب فيك وتغيب فيه. وأوصيك كما توصي أيَّة أم طيِّبة ابنها الوحيد، أو عاشقة مهبولة حبيبها القاتل: احذر، احذر كثيرًا حبيبي، يمكن أن يكون قد نسيَك الأقربون. المدن حينما نبتعد عنها كثيرًا، تنكرنا وربَّما تعادينا أيضًا، قبل أن تضرب صفحًا عنَّا وتنسانا[1].»

لم أضف جملة واحدة لكلامها. نصّها السخيّ، كان في قلبي وذاكرتي وخطوطي.

والدي عندما دخل عليها وهي تقرأ ما كتبته، فعل ذلك بهدوء، ثمَّ جلس كغيمة على الحصير، ومدَّد رجليه بصعوبة وهو يعضّ على شفتيه من شدَّة الألم في حجره، الذي كان ما يزال يعاني منه على الرَّغم من بداية شفائه من جرح لا يموت أبدًا، لأنَّه ليس في الجسد وحده، ولكن في الرُّوح. مدَّ سمعه إليها بدون أن يثير انتباهها. لم تتوقَّف حتى نامت على ورقها. عندما حاولت أن أحرِّكها، وأجعلها في وضعيَّة مريحة، تمتم: دعيها، فهي في راحة كبيرة. تركتها.

لم يكن ما قرأتْ سوى أشكال غامضة تشبه السكاكين والطيور الهاربة، ونزف غامض متأتٍ من بعيد.

(1) أيُّ بهاء كانت تمتلكه مارينا؟ ماذا لو بقيت نصوصها كلها التي كتبتها ولم تندثر معها؟ عمي مراد باسطا لم يصدِّق، عندما قرأت النص على مسمعه، أنَّه لمارينا. فقد رفض الاعتراف بكل ما لم يكن ضمن المخطوطة، ولكنه يعترف أن ما حكته سيلينا في أوراقها كان قريبًا جدًّا مما توارثه عن جدّته ووالده. كل هذا التشوُّق كان مبرِّري الكبير في الوقوف ساعات طويلة بالقرب من الحفّارة الضخمة التي كانت تهيئ الأرضية لبناء البرج العالي، أو برج الأندلس. كنت ومازلتُ متأكدة من أنَّ أوراق مارينا موجودة في مكان ما من بقايا البيت أو الحديقة. كل الشهادات القديمة تلح على أنها انطفأت أو ركبت في السفينة الثقيلة ويداها خاليتان من أية أوراق، مع أنها عندما غادرت المقصورة، في المرة الأخيرة، كانت محمَّلة بها (ماسيكا).

لم يكن أمام والدي أيُّ حلّ آخر غير تركها تفعل ما تشاء، بعد أن فشل في كلّ شيء. حتى وليُّ اللَّـه، حارس المدينة، سيدي عبد الرحمن الثعالبي أخفق في حمايتها، مثلما أخفق في حماية المدينة التي كنَّا جميعًا ننتسب إليها، ولم تشعرنا أبدًا بأنَّنا كنَّا منها.

وذات صباح ممطر، قام والدي من نومه مبكِّرًا. جال قليلًا في الجنان، ثمَّ عاد ليوقظني. سألني:

ـ أرأيت أمّك؟ مارينا غير موجودة؟

ـ تركتها البارحة في المقصورة بعد أن طلبنا من خداوج أن تتركها هناك قليلًا، لأنَّ ذلك يذكِّرها قليلًا بأهلها، فلم تمانع. انتظرتها حتى أخذتها الغفوة، ثمَّ النوم الطويل، على هدهدة الأمطار التي كانت تتكسَّر على جزء من الأسطح الزجاجيَّة القرميديَّة.

ـ قلت لك أمّك غير موجودة يا سيلينا؟

قال أبي ضاغطًا على كلامه، وكأنَّه كان يتألَّم.

قالت خداوج إنَّها رأتها عندما استيقظت في اللَّيل، تلملم كلّ أوراقها بهدوء في المقصورة، ثمَّ خرجت لا تحمل شيئًا مهمًّا إلَّا كومة من الأوراق وضعتها داخل غلاف جلديّ، ثمَّ وضعت الكلّ داخل كيس من الخيش، وخرجت. لم أجرؤ على سؤالها، إذ إنَّها كعادتها، كانت داخل صمتها. قلت في خاطري ربَّما خرجت نحو البحر كما تفعل من حين لآخر، ثمَّ تعود بكلّ تأكيد، فهي تعرف البيت جيِّدًا. ثمَّ سلَّمتنا ورقة وجدتها بجانب القنديل الزيتيّ: كنت أريد أن آخذ معي كتاب والدي، ولكنِّي خفت من أن يسرقه الماء منِّي. البحر حبيب الغريب حتى يتحوَّل كلاهما إلى ملح، الأوَّل للفراغات العميقة، والثاني للتربة المنزلقة من بين الأكف.

تأمَّلت الورقة. شممت رائحتها، ثمَّ خرجت مع والدي للمرة الأخيرة، نبحث عن مارينا.

من أوراق حفيد لالَّة سيلينا

الورقة الثانية عشرة[1]

وتحكي عن دخول الغازي الجديد الذي نهب كلَّ شيء في المحروسة، ومحا معالمها القديمة. ومحكيّات سيدي حمدان بن عثمان خوجة عن السقوط الأعظم.

وكيف حُوِّل بيت لالة سلطانة بلاثيوس إلى أوَّل دار بلدية في عهد الاحتلال،

قبل أن يُهيَّأ كإقامة شتويَّة لنابليون الثالث وزوجته أوجيني.

(1) مدوِّن هذه الورقة مجهول الاسم، على الرَّغم من معرفة نسبه. في مثل هذه الحالات كثيرًا ما يسبق المدوِّن اسمه والتَّعريف بنفسه قبل أيّ عمل تدوينيّ. في هذه الوثيقة غاب الاسم نهائيًّا، ولا نعرف إذا ما كان ذلك صدفة أم عن قصد؟ ولا نعرف عن الرجل أيَّ شيء. كلُّ ما نعرفه هو أنَّه صاحب البيت الأصليّ، وأنَّه يقيم في البيت الأندلسيّ، الذي تحوَّل إلى قصر بعد أن نزعت مقصورته، وأضيف له طابق جديد بأمر من خداوج العمياء التي أصرَّت على أن تكون لها لمستها الخاصَّة في القصر. اختُصر جزء كبير من حدائق الفحص، وحُوِّل إلى مخازن كان يستعملها أبوها الخزناجي حسن آغا لمصالحه التجاريَّة الخاصَّة.

ـ 1 ـ

لم يكن لقائي به كبيرًا، ولكنَّه كان كافيًا بأن يحبِّبني بالرجل. سيدي حمدان بن عثمان خوجة. شعلة متَّقدة من النور. كان منشغلًا بالرُّدود على من اتَّهموه بتمجيد الأتراك حتى بعد انكسار شوكتهم. من حين لآخر يصرخ بأعلى صوته:

ـ ماذا قلت في المرآة؟ لا شيء سوى أنِّي وصفت حال البلاد والعباد. وصفت حروبهم ووصفت مقاومتنا؟

ـ يا معلِّمي؟ يريدونك أن لا تكون أنت؟

ـ صعب. لقد لبست تاريخ هذه الأرض وشربت من مائها، أنا ابنها ولحمي من تربتها. لست أعمى تجاه ما يملكون، ولست أعمى أيضًا تجاه ما أرى.

لا أدري لماذا وجدتني معلَّقًا في التاريخ، وتلميذًا لما كان يقوله. سوى أنَّ رحلتنا بدأت بشكل مخالف، فقَّرنا الأتراك وسلبوا بيتنا، وأغنوه، بأراضي المتيجة وخيراتها. وفقَّره الفرنسيُّون، واستمرَّ فقرنا ولم يتغيَّر شيء في حالتنا. جهده أحفظه في القلب. كان يتوسَّط لي لاسترجاع بيتنا المسروق من جدَّتي سيلينا التي يتَّموها في وقت مبكِّر وأسكنوها لأوَّل مرَّة دار الخدم. ولكنَّه هو نفسه لم يفلح. كلَّما تعلَّق الأمر بريَّاس البحر، سكن الخوف قلوب كلّ الناس. الداي نفسه لا يستطيع شيئًا، لأنَّ الكثير من السابقين له إما أُسقطوا من على العرش أو شُنقوا وهم على كرسيّ الحكم.

ـ المشكل يا ابني أنَّ الدار بيعت واشتُريت العديد من المرَّات.

ـ بدون حقّ، ونتيجة غطرسة ظلم.

- ولكنَّها بيعت للأسف. ممَّا يجعل أمر استرجاعها صعبًا. المعتدون ماتوا، والساكنون هم ورثاؤهم!

- 2 -

لا شيء تغيَّر منذ أن تسلَّمت البلاد يد غير اليد التركيَّة، تصوَّرناها منقذة، وهلَّل الكثير منَّا، فاتَّضح أنَّها كانت أسوأ. القوَّة تُفرض ولا تناقش، وهذا ما حدث بالفعل. حتى سوق الطيور، أو سوق الجمعة، على الرَّغم من التحوُّل الذي لحق به، هو أيضًا، لم يتغيَّر إلَّا قليلًا. ما يزال كما كان منذ البداية، تعاريج ضيِّقة تبدو بلا نهاية، تحيط به منازل الأهالي وقصور أعيان المدينة السابقين. اشتهر هذا المكان، بكونه ملاذًا للكثيرين من عشَّاق الطبيعة، لذا اتُّخِذ فضاء لعرض وبيع مختلف أنواع الطيور النادرة وكذا الحمائم والعصافير المغرِّدة التي تتصادى، من كثرتها وتداخلها، يصعب على الأذن أن تفرِّق بينها. كلُّ يوم جمعة، اعتبارًا من ظهور أولى خيوط الفجر، إلى غاية ارتفاع صوت المؤذِّن إيذانًا بقرب خطبتي وصلاة الجمعة، يتكاثف الدأب والحركة والبيع والشراء. كانت زنقة سوق الجمعة من أرقى الزنيقات[1] في المدينة، لقربها من الجنينية، قصر الحاكم، ولمجاورتها قصور الأعيان الواقعة على جانبيْ زنقة العرائس الجميلة. كلَّما ضاقت بي السُّبل ذهبت عندي سيدي حمدان بن عثمان خوجة، وغرقت للحظات في كتبه ومخطوطاته. كنت أساعده في صياغة مرآته باللُّغة الفرنسيَّة، بحيث كانت الكثير من الكلمات تخون من حين للآخر. من حين لآخر يسألني وهو يضحك ضحكته الطيِّبة:

(1) الأزقة.

ـ كنت أظنُّني أهمّ رجل في المدينة من يُتقن اللُّغة الفرنسيَّة، ولكنِّي أمام شخص آخر يُتقن أكثر من ستّ لغات. عظيم. مكسب. من امتلك لغة أمن شرّ قومها.

ـ وتعلَّم منهم الشيء الكثير. العائلة كلُّها تعرف اللُّغات، ربَّما الأصول الأولى لها دور في ذلك وربَّما الصدفة أيضًا. قدري قادني إلى تعلُّمها من بحَّار قبل أن أرث عن جدِّي الترجمة. كنت ترجمانًا في ميناء الجزائر.

ـ هل قرأت المرآة.

ـ طبعًا، يا سيِّدي، قرأت ما أعطيته لي. أنت لم تقل إلَّا الحقيقة التي لن يرضى عليها لا قومك، لأنَّك سلكت مسلك العاقل أمام الهزيمة، ولا أعداؤك لأنَّك اخترت أن تقول الحقيقة. تابعت مرافعتك مع الماريشال كلوزيل. يشكِّكون في ملاحظاتك وأفكارك حول عدد سكان بايلك الجزائر، وفي وفائك.

عندما يصاب الإنسان بالعمى، لا خيار لنا أمامه. مرجعه في ذلك معروف: القوَّة. لهم سندهم في مؤرِّخين مثل لوجييه دو تسي، وشاو[1]. وحتى الذين جاؤوا بعدهم وقرأتهم، ولم يكونوا أحسن من السابقين.

ـ من أمثال شالير وجوشيرو دو سان دوني[2]؟

ـ تعيش. بالضبط. يحاسبونني في مالي الذي سرقوه أو في صداقتي مع البايات مصطفى وعلي أو حسين. يلومونني في حبِّي لأحمد باي الذي قاوم وحيدًا طغيانًا قاتلًا. لقد كسروا كلَّ شيء وهم بصدد كسر ما تبقَّى من نظام اجتماعيّ، كان في إمكانهم أن يستغلُّوه لو كانوا متبصِّرين، ويربحوا

---

(1) Laugier de Tassy et Shaw.

(2) Shaler et Juchereau de Saint-Denis.

محبَّة السُّكان الذين تربُّوا على كره الأتراك. لكنَّ صاحب القوَّة أعمى. سيصنعون منهم، أعداء مؤكِّدين. وماذا فعلت بالبيت؟

ـ ما يزال وضعه كما هو. قرأت ما كتبه جدِّي.

ـ من ناحية الحقّ، هو بيتكم. من ناحية الزمن، أصبح ملكًا لغيركم. تحتاجون إلى نظام عادل جدًّا يقبل بتعويض السكّان ليرجع لكم بيتكم؟ على كلّ حال كلُّ شيء تغيَّر الآن. سيلحق بغيره من الأملاك التركيَّة التي أصبحت تابعة للجيش الفرنسيّ.

ـ 3 ـ

كأنَّ المرحومة أمِّي هي من ورَّطني في هذا كلّه. لم تكن لديَّ أيَّة رغبة في معرفة تاريخ البيت الذي كنَّا نسكنه، لكن مع إصرارها اليوميّ جرَّتني نحوها، قبل أن تضع أناملي المرتعشة على أحد أجمل أسرارها الحيَّة: مخطوطة جدِّي غاليليو. لا أعرف الشيء الكثير عن هذا البيت إلَّا ما روته لي أمِّي عن جدَّتي سيلينا المدفونة بجوار والدها وجدِّها. قالت لي يومها إنَّها تحفظ القصَّة عن ظهر قلب، وكانت تخاف أن لا أكبر بسرعة لكي تضعها في قلبي ودماغي وجسدي، وكلّ حواسّي. الحواس مثل الذاكرة، هي أيضًا أمكنة لتخبئة عطر وملامس هسهسة الأسرار. طلبت منِّي أن أدوِّنها في الكرَّاسة الواسعة التي أخرجتها من مدافن الجنان، أو ما تبقَّى منه، من تحت شجرة السرو العملاقة والوحيدة، ووضعتها بين يديَّ كمن يضع كنزًا ثمينًا يخاف عليه من التلف. قالت تصحّح ما سمعته ولم تقتنع به: هذه الدار دارنا. خلقوا لها تاريخًا لم يكن لها في أيّ يوم من الأيَّام. سرقها القتلة والانكشاريّون.

كانت أمِّي محقَّة بالسليقة، فيما كانت تردِّده دائمًا، لكنَّها كانت أيضًا مخطئة في الكثير من قناعاتها التي كانت تحتاج إلى وقفة. كلّ

أبحاثي التي أجريتها بيَّنت لي ارتباك ما سمعت بعد سنوات كثيرة. خطأ سُمِّي البيت الأندلسيّ بدار لالة نفيسة. لالة نفيسة سكنته بعد زمن طويل، ولم يؤل لها إلَّا بعد موت لالة خداوج الكفيفة. الناس أحيانًا يقولون أيّ شيء من دون تبصّر. لم يكن الأمر يحتاج إلى ثقافة خارقة، فقد تأكَّدت من هذا بسرعة، من مختلف الروايات التي بحثت عنها، أو تلك التي وصلتني، وحتى من الوثائق المتوافرة التي سلّمتها لي أمِّي وهي مرعوبة من فقدانها قبل موتها. كانت المسكينة كالذي يحمل على عاتقه وعدًا عظيمًا يخاف من عدم تنفيذه. سلسلة متوارثة عن بيت شهد أيَّام عزّه ولحظات انكساره. بيت نشأت فيه الأنوار والجنون والدم. بيت تجاورت فيه الملائكة بالشياطين، الطيِّبون بالقتلة، الأبرياء بالمجرمين، الظالمون بالعادلين. كان من الصعب عليَّ إقناع والدتي المسكينة بأنَّ في البيت الذي كانت تقدِّسه وجعلتني أحبُّه بقصصها وأساطيرها، لا توجد فقط رائحة أندلس ضائعة استردّها أهلها بعد أكثر من ثمانية قرون، ولكن أيضًا عصابات من القتلة، من الذين أرعبوا البحار واليابسة. وكلَّما حدّثتها أنَّ في أجدادها لا يوجد فقط سيدي أحمد بن خليل، أو حنّة سلطانة التي حملت موسيقاها في كفِّها قبل أن يأكلها الطاعون الأسود لقمة سائغة، أو لالة مارينا الهشَّة التي كان يمكن أن تكون كاتبة عظيمة إذ بدأت بتدوين سيرة لها، سحبتها وراءها نحو البحر، أو نحو قبر في الريح. يوجد أكثر من هؤلاء: قتلة مختصُّون، وقراصنة، وقنَّاصة محترفون، وشفَّارون لا يحكمهم أيّ قانون.

– 4 –

قلتها لسيدي حمدان بن عثمان خوجة، بعد أن رويت له عن كلّ التفاصيل، إنَّ البيت الأندلسي، هو بيت أجدادي بلا منازع حتى ولو

استلمه بالقوَّة والعنف آلاف السارقين. فَقَد الكثير من ألقه وعنفوانه الكبير. حتى اسمه الأوَّل مات، أو كاد، ولم تعد تشهد عليه إلَّا الكتابة التي دوِّنت على بابه، والتي ما تزال شاهدًا على حنّة سلطانة التي كانت أوَّل من أعطاه الحياة والرُّوح. كلّ واحد يناديه باسم. دار لالة سلطانة، القصر العتيق، دار خداوج العمياء... سوق الجمعة أيضًا بدأ يفقد الكثير من ملامحه. قبل زمن قصير، كان مليئًا بالحركة والحياة وكان الناس يحبُّونه. سوق الزواوش لم يبق منها شيء وخسر روحه بالتغييرات الجديدة التي فرضت قسرًا على المدينة. كلَّما رأيته شعرت بقرابة غريبة منه وبرائحة لا أعرف سرّها، جاءتني ربَّما من أمِّي أو من جدَّتي سيلينا، أو حتى ما كان يحكيه لي سيدي حمدان في خلواته، في عمق القصبة. نورِّث أحيانًا الروائح أيضًا. البنايات التي صعدت من هنا وهناك لم تأكل الفحص بعد، ولم تغطِّ البحر عنّا. من يرى البيت من بعيد بفوانيسه العديدة، وألوانه المختلفة المرتبطة بطبيعة الزجاج الفينيسي الذي يغطِّي الشعلة، يظنّ أنَّه عرس بملايين الألوان اللَّيليَّة. خرافات كثيرة ألحقت بالبيت، وأمنيتي أن أجد الوقت الكافي لأصحِّحها وأدقِّقها. يقال، على الرَّغم من أنَّ هذه الرواية غير صحيحة، إنَّ خير الدين بربروس كان يريد الاستيلاء عليه منذ البداية عندما حُكِيَ له عنه في ربيع 1546، ومنذ أن رآه، مع أنَّه في ذلك الوقت بالذات، لم يكن قد أنجز. وثائق جدِّي تؤكِّد على ذلك بما لا يدع مجالًا للشكّ. أعتقد أنَّها مجرَّد خرافات نسجها الناس في زمن ما، وقدَّموها لتبرير حالة من الحالات صرنا نجهلها مع الزمن بعد أن ضاعت بعض حلقات الحقيقة. على الرَّغم من القسوة العمرانيَّة التي جرحته في الكثير من الأحيان نازعة بعض أجزائه، وأعمدته وأقواسه وأسقفه، معوّضة إيَّاها بأشكال أخرى، تنسجم أحيانًا مع الشكل العامّ، وتتنافر أحيانًا بقوَّة، فقد ظلّ البيت حيًّا وحافظًا على قدر كبير من أصله الأوَّل. لا تزال أعمدته وأقواسه وفوانيسه شامخة وعالية، كتاج مضيء، يرصّع مقام

الولي الصالح، سيدي عبد الرحمن الثعالبي، الذي تعب من حراسة مدينة كثُر سرَّاقها.

– 5 –

ليست لنا أيَّة قرابة عائليَّة، لا من بعيد ولا من قريب بالخزناجي حسن باشا[1]، ولا تنتمي العائلة لسلالته التركيَّة، ولكنَّه هو الذي حمى العائلة من اندثار أكيد، بعد عمليَّة السطو على الدار من طرف دالي مامي الدمويّ. لا لوم على الخزناجي الذي كان يبحث عن قصر يؤمِّن فيه ابنته الكفيفة خداوج، بعد موته. فقد اشترى لها البيت الأندلسيّ وأهداه لها. لينسى البيت اسمه الأصليّ ويلبس اسم الزائرة الجديدة. كانت امرأة طيِّبة، ولكنَّها كانت غيورة جدًّا. خداوج هو اسم دلع عند سكان القصبة. كثيرًا ما تحوَّل التقليد إلى شيء غريب، إذ أصبح سكان المحروسة الأصليُّون، يطلقون اسم خداوج على أحلى بناتهم. وكثيرًا ما يكون اسم خداوج أيضًا معبِّرًا للزواج السهل، إذ كلَّما سمع الرجال اسم خداوج تأكَّدوا من أنَّه يحيل إلى أجمل بنت في العائلة، وقليلًا ما يخطئون في حدسهم. قصَّ عليَّ سيدي حمدان بن عثمان خوجة الكثير من القصص الغريبة التي فنَّدت هذا الرأي. أصبح اسم خداوج حيلة أيضًا مارسها سكّان المحروسة. كثيرًا ما سمُّوا بناتهم البشعات خداوج، فقط لضمان زواجهن. فالعاشق المتقدِّم لطلبهن لا يسأل كثيرًا عن شكل معشوقته، فهو يعرف سلفًا أنَّ الاسم يعوِّض عن كلّ شيء. العائلة لا تسمِّي ابنتها هكذا إذا لم تكن آية في الجمال.

ـ في القصبة نفسها، سنة قبل دخول الفرنسيِّين، حدثت مجزرة في باب الجديد. خطبوا المحروسة خداوج بنت باش طرزي. غطَّاها والدها

(1) كان وزيرًا للتجارة إبّان الحكم التركيّ في الجزائر، في القرن السادس عشر.

بكلّ أنواع الكتّان والألبسة النادرة. كان سيِّد الطرز، فشكَّل لها كلّ ما تشتهيه العين لدرجة أنَّها أثارت غيرة كلّ من حضرن العرس من النساء. وكانوا يخافون عليها من نسمة الصباح لرهافة بشرتها، وجمالها كنوّار اللَّوز. حتى سمُّوها لالة نوّار اللّوز وغنُّوا عليها: يا لالة يا نوَّار اللّوز... وجهك في السماء يبان لي مفروز. لكن في ليلة الدخلة، سمعوا عويلًا يشبه عويل ذئب في قفر: يا ويلي... يا ويلي... زوّجوني خداوج، لا هي ولا هي رجل. عندما سمعه أهله يندب، دخلوا عليه. ألبسوها حصيرًا وطردوها إلى بيت أهلها. الحصير كان يعني أنَّها ليست عذراء. فقتلها أهلها بدون أن يسألوها، ثمَّ وجَّهوا أسلحتهم نحو صدور أعدائهم. وانتهى الأمر بمجزرة.

ـ 6 ـ

إلى اليوم، لا أعرف بالضبط مدى صحة الحكاية عن سبب عمى خداوج! خداوج العمياء! الكثير من القصص المروية عنها جميلة، ولكنَّها غير صحيحة. ربَّما كنت قاسية عليها ولكن هذا هو إحساسي. أعرف أنَّها منذ أن دخلت القصر كانت كفيفة ولم تصب به لاحقًا، كما يُروى؟ سيلينا جدَّتي عندما تحدَّثت عنها لم تقل إنَّها كانت كفيفة، ولكن كلّ حديثها كان يصبّ في ذلك. لم تتحدَّث عن ماضيها أبدًا. فقد بقي مغلقًا كمحارة. لكنَّها كانت امرأة طيِّبة، لأنَّها كانت تترك جدَّتي مارينا تصعد نحو مقصورة الناظور، والبقاء هناك لحظات طويلة في مواجهة بحر لم يكن دائمًا سخيًّا. قبل أن يتغيَّر البيت نهائيًّا، ويضاف له طابق آخر، وتنزع عنه أجمل افتتان قبَّة الناظور التي كانت ترى جدَّتي مارينا البحر من خلاله، وتتأمَّل السفن الغادية والرائحة قبل أن تنطفئ في خليج الغرباء. أقول هذا الكلام، لأنَّ الأسطورة القديمة التي دأب السكّان على

نقلها للأجيال المتعاقبة، غريبة قليلًا، مفادها أنّ لالة خداوج كانت فتاة باهرة الجمال والحسن، وفقدت بصرها لإفراطها في استعمال الكحل، إذ كانت معجبة كثيرًا بنفسها. الرواية نقلت حرفيًّا الأسطورة الإغريقيَّة عن نارسيس. كانت خداوج تبقى الساعات الطويلة وهي تتأمَّل وجهها في المرآة، ثمَّ أصبحت شيئًا فشيئًا تتعرَّى لترى جسدها المنحوت بإتقان، وبلا زوائد أبدًا، بعد حمَّام حقيقيّ يصبح كلُّ شيء فيها متَّقدًا وحيًّا. تتلمَّس كلّ أعضائها عضوًا عضوًا. تتلذَّذ بنعومة أصابعها وهي تعبر بشرتها الناعمة. تتخيَّل يد فارس جميل يلمسها من أخمص قدمها حتى شعر رأسها، قبل أن تتوارى وراء غيمة البخار، وتنسى نفسها للحظات ولا تسمع ضجيج الكيَّاسات اللَّواتي يغادرنها فور دخولها في هذه الحالة. وعندما تنسحب الضبابة، وتهدأ، يقتربن منها. يلفلفنها في لباسها الحريريّ، ثمَّ يأخذنها وهي في حالة استسلام كلّيّ لحالة شبيهة بالموت، نحو سريرها. عندما تستيقظ، تكون رائقة إلى أقصى الحدود ودافئة في علاقاتها. لا أدري مدى صحَّة ما يُحكى عنها. ولكنّي لا أعتقد أنَّ المرآة هي سبب عماها. كان وباء الرَّمد قاسيًا معمِّيًا حينما لا يُداوى في وقته، بالأعشاب التي إذا لم يُحسن استعمالها، تؤدِّي بالمريض إلى العمى الكلّيّ. المؤكَّد هو أنَّها في نهاية حياتها أصيبت بالعمى الذي أقعدها نهائيًّا في البيت، ولولا عمر ونفيسة وشقيقتها، لانتهى أمرها إلى مأساة صعبة. من يومها سمِّيت دار لالة نفيسة التي أصبحت هي من يسيِّر البيت ويسهر على الاهتمام به. الزمن لم يطل في عمرها. في عام 1783، استأجر القصر، تاجر يهوديّ ثريّ ومفاوض بارع يدعى ميشيل كوهين بكري، قدم من مدينة جنوة الإيطاليَّة وفي قلبه رغبة في المقام الطويل في المحروسة، لأنَّ جزءًا كبيرًا من مصالحه كان يتمّ في المدينة. لم يجد أحسن من البيت الأندلسيّ، أو قصر لالة خداوج، فاكترى جناحًا فيه ليسكن فيه هو وأسرته فترة إقامته وامتحان حبّ المدينة له. نشطت تجارته، وزادت ثروته بشكل مدهش

من معاملاته الكثيرة والمتنوِّعة في تجارة الحبوب والخشب والسفن، صمَّم أن يبقى.

– 7 –

في صيف 1830، عندما دخل الغزاة الجدد على المحروسة، استولوا على كلّ المواقع والقصور، وضمُّوا إليهم قصر الداي في القصبة العليا، في المحروسة، وأخرجوا كلّ سكَّانه، ونهبوا كلّ خيراته التي لا أحد يقدر أثمانها وقيمتها. سيدي حمدان يحكي عن ذهب ومجوهرات لا تقدَّر بثمن. يقول إنَّ من بينها من عليه ختم جدي غاليليو وصاحبه ميمون البلنسيّ، لأنَّهما كانا سيِّدي الصنعة. حملة النهب طالت كلّ شيء، وبدا كأنَّ السرقة كانت فعلًا مشروعًا. فعندما استولى القادة العسكريُّون على البيوت، باعوا كلّ الممتلكات التي بداخلها، إلى رجل يُدعى بن دوران الذي اشترى كلّ الألبسة والمجوهرات بأثمان بخسة. اليهوديّ يعقوب بكري اشترى أيضًا من وكيل الخرج كلّ أثاثه الغالي مع الرهن، بعد أن أخافه بأنَّ الفرنسيِّين سيصلون إليه وسيأخذون ممتلكاته بلا أيّ ثمن. دفع جزءًا وضمن أن يدفع الباقي بعد هدوء العاصفة. بعد أن نُفي الوكيل إلى تركيا، ماتت معه بقايا حقوقه.

ـ رأيت ذلك بأمّ عيني ولم يُروَ لي أبدًا. أمَّا عن البيوت التي نُهبت، فحدِّث ولا حرج. لقد اختار العساكر الكبار أجمل المساكن واحتلُّوها. لم يكونوا يعرفون حتى كيف يقصُّون الأشجار، فدمَّروا أغلبها. سكني احتلَّه الجنرال H، بعد أن طرد خدمي وأقاربي. كان بيتًا جميلًا بناه أجدادي الموريسكيُّون بذوق رفيع وأنيق. جدِّي جاء مع الحملة الأولى التي غادرت أشبيليَّة بالقوَّة لأنَّها لم تقبل بالتمسيح. بعثت بابني ليرى

قائد الحملة الماريشال دو برمون[1]، لينفِّذ قرارات اتِّفاقيَّته مع الداي، من بينها صون الأرواح والممتلكات، لكنَّه لم يستقبله، ثمَّ توجَّه نحو الجنرال ثولوزان[2] الذي كان من القلَّة القليلة التي عرفت كيف تحمي الشرف العسكريّ الفرنسيّ، وسلَّمه وثيقة طرد الجنرال H، من سكني. وعندما سلَّمها للجنرال المعنيّ، مزَّقها وصرخ في وجهه: نحن سادة البلاد، وكلّ ما أخذناه في الحرب هو ملك لنا. بعد إخفاق ابني في مهمَّته، زرت الجنرال بنفسي. طلبت منه أن يسمح لي بالدُّخول وزيارة البيت والحديقة، طلب منِّي أن أفتح كلّ الخزائن أمامه، ففتحتها لكي لا يكسرها. كلّ الأشياء النادرة التي كانت تحويها من مجوهرات وأوانٍ نادرة كنت اشتريتها خلال رحلاتي المختلفة، أخذها وكأنَّها ملكه. أكثر من ذلك كلّه، أخذ الحصانين اللذين كانا بالحديقة وزجَّ بهما في حملة المدية مع الجنرال كلوزيل، عندما عاد إلى المحروسة، مات الحصانان من شدَّة التعب والأمراض، مع أنِّي كنت قد وضعت تحت تصرُّفه البيطريّ الذي كان قيِّمًا على صحَّة حيوانات الجنان. أرأيت يا ابني ! كيف أحمي بيتك وأنا قد فشلت في حماية ممتلكاتي؟ لقد وصل الأمر بهم إلى هدم الحيطان القديمة التي تحيط بالقصور والمدينة، بحثًا عن الكنوز التي يكون الأتراك والأغنياء قد خبَّأوها لحظة تأكُّد الهزيمة. لم يهتمُّوا لا لقدمها ولا لتاريخها.

ـ 8 ـ

لم يكن أمامنا إلَّا تحمُّل قسوة السرقة من جديد. تقول أمِّي إنَّهم عوَّضوا أهلي ، لكنِّي لا أعتقد. إقامتنا في البيت الأندلسيّ لم تطل بعد أن غادرها الأتراك، إذ سرعان ما عدنا إلى بيت الخدم الذي كان مفصولًا

Le maréchal de Bourmont. (1)

Tholozan. (2)

عن بقيَّة البيت، وفيه نوع من الاستقلاليَّة، وهي التي حمتنا من الاستيلاء الكلِّي على المكان. كانت عمليَّة تحويل الأماكن إلى إقامات أو إلى مستشفيات ومراكز عسكريَّة عادة جارية، انتفت فيها كلّ الأخلاق. تحوَّلت الكثير من المساجد إلى إسطبلات أو إلى مصحَّات. فقد حُوِّل البيت بطوابقه وتحسيناته، إلى أوَّل دار للبلديَّة في حقبة الاحتلال. الغزاة لما دخلوا المدينة من الغرب، أفسدوها، وتركوها تصارع أعمال النهب والسرقة مدَّة ثلاثة أيَّام كاملة، كما يقول سيدي حمدان بن عثمان خوجة، وما يؤكِّد على هذا الكلام هو اختفاء بعض التحف النادرة، التي كان عدد من المؤرِّخين والرحَّالة الذين زاروا المدينة قبل سقوطها، قد تحدَّثوا عنها طويلًا. من المفارقات أنّ عزيزة، وهي حفيدة التاجر اليهودي ميشيل كوهين بكري، والتي عملت مترجمة لدى الحاكم الفرنسيّ، كان ارتباطها بحبّ البيت ينقص كلّ يوم قليلًا، قبل أن تتَّخذ القرار النهائيّ وتختار المغادرة. قالت لن أبقى لحظة واحدة، في بيت مات فيه ناس كثيرون وسال فيه دم مظلومين، الصدفة فقط شاءت أن يوجد في المكان غير المناسب في اللَّحظة غير المناسبة. غادرت البيت، وربَّما كانت الوحيدة التي فعلت ذلك، واشترت غيره على مرتفعات المحروسة. كان بيتًا جميلًا، لم يمسسه أحد، بما في ذلك الفرنسيُّون. صنعتها واشتغالها في الترجمة مع الحاكم الفرنسيّ، التي مارستها، سمحت لها بحماية ممتلكاتها والحفاظ عليها.

ـ 9 ـ

منذ أن تحوَّل البيت لأَوَّل دار بلديَّة فرنسيَّة في المحروسة، خضع لتحويرات كثيرة امتزج فيها النموذج الغربيّ بالأندلسيّ. لكنَّ الأساسي فيه ظلّ على ما هو عليه. متكوِّن من ثلاثة طوابق تطلّ مباشرة على البحر،

وتستقبل كلّ فجر شروق الشمس بشكل كامل. أغنى ما في هذا البيت هو زجاجه المعشّق، ليفيترو[1] الذي يشبه زجاج كنائس فينيسيا. أختام المدينة موجودة عليه إضافة إلى تقنيات الصنعة التي لا تدع مجالًا للشك أنَّه متأتٍّ من هناك. نجد هذا النوع في قصر الباباوات في المدينة و في الكنائس التي ربطتها علاقة دينيَّة وثقافيَّة بفينيسيا. كلَّما تكسَّر زجاج نافذة، شعرت بأنَّ شيئًا لن يعوَّض أبدًا، وأنَّه ذهب بلا رجعة. ذاكرة هشَّة لم نعرف كيف نحافظ عليها. كان جدِّي غاليليو يعرف ماذا كان يريد. كلمته، لا أعرف إن كان هو قائلها، أم رُويت عنه، لأنِّي لم أعثر عليها في الوثائق القديمة، أو أنِّي بكلّ بساطة لم أرها: *على الشمس أن تنحني عندما تخرج لالة سلطانه في الشرفة، أو تطلّ من أعالي المشرّبية وهي تشكر عابر سبيل على حسن فعله*. كلُّ شيء صنع ليسرَّ العين ويدخلها في غمرة الحبّ والألق الكبير. الأرضيَّة مسجَّاة بالرّخام المشع، تنام عليه زرابيّ جاءت من أمكنة مختلفة من المعمورة. كانت المحروسة سوقًا واسعة، توفِّر كلّ شيء. ممرّ صغير موشّى بجداريات من الرَّخام المزخرف الذي يوحي بأناقة اليد التي لامسته ونقشته بشاعريَّة كبيرة، ربَّما يد جدِّي نديم، الذي رهن حياته كلّها لجدَّتي مارينا التي خانتها خفايا أشواقها ودفعت بها نحو البحر. أمَّا الطابقان الثاني والثالث، ففيهما مشرَّبية السلطان والشيطان معًا، وطقم كامل من غرف النوم والاستراحة والحمَّامات. يتوسَّط البيت، مثلما هو حال جميع دور المدينة الأندلسيَّة، فناء شاسع تزيِّنه فصيلة من الأقواس الرخاميَّة أبدعت الأنامل الحيَّة في بسطها ورصّها، لتعانق نافورة يتسلَّل منها ماء زلال، عندما يشربه العشَّاق يزداد جنونهم، كما يقول سيدي حمدان وهو يخطّ كلماته التي شاءها أن تكون مرآة لزمن

(1) وهو الزجاج الذي نراه في الكنائس وقد رُسمت عليه مختلف الأشكال. من الكلمة الفرنسيَّة Les vitraux.

ولّى ودخل في عمق الكتب، قبل أن يُنفى لتركيا هو بدوره ويعيش فقيرًا منكسرًا. استعيد كلماته التي لم تغادر لسانه أبدًا وهو يتكلّم عمّا حدث لهذه الأرض: الدُّنيا بنت كلب.

ـ 10 ـ

لعبة البيت لم تنته. بعد أن تمّ بناء بلديّة جديدة في الجزائر أكثر تجاوبًا مع وظائفها الإداريّة، تمّ إخلاؤها، وحُوِّلت بسرعة، في عام 1860، إلى إقامة ثانويّة للأمبراطور نابليون الثالث وزوجته أوجيني. فيها كان يستقبل أعيان المدينة وكلّ من يريد أن يحاوره من السكّان الأصليِّين للبلد أثناء زياراته المختلفة. من هذا المكان، نشأت فكرة دعوة الأمير عبد القادر لإدارة المملكة العربيّة الناشئة في بلاد الشام ومحيطها، لكنَّ اللِّقاء لم يتمّ لأنَّ معركة سيباستوبول[1] لم تترك فرصة كبيرة لنابليون للتَّفكير جدِّيًّا في المشروع. هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، ويؤكِّد بأنَّ اللِّقاء بين الأمير ونابليون تمّ في البيت الأندلسيّ، لكنّه ظلّ محاطًا بالسرِّيّة التامّة. ويقال أيضًا إنَّ الأمير طلب إعفاءه من مهمّة إدارة لم تعد تعني له الشيء الكثير بعد أن توجّه لكتبه وانغمس في صوفيّته. ولكن تحت إلحاح نابليون الثالث، افترقا على ضرورة التَّفكير العميق في المشروع قبل اتِّخاذ أيّ قرار قد يضرّ بالمصالح الفرنسيّة. لكنَّ الشهود الذين ظلُّوا أحياءً بعدهما، أجمعوا على أنّ موقعة سيباستوبول وضعت حدًّا لكلّ شيء وطمرت المشروع نهائيًّا.

---

(1) La bataille de Sebastopole.

الفصل الخامس

لمسة سيكا الناعمة

-1-

خريف هذا العام كان باردًا أيضًا.

استقبلني الموظَّف الجديد سامي، ثمَّ انطفأ. تأمَّلت بياض قاعة الانتظار في البلديّة، بدت لي واسعة على غير عادتها. ولا أدري لماذا بدت لي خالية جدًّا وبلا أيّ معنى، إذ منذ أن دخلتها وأُجلست فيها لم أرَ أحدًا، لا مسؤولًا ولا إداريًّا، ولا حتى الحاجب الذي كثيرًا ما أصادفه في البهو يركض بصينيَّته يحاول أن يستجيب في اللَّحظة نفسها لكلّ الطلبات.

تمدَّدت قليلًا. انتابني فجأة وجه ماسيكا، وبدا لي مليئًا بالرَّماد والذعر. عيناها حمراوان من كثرة الأدخنة. قبل أن ينسحب وجهها من المشهد شيئًا فشيئًا مخلِّفًا وراءه الصرخات الحادَّة التي ملأت الحيّ فجأة:

ـ حريق... حريق... هذه الدار منحوسة. منحوسة. منحوسة. اتركها يا عمِّي مراد، واذهب لأيّ مكان آخر، حتى لجهنَّم. حطّوا عينيهم عليها وقادرون على قتلك وليس حرقها. هم لا يريدون الحيطان لأنَّها لا تعني لهم الشيء الكثير. يريدون الأرض.

قال عليلو بومباتوميك، الذي غطَّت وجهه لحية كثَّة حتى غيَّبت ملامحه الطفوليَّة البريئة، وهو يضع إزارًا أبيض ينضح ماء على كلّ جسدي.

ـ لا تخف ياعليلو، لقد أخرجوني بالقوَّة. ها هم قد حوَّلوا البيت إلى رماد.

ـ أقسم أنَّهم هم مَن وراء العَمْلة، ولا أحد غيرهم. استغفر اللَّـه. صحيح أنِّي بلعت فمي، ولم أعد أتكلَّم كثيرًا، لكنِّي أعرفهم يا عمِّي مراد. أشمّ رائحتهم. رائحة الضباع لا تُخفى على أحد. ولا يهمّك يا عمِّي مراد، ربِّي خير منهم، والصاعقة ستدمِّرهم.

ـ حتى الآن يا عليلو وليدي، هذه الصاعقة أخطأتهم، ودمَّرتنا نحن.

كنت أرتجف على الرَّغم من النار التي كانت تتصاعد بقوَّة، ناشرة أدخنة سوداء، كأنَّ المحروق هو مصنع بلاستيك أو مواد كيمياويَّة. لم تعد الدار تهمّني بقدر ما كانت تهمّني المخطوطة. حاولت أن أدخل لكنَّ رجال المطافئ منعوني، وأكَّدوا لي بأنَّها ستكون بخير ما دامت مخبوءة في عمق الحائط، وفي الجانب السفليّ من البيت. كانوا يخفِّفون عليَّ آلامي التي شلَّتني.

لا أدري يومها من سمع عوائي الخفيّ، الملائكة أم الشياطين، اللَّـه أم قواه الخفيَّة المنافسة لسلطانة. لابدَّ أن يكون شيء ما قد حدث، إذ لا يمكن للصدفة أن تكون بكلّ هذه القوَّة وهذا النِّظام المحسوب بدقَّة متناهية. خرجت الأوراق بأعجوبة من عمق النار. كان وجه ماسيكا مليئًا بالرماد، تخترق ملامح وجهها ابتسامة فرحة كبيرة. لا أدري من أين جاءت ولا كيف طارت، وكان يمكن أن تُحرق وتتحوَّل هي إلى رماد، لأنَّ النار التي مسَّت الأشجار المحيطة ويباس الحديقة، اشتعلت بسرعة كبيرة. كنت مشلولًا ومعطَّلًا أمام مشهد الحرائق.

كانت ماسيكا مرهقة، ولكن سعيدة جدًّا. وجهها مليء بالرَّماد وبقايا خوف مسحته بسرعة فرحة النجاح. كان رجال المطافئ قد لفُّوها في بطَّانيَّة عسكريَّة، أردت أن أسألها ما الذي جاء بها إلى هذا الحريق، ولكنَّها سبقتني.

ـ عمِّي مراد... المخطوطة في أمان. سحبتها من مكانها.

ثمَّ أخرجتها من تحت ألبستها الخفيفة. ضممتها إلى صدري، وأتذكَّر أنِّي بكيت ولكنِّي بسرعة مسحت عينيَّ لكي لا يراني أحد أبكي، وعزوْت ذلك إلى أدخنة الحرائق. أردت أن أسالها، ولكنَّها سبقتني إلى الحديث. نسيت كلّ الحروق التي ختمت وجهها. كان عليلو مندهشًا. قرأت في عينيه رغبة مجنونة تأكله من الداخل، في أن يقول لها البسي الحجاب كعادته، ولكنَّ المشهد وخزرتي الحادَّة، جمَّدا لسانه في مكانه.

ـ كنت جاية عندك في الصباح كما اتَّفقنا. أنت قلت لي تعالي باكرًا قبل أن أنشغل مع البلديَّة واللَّجنة الوطنيَّة للآثار. وجئت. عندما رأيت الناس يركضون في كلّ الاتِّجاهات، ورأيتك تحاول إقناع رجال المطافئ للدخول لجلب أغراضك الثمينة، عرفت أنَّك تركت وراءك المخطوطة. ما أكَّد لي ذلك، أنَّك لم تكن تحمل أيّ شيء بين يديك. شعرت بك تبكي وتصرخ بأعلى صوتك. لم يكن أحد قادرًا على معرفة جرحك، ثمَّ رأيت ألسنة النار وهي تتصاعد عاليًا ملتهمة الحيطان والأشجار المحيطة بها.

ـ رميت بنفسك هكذا إلى التهلكة!

ـ ليس هكذا يا عمِّي مراد. أمر المخطوطة يعنيني. لم أفكِّر في أيِّ شيء آخر سوى في إنقاذك من موت رأيته وشيكًا. قفزت من جهة الحائط الخارجيَّة التي لم تكن النار قد وصلتها، ولم تكن قوات المطافئ قد طوَّقتها، وفتحت الكوَّة التي تطلّ على البحر من الجهة الخلفيَّة من الدار. ثمَّ تركتني أسقط داخل غرفتك. لم أضيِّع أيّ لحظة، إذ كانت النار قد بدأت تزحف.

وجدت صعوبة كبيرة في فتح الباب التي تخبِّئ فيها المخطوطة، ولكنِّي توصَّلت إلى فتحها بالطريقة التي علَّمتني إيَّاها، بعد أن أخذت المفتاح من المكان الذي رأيتك تخبِّئه فيه دائمًا. وحملت الربيعة التي كانت ساخنة، لأنَّ البيت من الجهة الأخرى كانت النار قد مسَّت داخله. عندما فتحت الباب الصغير، دخلت النار بقوَّة. حاولت أن أعيد غلقه، لكنَّ اللَّهب كان حارقًا. فكَّرت في النزول من الكوَّة، ولكنِّي لم أفكِّر في كيفيَّة الصعود نحوها؟ سحبت الطاولة التي تكتب عليها عادة، وخرجت من الكوَّة التي كانت النار قد مسَّتها وتركتني ارتمي في المنحدر بعد أن احترقت ألبستي التي كانت على ظهري. تمرَّغت عدَّة مرَّات، فانطفأت النار قبل أن يصل إليَّ رجال المطافئ ويلفلفوني بهذه البطانيَّة. لم أتحمَّل عندما رأيتك تتوسَّل رجال المطافئ بأن يتركوك تمرّ نحو الدار، لكنَّهم لم يكونوا قادرين على فهمك. لأوَّل مرَّة بكيت معك عندما رأيت دمعك ينزل غزيرًا على وجهك. لم تكن دموع الأدخنة. كانت دموعك الغالية يا عمِّي مراد.

مازلت إلى اليوم متردِّدًا في وصف هويَّة ماسيكا، وعاجزًا عن فهم ما حدث. هل هي صدفة الأقدار الجميلة؟ هل هو تخطيط الناموس الذي ارتبك كلِّيًّا ولم يفقد عناصر نظامه الجوهريَّة؟ لا أعتقد أنَّ ماسيكا مجرَّد صدفة طارئة. أكثر من ذلك، ملاك. ذكَّرتني فجأة بأنجيلو ألونصو الذي منح جدي غاليليو حياة أخرى كان يمكن أن تتوقَّف نهائيًّا في تلك الكنيسة الخربة. جاءه من صلب التوابيت وأدوات التَّعذيب المخيفة، ليقنعه بأنَّ الحياة ما تزال مستمرَّة وتستحقّ أن تعاش.

أنقذ رجال المطافئ ما استطاعوا إنقاذه من أثاث وأغراض بيتيَّة قديمة. في المساء كان المنظر كابوسيًّا. انتهى كلّ شيء. كان البيت مخرّبًا وكأنَّه تعرَّض لزلزال مصحوب بحرق وبفيضانات مدمِّرة. لقد أصبح كلُّ شيء أسود، أملس، وينزّ بالسَّوائل وروائح الرَّماد. في الكثير من المواقع،

تحوَّلت القطع البلاستيكيَّة الذائبة إلى غلاف سائل أفقد بعض الأجسام حتى أشكالها المعهودة. كان الناس يحيطون بالمكان، تقودهم أسئلتهم وفضولهم. هناك من كانوا فرحين لما حلَّ بالبيت الأندلسيّ، إذ إنَّ الجنّيّ اليهوديّ اللِّي جاي من اسبنيول، مات أخيرًا حرقًا. لا شيء يبيده إلَّا النار التي جاء منها. كانوا سعداء أنَّ الحيّ سيصبح، أخيرًا، حيًّا طبيعيًّا يعبره الناس ليلًا نهارًا بلا خوف ولا جزع من المفاجآت غير المحسوبة. لا أدري من كان وراء هذه الخرافات، ولكنِّي أعتقد أنَّها نجحت. أحيانًا، أتساءل إذا لم يكن هناك مَخْبَر سرّيّ يقوم بفبركة ذلك كلّه لأناس يحتاجونه؟!

عندما حاولت أن أعود إلى بيتي بعد الحريق، مُنعت من ذلك.

خرجت من البيت ومن دار الخدم شبه مطرود، على خلفيَّة التحقيق الأمنيّ في حادث الحرق. المكان أصبح يهدِّد حيًّا بكامله، كما يقول محافظ الأمن الوطنيّ، وكان عليَّ أن أقلِّل من تعنُّتي وتصلُّبي غير المجديين. وشمَّعت البلدية ومصالح الأمن الولائي، البيت، وحوَّطته كاملًا، بما في ذلك دار الخدم، بسياج معدني يمنع الدخول إلى المكان، خوف انهيار المبنى. أو على الأقلّ هذا ما كتب على الكارتون الذي وُضِع على واجهة البيت.

كانت قاعة الاستقبال فارغة.

سألت الموظَّف الجديد سامي، عن السي الطيِّب الهامل الذي كنت أعرف أنَّه يحضِّر لمناقشة الدكتوراه في التسيير الإداريّ، ومغادرة منصب عمله في البلديَّة الذي لم يعد يفيده في أيّ شيء. أحلامه كانت أقوى من أن تحتويها الإدارة. تشغيل الشباب. ميزريا[1] مقنعة. كما كان يردِّد دائمًا.

فوجئت بما رُوِي لي عنه. قيل إنَّه خرج ذات فجر ولم يعد. لم يأخذ الشيء الكثير معه، نقَّالًا، ولباسًا خشنًا في حقيبته اليدويَّة وألبسة داخليَّة،

(1) من الكلمة الفرنسيَّة Misère.

وكتابًا في التسيير الإداريّ جاءه به أحد الأصدقاء من باريس. ثمَّ استقلَّ سفينة مع البحَّارة. قيل إنَّه حدَّث والديه من مايوركا، أو من جزر الباليار. في روايات أخرى، ربَّما كانت أدقّ لأنَّها نابعة من زاوية جاءني بها سليم وقد كتب في جريدة **الحقيقة الوطنيَّة**، في الصفحة ما قبل الأخيرة المخصَّصة للوفيَّات والمفقودين على مرَّتين:

خرج الشاب الطيِّب بتاريخ.... الرجاء من كلّ من رآه أو التقى به أن يتَّصل بمقر الدائرة الأمنيَّة القريبة منه، أو يتَّصل بمقرّ البلديَّة بالبرج. أو يخبرنا على الرَّقم التالي. واللّـه لا يضيع أجر المحسنين.

وأعيد نشر الخبر بصيغة ثانية مخالفة قليلًا للأولى، في جريدة الشاهد، الأكثر توزيعًا في المدينة وفي البلاد، بالصيغة التالية:

خرج الشاب الطيِّب بتاريخ.... الرجاء من كلّ ما رآه أو التقى به أن يتَّصل بمقرّ الدائرة الأمنيَّة القريبة منه أو يتَّصل بمقرّ البلدية بالبرج. أو يخبرنا على الرَّقم التالي... علمًا بأنَّ العائلة خصَّصت قيمة ماليّة لكلّ من يأتيها بخبر موثَّق عن مكان تواجده. واللّـه لا يضيع أجر المحسنين.

لا أدري ما الذي ذكَّرني بجدَّتي مارينا الطيِّبة التي مرت على الدُّنيا كلمح البصر. لقد اختفت ولا أحد يعرف بالضبط مكانها، ولم تترك وراءها أيّ أثر. انطفأت مارينا في ذلك الشتاء البارد بعد أن خلَّفت وراءها ابنتها الوحيدة سيلينا وزوجًا مخصيًّا فقد أيّ رغبة في الحياة. فقد قضت ليلة بكاملها مع سيلينا وهي توصيها، وتجمع أوراقها كمن يسافر بعيدًا نحو بلاد أخرى. لا أحد يعلم كيف رجع لها عقلها، وكيف غادرت مقصورة الناظور، وكيف انسحبت على رؤوس أصابع رجليها؟ حتى البحر الذي يمكن أن يكون قد خبَّأها بموجه، لم يفضِ أبدًا بسرِّه. الكلّ يجمع على أنَّها كانت تكتب كتابًا كبيرًا عن كلّ ما أحاط بأهلها

من ليال مغلقة، ولكن لا أحد يملك ورقة وحيدة لذلك، باستثناء فقرات هُرِّبت على لسان ابنتها سيلينا.

ـ تشرب شي عمِّي مراد.

قال الحاجب وهو يلعب بصينيَّته في يده كالعادة. تبدو على وجهه علامات الراحة مع الصينيَّة.

ـ قهوة إذا شئت. يكثِّر خيرك.

ـ حاضر يا مولاي. في الحين. شبّيك لبّيك...

أخرجني الحاجب بمرحه الدائم من دائرة الرَّماد، ليرميني من جديد في هذا الفضاء الواسع الذي بدا لي بليدًا وبلا معنى. عادة، الناس لا ينتظرون، يحلُّون مشاكلهم خارج قاعة الانتظار، والبؤساء ينتظرون في الخارج حتى يُنادى عليهم، فيمرُّون مباشرة نحو المصلحة المعنيَّة.

لم أكن أنتظر الشيء الكثير من وراء الاجتماع. كنت مدركًا أنَّ أمر البيت انتهى، وكان عليَّ أن أعيش حالة حدادي وحدي، لأنِّي ربَّما كنت الوحيد، في هذا الفضاء الغريب، من كان يسكنه دمار بلون الرماد. فقد شُمِّع البيت، وسُيِّج كلّ محيطه، ولم يعد هناك ما يمكن انتظاره من أيَّة لجنة كانت. الأخبار التي تقوَّت في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر الذي صحب الحرق والدمار الذي لحق بالبيت، كانت متحوِّلة مثل الجوّ؟ كلّ يوم أسمع خبرًا جديدًا. البعض يقول بأنَّ الحريق سرَّع من اتِّخاذ القرار والفصل النهائيّ في النزاع، وأنَّ اللَّجنة الوطنيَّة لحماية الآثار من التلف، لم تكن إلَّا شكلًا خارجيًّا. قوقعة فارغة، وذرّ للرماد في الأعين. الأرض والحديقة والبيت قد بيعت كلّها، بما عليها لمستثمر أجنبيّ مع مستثمرين وطنيِّين، يريدون أن ينشئوا أكثر من خمسة أبراج في كبريات المدن، أهمُّهما البرج الأعظم في العاصمة، أكبرها وأكثرها اتِّساعًا. ستستلم تسييره ثلاث مؤسَّسات أميركيَّة،

فرنسيَّة، ومؤسَّسة وطنيَّة مختلطة بين القطاع العام والخاصّ. التنفيذ سُلِّم للصينيِّين، أكثر شركات البناء شطارة والتزامًا تواريخ التسليم. هناك أيضًا من يقول إنَّ الدولة استعادت البيت الأندلسيّ من جديد، وستحوِّله إمَّا إلى متحف للفنون الشعبيَّة، أو إلى ديوان حقوق التأليف والحقوق المجاورة. وقد تحوِّله إلى دار للموسيقى التقليديَّة بعد ترميمه كلِّيًا وإعادة تهيئته. وهناك خبر آخر يقول بأنَّ هناك شركتين عالميَّتين تتباريان للحصول على إذن هدم البيت وتحضير الأرضيَّة. للهدم سوق أيضًا. البيت يعجّ بكلّ أنواع الجنون والشياطين والعفاريت والأرواح الشرِّيرة، ويحتاج الأمر إلى شركة بلا رحمة، لمحوه من الجذر. حتى إصلاحه لم يعد واردًا. يبدو أنَّ تقرير اللَّجنة بإزالة البيت من الوجود نهائيّ ولا رجعة فيه. المطلب حكوميّ وشعبيّ وصحيّ وأمنيّ. لا شيء ينفع إلَّا الحلّ الراديكالي والنهائي. محو أيّ أثر لمشكلة دامت طويلًا، وفضاء أصبح فيه الجنّ اليهوديّ اللِّي جاي من اسبنيول، سيِّد الأمكنة. جنّ حقود، يتظاهر بالحبّ قبل التمكُّن من أرواح الناس، بحيث لا يغادرها إلَّا إذا سحبها من أصحابها. الناس، في الحيّ، يعيدون دائمًا جرد قوائم المقتولين بشكل غامض، وينسون أنَّه قبل الجرائم، كان البيت أيضًا مكانًا للحبّ والراحة، وشهد أجيالًا عظيمة، مليئة بالحياة، مورس عليها الظلم وظلَّت متشبِّثة بهذه الأرض ولم تتنازل عنها أبدًا. في الأخير، حتى في حالة صحَّة قرار الهدم، يحتاجون إلى طريقة خاصَّة للإتيان عليها، فالآليَّات الحالية عاجزة عن الدخول بين هذه الدروب الضيِّقة، ويحتاجون إلى آليَّات صينيَّة صغيرة قادرة على التزحلق على الطرقات الصغيرة، وصعود هذا المرتفع، للتمكُّن من البيت نهائيًّا.

كنت غارقًا في تأملاتي المحروقة عندما أيقظني سامي، الموظَّف الذي حلّ محلّ الطيِّب الهامل. لأوَّل مرَّة أرى وجهه الطفوليّ بالكامل. فاجأني وهو ينحني أمامي.

ـ عمِّي مراد ... اللَّجنة الوطنيَّة للتراث وصلت، وهي تنتظرك في قاعة الاجتماعات. إذا سمحت ننتقل إلى القاعة البيضويَّة.

ـ البيضويَّة... واش ماريكان؟

قلتها بسخريَّة مُرَّة. ابتسم الشاب بلباقة لم تخبِّئ تعبه:

ـ ماريكان... في التهدام والتدمير يا عمِّي مراد.

لم يكن في حاجة إلى الشرح، فهمت لحظتها كلّ شيء.

ـ شوف يا عمِّي مراد، أنا أحترم الدولة، لكنِّي أحمِّل هذه العصابات مسؤوليَّة ضياع كلّ شيء. هم من قتله. الطيب كان ناسْ ملاحْ. كرهوا له حياته. ويبدو أنَّنا كلُّنا سنلحق به. طاق على من طاق. اللَّـه يعينك عليهم يا عمِّي مراد.

ـ ولا يهمَّك يا ابني. كلُّ شيء أصبح رمادًا ومباحًا. حتى البيت احترق أو أحرقوه. ربِّي يعلم ما في السرائر. كلُّ شيء ممكن. شمَّعوه وأحاطوه بالتنك والسِّياج المشوِّك، ومنعوا الاقتراب منه. ليس المشكل في تهديمه ولكن في البدائل؟ البيوت أيضًا تموت عندما تنطفئ روائحها. لقد طغت رائحة الرَّماد على كلِّ شيء، وامتزجت برائحة الضباع.

ـ تفضَّل يا عمِّي مراد، سيلتحقون الآن بك في القاعة البيضويَّة. هذا مكانك، هنا بالضبط لمواجهتهم جميعًا، ربَّما استطعت إقناعهم. قل اللي في قلبك عمِّي مراد، على الأقلّ يتفادى الإنسان القنطة والغبن.

ـ ربِّي يجيب الخير يا ابني يا سامي ابني.

كانت القاعة مربَّعة وبيضاء مثل دار مباحث أو مستشفى، ولا يوجد فيها أيّ شكل بيضويّ، عدا المكتب الكبير، من الخشب العتيق، الذي احتلَّ وسطها، وربَّما من هنا تسميتها. وما كدت أسأل سامي قبل أن ينطفئ،

عن وصول اللَّجنة، حتى دخل الأعضاء متلاحقين مثل حلقات سلسلة مترابطة. بدأت أعدُّهم. لم أعرف فيهم إلَّا رئيس البلديَّة، ومسؤول الدائرة الأمنيَّة لمنطقتنا الذي زرته مرَّتين، آخرها كان عندما قتل الفينغا وعشيقته، التي لم أعرف اسمها أبدًا. الغريب أنَّهم عندما دخلوا وتدافعوا قبل الجلوس، لم يحيُّوا أحدًا. احتلُّوا أماكنهم بصمت. كنت أواجههم جميعًا، وأتأمَّلهم وأراهم. نظراتهم المنزلقة نحو الفراغ، كانت مرتبكة وهي مسلَّطة نحوي من دون أن تستقرّ على عينيَّ. من حين لآخر تتفاداني. كان الكثير منهم يقول في خاطره: هذا هو الربِّي الذي حرَّك الدُّنيا ولم يقعدها؟ فجأة غزغز الباب. دخل سليم بعد أن حيَّا الجميع، الذين ظلُّوا مكشّرين، بل زادت تكشيرتهم أكثر عندما رأوه. ثمَّ ذهب إلى مكانه حيث اسمه. انتابتني سعادة خاصَّة، إذ كلَّما كان سليم بجانبي، شعرت براحة كبيرة. الوحيد في العائلة الذي أشعر أنَّ فيه شيئًا من روح حنّة سلطانة وسيدي أحمد بن خليل غاليليو.

كنَّا وراء الطاولة البيضويَّة، وكأنَّ المسالة كانت تخصّ متَّهمًا وحيدًا هو أنا، البقية كلّها كانت تواجهني. نحنح الرجل الطويل والنحيف، إعلانًا بأنَّ الجلسة قد بدأت. لم يقدِّم أيّ شخص ممَّن كانوا يحيطون به. خمَّنت أن يكون رئيس الدِّيوان العقاريّ الجديد.

ـ باسم اللَّـه الرحمن الرحيم، والحمد للَّه ربِّي العالمين، والصلاة والسَّلام على أشرف المرسلين. وقل ما يصيبنا إلَّا ما كتب اللَّـه لنا. وبعد. قضيَّة اليوم هي قضيَّة السكن الذي كاد يؤدي احتراقه إلى كارثة. الحمد للَّه أنَّ رجال المطافئ، العين الساهرة التي لا تنام، كانوا هناك، في اللَّحظة المناسبة.

كنت خارج الدائرة، إذ لم أحسّ في أيَّة لحظة من اللَّحظات أن الكلام كان يعنيني من قريب أو من بعيد. تخيَّلتني تحت قبَّة مسجد في ريف معزول أو في صحراء ميِّتة.

واصل الرجل النحيف كلامه، متوجِّهًا هذه المرَّة نحوي:

ـ سيد مراد أربكت الدولة كثيرًا بقضيَّتك التي نريدها عادلة إلى أقصى حدّ ممكن، ولكنَّنا لا نريد أيضًا أن نماطل. لقد ضيَّعنا وقتًا كثيرًا. الدولة صبرت كثيرًا.

ـ اسمع يا سيدي. أنا أيضًا تعبت. البيت تحوَّل إلى كومة رماد، لا أدري إذا بقي فيه ما أن نسمِّيه بيتًا. أفضِّل الآن أن يفتح الأمن تحقيقًا حول الأيادي المجرمة التي امتدَّت له. أقول لكم لولا حفيدي سليم ما جئت، لأنَّه لم يعد لديَّ ما أطالب به. الدار احترقت وانتهى أمرها.

ـ لا يا سيِّد مراد. هناك أرض تنام عليها هذه البناية ونريد أن نتحقَّق من الوثائق التي ترتكز عليها ادِّعاءاتك، لأنَّك الوحيد من العائلة وحفيدك من يطالب بحقِّه، بينما تنازل الجميع لمصلحة الوطن المعطاء. وطن الشهداء.

ـ هذا الوطن أعرفه جيِّدًا وأحتفظ به في قلبي. أتركوا الشهداء ينامون قليلًا، لقد تعبوا في حياتهم وفي موتهم. وطني في جراحات جسدي. لو تفتحونها بصدق، ستجدون في كلّ جرح يختبئ تاريخ الذين مرُّوا من هنا. لكنِّي مثل أجدادي، تعوَّدت على أن أستر جرحي وأخبِّئ حبِّي لهذه الأرض في عينيَّ.

ـ هذا كلام يشبه الشعر يا السي مراد، ولكنَّه لا ينفع هذه الجلسة.

ـ هذا قلبي. لا أعتقد أنَّ فيكم من يفهمه، القلوب أصبحت اليوم عمياء.

تململت القاعة قليلًا قبل أن يتدخَّل سليم:

ـ شكرًا. اللَّجنة استدعت جدِّي، ونحن هنا، احترامًا للجنة المختلطة التي تريد أن تطَّلع على كلّ الوثائق قبل إصدار قرارها النهائيّ وتطوي الملف. لكن كما قال جدِّي الملف طُوِيَ من تلقاء نفسه. بعد أن أُحرقت

الدار، لا ندري إذا بقي هناك شيء يستحقّ الحديث عنه. نريد تقريرًا عن الجريمة حول الحرق، لأنَّنا لسنا متيقِّنين أنَّ الأمر جاء بالصدفة. التقرير الأمنيّ يقول إنَّ الحريق سببه صعقة كهربائيَّة، ممَّا أدى إلى الحرق. بعض الشهود يقسمون أنَّهم رأوا رجلًا يرمي شيئًا حارقًا ثمَّ ينسحب بسرعة. الشاهد موجود وتعرفونه: عليلو بومباتوميك.

كتم الجميع ضحكتهم. لكنَّ الرئيس كان أكثر صرامة.

ـ الشاب مهبول مكانه مستشفى الأمراض العقليَّة. وسنسعى لإدخاله حفاظًا على ما تبقَّى له من نباهة، وجوده حرًّا أصبح يهدِّد سكَّان الحيّ.

ـ هذه قضية يفصل فيها القضاء وليس اللَّجنة. هذه جريمة موصوفة في حقّ ملك عامّ أو خاصّ لا يهمّ، لكنَّه ملك. جدِّي يصرّ على شيء آخر، وقد أدلى بإفادته للشرطة ويمكنكم الاعتماد عليها، لديَّ نسخة منها. هناك جريمة قتل فيها رجل وامرأة داخل البيت قبل ذلك بفترة، أعني الفينغا وعشيقته؟ هل هذا كلّه لا يوحي بأنَّ هناك مافيا عقاريَّة تريد هذا المكان حتى ولو على جثث الناس؟

ـ أنت تعمل في الدولة، والكلام الزائد لا يخدمك يا سليم. المافيا في إيطاليا، في أميركا الأربعينيَّات، في بلادنا، الحمد لله، الناس تخاف ربَّها وتمشي الحيط الحيط.

التفت أعضاء اللَّجنة في شكل شبه فجائيّ وكأنَّهم كانوا ينتظرون ردّ فعل منِّي، ولكنِّي لم أتكلَّم ولم أضف أيّ تعليق عمَّا قاله سليم. قال الرئيس وهو يحكّ على جبهته:

ـ وصلتنا كلّ وثائقك القديمة يا السي مراد، واطَّلعت اللَّجنة المختلطة عليها، بما في ذلك التقارير الأمنيَّة. نريد أن نعرف إذا ما كان هناك شيء جديد تريدون الإدلاء به فقط. الباقي كما قلت ليس من اختصاصنا، ولو أنَّ

في اللَّجنة ممثِّلين عن العدالة والأمن والسلطات الولائيَّة والبلديَّة والجيش الوطنيّ الشعبيّ.

أخرج سليم من حقيبته حزمة الوثائق التي كان قد صوَّرها واحدة واحدة عندما استعار السكانير من صديقه الصحفيّ يوسف النمس. الملف كان منتفخًا بكلّ خططه وصوره. الأصول احتفظ بها كلُّها في البنك الوطنيّ، بعدما أصبحت التهديدات كبيرة، بما في ذلك المخطوطة التي اقتنع أكثر من أيّ زمن مضى بضرورة تسجيلها في سجل المتحف الوطنيّ.

تململوا في أمكنتهم، عندما وضع الوثائق المحزومة في شكل كتاب. من لحظة كتابتها، مخطوطة غاليليو، مرورًا بوثيقة موثِّق البحَّارة بينه وبين حميد كروغلّي، أختام جونّار التي تعترف له بحقّ التسيير والبقاء في دار الخدم، ووثيقة إعادة تسليم البيت بعد مغادرة الاحتلال.

تأمَّلتها اللَّجنة المختلطة ولا أدري إذا كانت قادرة على القراءة والتأمُّل للحكم عليها. كانت الأوراق ليس فقط لاسترداد المكان، ولكن لسجن كلّ أعضاء اللَّجنة بتهمة التَّعدِّي على أملاك الغير وحرمتهم.

قال رئيس الدِّيوان العقاريّ الذي وجد نفسه رئيسًا للجلسة:

ـ تختلي اللَّجنة للمداولة قليلًا.

لم أقم من مكاني. جاءني سليم وشدَّ على كتفي.

ـ أنت تعرف كلّ شيء يا جدِّي. ليكن. بذلت كلّ جهدك لإنقاذ المكان ولكنَّ الآلة الجهنميَّة كانت أقوى. سيضحّون بالدار مقابل ربح الأرض. كلُّ شيء جاهز للشركات المكلّفة ببناء البرج الأعظم. أنت قلت المافيا، ولم تكن مخطئًا، وأنا سبق أن قلت لك Une affaire d'Etat، ومع ذلك يبقى أمامنا القضاء الأعلى ورئيس الجمهوريَّة...

ـ لا تهتمّ يا ابني، أنا أيضًا تعبت، ولم أعد أملك القوَّة نفسها. يكفيني أنَّ مخطوطة الروخو ما تزال معي وقد نُزعت من فم الضبع. ماسيكا، ربِّي يخلِّيها، بفعلها هذا، أثبتت أنَّها لم تستسلم لآلتهم القهريَّة التي كانت تريد إتلاف كل الآثار.

دخلت المجموعة وعلى محيَّاها علامات الانتصار.

ـ شوف يا السي مراد. هذا هو القرار الذي اتَّخذته اللَّجنة وهو القرار نفسه التي ستبعث به للسلطات المعنيَّة التي يهمّها ملفّ هذا البيت لاتِّخاذ القرارات المناسبة. البيت احترق وانتهى أمره. لن نتركك في العراء. استنادًا إلى تاريخك النِّضاليّ الكبير الذي ترفض دائمًا الحديث عنه تواضعًا، اقترحنا أن تسلِّمك الدولة بيتًا يؤويك، وهذا أقصى ما يمكننا اقتراحه حتى لا تبقى محشورًا في مكان آيل إلى السقوط والزوال.

ـ يكثِّر خيركم.

لا أدري إذا قلتها سخريَّة أم ألمًا. في الحقيقة، انتظاري، كان أقلّ من ذلك بكثير.

ـ بالنِّسبة إلى الوثائق التي اطَّلعنا عليها كلّها، هناك مشكل كبير. الدار بدءًا من الفترة التركيَّة لم تعد ملكًا لكم، وأصبحت ملكًا لبحّار آخر.

ـ قرصان. مامي دالي، أخذها بالقوَّة. لم يحرق صاحب الدار، خصاه.

ـ أنت تقاطعني وأنا لا أستطيع أن أخبرك بما اتَّفقنا عليه. سألنا مستشارنا القانونيّ، فأبان لنا بأنَّ هناك قطيعات فقدت فيها الدار وضعيَّة الملكيَّة، آخرها كان في الفترة الاستعماريَّة عندما حوَّلها جونّار إلى دار للفنّ الأندلسيّ.

ـ وماذا عن الشهداء الذين سرقت منهم أرضهم فاستعادوها بعد تضحيات قاسية؟ هل هي أرضهم أم أرض غيرهم.

ـ أنت تكبِّر الأشياء وتضعنا في وضعيَّة نحن في غنى عنها. بالمختصر المفيد، دارك C'est du bien vacant, ni plus ni moins، درسنا كلّ ما وصلنا من وثائق ولا يوجد ما يثبِّت بدقَّة تملُّككم لها؟ ومع ذلك اخترنا القسمة العادلة. قسمة سيِّدنا عمر. ستستفيد من بيت حديث كما قلت لك، إضافة إلى قدر من التعويضات مثل بقية أفراد العائلة الذي تجاوزوا المائتين، هم استفادوا وانتهينا منهم. لم تبق إلَّا أنت يا السي مراد.

ـ ولكنِّي يا سيدي لست هنا من أجل التعويضات. حياتي تكفيني ولا ينقصني أيّ شيء. طلباتي في الحياة بسيطة. كنت هنا من أجل المحافظة على حياة مكان تريدون تدميره. قلت لكم خذوه وحوِّلوه إلى دار للموسيقى، الرسم، النحت، التراث، الآلات الموسيقيَّة، ولكن لا تهدموه فقط. ما يزال قابلًا للترميم.

ـ الدولة هي التي قرَّرت ذلك.

ـ الدولة تسمع، ويمكن إرجاعها لجادة الصواب. البيت محروق، ويمكنكم أن ترجعوه إلى أصله الأوَّل. أمامكم المعالم الألمانيَّة التي أحرقتها الحرب العالميَّة الثانية. كلُّها أعادوا بعث الحياة فيها من جديد، بما فيها البرلمان المدمّر مائة بالمائة.

ـ نحن في زمن آخر يا السي مراد.

لأوَّل مرَّة ينطق الرجل السَّمين. رئيس المقاولين الأحرار.

ـ صلاة العصر تداهمنا بقوَّة. كلُّ الناس يطالبون بالسوق الكبيرة. المول الذي يخفِّف من معاناة المواطنين ويدخلهم في العولمة التجاريَّة. المشروع ضخم وحاولنا أن لا يخرج من بين أيدينا. المنافسون في المغرب وتونس يتربَّصون بنا. المستثمر حاضر، وهو لا ينتظر إلَّا الموافقة لبدء الأشغال. هل تدري كم يد عاملة سيمتصُّها المشروع؟ أقول لك: في البناء

وحده، ما لا يقل عن خمسمائة عامل في ورديات ثلاث، من البنَّائين، والملحِّمين، والصبَّاغين، وعمَّال المصاعد. يمكنك أن تتخيَّل البقية. لسنا أقلّ من دبي، والرياض، والدوحة، وهونج كونغ، وأندونيسيا وغيرها. البرج الأعظم عندما يُنجز، سيكون به أكثر من عشرين محلًا، من المطاعم، والأثاث، والأسواق، والماركات العالميَّة. يمكنك أن تتخيَّل أيضًا عدد اليد العاملة التي سيمتصّها البرج عندما يُنجز؟ من عمَّال وحراس، وبائعات، ومسؤولات الصناديق الماليَّة، عمَّال التنظيف، حراس الباركينغ، مقسم التلفون، المطاعم والطبَّاخين، صالات الرياضة وتسريح العضلات... قد نستعين في البداية بالخبرة الأجنبيَّة، ولكنَّنا سنكوِّن حاجتنا من المختصِّين محلِّيًا، وربَّما سنصدِّر العمالة إلى غيرنا لاحقًا. شيء مذهل، لا يمكن للعقل أن يتخيَّله. يمكنك أن تلقي نظرة أخيرة على مخطَّط البرج الأعظم، فهو موضوع في المدخل بكلّ خططه وتفصيلاته.

ـ وعمَّال الرمال والإسمنت والمحاجر الكبرى، جاهزون لرفع التَّحدِّي.

لأوَّل مرَّة أنتبه إلى أنَّ أمبراطور الرمل، الحاج إبراهيم، كان مع اللَّجنة. فقد تغيَّر هندامه تمامًا. رمى كلّ ألبسته الشعبيَّة القديمة، وأصبحت تتدلَّى من عنقه كرافتة حمراء جعلت شكله أقرب إلى المهرِّج منه إلى الإنسان الجادّ.

صمتُّ. مخّي حُبس، لأنِّي وجدت نفسي في عالم لم أكن أعرفه أبدًا. عاد رئيس الدِّيوان العقاريّ ليأخذ الكلمة من جديد.

ـ يجب أن نعتبر أنفسنا محظوظين أنَّنا وجدنا مستثمرين يضعون كلّ أموالهم في مهبّ الرِّيح. لقد صبروا معنا ولا يمكن أن نظلّ نملي عليهم شروطنا. يكفي أنَّهم يستثمرون بأموالهم الخاصَّة التي وضعوها في بنوكنا.

ـ هناك دفتر شروط، ادفعوهم على الأقلّ إلى أن يحافظوا على البيت.

ـ يبدو أنَّنا سنظلّ ندور في النفق نفسه. هم أحرار. إذا رأوا أن يحافظوا عليه، فلهم ذلك. بصراحة، لا أعرف كيف يمكن لمستثمر أن يبني برجًا من مائة طابق، وكراجات سيَّارات تحت أرضيَّة ويحتفظ بدار محروقة؟ الترميم وحده، سيكلِّفه أكثر من البناء. لا أعتقد أنَّه سيفعل ذلك. بالمقابل وهذا سيسرُّك بكلّ تأكيد، فقد تدخَّلنا نهائيًّا في التسمية، وقُبِل بمقترحنا. بدل البرج الأعظم اقترحنا برج الأندلس.

صفَّقت القاعة وكأنَّها أخيرًا حصلت على ما كانت تريده، إلَّا أنا وسليم.

ـ أنت تعرف يا السي مراد أنَّ الأسماء وحدها تبقى والحجارة تموت. سيستمرّ البيت الأندلسيّ في عمق البرج الذي يحلّ كلّ المعضلات، الأسواق والسكن والمكاتب.

ـ برج الأندلس؟

ـ برج الأندلس!

لا أدري ما الذي دفعني إلى التوقُّف عند الاسم. صمتُّ قليلًا. شعرت كأنِّي حقَّقت انتصارًا، ولكنَّه بسرعة بدا لي وهميًّا.

ـ برج الأندلس؟ ألا يوجد مكان آخر لهذا البرج إلَّا هذا البيت؟ الذي يعذِّبني هو كيف أنَّ كلّ الأمواج العاصفة التي مرَّت من قبلكم على مدار قرابة الخمسة قرون، لم تتجرَّأ على التهديم، كانت، في أحسن الأحوال، تضيف له قليلًا لتضع ملامس زمانها، ولكنَّها احتفظت دومًا بالمكان حيًّا. ما الذي كانوا سيخسرونه لو هدموا البيت، فهم في النهاية حكام البلد؟

ـ قصدك أنَّنا أسوأ من الاحتلال؟

ـ لم أقل هذا الكلام، ولكنَّني حائر وقلق جدًّا.

عاد مرَّة أخرى أمبراطور الرمال، الحاج إبراهيم، للحديث، وهذه المرَّة بلغة تشبه درسًا حفظه قبل الدخول إلى القاعة البيضويَّة.

ـ باسطا خويا، نحن في زمن آخر سيقذف بالبلاد إلى عصر النور والعولمة القويَّة. العالم يسير بسرعة، إمَّا أن نلحق به أو نستسلم لطاحونته. ماذا بقي من ذلك البيت الأندلسيّ سوى خربة كادت أن تتسبَّب في حرق حيّ بكامله؟ لا شيء سوى الحجارة والأخشاب المسوّسة، والأتربة الثقيلة، والطوب والحشرات الضارّة؟ اللَّـه يهديك يا خويا مراد.

قمت من مكاني، لم أكن لا حزينًا ولا مصابًا بخيبة كبيرة. وكأنَّ كلّ ما يحدث أمامي سبق أن تدرَّبت على تقبُّله، أو كأنِّي سبق أن رأيته.

ـ يبدو أنَّكم اتَّخذتم القرار النهائيّ، وهذه الجلسة ليست إلَّا خضرة فوق طعام! على كلّ حال أنتم أصحاب الشأن. افعلوا ما تشاؤون.

ـ نفعل ما يشاءه القانون والعدل.

ردّ ممثِّل العدالة.

ـ القرار اتُّخذ ولا يمكن أن نؤخِّره مرَّة أخرى. المصلحة العامة تقتضي ذلك. وإلَّا سنفقد حتى المستثمر الذي لا ينتظر إلَّا الإشارة ليشرع في أعماله. الولاية، والسيد الوالي شخصيًّا، وبرعاية خاصَّة من مسؤول البلاد المفدّى، ستسلِّمك الدولة في القريب العاجل بيتًا في مكان يعجبك، يليق بمقامك وسنّك. البلاد لا ترمي بأولادها في الشوارع أبدًا. هذا ليس من شيم الثورة التي ضحَّت بمليون ونصف المليون شهيد!

ـ أكثر من مليون ونصف يا صاحبي.

ـ؟؟؟ ؟؟؟

اندهش الجميع، بما في ذلك سليم.

ـ أكثر... ثلاثين مليون يا صاحبي. نعم ثلاثون مليون ميِّت ينتظر فقط أن يقيَّد في السِّجلات ويوقّع تحته: مات يوم ولد.

عندما اختلطت الهمهمات في القاعة البيضويَّة، كنت قد غادرت المكان، ونزلت نحو شارع البحر. كانت بي رغبة كبيرة للمشي تحت المطر، ولكنِّي كنت متعبًا، منهكًا. طلبت من سائق التاكسي ذي الوجه الطفوليّ، أن يقطع بي طريق البحر من أوَّله لآخره، قبل أن يسير بي نحو بيت حفيدي سليم.

كان قرص الشمس الأحمر قد غرق في منتصفه في البحر.

نسيت فقط أن أقول إنِّي في لحظة خروجي، عند باب القاعة المؤدي إلى البهو الفارغ، عندما التفتُّ يمينًا بالصدفة، رأيت صورة ضخمة خُتم عليها البرج الأعظم، برج الأندلس، وهو يطلّ برأسه على البحر، وعلى عامَّة الناس الذين بدوا تحته مثل النمل الضائع.

ـ 2 ـ

مات البيت الأندلسي، واندفنتْ بعض أصدائه.

في ذلك الصباح البارد، الذي أصبح اليوم بعيدًا، وخفّ ثقله على القلب، نزلتْ ضبابة أعمت مرتفعات المدينة، قبل أن تبدأ في التحلُّل. لم يستطع سليم أن يتسلَّق بسيَّارته حتى الأعالي، كان كلّ شيء مغلقًا. الحواجز كثيرة والعلامات الحمراء لا تتوقَّف: **طريق مغلق بسبب الأشغال**.

السكن الجديد الذي نُقِلتُ إليه لم يكن مريحًا، ولكنَّه كان أفضل من العراء. عبارة عن مكعَّبات صغيرة بلا روح. كانت كافية للملمة أشيائي الصَّغيرة التي جمعتها طوال السنوات الماضية. على الرَّغم من جهد سليم وصديقته سارة وابنة أختها لويزة اليتيمة، التي جاء بها من الجنوب، على جعل البلكون في شكل حديقة بها الياسمين ومسك اللَّيل، وليمونة صغيرة اشتريناها جاهزة، وتفاحة قزمة قلَّماها من بقايا حديقة البيت الأندلسيّ، وكرمة بدأت تتمدَّد عبر الحائط الخارجيّ للبلكون وقد جاءا بها من تلك التي تظلّل النافورة في صحن الدار. من مزهريَّة معلَّقة في خيوط ماكرامي،

كانت تتدلّى نباتات العلّيق الأشبيلي. كان البيت يطلّ من جهة الجنوب على مرتفعات جبل الملك كوكو، ناحية محجر أمبراطور الرمل، الحاج ابراهيم، الذي أكل الغابة كلها. من وراء فجوة صخريَّة كبيرة، كان يندفع رأس البحر الذي يخترق اليابسة كالسيف الثقيل. كنت أجد بعض المتعة في ذلك المكان، ينسيني ثقل الخيبة ويعيدني في لحظات صفائي إلى الروخُّو وهو يضع أولى خطواته في أرض التيه والخوف.

على الرَّغم من ذلك كلّه، كانت تنقصني رائحة ما نشبت في أنفي منذ أن فتح والدي أمامي مخطوطة أجداده، التي لم يكن يعرف ما فيها سوى أنَّها وديعة وضعها جدُّه بين يديه قبل أن ينطفئ. لم يدر أين يضعها. احتفظ بها طويلًا في معطرته في عمق القصبة قبل أن تُهدَّم تاركة المكان للتخطيط الجديد للمدينة الذي اكتسح كلّ شيء، وحوَّل محلَّه ومعطرته إلى ساحة عامّة، في القصبة السفلى، على امتداد كنيسة القدّيس فيليب.

وأنا أتسلَّق المرتفع حاضنًا مخطوطتي التي استعدتها من البنك، لا أدري لأيّ سبب، باستثناء رغبتي في لمسها قبل أن تذهب نحو المكتبة الوطنيَّة. لم أكن أفكِّر في أيِّ شيء آخر سوى في تلك الضبابة الكثيفة التي ذكَّرتني بيوم وصول جدِّي إلى وهران وهو يتكلَّم عن قوَّة البياض المعمية للبصر عندما كانت تخترقها أشعة الشمس الصباحيَّة. غابت نداءات الطيور التي كثيرًا ما كان يحلو لها التغريد بين الأشجار في مثل هذه الأوقات. لم أكن أسمع إلَّا صوت الآليَّات القاسي الذي يملأ مخّي بعنفه، وهي تتآكل بحديدها المسنّن وتخترق قداسة المكان، تتلوها ارتطامات كأنَّ زلزالًا عنيفًا كان يأكل كلّ شيء. كلَّما سقط حائط، تبعه هدير غريب، لا أدري إن كان يأتي من البحر أو من مكان التهديم؟ كنت أشعر أنَّ في هذه المدينة التي بدأت تفقد ذاكرتها، كانت تنشئ نسيانًا جديدًا في كلّ حائط كان يتهاوى جزؤه أو كلّه. اخترقت سمعي المتعب التصفيقات الحادَّة التي كانت تتبع

الارتطامات وصرخات الأطفال: هوللي... هوللي... كأنَّ الناس كانوا أمام ماتادور في مواجهة ثوره، وكلَّما تفادى قرنيه الحادّين بأعجوبة، صرخوا بشكل جماعيّ: هوللي... هوللي... في النهاية لا أدري من كان تهاوى، الثور أم المتادور؟ أم كلاهما، وفي اللَّحظة نفسها؟

فجأة، عندما اقتربتُ أكثر من المكان، وتحلَّلت كتل الضباب، ظهر المشهد الكبير الذي لا حدود لضرره. تمنَّيت لو لم أره أبدًا في حياتي. كان نخبة من المسؤولين المحتفين باليوم الجميل وبألبستهم الأنيقة. ارتسمت أمامي وجوه كثيرة رأيتها مسطَّرة في خطّ واحد، رئيس البلدية الذي كان يحتضن الوالي وهما يصرخان بالهولا، نائب مسؤول المقاطعة العسكريَّة، يقال إنَّ المسؤول الأوَّل رفض الحضور لأنَّه لم يكن موافقًا على هدم الدار. أعضاء اللَّجنة بالكامل بوجوههم التي بدت فجأة ملساء ومسطَّحة. وجوه أخرى كان من بينها وجه بومباتوميك، عليلو وليد الحومة، الذي زادت لحيته حتى غطَّت وجهه كلِّيًا، وحوَّلته فجأة إلى إنسان بدائيّ كأنَّه خرج لتوِّه من مغارة ظلَّ فيها قرنًا من الزمن. كان يقفز في مكانه كلَّما نشبت الآلات الضخمة أسنانها في الحائط الهرم. فُجعت من ضخامة الماكنة. من أين جاؤوا بها وكيف مرَّروها عبر الأزقّة الضيِّقة؟ خمَّنت أنَّهم أدخلوها قطعًا مفصولة قبل أن يعيدوا تركيبها بعين المكان. كانت الآلة تعرّي البيت الأندلسيّ كمن يعرِّي جسد امرأة لاغتصابها. سقطت الإضافات السطحيَّة التي ألحقت بسهولة بمقصورة الناظور، تبعتها الأجزاء العليا والأعمدة الجانبيَّة التي أضيفت في العهد الكولونياليّ، ثمَّ الزوائد التجميليَّة التي جاء بها نديم، زوج مارينا بأعمدته ولوحاته الرخاميَّة، ثمَّ المدخل التركي الواسع الذي كان يصلح للدوابّ قبل أن يتحوَّل بعد ذلك إلى واقية للسيَّارت المتوقِّفة. ثمَّ تساقط الجزء الخلفيّ، وهو الأقدم الذي كشف عن كتلة بدت حجارتها عندما تناثرت، كأنَّها قادمة من العهد الرومانيّ. لم يكن هناك أيّ

حديد بها، إلَّا الأتربة والحجارة الصلبة التي التصقت ببعضها بعضًا حتى أصبحت كتلة واحدة متراصَّة. نباتات الحديقة وأشجارها اختلطت بالنافورة التي تكسَّرت إلى ملايين القطع الصغيرة، وبأسلاك المحيط، مكوِّنة كتلة كأنَّها بقايا قصف جوّي لحرب مدمِّرة أكلت كلّ شيء. لم يبق من الدار إلَّا جزؤها الأصغر المطلّ على البحر بينما اتَّسع الفضاء المحيط بها فجأة.

كان القتلة والمواطنون يجلسون في صف واحد، يصفِّقون مع بعض كلَّما سقط حائط أو انهارت شجرة قديمة. كنت أرى كلّ شيء، في عزلتي، في المرتفع الصغير المكوَّن من الأتربة التي تصلَّبت مع الوقت. جلست واضعًا رأسي بين يديَّ، إذ شعرت فجأة بدماغي يكاد ينفجر. كنت حزينًا متسائلًا عمَّا يمكن أن يربحه الذين يصفِّقون من غير المسؤولين.

أعتقد أنِّي يومها شعرت بشيء مهول يتجاوز تهديم دار فقط، ربَّما كان الأمر يتعلَّق بتهديمي أيضًا. كنت على مشارف النهايات والسقوط. انتابتني رغبة غريبة للعواء مثل ذئب هرم، مشى حتى كاد يموت من المسير، وعندما وصل إلى مرتفع الجبل، رفع رأسه عاليًا، وكلَّم اللّـه بالعواء علَّه يسمعه بعد أن نسيه داخل قفر اسمه المدينة.

كانت الجرَّافات القويَّة داخل المحيط الأمني المطوَّق برجال الأمن والإطفاء، تغرس أسنانها في كلّ جزء من الدار، كنت أراها جيِّدًا. حتى عندما دمِّرت مقصورة الناظور رأيت كلّ التفاصيل، وكيف تلوَّى الناظور ليتحوَّل إلى مجرَّد قطعة حديديَّة بلا معنى. ثمَّ وهي تتوغَّل بحقد غريب في صلب الأساسات القديمة، ثمَّ الأشجار التي كانت تندفع نحو الآلة جماعات جماعات بعدما حفرت من تحتها، قبل أن ترميها بعيدًا عن المكان.

انفجر قادوس الماء قويًّا، فصعد فوارًا عاليًا عدَّة أمتار، ربَّما كانت النافورة أو ما تبقَّى منها!

في لحظة من اللَّحظات، شعرت كأنَّ الأرض كانت تنزف وتنزّ دمًّا. قبل أن تسلّم نفسها لقاتلها. كانت هذه التربة تموت تحت الأسنان القاسية للآلة.

سمعت بعيدًا أو خُيِّل إليَّ، صخب الموج الذي كان يأتي قويًّا وساحقًا في شكل تسونامي، جارفًا في طريقه كلّ شيء، لا يفرِّق لا بين الأشكال ولا الحيوانات ولا البشر ولا الجماد. وسواحله الواسعة تحمرّ من فرط الأتربة التي نزلت بقوَّة نحوه.

كنت أريد أن أبكي. لأوَّل مرَّة أرى البحر من الأعالي بشكل غريب. ولأوَّل مرَّة أيضًا أدرك أنَّ البيت أصبح محاصرًا من كلّ الجهات بحيطان قاسية، وأنَّ ما كان يسمَّى حقولًا وفحوصًا، أصبح فيلات الواحدة تزاحم الأخرى، وحيطانًا إسمنتيَّة كبيرة وعالية متداخلة، تحوطها الأسلاك الشائكة مثل الثكنات العسكريَّة. تعطي الإحساس كأنَّ ساكنيه يستعدُّون لحرب مدمِّرة تتشكَّل بهدوء وسكينة في الأفق المظلم، مثل العواصف الرَّمليَّة.

جلست. وضعت المخطوطة بين رجليَّ. لم أستطع أن لا أنظر لآخر مشاهد حياتي التي تمنَّيت غيرها، وتركت عينيَّ تنزلقان نحو أفق آخر. بناية رشيقة تتنفَّس التاريخ وألق الحاضر، وصفٌّ من الأطفال يدخلون لتعلُّم الموسيقى في دار لالة سلطانة بلاثيوس. لكن ذلك كلّه كان مجرَّد غبار يعمي العين. غاليليو الروخُو كان هناك هو أيضًا، يخرج من تحت هذه الأتربة، مثله مثل الأشجار التي نُزعت من جذورها. رأيته وهو يبحث مع غيره من الناس التائهين، عن تفسير للغته المشقَّرة المعاندة، ينفصل باتِّجاه فجوات الدار وفراغاتها، ويكتب بالخيميادو المهرّب قرآنه وأحاديثه النبويَّة، ويكتب أيضًا شعره العشقي وقصائد حبّه، ويدوِّن قَسَمَه أمام محاكم التَّفتيش المقدَّس بأن يغمض عينيه ولن يعود أبدًا إلى هذه الأرض.

فتحت كرّاسته عن آخرها. هربت كلّ كلماتها وخطوطها من تحت بصري كقطيع من الغزلان الجافلة. لا أدري القوَّة التي حرَّكتني ولا القوَّة التي وضعت في يدي عود كبريت نحيف وقاتل. اشعلت النار في المخطوطة. كنت أريدها أن تموت بهدوء. كنت أعرف أنَّها مثل هيكل عظميّ قديم، لن تتأخَّر طويلًا في التحوُّل إلى رماد. فجأة حتى قبل أن تتحرَّك أولى ألسنة اللَّهب على الورق الجافّ، رأيت الحروف تنسحب بسرعة غريبة لم أفهمها، أو هكذا أحسست بها بعدما خطَّت النار طريقها في المخطوطة.

كانت نيَّتي منذ البداية مبيَّتة.

لا أدري ما الذي حدث لي قبل أن أشعل النار! ولكنِّي لأوَّل مرَّة أعطي الحقّ لكلام سليم الذي ظلَّ يركض معي، وفي غيابي ليمنع المجزرة التي كانت كل يوم تقترب قليلًا، وكأنَّنا كنَّا ندفع بها إلى الأمام بدل إبعادها:

«ـ يا جدِّي. أنت في زمن آخر وهؤلاء في زمن لم يبدأ بعد. ليست هذه إلَّا علاماته الأولى. ولسنا في النهاية إلَّا حطبه السخيّ».

من بين كلّ ما حدث، هزَّني عشاؤه الأخير قبل أن يهرب إلى كندا. جمَّد اللّقمة في حلقي.

ـ جدِّي... جدِّي... صحَّتك جيِّدة وأنا مطمئنّ عليك، ولويزة بنت أخت سارة تسهر عليك في كلّ شيء. هي يتيمة وطيِّبة. تعرف القراءة والكتابة، تقرأ لك إذا احتجتها. أرتِّب وضعي في مونتريال، فقد جاءتنا أنا وسارة موافقة على الهجرة. شهور قليلة وأعود.

ـ والمخطوطة؟

ـ رأيتَ بعينيك، رممتُ من حروقها، وهي الآن في قسم المخطوطات في المكتبة الوطنيَّة. سنعيدها إلى المتحف عندما تتوافر لنا وسائل الحفظ الضروريَّة.

ـ ... ...

اشتهيت أن أعثر على أسئلة أخرى أطرحها عليه، فقط ليتكلَّم ويحسّسني أنَّه ما يزال هنا، ولكنَّه هو أيضًا لم يجد ما يقوله لي. جملة واحدة لم أستطع كتمها، دارت طويلًا فوق لساني قبل أن تخرج:

ـ عندما يفكِّر حبيبي سليم في الخروج، هذا يعني أنَّ البلاد ليست بخير...

ـ أيّ خير يا جدِّي؟ أنت أعرف منِّي بالحال. دفَّعوني ثمن إزعاجهم. أقفلوا كلّ شيء في وجهي. حتى إنَّهم هدَّدوني بالجري نحو المحاكم، إن لم أوقف إساءاتي المتكررة لهم. ألبسوني تهمة تهريب الآثار. لولا إلقاء القبض على المهرِّب في الحدود التونسيَّة، كانوا أدخلوني إلى السجن. متأكِّد أنَّهم في المرَّات القادمة سيذهبون إلى أقسى من ذلك. على كلّ حال، أمامي سنة بكاملها قبل الاستقرار، أو التخلِّي عن فكرة الهجرة نهائيًّا.

فكَّرت أن أمنعه من السفر وأن أستعمل عاطفتي تجاهه لكسر جموحه، ولكنِّي تأكَّدت في اللَّحظة نفسها أنِّي كنت مخطئًا. جرّه نحوي كان يعني ببساطة قتله. ولم أكن مستعدًّا لفقدانه.

ـ حتى أنت يا سليم...

لا أدري كيف خرجت منِّي، ولا أدري كيف جاء ردّه باردًا وصادقًا، قبل أن يحوِّله إلى حالة صمت استمرَّت حتى النوم.

ـ حتى أنا يا جدِّي. باسطا؟ باسطا يا جدِّي مراد.

كنت منهكًا من مشاهد القيامة القاسية التي رأيتها قبل أن أرحل نحو الدار الأخرى. شيء غامض وحادّ في مذاقه، يشبه الموت كان يسدّ حلقي ويضيِّق من تنفُّسي. لا أدري إذا كنت أفكِّر أم لا، لكنْ ما حدث يبيِّن أنِّي

كنت في عالم آخر، غير هذا العالم السفليّ، وأنّي بالفعل كنت مسكونًا بجنّيّ البيت الأندلسي، ولم أتخلَّص منه إلَّا الآن. الجان أيضًا تموت مع الأجساد التي تسكنها أو الدور التي تختارها للإقامة فيها. مع صوت تكسُّر أخشاب البيت، وانثناء حديده وتفتت حجارته، كنت أسمع أيضًا تكسُّر جسدي المتواتر والسريع. كلّ المسافات ضاقت بيني وبين نفسي. ولم أعد أرى إلَّا البياض الذي احتلّني فجأة. لم أعد أحسّ بأيّ شيء، حواسّي تعطَّلت فجأة. حتى عندما أشعلت النار في المخطوطة، كانت كالحطب اليابس، التهبت بسرعة، ومسَّت النار أصابعي ويدي ولباسي. لم أحسّ بأيّ شيء.

لا أدري لحظتها من أين جاءت مرَّة أخرى، وكيف خرجت، كأنَّ قدرًا استثنائيًّا وضعها في المكان المناسب، في الوقت المطلوب من جديد. فجأة، رأيت ماسيكا تسحب المخطوطة المشتعلة في يدي، تحرق أصابعها الناعمة، وتمنعها من التحوُّل إلى رماد، بإطفائها بأصابعها الناعمة التي انتفخت بسرعة قبل أن تُردم المخطوطة تحت التراب، وهي تصرخ وتبكي، وجهها الملائكيّ مليء بالغبار والرماد:

ـ لماذا يا جدِّي تحرق نفسك وتحرقنا معك... باسطا يا جدِّي، باسطا؟

باسطا يا جدي؟؟؟

لأوَّل مرَّة أسمع هذا من ماسيكا... لا أدري من أين جاءت حالة الانتشاء، من الكلمتين المتعانقتين، من أنِّي أصبحت جدّها ومنها؟ أم من إنقاذ المخطوطة، وربَّما من إنقاذي هذه المرَّة أيضًا من حريق مؤكَّد؟ كانت آخر كلمة وآخر صورة لي لماسيكا بنت السبنيوليَّة وهي طفلة صغيرة، وهي تخرج المخطوطة التي دفنتها في التربة لإطفاء النار التي نشبت فيها، ووضعتها في صدرها، محروقة اليدين، لأنَّها حاولت إطفاء النار بيديها قبل أن تردمها في التربة، وقبل أن أمزّق قميصي وألويه على يديها المحروقتين.

بعدها رأيت ماسيكا امرأة ناضجة مليئة بالحياة. كلّ شيء فيها يثير دهشة اليد التي أتقنت صنعها، والمحبّة التي وضعتها في قلبها كنقطة نور.

هل أحببتها؟ عشقتها؟ اشتهيتها؟ لا أدري؟ ولكنّها كانت ظلّي.

أغمضت عينيَّ طويلًا لكي لا أرى الرّماد الذي ملأ وجهها مرّة أخرى، ولأتأكّد فقد أنَّ ما حدث لم يكن إلّا كابوسًا عابرًا. الدار لم تسقط. المخطوطة لم تتحوّل إلى رماد. الرائحة التي تملأ أنفي ليست إلّا عطر امرأة مرَّت بالقرب منّي كخيط الروح. الأهمّ من هذا كلّه، أنَّ اليد التي أنقذت المخطوطة لم تكن لا يد الصدفة، ولا يد اللّـه، وأصابع ماسيكا الناعمة لم تحترق أبدًا، ولم أمزِّق ثوبي لأضعه عليها.

كانت هناك في عمق الخراب، لا شيء كان يفصلني عنها سوى العمر الجميل والزمن الذي لا يرحم. اشتهيتها كثيرًا، ولكنّي عندما فتحت عينيَّ قليلًا، أسكتُّ شهوتي لها ودفنتها مع الأشياء الكثيرة التي نسيتها في الأعماق قصدًا، حيّة، في عزّ ألقها.

من بين كلّ الوجوه النسائيّة التي مرَّت عليَّ، وتركت ملمسًا دفينًا على حياتي، ظلّ وجه حبيبتي سيكا هو الأبقى والأنقى. ربَّما لأنَّها كانت صبيَّة، وقبل أن أفتح عينيَّ عليها، كبرت بسرعة؟ ربَّما لأنَّها كانت جميلة عندما اكتشفت ملامحها الناضجة لأوَّل مرَّة؟ ربَّما لأنَّ بها بعضًا من تفاصيل وجه حنّة سلطانة.

ربَّما لم تكن لا هذا ولا ذاك، لا هذه ولا تلك، ولكنَّها كانت حبًّا مستحيلًا لا يعرف سرّه الخفيّ إلَّا البحر ومقبرة خليج الغرباء التي تغيَّر اسمها، وأصبحت منذ مدَّة قصيرة، تسمَّى مقبرة ميرامار البحريَّة.

النهاية

باريس / الجزائر / طليطلة شتاء 2010